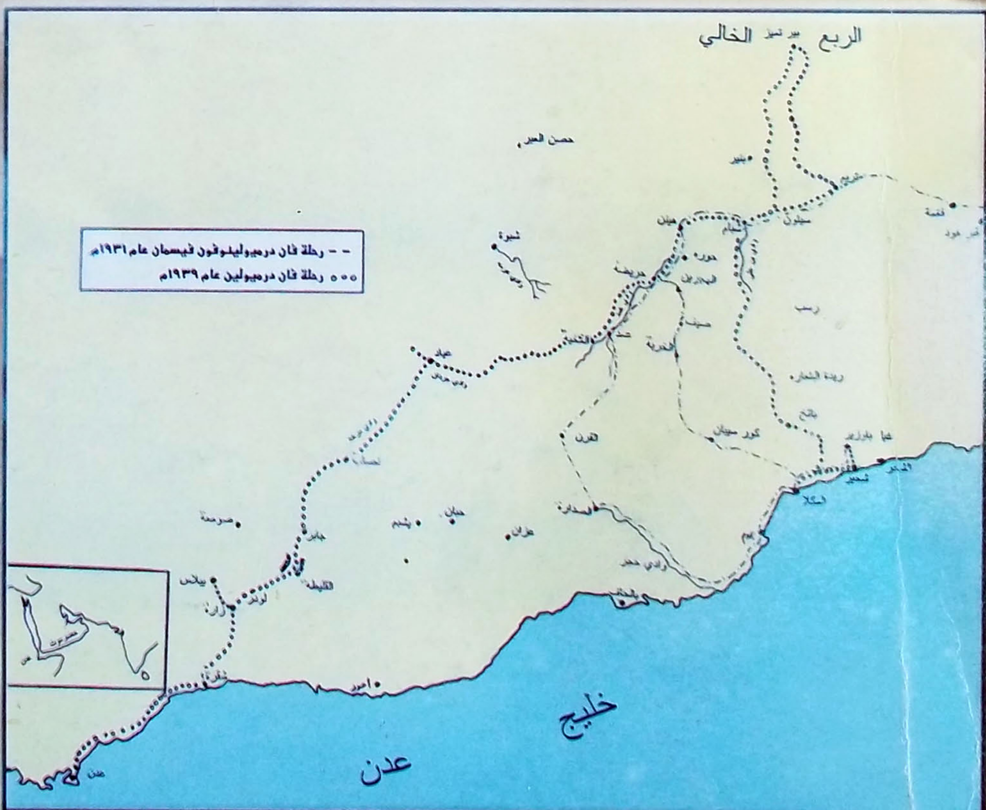
منشورات جامعة عدن

رحلة في جنوب شبه الجزيرة العربية

للرحالة الهولندي
فان درميولين

ترجمة وتقديم وتعليق
الدكتور/ محمد سعيد القدال
كلية الآداب - جامعة عدن



دار جامعة عدن للطباعة والنشر ١٩٩٩م

Aden to Hadramaut, a journey in South Arabia.
1948

من عدن الى حضرموت

رحلة

في جنوب شبه الجزيرة العربية

للرحالة الهولندي

فان در ميولين

قدم له : سير بيرنارد رايلي ــ

حاكم عام عدن : ١٩٣٧ ـــ ١٩٤٠

ترجمة وتقديم وتعليق

الدكتور محمد سعيد القدال

كلية الآداب ـــ جامعة عدن

١٩٩٩

المراجعة اللغوية : **الدكتور مبارك حسن الخليفة**

ساهم في مراجعة الترجمة : **الدكتور أحمد بن أحمد باطايع**

الدكتور محمد صالح بلعفير

طبع هذا الكتاب بآلة الأوفست الإلكتروني

ريزوجراف Risograph

الطبعة الأولى

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية (١٣٤)

دار جامعة عدن للطباعة والنشر

ADEN UNIVERSITY P.&P. House

الجمهورية اليمنية، عدن - مدينة الشعب، ص. ب. ١١٠١٦ ☎ ٣٦٠٠٨٧ - ٣٦١٣٥ فاكس

REPUBLIC OF YEMEN. ADEN. MADINAT AL - SHAAB P.O. BOX 11016 ☎ 360087-36135 FAX

المحتويات

تقديم الترجمة العربية

- **أما** آن الوقت لنعيد تقييم بعض الأفكار التي ترسخت لدينا وأصبحت مسلمات لا يأتيها الباطل من بين يديها ومن خلفها ، ونشحذ قدراتنا الأكاديمية ونظرتنا الموضوعية ونتحلى بالتروي ؟ أقول هذا لأن كتابات الرحالة الغربيين ، بل كل الحركة الاستعمارية يتم تناولها برد الفعل العنيف . إن الاستعمار بمختلف أشكاله ليس جمعية خيرية أو حركة اصلاحية ، وإنما هو نظام خرج من أحشاء الرأسمالية ، وسعى سعيا حثيثا لتحقيق أهدافها الاقتصادية والاستراتيجية والسياسية . ولكنه حمل معه أيضا بعض منجزات الثورة البرجوازية لا من أجل تطوير البلاد التي استعمرها ، وإنما لخلق مناخ مناسب يسهل له تحقيق أغراضه ، وليظهر في صورة مستساغة وربما لها بريق . لذلك نحتاج أن نتعامل مع الظاهرة تعاملا ديالكتيكيا وليس بانفعال أصم وبإعجاب يغشاه انبهار بليد . هل لا تذكرنا رفاعة الطهطاوي والأفغاني ومحمد عبده وطه حسين وكل رواد جيل الاستنارة ، وكلهم صادم الاستعمار ، ولكن لم تغب عنهم الجوانب المشرقة في الحضارة الغربية ؟ وهل لا تذكرنا مقولة نهرو الشهيرة :"كرهت الاستعمار وأحببت الإنجليز" ؟

- تقدم كتب الرحالة صورا شخصية حيّة لجوانب من الحياة في البلدان التي شاهدوها ، وهي بهذا تختلف عن كتب العلوم الاجتماعية ، وتشكل مادة خام للدراسات الأكاديمية . ولأن الرحالة من بلدان أجنبية ، وغالبا أوروبية، فإنهم ينظرون إلى مجتمعاتنا من زاوية تختلف عن الزاوية المألوفة لدينا التي توارثناها جيلا عن جيل .

- قام الرحالة الهولندي فان در ميولين بثلاث رحلات إلى حضرموت في الأعوام : ١٩٣١ ، ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ . ونشر كتبا عن الرحلات الثلاث . هذا بجانب رحلات إخرى منها رحلة إلى صنعاء . وقد قمنا بترجمة كتابه الأول ونشرت الترجمة عام ١٩٩٨ . ونقدم هنا ترجمة لكتابه الثاني لأنه يكمل مع الكتاب الأول صورة لحضرموت خلال عقد من الزمان ، لعلها تقدم مقارنة ذات مغزى . ويبدو أن تجربة المؤلف في الكتاب الثاني أكثر نضجا وعمقا من تجربته الأولى .

- أشرت في مقدمة ترجمة كتابه الأول إلى بعض الأسباب التي قادته للقيام بالرحلة . فلماذا هذه الرحلة الثانية التي قام بها قبيل اندلاع الحرب العالمية

الثانية بأسابيع معدودات ؟ أشار المؤلف إلى بعض الأسباب ، ويمكن أن نستنتج البعض الآخر دون الجنوح إلى الجزم .

- قال في مقدمة كتابه (ص ٩) :"كانت حضرموت هدفنا . وكان يفد منها وما زالوا يفدون رجال الأعمال من العرب الذين لهم مكانة متميزة جدا في مستعمرة هولندا في جزر الهند الشرقية ، والذين يلعبون دورا اقتصاديا هاما ... فكان من المنطقي أن تكون للهولنديين رغبة لمعرفة بعض الشيء عنها". فحضرموت ، كما يقول ، يأتي منها مجموعة صغيرة من رعايا هولندا ولكنها ذات نفوذ كبير . ولنا أن نسأل : ألم يكن هذا هو هدف الرحلة الأولى؟ فما هو الجديد الذي يريد أن يتعرف عليه الآن ؟

- وهناك هدف آخر نبع من فشلهم في الرحلة الأولى لاختراق منطقة عدن الخلفية ، فجاءت هذه الرحلة "لاكتشاف البقعة الغامضة من الجزيرة العربية". بدأت الرحلة الأولى من المكلا إلى وادي دوعن ثم وادي حضرمزت ، ورجع إلى المكلا عن طريق وادي عمد وريدة الدين ووادي حجر . وبدأت الرحلة الثانية من عدن إلى منطقتها الخلفية شقرة ولودر وممر الطلح ، ثم منطقة قبيلة جابر إلى نصاب وشبوة ، ثم وادي جردان وهضبة السوط وعقبة باتيس ، ووادي عمد وحريضة إلى وادي حضرموت ومنه إلى الجول الشمالي ثم إلى وادي بن علي إلى المكلا .

- وهناك هدف علمي . جمع بعض العينات النباتية والحشرية والجيولوجية، ورسم خرائط للمناطق التي لم ترسم لها خرائط من قبل .

- ولعل من أهداف الرحلة توثيق العلاقة بين الإدارتين الهولندية والبريطانية في المستعمرات . فكتب يقول :"وأنا على يقين من أن خيرا واحدا سوف ينبثق من شر هذه الحرب وهو اختفاء آخر الكراهية وعدم الثقة التي جاءت إلى شعبينا إرثا من الماضي ، حتى نستطيع أن نعمل سويا يدا في يد من أجل الجهد الحضاري العظيم الممتد امامنا . أقدم هذا الكتاب كمساهمة شخصية لإكمال الصداقة والتفاهم بين امتينا في المستقبل" . فالرحلة لها أهداف سياسية وكشفية وعلمية معلنة .

- هل هناك أهداف أخري يمكن ان تستشف من ثنايا الكتاب ؟ كانت الرحلة في مارس – مايو ١٩٣٩ ، وبعد أشهر اندلعت الحرب . فهل هناك علاقة ؟ ما إن بدات نذر الحرب تطل في الأفق ، حتى بدأت بريطانيا ترتب أوضاعها في المستعمرات . فاقتربت من القوى المؤثرة فيها . فاقتربت

من حزب المؤتمر في الهند ، ووقعت معاهدة ١٩٣٦ مع حزب الوفد في مصر، وسمحت بقيام مؤتمر الخريجين في السودان الخ . وهي تريد أن تضمن هدوء الأوضاع في عدن والمحميات لتدخل الحرب وظهرها مؤمن. فهل كانت رحلة فان در ميولين للتنسيق مع الحضارم نسبة لعلاقته الوثيقة مع بعض قياداتهم ؟ لقد طرحت هذا السؤال في مقدمة الكتاب الأول ، وها أنا أطرحه هنا للمرة الثانية ، دون أن اجزم فيه بشيء . ولكن السؤال يؤرقني . فالصدفة وحدها لا تكفي لتفسير الأحداث رغم أنها موجودة ، ولكن ليس وجودا مطلقا .

- الكتاب من بدايته حتى نهايته دفاع حار عن السياسة البريطانية في عدن والمحميات . وتحدث بإعجاب شديد عن إنجرامس والصلح الذي تحقق على أيامه ، على الرغم من أن الأساليب التي اتبعت لتحقيق ذلك الصلح لقيت معارضة حتى من بعض البريطانيين . وقام برسم صورة للأوضاع في المحميات الغربية وأخرى للمحميات الشرقية ، ليوضح الفرق الذي نتج من تطبيق ذلك الصلح . وفي غمرة حماسته للدفاع عن تلك السياسة أشار على الحضارم أن بلادهم ليس فيها ثروات تغري البريطانيين ، ونسي أن للاستعمار أهدافا استراتيجية لا تقل أهمية عن الأهداف الاقتصادية .

- أشاد بالسياسة الهولندية في مستعمراتها ، وما وفرته من فرص للحضارم لتنمية ثرواتهم وتحويل مدخراتهم إلى بلادهم . ويتحول المؤلف هنا إلى استعماري محترف .

- تعرض إلى قضايا تثير اهتمام الباحثين ، وتثير أيضا جدلا لا يخلو بعضه من حدة . فتعرض للهجرة الحضرمية وطبيعتها . لماذا وكيف خرجت تلك المجوعة من الحضارم من وادي حضرموت ووادي دوعن بالذات وارتادت أعالي البحار حتى الشرق الأقصى وأصبح لها نفوذ مالي وسياسي وثقافي ؟ وأرجع الظاهرة إلى سببين فقط هما الفقر والحروب . ولكن الظاهرة تحولت الآن إلى أيدي علماء أخذوا يبحثونها طولا وعرضا. فمنذ بروز علم الأنثروبولوجيا الاجتماعي زاد الاهتمام بظاهرة الهجرات . وأصبح تعبير الشتات (Diaspora) كثير التداول . وهو يعني في الأصل الشتات اليهودي بعد تدمير القدس في القرن الأول وانتشارهم في بقاع الأرض . وصار الشتات يعرف اليوم بأنه :"مجموعة من الأقليات العرقية التي هاجرت واستقرت في بلد آخر استضافها ومارست فيه نشاطا متنوعا وحافظت على روابط عاطفية ومادية متينة مع الوطن الأم" .

واهتمت الدراسات بالهجرات الحضرمية التي تختلف في بعض جوانبها عن الهجرات الأخرى . فقد خرج الحضارم من مناطق معينة من بلادهم ، وانحصر نشاطهم في المحيط الهندي وبلدان الشمس المشرقة ، مما جعل الرحالة البريطاني الشهير سير رتشارد بيرتون يقول :"من المعلوم أن الشمس لا تشرق على أرض لا يوجد فيها رجل من حضرموت" . والحضرمي شديد الارتباط بوطنه . فما إن يتوفر له المال حتى يعود إلى مدينته أو قريته ويشرع في تعميرها . وغالبا ما يتركون زوجاتهم في موطنهم ، مما يمتن من ارتباطهم ببلادهم . وما زال الموضوع يستهوي الباحثين .

- وفي سياق دفاع المؤلف عن السياسة البريطانية ، دافع بحرارة عن الحضارم الذين يؤيدون تلك السياسة . وركز على السيد أبوبكر بن شيخ الكاف . إن تعاون السيد الكاف مع الإدارة البريطانية تتجاذبه شتى الإتجاهات والمقاصد . على أن هناك حقائق نحتاج أن نقر بها . يرى السيد الكاف أن السبيل الوحيد لوقف الحروب القبلية الطاحنة التي تدمر البلاد هو تدخل سلاح طيران فعال ، والإنجليز أقدر من يفعل ذلك . والسيد الكاف يشتاق التحيث ويرتاد آفاقه . فقد شيد أول طريق للعربات من الساحل إلى تريم ، وجلب أول عربة للبلاد ، وأدخل أول خط للتلفونات ، والخدمات الطبية وجاء بالأطباء ، وساهم في تطوير التعليم . وعندما قابله مستر قريفث عميد معهد بخت الرضا في السودان عام ١٩٣٨ قال عنه :"أما السيد أبوبكر بن شيخ الكاف عميد أسرة آل الكاف التي تمتلك حسا اجتماعيا عاليا، فينادي بالتعليم الحديث على أساس قيمته الوطنية" . وقد أنفق السيد الكاف على تلك المشاريع من ماله الخاص ، حتى اعتبره بعض أفراد الأسرة خطرا على ثروتهم . ولم يجن من تعاونه مع الإنجليز مكانة ولا مالا . فقد كان يحظى بمكانة رفيعة حتى لقب بسلطان حضرموت غير المتوج ، وانساب المال من بين يديه متدفقا . فاتهامه بالعمالة لبريطانيا إتهام لم يعد بقادر على الصمود ويقف عريانا أمام الحقائق .

- تناول وضع اليهود الموجودين في اليمن . وكان اليهود في ذلك الوقت يتعرضون إلى محنة اشتدت وطأتها بعد هيمنة النازية في ألمانيا . كما اشتدت من الجانب الآخر الدعاية الصهيونية . إن الخلط بين التعاطف مع محنة اليهود من جانب والبرنامج السياسي للحركة الصهيونية من الجانب

الآخر ، يشوه مواقف كثير من الكتاب . وفان در ميولين أحد الذين وقعوا في تلك المصيدة .

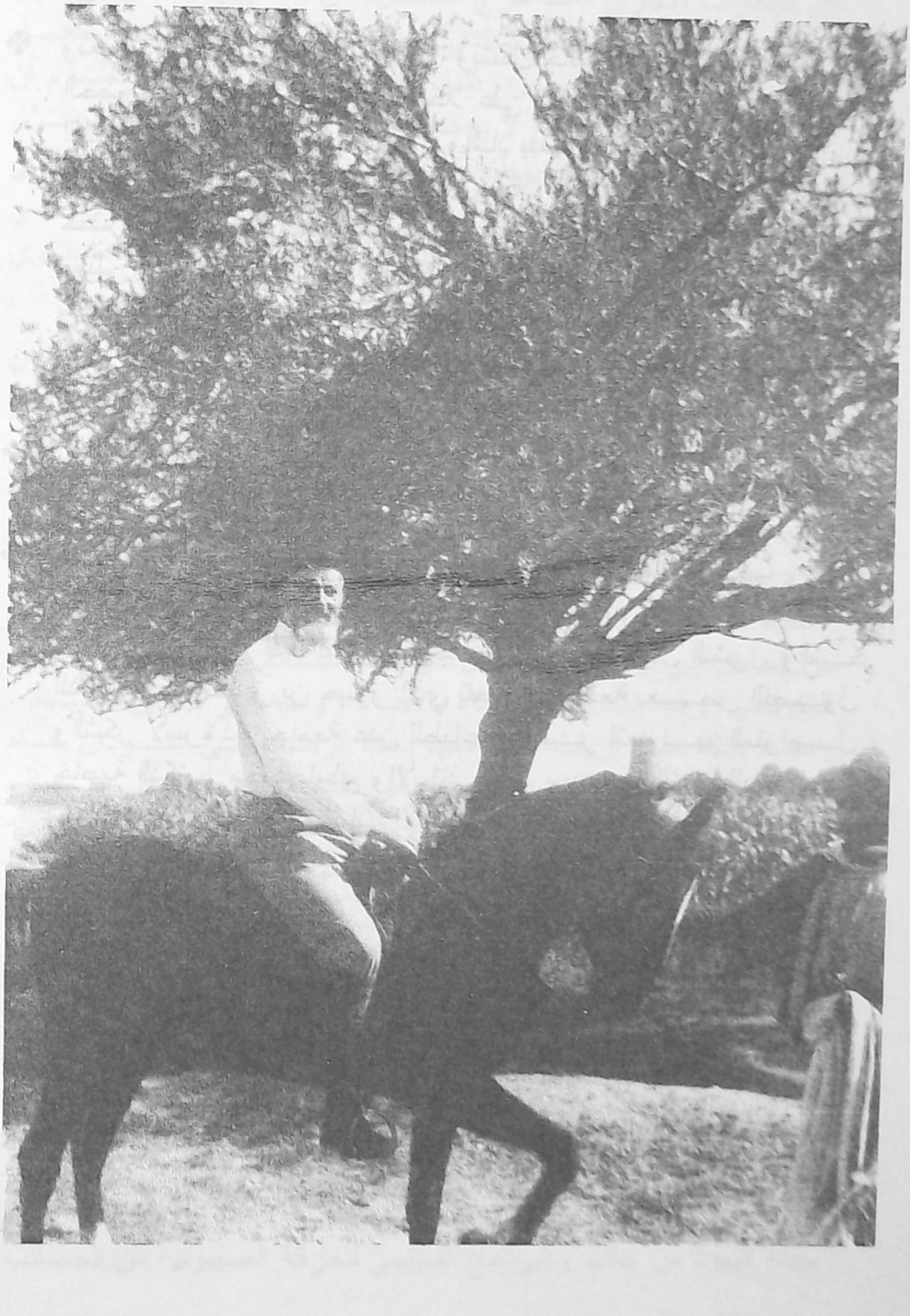
- وتعرض لقضية الأصالة والتقليد ، وبشكل خاص في الفن المعماري الحضرمي . فيقول :"حافظت المكلا على الجمال الحضرمي الخالص العتيق بدون أن يؤذى أو يدنس" . وأشاد ببعض العادات والتقاليد . ورأى فيها جوانب مشرقة يفتقدها الغرب . وانتقد الإداريين البريطانيين في حضرموت الذين فرض عليهم إنجرامس اللبس القومي . وقال إن على ممثلي بريطانيا الذين يقودون البلاد عدم إخفاء حقيقة أن الأمم الغربية مسيحية في تقاليدها ونظرتها ومعتقدها . فهذا تراث لا يمكن الاغتراب عنه ، وعلى الذي يذهب من الدول الغربية لمساعدة شعوب الشرق أن يكون أمينا مع نفسه ولأصوله.

- يحتوي كتاب فان در ميولين على جوانب سلبية وإيجابية ، فنأخذ بالأولى ونكشف قصور الثانية .

- نتقدم بالشكر إلى كل من ساعد في ترجمة وطباعة هذا الكتاب . أولهم جامعة عدن ورئيسها الكتور صالح علي باصرة والقيادة الفنية التي تشاركه في ارتياد آفاقا أكاديمية رحبة ، بالذات في مجال النشر . والشكر للدكتور عبد العزيز بن حبتور الذي تفضل بمراجعة بعض الفصول . والشكر لأسرة دار جامعة عدن للطباعة والنشر لتعاونهم المتواصل ، خاصة الدكتور محمد باسليم والأستاذ وهيب مهدي . والشكر للبروفسور لايف مانجر ومعهد الدراسات الإنمائية لتشجيعهم الذي لا ينقطع من البعد.

عدن /مايو/١٩٩٩

صورة للمؤلف على ظهر حصانه في مدينة صنعاء عام ١٩٣١م



تقديم سير بيرنارد رايلي

الكابتن فان در ميولين ، الذى قدم في هذا الكتاب معلومات قيمة للمرة الثانية و مساهمة معرفية بالنسبة لمحمية عدن ، هولندي مرموق ، عمل لأكثر من ثلاثين عاما في الخدمة الحكومية في الشرق ، جزء منها في مستعمرة هولندا في الهند الشرقية ، وجزء في شبه الجزيرة العربية . وبصفته دارسا للغة العربية والإسلام وجد مهمته تنسجم مع اهتماماته وهي استكشاف حضرموت موطن العديد من العرب الذين هاجروا من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى جاوا والملايو . إن دراسته للناس والمشاكل لتلك البلاد الفريدة أدت ، في عام ١٩٣٢ ، إلى نشر كتابه :"حضرموت – إزاحة النقاب عن بعض غموضها" ، الذى كتب قبل أن يحاول البريطانيون تحمل عبء إحلال السلام والتقدم لبلاد كانت حتى ذلك الوقت محمية في وضع أكثر بقليل من اسم .

كتاب الكابتن فان در ميولين الجديد سجل مضيء للترحال في محمية عدن عام ١٩٣٩ عشية الحرب العالمية ، التى أفرزت في مجراها مضاعفات خطيرة وتغييرات في أوضاع المحمية ، بالذات في حضرموت ، التى كانت الهدف الأساسي لرحلة الكاتب . أدى احتلال اليابان لسنغافورة وجاوا ، إلى انقطاع مصدر الدخل بالنسبة للحضارم الأثرياء ، مما تسبب في انحدار أغلبهم إلى الفقر ، ثم تفاقمت مشاكل البلاد بعد ذلك بالمجاعة . إن العرض الذى قدمه في هذا الكتاب كان عن الأوضاع التى سبقت مباشرة هبوط تلك المصائب على الناس في هذا الجزء من محمية عدن ، وقد تمكن في هذه الأثناء أن يرى ويسجل الآثار والمجهودات التى قام بها البريطانيون منذ كتابه الأول ، من أجل نشر السلام والنظام في تلك المناطق القصية .

تعزز اهتمام الكابتن فان در ميولين ورفاقه بأن العديد من الطرق التى اخترقت والتى تقع بعض أجزائها في محمية عدن لم توصف من قبل للعالم الخارجي . فوادي حضرموت معروف من كتابات بنيت وزوجته (١) ، إنجرامس، فريا استارك وفان در ميولين نفسه ؛ ولكن : باختيار الطريق البري من عدن إلى حضرموت ، استطاع الكاتب في هذه المناسبة أن يقتحم أرضا جديدة بالنسبة للعالم الخارجي ، على أنها ليست جديدة بالنسبة للضباط السياسيين

والآخرين الذين يعملون في المحمية . إن رحلته إلى شمال الوادي في منطقة قبيلة العوامر ونحو البحر الصافي – بحر الرمال الصافية – كان أيضا مهمة فريدة ، واتبع طريقا غير عادي في عودته من وادي حضرموت إلى الساحل .

تغطي ملاحظات الكابتن فان در ميولين وتعليقاته حقلا واسعا : الآثار الحميرية ، الفن المعماري الحضرمي الحديث وتدهوره في سيئون ، الري ومستقبل الزراعة ، مهارة الحضارم الهندسية ، مجهودات الرحالة الآخرين ، بيرترام توماس ، فيلبي وشيسمان ، نظريات فريا استارك حول طريق البخور ، الرق ، وضع النساء ، البدو وأغانيهم ، والخطر الذى يهدد سبل معيشتهم من منافسة العربات في الطرق الحديثة ، ادعاءات اليمن في منطقة محمية عدن ، علاقات حضرموت وبريطانيا ، ومشاعر الحضارم نحو فلسطين .

كتابات الكابتن فان در ميولين نابضة بالحياة وبسيطة . إنه يحمل القارئ معه عبر كل تفاصيل رحلته : قذارتها ، مضايقاتها ، خيبة الأمل والإرهاق ، لحظات الابتهاج والحماس . وهو مفتون بعظمة وجمال الجبال والوديان ، وحتى بيداء الجول المانعة يبدو أنها تغريه على التحمل فوق مرتفعاتها التى لا ماء فيها وتعبيره الجميل في وصفها : "حرارة الظهيرة الخرساء" .

إنه كتاب ذومستوى متوقع من رحالة وكاتب له صفات الكابتن فان در ميولين ، وهو إضافة قيمة للأدبيات المتزايدة التى تكشف شبه الجزيرة العربية للعالم الخارجي .

بيرنارد رايلي يناير ١٩٤٧

(١) قام ثيودور بينت وزوجته مابل بعدة رحلات في وادي حضرموت في ١٨٩٣ /١٨٩٤ . ونشرا رحلاتهما في كتابين وعدة مقالات في المجلة الجغرافية الملكية .

تقديم المؤلف

هذا الكتاب نص باللغة الإنجليزية للمخطوطة باللغة الهولندية التي تعرضت لتغييرات كثيرة . كانت نيتي الأولى أن أنشر روايتي في ليدن حيث بدأت دراساتي الاستشراقية وحيث نشر كتابي الأول عن حضرموت باللغة الإنجليزية . وعندما جعل غزو هولندا هذا مستحيل أقنعوني بارسال المخطوطة الأصلية إلى مستعمرة هولندا في جزر الهند الشرقية لتنشر في بتافيا . وقام اليابانيون بغزو جاوا ، فقام الناشر بوضع المخطوطة ، مع مختارات من الصور الممتازة ، في مأمن في خزينته في بتافيا . لذلك بدأت ترجمة إنجليزية للمخطوطة ، واستطعت ، بتشجيع أصدقاء أود أن أعبر علانية عن ديني لهم ، أن أكمل هذا العمل الحالي .

اتبعت في ترجمة الكلمات العربية نظام الجمعية الجغرافية الملكية R.G.S. 11 . بالنسبة لأسماء الأماكن ، اعتمدت في أغلب الجزء ، على القائمة لجنوب غرب شبه الجزيرة العربية التى أعدها وراجعها الكابتن ليك وصدرت من وزارة المستعمرات عام ١٩٤١ . اختلفت مع هذه القائمة ، مثال ذلك في حالة كتابة سيئون (التى كتبها ليك سيؤون) حيث ارتكب في تقديري خطأ مبررا . أيد تهجئتي لسيئون العالم الحضرمي السيد محمد بن هاشم .

أنا مدين لأصدقائي ، البروفيسور هيرمان فون فيسمان ، الدكتور كريمرز من جامعة ليدن ، جورج رنتز من الجامعة الأمريكية في القاهرة ، لدعمهم القيم في قراءة المسودة ولنصحهم المتخصص . وكذلك الجمعية الجغرافية الهولندية والإنجليزية اللتين قدمتا دعمهما المادي والمعنوي وكان تشجيعا لإنجاز الهدف الذى وطنا أنفسنا لتحقيقه . وذاك الذى ساعدني كثيرا لإعداد هذا الكتاب للقارئ الإنجليزي لا يطلب مني ذكر اسمه . فلعل هذا الكتاب الذى من نتاج تعاوننا المشترك يبقى بالنسبة له ذكرى صداقة باقية أزهرت في بلدان جرداء .

إن مصالح بريطانيا العظمى وهولندا تختلط بشكل لا فكاك منه ليس فقط في حضرموت بل أيضا في الشرق الأقصى . فالتعاون الوثيق الذى نشأ بين إدارتنا الهولندية في إندونيسيا والإدارة البريطانية المتمركزة في سنغافورة كانت دليلا على مصالحنا المشتركة . وأنا على يقين من أن خيرا واحدا سوف ينبثق من شر هذه الحرب وهو اختفاء آخر الكراهية وعدم الثقة التى جاءت إلى شعبينا إرثا من الماضي ، حتى نستطيع أن نعمل سويا يدا في يد من أجل الجهد الحضاري

العظيم الممتد أمامنا . أقدم هذا الكتاب كمساهمة شخصية لإكمال الصداقة والتفاهم بين أمتينا في المستقبل .

مذكرة الناشر – الأوضاع في أوربا وصعوبات المواصلات لم تمكن البروفيسور فون فيسمان من إكمال الخريطة المفصلة التى سوف تشمل كمية كبيرة من المعلومات الجديدة والمفصلة عن الأجزاء من شبه الجزيرة العربية التى لم ترسم لها خريطة والتى غطتها هذه الرحلة . ومن المأمول أن تنشر هذه الخريطة منفصلة يوما ما . (١) ولكن ، بالنسبة لهذا الكتاب فقد تم رسم هيكل عام لخريطة اعتمدت على أسس المعلومات التى تمكن بروفيسور فيسمان من توفيرها .

مهام المؤلف في بتافيا جعلت من المستحيل عليه مراجعة مسودات الكتاب بنفسه . بالإضافة إلى أولئك الذين أشاد المؤلف بمساعدتهم في المقدمة يود الناشر أن يشكر مستر م. أوروسيو Auroussaeu والآنسة فارقاس من الجمعية الجغرافية الملكية ، لمساعدتهم الكريمة .

هوامش

(١) نشرت الخريطة التي يتحدث عنها الناشر في المجلة الجغرافية الملكية ، ١٩٥٧ .

مقدمة

ابتداء الخطة

انصرمت عشر سنوات منذ نجاح محاولتنا الأولى للتوغل فى جزء من شبه الجزيرة العربية لم تطأه أقدام الأوربيين كثيرا . كانت حضرموت هدفنا . وكان يفد منها وما زالوا يفدون رجال الأعمال من العرب الذين لهم مكانة متميزة جدا فى مستعمرة هولندا فى الهند الشرقية ، والذين يلعبون دورا اقتصاديا هاما . ولم يعرف الكثير عن تلك البلاد حينئذ . فكان من المنطقي أن تكون للهولنديين رغبة لمعرفة بعض الشيء عنها . فالعالم يصير أصغر يوما بعد يوم ، والمواصلات تتكثف وتتضاعف سرعتها . وقد بدأت من قبل الرحلات البحرية المنتظمة بين باتافيا والمكلا عندما تهب الرياح الموسمية المواتية . والمكلا هي ميناء حضرموت الذى يقع فى ساحل الجزيرة العربية الجنوبي . وهنا تقوم السفن الهولندية بالتقاط الحضارم المحتشدين فى غدوهم ورواحهم بين باتافيا وموطنهم . وهناك تنتصب مدينة جميلة بيضاء ، شيدت على شريط ساحلي ضيق عند سفح منحدر صخري حاد ، وتتراص مبانيها على ساحل المحيط الهندي المطبق عليها . ماذا يقع خلف المكلا وراء السلسلة الجبلية العاتية التى يبدو أنها تحجب الدخول إلى الأرض التى تقع بعدها ؟ والحضارم أنفسهم يقدمون معلومات قليلة عن بلادهم لأنهم سرعان ما يدركون إما أنهم لم يفهموا أو أنه لن يصدقهم أحد . وموطنهم بالنسبة للكثيرين منهم بلاد الصرامة الشديدة، وغالبا ما هي أرض الجوع والفاقة . إن الصراع من أجل البقاء الذى تعلموا على شنه هناك ، ومشاهدة كل ما حولهم ، قد هيأهم لإيجاد وسيلة للعيش خارج حدود بلادهم الفقيرة . فجلبوا معهم من حضرموت صلابة البدوي وأيضا قوة القلب وانعدام الإحساس بالمعاناة ، مما أهلهم لممارسة أي عمل يأتي بعائد مادي . وليس هناك من المحيطات ما يمكن أن يثبط همة أولئك الرجال الذين لم يشاهدوا الماء فى وديانهم سوى السيول الجارفة التى تأتى فى سنوات الرخاء عندما تهبط عليهم أنعم الله . وعندما تختزن الأماكن العميقة الماء بعد السيول ، فإنها تصبح مصدرا للبهجة . فيقوم صبيتهم بالسباحة والغطس ويمتلكون بلا وعي التدريب الذى يجعل أبناء الصحراء ملاحون مفيدون فى السفن الشراعية التى تمخر سواحل الجزيرة العربية أو تؤهلهم لكسب عيشهم فى الغطس بحثا عن اللؤلؤ . ولا ترهبهم المياه الممتدة بلا نهاية . فقد أدركوا فى السهول الصخرية الشاسعة ووسط كثبان الرمال المنتشرة على مد البصر ، أن الإنسان لا قيمة له واعتادوا على الوحدة بحذر غريزي وبثقة منبعثة من الاتكال

على الله . وسرعان ما يصبح البحر مألوفا لسكان الصحراء . وفى السفن الشراعية المصنوعة محليا ، التى تشبه لحد كبير سفن رجالنا فى الهند الشرقية ، أبحر الحضارم بكل جرأة إلى شرق أفريقيا والهند . ثم تجرأوا أكثر على ساحل الهند إلى بورما وسيام ومالقا ، حتى وصلوا أخيرا إلى أرخبيل الهند الشرقية حيث توغلوا من أقصى الشمال الشرقي من سومطرة إلى الجزر القصية "للشرق العظيم" على أيام شركة الهند الشرقية الهولندية . وحيثما ذهبوا حملوا معهم إيمانا صلدا كالصخر ويقينا وبصيرة ، وهي التى مكنت للمسلم مكانا مرموقا فى الجانب الشرقي للكرة الأرضية . وقد تركز الجانب الأكبر من اهتمامهم على الاستحواذ على تلك الثروات التى حرمت منها وديانهم الصحراوية الفقيرة . فانغمسوا فى الصراع من أجل الثراء المادي دون عائق من مثل رفيعة ، وبمقدرة وتصميم ، غير مبالين كثيرا باعتبارات الشرف والنفوذ . وحصل بعضهم على الثراء دون كبير عناء إذ كانوا من السادة ، أي من سلالة الرسول وهي مكانة تحظى باحترام المسلمين .

وبدأ تدريجيا تيار خافت ينساب راجعا إلى أرض الوطن . فبعض الذين حققوا نجاحا فى ما وراء البحار ، كانوا تواقين للعودة إلى بلادهم وتهيئة أنفسهم لتلك اللحظة الكبرى التى سيدفنون فيها فى تراب الجزيرة العربية المقدس بعيدا عن ضوضاء الاستحواذ على الثراء. وتأتى معهم ثروات العالم الخارجي لتدخل إلى حضرموت الراكدة أبدا . ويأخذوا فى تشييد المساجد البيضاء تعبيرا عن شكرهم لله لما أنعم عليهم من رخاء ، وربما لحد ما تكفيرا عن الذنوب التى ارتكبوها أثناء حصولهم على الثراء الدنيوي . وبعد بناء المسجد يأتى تشييد المنازل ، وكل واحد منها أكثر جمالا من الآخر . ولم يعد كبار زعماء القبائل والسلاطين هم وحدهم الذين يملكون قلاعا وحصونا ، فقد بدأت الآن الأرستقراطية المالية تشيد مساكن رائعة . واشتروا أيضا حماية القبائل البدوية ، وأدخلوا أسلحة فتاكة لم تعرف من قبل ، فأدخلوا بذلك حضرموت فى فترة جديدة من تاريخها العريق بعد أن ظلت ردحا من الزمن نسيا منسيا .

ولم يتم إدخال تلك التغييرات بهدوء ، كما لم يتم استيعابها داخل الجدران الصخرية التى تحيط بالوديان والجول . وانتشرت أصداء الصراعات والضجيج إلى جزر الهند الشرقية ، فأصبح أمر لا مفر منه بالنسبة لحكومة هولندا أن تقف على أوضاع البلاد التى تأتى منها مجموعة صغيرة من رعاياها ولكنها ذات نفوذ كبير ، والذين مازال لأغلبهم صلات منتظمة معها .

كان هذا هو السبب فى القيام بالرحلة الأولى إلى حضرموت فى بداية عام ١٩٣١، التى وصفتها فى كتابي :" حضرموت : إزاحة النقاب عن بعض غموضها " .(١)

وقادتني تلك الرحلة الأولى للقيام برحلتي الثانية عام ١٩٣٩ ، التى كان هدفها الأساسي مختلفا ولكن وجهتها النهائية واحدة وهي وادي حضرموت أكثر بقاع الجزيرة العربية روعة .

نبعت خطة الرحلة الثانية من فشلنا فى تحقيق الجزء الأخير من رحلتنا الأولى . لقد نجحنا فى ذلك الوقت من الوصول إلى وادي حضرموت ، ومشاهدة مدن شبام وسيئون وتريم ، بعدما قمنا بزيارة بعض الأنقاض الأثرية الهامة وفحصها بشكل عابر ، وحققنا أقصى طموحنا بالوصول إلى مكانين يحظيان باهتمام كبير فى البلاد وهما قبر هود وهو مكان مقدس ومقصدا للحجاج ، وبئر برهوت اللغز الجغرافي .

لقد واتانا الحظ السعيد فى الرحلة الأولى . فوجدنا الفرصة لمقابلة الحضرمي المرموق على أيامه ، وأنعم علينا بعطفة ومساعدته .(٢) وفتح لنا الطريق إلى قبر هود ، وهو طريق ظل حتى تلك اللحظة مغلقا أمام الأجانب ، وأمدنا بالبضائع وقدم لنا التسهيلات للقيام بالرحلة . بل ساعدنا فوق ذلك على الذهاب إلى الغار المرهوب بركان برهوت الذى ظل منذ أيام بطليموس والهمداني يغلفه ضباب كثيف من الروايات والأساطير والأسرار والرهبة .

وشجعنا الحظ السعيد الذى لازمنا ، فقررنا أن نتحدى القدر وننهى رحلتنا بطريقة غير مألوفة . إن منطقة عدن الخلفية (hinterland) ، التى تمتد من أقصى جنوب البحر الأحمر على امتداد المحيط الهندي حتى الحدود الغربية لحضرموت، مازالت لحد كبير مجهولة . واشتهرت القبائل التى تسكن تلك المناطق الجبلية القصية بتعصبها الشديد ضد الأجانب ، وبخشونتها ، وبطباعها القتالية الشرسة . ورغم أن بريطانيا فرضت حماية على منطقة عدن الخلفية ، إلا أنها لم تمتد بعيدا، مما أدى إلى انعدام السلام والأمن . ولم يكن لموظفيها خطة لاستكشافها طولا وعرضا . فقد انصب اهتمامهم ببعض المناطق الصغيرة، واقتصرت صلتهم ببقية المنطقة بتوقيع اتفاقيات فضفاضة مع عدد من السلاطين الصغار وزعماء القبائل مقابل بعض المخصصات المالية وهدايا الأسلحة والذخيرة .

ورأى مستشارنا وصديقنا الحضرمي أن خطة اختراق المنطقة الخلفية إلى عدن ، محفوفة بالمخاطر ولكنها ليست مستحيلة . وزودنا بعشر رسائل تعريف

إلى مشايخ القبائل الذين سنخترق أرضهم . وتولى مسئولية إرسال أغلب متاعنا إلى المكلا ، وحثنا على أخذ أقل ما يمكن من متاع وأكل وآلات علمية ، حتى نتمكن من اختراق المنطقة المحفوفة بالمخاطر على جمال سريعة .

وصفت تلك الرحلة وما اكتنفها من صعاب فى مكان آخر .(٣) لقد شيدت القبائل المحتربة مع بعضها البعض ممرا منيعا عبر مناطقها ، وليس بين "السيارة" (وهو الدليل الذى يتولى مسئولية حماية القوافل) من يجرأ على أن يخترق بنا منطقة القبائل حتى لو أغريناه بالمال . وليست هناك نهاية للدروب الملتوية التى سلكناها فى رحلتنا ، مما دفعنا بعيدا عن اتجاه عدن . وأصابنا الإرهاق بدنيا وذهنيا ، وعانينا من قلة الطعام، فتخلينا عن خطتنا . وأرغمنا على السير عبر منطقة الحدود بين حضرموت ومنطقة عدن الخلفية واتجهنا رأسا نحو المحيط الهندي .

لكننا لم نضع خطتنا نهائيا على الرف . فقد استحوذت علينا ليلا ونهارا خلال الأسابيع التى عانينا فيها الضنك والإرهاق . وما كان بوسعنا التخلي عنها بعد أول هزيمة . ولم يتخل عنا الأمل في النهاية . كنا نشعر أن هناك فرصة أخرى فى حياتنا لنصل هناك ونكتشف البقعة [illegible] من شبه الجزيرة العربية . ويمكننا معالجة المشكلة بطريقة أخرى حتى لا يعوقنا أباطره الحرب (war -- lords) فى منطقة عدن الخلفية . وبذلك الأمل الخافت فى نفوسنا ، وبأذهان مفعمة بذكريات مغامرة كبيرة ، بدأنا رحلتنا التى أكملناها بنجاح ، وقلنا ، فون فيسمان وأنا ، وداعا لعدن فى نهاية رحلتنا الأولى .

ثم حانت الفرصة لنكمل معا هذا العمل الكشفي ، الذى قلما تجرأنا أن نحلم به. فالتقينا للمرة الثانية فى عدن فى مارس ١٩٣٩ ، لنضع الترتيبات للرحلة التى تخلينا عنها عام ١٩٣١ . (٤)

أخذ شبح حرب عالمية جديدة يقترب بشكل مفزع . وقد يجعل هذا تنفيذ خطتنا شاقا ولكن لن يمنعنا بالضرورة من تنفيذها . وبرهنت الأحداث إمكانية القيام بالرحلة ، واستطعنا بعون الله أن نكملها بنجاح . ولكن ما إن عدنا وبدأنا فى تصنيف المواد التى جمعناها ، حتى دخلت بلدينا فى حرب مع بعضهما البعض وانقطعت كل الصلات بيننا .

على أن صداقتنا قد اتسقت فى لهيب صخور وصحراء منطقة عدن الخلفية . كنت أنا وصديق رحلتى إلى حضرموت البروفسور هيرمان فون فيسمان ورفيق دربنا الجديد الدكتور فون فاسيلفسكى نعلم ما لدى بعضنا البعض . اكتملت

جماعتنا بانضمام زوجة فون فيسمان الدكتورة بتينا وكانت عضوا جسورا وعنيدا في جماعتانا . فليس هناك من حرب يمكن أن تفصلنا كليا ونهائيا . سوف يتولون تجميع الخرائط والمادة العلمية الأخرى . أما أنا فبعد أن شاهدت معاناة شعبي والشعوب الأخرى ، ورأيت آمل النهاية يقترب ، بدأت أخيرا فى كتابة قصة تلك الرحلة . أما البريطانيون الذين قادوا حضرموت ومنطقة عدن الخلفية إلى حياة أفضل ، فسوف يجدون فى خريطة رفاقي أول خريطة جيدة يعتمد عليها للمنطقة التى سافرنا فيها . وأنا على يقين أن هذه الخريطة ستجد الاستحسان مثلما استحسنت من قبل خريطة حضرموت . وسوف ترشد رجال سلاح الطيران الملكي بسلام فوق الأرض وهم يساهمون فى فتح صفحة جديدة فى تاريخها . أما المادة العلمية الأخرى من جغرافية وجيولوجية ونباتية ، فسوف تضيف أيضا إسهاما بسيطا لجهد البشرية الكبير لتعمير وزراعة هذا العالم ، وتمتين روابط أهله، وإخراج الشعوب من الظلام والجهل إلى إشراقة الحضارة . وعلى الرغم من أن دعوة الغرب للسلام قد تبدو نشازا هذه الأيام ، إلا أنى على يقين من أن جهدنا المتواضع لاكتشاف شبه الجزيرة العربية لن يكون فى النهاية تافها بل فيه خدمة لتلك البلاد وأهلها .

هوامش

(١) قام الدكتور محمد سعيد القدال بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، ونشرته دار جامعة عدن للنشر بالتعاون مع سفارة مملكة هولندا بصنعاء عام ١٩٩٨

(٢) يقصد السيد أبوبكر بن شيخ الكاف

(٣) راجع كتابه سالف الذكر ص :٢٠٦ ــــ ٢٥٥

(٤) قام ف فيسمان بعدة رحلات إلى حضرموت ، ونشر أبحاثه في ثلاثة مجلدات بالألمانية عام ١٩٣٢ . ثم عاد بعد ذلك في ثلاث رحلات آخرها عام ١٩٦٣ .

الفصل الاول

{بداية متعثرة}

بدأت محاولتنا هذه المرة لاختراق الأرض الممتدة من منطقة عـــدن إلـى حضرموت من مدينة عدن . كان ذلك بالنسبة لي أمرا بديهيا . ولم أجد صعوبـة لإقناع رفاق دربي بهذه الحقيقة الأساسية ، وعند ذلك نستطيع أن نقـف موحديـن نؤازر بعضنا بجانب هدفنا ، لأن دخول شبه الجزيرة العربية ليس بالأمر السـهل . فمنذ الأزمان القديمة وقفت قوتان تعارضان اختراقها ، وهما شبه الجزيرة العربيـة نفسها وسكانها . وانضافت إليهما مؤخرا قوة ثالثة هي بريطانيا العظمى . وكان لا بد من اجتياز هذه العقبة الأخيرة هنا فى عدن . ولا يمكن الاقتراب من العقبتيـن الأوليتين إلا بعد التغلب على الثالثة . ستكون الرحلة كلها معركة عنيدة بلا تراجع مع تينك العقبتين ، وهي معركة علينا أن نثابر عليها أسبوعا بعد الآخر . ولكـن لا بد من إزاحة الحاجز الأخير أولا .

وما كان لنا أن نواجه هذه العقبة لمجرد أننا أجانب . فقـد دخـل الرحالـة البريطانيون فى معركة أشد ، وكانوا دائما فى موقف أضعف من الأجنبي الـذي تدعمه حكومته . لقد حالفنا الحظ فى تجربتنا السابقة ، ومرت رحلتنا الأولى إلـى حضرموت بدون أي معارضة من السلطات البريطانية فى عـدن ، ولذلـك لـن يكون انزعاجنا كبيرا إذ أبدى الرحالة البريطانيون الذين جاءوا من بعدنا احتجاجا مستمرا شفاهة وكتابة من قلق حكومتهم المرهق من أجل سلامة ورفاهية رعاياها . ألم نقرأ ونسمع عن اتهامات فلبى الحادة العديـدة ؟ (١) . ألـم تصـف فريـا استارك بسخرية في عدة مواضع من كتبها عن حضرموت الرعاية المعوقة التـى شملها بها ممثلو السلطة البريطانية ؟ (٢) . وعلى أساس هذه المسلك كنا نشك فى الاهتمام الغيور الذى يبديه الرجال الذين يولون اهتماما يوميا لحماية هذه البلدان ، وبسبب الاعتبارات السياسية ، فلا يمكن لهؤلاء الرجال أن يسافروا بحرية كمـا يشتهون ، وغالبا ما ينسجون بصبر روابط ثقة متبادلة ويمهدون السـبل للنفـوذ التربوي ، ولا يريدون أن يروا هذا الجهد الحصيف المثابر يؤذى بواسطة رجـال لا يمكن إقناعهم تماما بأنهم سيكونون رسلا يمثلون الغرب تمثيلا جيدا . كثير من الناس تجرى فى عروقهم دماء الرحالة ، والرغبة الحقيقية ليكونوا أول من يـأتي بشيء جديد ، وأن يرتادوا دروبا غير مطروقة ، وأن يتذوقوا طعم الفرح بإضافـة شيء إلى المعرفة العلمية. إن الرغبة لحمايـة المنـاطق المحميـة مـن حـب الاستطلاع الضار ، وفحص كل الطلبات للدخول إلى هذه المناطق بوعي مسـئول ، يجد لدينا كل التعاطف ـــ على الأقل عندما يكون القرار فى أيدي رجال لـهم قامة السلطات البريطانية .

كنا نعلم أننا سنجد السير بيرنارد رايلي مرة أخرى بعد أن أصبح حاكمـا عامـا لعدن. لقد التقينا به فى رحلتنا الأولى مع مستشاره السياسي الكولونيـل "ليـك" ،

الضابط الذى جاب أغلب منطقة عدن الخلفية على رجليه ، والذى درب أول جنود من العرب ، حتى أصبح صديقهم ومصدر إلهامهم . وكان ذلك كافيا ليمنحنا الثقة للذهاب إلى عدن ، رغم أننا ندرك هذه المرة أن الموافقة على طلبنا سوف تتعقد بالعقبة الإضافية المتعلقة بالتوتر العالمي. كان التخطيط أن تكون البعثة هولندية فقط ، ولكن أحد الهولنديين لم يتمكن من مرافقتنا ، وبدلا من أن يكون الألماني العضو الوحيد في البعثة أصبحوا ثلاثة . لذلك لم يبق لهولندا سوى المبادرة والتوجيه والمعرفة باللغة العربية . أما الدراسة العلمية والجغرافية والجيولوجية والنباتية ، فكانت من نصيب الألمان الثلاثة . وكان رئيسهم البروفسور فيسمان ، الذى ينظر إليه بتقدير فى رسم الخرائط وفى جغرافية الجزيرة العربية ، وهو غالبا مصدر ثقة ملهمة . أتمنى أن ثقة عدن وتعاطفها سوف يتغلب على كراهية هتلر ونظامه الذى يعد العدة لصراع مع بريطانيا للسيطرة على العالم. ولم أكن مخطئا فى تفاؤلي ، فالعديد من التنبؤات القاتمة التى سمعتها فى هذا الصدد لم تكن صحيحة .

وعلى الرغم من أننا كنا نتوقع أن نحظى بموافقة تامة من السلطات فى عدن ، إلا أنه غمرنا العرفان عندما أدركنا أن السلطة فى عدن فى يد رجال لهم الجرأة لمنحنا ثقتهم ، والذين يمتلكون فى تلك الأيام المفعمة بالتوتر النفوذ المعنوي ليمنحونا ثقتهم .

هذا لا يعنى أن كل شيء سار سيرا منسابا . هناك عوائق كثيرة . ولكننا وجدنا عونا من شخص لم يكن فى الحسبان . وبدون المساعدة التى قدمها لنا فورا ، ربما اتخذت الرحلة التالية مسارا مختلفا .

كان الكابتن هملتون أحد الضباط السياسيين الجدد ، وكان مناط به الاتصالات مع القبائل فى ذلك الجزء من منطقة عدن الخلفية الذى يمر به طريقنا . ورأى القنصل الهولندي فى عدن أن نطلب منه ليكون وسيطنا ويقدمنا للحاكم العام . وهكذا وقفنا فى ذلك اليوم بعد وصولي عدن (وصل رفاقي الألمان قبلي) فى مكتب هذا الرجل ابن اللورد بلهافن (Belhaven). المكتب غير مرتب ومزدحم ، ويناسب الحديث أكثر مما يناسب العمل . وكان العرب من زعماء القبائل وعامة الناس ، فى غدو ورواح . وقدم بعضهم نفسه كمجندين فى فيلق هملتون .(٣) كانت تبدو عليهم غلظة يشوبها صفاء ، وتحلق فوقهم نكهة القباقي مختلطة برائحة النيلة العالقة بثيابهم التى لا يغسلونها أبدا . كانوا رجالا لهم كبرياء ولا يخالطهم حياء، ورغم أن مظهرهم الخارجي يبدو عليه الحزم والهدوء ، إلا أنهم ملؤا غرفة الضابط السياسي بضوضائهم وضجيجهم . ثم أفسح لنا البريطانيون مكانا دون أن يطلبوا من البدو مغادرة المكان أو التزام الهدوء . وبما أن الكراسي

قليلة فقد اكتفينا بالكثبان وحافة المناضد . وقد سمع الكابتن هملتون عنا وعن مقصدنا فاستقبلنا بحفاوة . وكان منهمكا فى تلك الأيام فى استكشاف منطقته وفتحها بحصافة للعالم الخارجي . ولذلك جاء مقدمنا متسقا مع الخطط التى يعيش فيها. وقد عاد مؤخرا من رحلة كان ينوى خلالها أن يعبر ممر الطلح (Talh) إلى نصاب . ولم يتمكن من عبور ذلك الحاجز الطبيعي الشهير بطابور من الجنود مسلحين فقط ببنادق رشاشة . وربما تمكن من اقتحام طريقه مقاتلا ، ولكن لعله كان سيمنى بخسائر جسيمة. وبما أنه لم يكن متأكدا من مصاعب التضاريس ومن المعارضة المسلحة التى قد تواجهه فيما بعد ، فقد أجبر على الرجوع إلى عدن . وكان رأي الكابتن هملتون أن هذه ربما هي أكثر لحظة سيكولوجية مناسبة لتجتاز الحاجز ، لأن مقاتلى الطلح كانوا على يقين أن بريطانيا سترسل حملة تأديبية فورا ، وبما أننا لسنا بريطانيين ولسنا جنودا ، فربما سمحوا لنا بالعبور ، حتى لا يفاقموا دون مبرر من العقوبة المتوقعة . ويمكننا أن نطلعه بعد ذلك على الوضع الجغرافي خلف ممر الطلح وعلى مسالك القبائل . ثم قدموا لنا بعض الخرائط التى لا تستحق إسم خريطة ، لأنها مجرد رسوم تخطيطية أولية اعتمدت على فتات معلومات وعلى الحدس . وتقدم من بين الرجال المكتظين من يعرف الطريق والممرات . ورسموا لنا صورة غائمة ، ولكنها حليت لبنا . وازداد الكابتن هملتون حماسة ، ومنذ ذلك الصباح الذى التقينا به للمرة الأولى ، أصبح حليفنا الصميم .

كانت وساطته مع الحاكم ومع الكولونيل ليك لا غنى عنها ، لأنها كانت تحت تأثير النكسة التى مني بها هملتون وطابوره . فقد كشفت تلك النكسة عن وجود رجال شجعان لهم عزيمة قوية وتصميم على المعارضة . فإذا تراجعت مجموعة عسكرية جيدة الاستعداد ، فكيف نأمل فى المضي قدما ؟ كان ذلك هو اعتراض الحاكم المنطقي على خطتنا .

قال لنا : "لا تبدأوا من عدن ، ولكن من الجانب الآخر فى حضرموت ، حيث قطع إنجرامس خطوات واسعة لتهدئة القبائل . (٤) وفى إمكانه أن يساعدكم فى معرفة الأماكن التى يرى بإمكانكم أن تجدوا فرصة للتوغل فيها . ولن أتحمل كما لن تتحمل حكوماتكم أي مسؤولية فى هذا الصدد إذا دخلتم فى مشاكل خطيرة " .

هكذا تحدث السير بيرناد رايلي الذى له أطول خبرة بهذه البلاد . ويبدو أنه كان على صواب . وكنا مقتنعين بضرورة القيام بالجانب الصعب أولا ، قبل أن نستهلك أكثر من نصف مؤننا ونقودنا وطاقتنا . ولفتنا نظر الحاكم العام إلى أننا لسنا عسكريين ولا بريطانيين ، ويمكننا أن نتراجع دون فقدان لهيبة أو شرف عسكري . ويمكننا أن نتفاوض ، ويمكننا أن نتجنب أي منطقة قبلية قد تشكل

صعابا ، ولن تثير مجموعتنا أي مخاوف أو شكوك لأنا لسنا جزء من حكومة عدن التى يمكنها أن تنتزع امتيازات أو توقع عقوبات بسبب الحرب القبلية. كما أن حكومة هولندا لن تطلب تفسيرا من السلطات البريطانية ، لأنها منحتنا الإذن لاختراق مناطق خطرة ومضطربة . ونحن ندرك المخاطر وسوف نتحمل المسؤولية كاملة . وأزاح هذا آخر اعتراضات السير بيرناد رايلي . وبناء على رغبته كتبنا بيانا بوجهة نظرنا ووقعناه فون فيسمان وأنا . بعد ذلك بقي علينا الحصول على إذن من الحاكم العسكري ج. ر. م. ريد (Reid) . وتولى السير بيرنارد بنفسه الحصول على الإذن بالتلفون بعد أن شرح له حالتنا . وسمعناه يقول : إنهم رحالة خبروا الجزيرة العربية وبرهنوا فى رحلاتهم السابقة أنهم يتحركون بحذر ولباقة عبر مناطق لم تستكشف من قبل . ولكن حتى هذا الإطراء فشل فى إقناع الرجل على الجانب الآخر من الهاتف ، وطلبوا منا أن نذهب بأنفسنا إلى رئاسة سلاح الطيران.

يبدو أن بعض الرحالة فى جنوب شبه الجزيرة العربية قد تعرضوا قبل سنوات خلت لمشاكل ، واستنجدوا بالراديو بسلاح الطيران الملكي لإخراجهم من تلك القفار . فتمكن سلاح الطيران من التقاط فريا استارك من الداخل وإعادتها سالمة إلى عدن . وكانت عمليات الإنقاذ تلك ممكنة فى الظروف العادية رغم أنها غير مرغوبة . أما الآن وخطر الحرب مع ألمانيا يتزايد ، فليست هناك طائرة واحدة يمكن أن تنحرف عن مهمتها الحربية . وبعد أن وقعنا على تعهد بألا نطلب مساعدة من سلاح الطيران الملكي إذا تعرضنا لخطر ، استطعنا أن نتغلب على معارضة قائد القوات الجوية .

لم يكن فى طلب تلك التعهدات إجحافا . فعلينا أن نتحمل كل المسؤولية لما نقوم به . فما باستطاعة الحكام البريطانيين فى عام ١٩٣٩ المحفوف بالخطر ، أن ينصرف اهتمامهم لأي مشقة سوى إعطائنا الفرصة للقيام بما ننوى القيام به من استكشاف . وليس من حقنا أن نطلب أي حماية فى مناطق لم يتم إخضاعها بعد . ولعله مما يثير الاهتمام أنه بعد مضي مائة عام من احتلال البريطانيين لعدن لم يتوغلوا فى الداخل ، وهذا أمر سنتعرض له بالتفصيل عندما نأتى لوصف الوضع الذى وجدناه هناك .

وبينما كنا ممتنين للنتائج التى خرجنا بها من تلك المناقشات ، كنا أيضا مندهشين عندما وجدنا البريطانيين على يقين من الخطر الذى سيواجهنا فى الرحلة فى المنطقة بين عدن وحضرموت . وكنا نعتقد أننا نحتاج لكثير من الصبر ، وستكون هناك مفاوضات مضنية ، ودفع إتاوات وربما إرهاق جسدي وصعاب ، ولكن الأيام التى كانت فيها حياة الإنسان تتعرض للخطر ، قد

أصبحت منذ سنوات خلت شيء من الماضى بفضل الظل الوارف للسلطة البريطانية . وازداد يقيننا بهذا الرأي من التوبيخ الذى وجهه لنا إنجرامس ، الرجل الذى صنع السلام فى حضرموت ، والذى أشار فى العديد من كتبه إلى المخاطر فى حضرموت عام ١٩٣١ (ذلك قبل أن تتمتن الإدارة البريطانية هنالك) بينما فى الواقع ليس هناك وجود لمثل تلك المخاطر .
ولكن بعد مضي ثمان سنوات كانت تلك المخاطر مازالت حقيقة فى مناطق أكثر قربا من مركز السلطة البريطانية ، مما أدى إلى المناقشات التى أشرت إليها ، فكان علينا أن نوقع على تعهدات نؤكد فيها إدراكنا الكامل للمخاطر التى سوف نتعرض لها، ونتحمل كل المسؤولية عن النتائج . وفى المساء الذى أعقب حديثنا ، انتابنا شعور بالتوتر والتطلع . هل ستكون هذه الرحلة أكثر خطورة من رحلتنا الأولى ، وهل كنا غير مبالين عند ما استبعدنا على عجل مسئولية السلطات البريطانية مضحين بذلك بالإمكانية الوحيدة لمساعدتنا وعودتنا ؟ إن رغبتنا فى إزاحة العقبة الأولى جعلتنا نتصرف بلا تردد ، وبدأنا نعد بارتياح وفرح تفاصيل استعداداتنا .
واعتبر الكابتن هملتون أن النتائج التى حصلنا عليها نصرا شخصيا له . لقد منحنا ثقته دون أن يعرف الكثير عنا . وكافأناه بأن ضممناه إلى استعداداتنا وكأنه واحدا من أعضاء البعثة .
يسكن الكابتن هملتون مع جنوده العرب فى الشيخ عثمان على بعد اثني عشر ميلا من عدن ، فى منزل عتيق تحيطه أشجار النخيل . وخارج السور الطيني الذى يحيط بالمنزل تمتد الصحراء المحرقة بشمسها التى تعشى البصر , وفى الداخل ظلال النخيل والفوضى الحيوية لمعسكر الجنود الذى يدار على أسس أبوية . فالكابتن هنا هو القائد المؤتمن وكبير القوم والصديق المبجل . الجنود الذين دربهم لم يكونوا جنودا عاديين . كانوا فيلقا من صفوة الرجال ، من المتطوعين الذين انتقاهم بحذق من رجال الصحراء الأحرار المعتدين بأنفسهم . ولن يضحوا بكرامتهم ولا بحبهم للحرية بأن يصبحوا جنودا عاديين . لقد أدركت الإدارة البريطانية ، بفضل نصيحة رجال مثل الكولونيل ليك، الحاجة إلى ضباط مقتدرين ليصنعوا من أولئك الرجال جنودا من نوع متميز . ووافقت الإدارة أيضا على إعطاء أولئك الضباط الذين يقومون بالتدريب حرية فى الأساليب التى يتبعونها . وعلى هذا الأساس تكونت بحق فرق عسكرية من نوع متميز . وكان من ضمن الأهداف أيضا اختيار رجال من نوع جيد يمثلون كل القبائل ذات النفوذ فى المنطقة الخلفية وضمهم إلى تلك الفرق المختارة . وتقدم عدد كبير من الرجال للتجنيد أكثر من القوة المطلوبة . فتم الاختيار بدقة ، كما كان للقيادة رأيها فى

الاختيار . وفى النهاية أصبح الكل فخورا بفرق الكابتن هملتون . وكـان زيـهم بهيجا، ولكنه عملي ، وزودوا بأسلحة مشاة . وتكونت فرق الخيالة من رجال من الجانب الآخر من البحر ، لأن الخيول غير معروفة فى هذا الجزء من الجزيـرة العربية . فتكونت فرق الخيالة من الصوماليين . ولأن العرب لا يعرفون التفرقـة العنصرية واللونية فقد استقبلوا بمودة فى معسكرهم إخوانهم الأفارقـة بسـحنتهم الداكنة .

والتقينا مع الضباط العرب التابعين للكابتن هملتون على وجبة عربيـة بسـيطة ، حيث ناقشنا موضوع الجنود الذين سيرافقوننا . فقد كان الكابتن هملتـون مقتنعـا منذ البداية بضرورة مصاحبتنا بفرقة عسكرية صغيرة لحراستنا . وعندما تبين لنا أن جنوده كانوا فى نفس الوقت أشخاصا بارزين فى قبائلهم ، تلاشى نفورنا مـن اقتراحه . وسرعان ما اتفقنا على من سيقودنا. إنه محسن العولقي الحذر ، وأحـد أكبر الرجال الذين يحملون رتبة جاويش . وعندما أستدعي للمشاركة فى المناقشة رحب مبتهجا ، وعندما كان يتم اختيار الرجال الآخرين للانضمام إلينا ، تكشـف لنا أن اللحاق ببعثتنا كان يعتبر أمرا جذابا ويعتبر مفخرة . فسوف يجد مرافقونـا الفرصة للمرور عبر مناطقهم القبلية وسيشاهدون عوائلهم وأصدقاءهم مرة أخرى . وسوف يسافرون عبر مناطق مجهولة سمعوا عنها الكثـير مـن القصـص ، وعندما يعودون يحكون لرفاقهم عنها . وكثر الحديث عن حضرموت مؤخـرا ، فكان أمرا مثيرا للرجال عندما علموا أن هدفنا ذلك الوادي القصي الواسع الشـهرة .

تجمع الجنود أمام منزل هملتون فى مجموعات حسب قبائلهم ، وبدأ محسن فـى اختيار رجاله . واختار عددا كبيرا لكن تحدد سبعة كحد أقصـى لمصاحبتنـا . وبعد تبادل الكثير من الجدال والتعليمات اتفقوا جميعهم ، ووافق الكابتن هملتـون على المجموعة التى تم اختيارها لمصاحبتنا . وأضيف لهم أخيرا طباخ هملتـون ، وهو يمني صغير الجسم وله نظرات لماحة وشعر مموج ، وسرعان ما بدأ يحـس أنه ارتفع إلى مرتبة جندي ، فأخذ يبحث له عن بندقية . ورأى كابتن هملتون أنـه من غير المستحب أن نسافر بدون سلاح ، فوفر لنا بعض المسدسات والذخيرة . .
كان هناك جمع متنافر فى حديقة النخيل والمنزل العتيق المـهمل . جمـع يمثـل العديد من القبائل . ولكن سرعان ما شعرنا وسط الجنود العرب بثيابهم المهملـة أننا جزء منهم . كانوا كلهم من العرب ما عدا الخيالة الصومـاليين . ويلاحـظ المرء بجلاء على امتداد الساحل وحول عدن اختلاطا كبيرا مع العبيد والأجنـاس الأخرى من أصل أفريقي. ولكن رجال القبائل من الداخل ملامحهم سامية حـادة .

ويحيط بالإنسان هنا من كل جانب المرح الطفولي وصفـــاء النفـس . وبعــد أن تخلص الرجال من هموم توفير قوتهم اليومي ، أخذوا يتلهون بلعبة الحرب .
وبينما كنا منهمكين فى أخذ الصور ، إذ انطلقت صيحة تحذير ، وهي أمر مألوف لدى قبائل جنوب شبه الجزيرة العربية . فقد وصلت فى التو معلومات بأن قبيلـــة عدوانية على الساحل على بعد ٥٠ ميلا من عدن قامت بمهاجمـــة كوكبـــة مـــن الجنود وجرحت بعضهم . وصدرت التعليمات فورا . فجـــرى بعـض الجنـود لإحضار أسلحتهم وذخيرتهم ، وأخذ البعض الآخر يسحب المدفع الرشاش ، بينمـا قام آخرون بملء زجاجات الماء . وفى أقل من ربع ساعة وصلت إلى الحديقـــة مجموعة من الشاحنات والحافلات الصغيرة . ورفعت بعض العربـــات أعلامـــا مميزة ، حتى إذا دعت الحاجة لاستدعاء سلاح الطيران الملكي ، يستطيع الطيـار أن يميز العربات فى الميدان. وتم تحميل العربات على عجل ، واتخـــذ الرجـــال أماكنهم فى داخلها وعل سطحها ، وفتحت البوابات على مصراعيها . وعلى أنغام الأغاني وصيحات البهجة تحركوا إلى هدفهم . كانوا ينشـــدون أغـــاني الحـــرب المألوفة فى الجبال وينغمونها بإيقاعات تتناغم مع إيقاع الرقص السريع بـــالأرجل ، وتتخللها الزغاريد بين الحين والآخر ، وهي صيحات تطلقها النسوة فـــي كـــل العالم العربي تعبيرا عن الفرح والترحاب . هل يا ترى حياة المغامرة الرجاليـــة جذابة إلى ذلك الحد ؟ هنا يكاد المرء يعتقد ذلك .
وفى أثناء رحلتنا سنعرف الكثير عن الرجال الذين تم اختيـــارهم لنـــا , وبنهايـــة الرحلة سوف نعرف قيمة كل واحد منهم ومدى مساهمته فى نجاحها . ولن ننسـي عندئذ أن الكابتن هملتون هو الذى انتقاهم ودربهم وجعلهم يصلون إلى ما وصلـوا إليه , وقد انخدع فى واحد منهم فقط لأنه جندي غير محترف ذلك هو طباخه .
كانت الأيام القليلة التى بقيت لنا فى عدن مزدحمة بالاستعدادات الأخـــيرة التـــى أكملناها بفرحة مكبوتة . أخذوا منا أكبر سياراتنا . وسوف نبدأ الرحلة من أقصى الجانب الأيمن من عدن . كان حراسنا فى حالة إثارة لمشاهدة حضرموت التـــى سمعوا عنها كثيرا فى السنوات الأخيرة وعن ثرواتها وقصورها ووديانها . سوف يشاهدون ويسافرون عبرها بصحبتنا . أما نحن فكنا نعلم أننا سنرى مرة أخـــرى العديد من الأصدقاء فى المدن الحضرمية. وكنا على يقين من أننا سنلقى اســتقبالا حفيا . وكنا نتخيل الدهشة التى سترتسم على وجوههم ، وأسئلتهم المتلهفـــة عـــن الكيفية التى استطعنا بها الوصول إلى بلادهم ، ثم نذكرهم بما قلناه عنـــد رحيلنـــا قبل ثمان سنوات بأننا سنعود بمشيئة الله . إن دهشتهم ســـتكون المكافـــأة التـــى تنتظرنا عند النجاح فى الجزء الأول الشاق من رحلتنا .

لقينا فى عدن تشجيعا وعونا كبيرا من رجل مرموق آخر ، وصديق كل الرحالة ، وهو نفسه رائد فى مجال التجارة فى جنوب غرب الجزيرة العربية وفى الجانب الآخر من البحر الأحمر ، وهو رجل قدم الدليل تلو الآخر على القدرة الخلاقة والجرأة فى ارتياد مجالات جديدة . إنه أنطونين بس (Bess) العظيم على حد تعبير فريا ستارك فى كتابها "البوابات الجنوبية للجزيرة العربية". لم يكتف مستر بس بإنشاء بيوت تجارية فى تلك البلدان ، بل نظم خدمات ملاحية على الساحل بقوارب بخارية صغيرة عملية فى هذا الجزء المعزول من العالم. بل فعل أكثر من ذلك ، اشترى طائرات واستخدم طيارين ووضع خطة لاكتشاف طرق تجارية جوية جديدة . وفهمنا الرجل وفهمنا . وهو وزوجته من قدامى المهتمين بالدارسات السامية التى تناولت البلاد العربية . وتطابقت معها تجربتهما الشخصية التى امتدت عبر سنوات عديدة مكنتهما من امتلاك معرفة عن تلك البلدان وسكانها . إن تجربتهما العاصفة خلال العقود القلية المنصرمة نعجب بها ونغبطهم عليها . وأعطتنا الأفلام التى صورت من إحدى طائرات البس للطريق الساحلي إلى المكلا ومنها إلى وادي دوعن ، صورة عن أشكال وتكوينات سلسلة الجبال والهضبة الكبيرة وصفوف البراكين الساكنة وعجائب أخرى توقعنا أن نتعرف عليها ولكن ليست لدينا حتى الآن معلومات عنها . لقد حاول البس خلال حياته الحافلة أن ينفذ العديد من المشاريع الجريئة . وتخلى عن بعضها . منها ما انتهى إليه مصير مشروعه لخدمات جوية تكون عدن مركزا لها ، لأن المساعدات التى اعتمد عليها من الحكومات المهتمة لم تثمر . كما أن الحصول على طيارين جيدين كان صعوبة أخرى لم يستطع تخطيها . وربما نجح رجال آخرين فى المستقبل من تحقيق المشاريع التى خططها البس وسعى لتحقيقها. إن الطائرة وسيلة مثالية للسفر فى جنوب شبه الجزيرة العربية . وقدمت بريطانيا العظمى الدليل على ذلك عندما وضعت تلك المناطق تحت القيادة العسكرية لسلاح الطيران الملكي .

واطلعنا على لمحات من عمل سلاح الطيران الملكي عندما قمنا بزيارة لرئاسة السلاح . ووجدنا أنهم استخدموا خريطة فون فيسمان لحضرموت استخداما جيدا فى الاستطلاعات الجوية للمنطقة . وكنا قد حصلنا على مساعدة كبيرة فى رحلتنا الأولى من الملازم طيار ركاردس الذى وضع تحت تصرف فون فيسمان صوره الفوتوغرافية واستكشافاته والمادة التى جمعها . وهكذا وجدنا مرة أخرى بعض رجال السلاح الملكي الذين يهتمون بخططنا ، وأطلعونا على صور لبعض المناطق لطريقنا المقترح . وبرغم من الأهمية الكبيرة لهذه الصور بالنسبة للذين يترحلون فى مناطق مجهولة ، إلا أن قيمتها أكبر لمن يريد أن يضع خريطة لتلك

المناطق . وترتفع تلك الصور بالمسافر فوق شريط الأرض الضيق الـذى يـراه بالنظر المحدود من قافلته حتى ولو وسع من دائرة رؤياه لذلك الشريط بالتسـلق فوق قمم الجبال التى يمر بها . وفجأة تداعت افتراضاتنا عن تكوينـات سلسـلة الجبال والمرتفعات ، وأفضت إلى يقين استقيناه من تلك الصور الجميلة. وكـان من سوء حظنا أن عدد الصور المتوفرة عن الطريق الذى كنـا ننـوى عبـوره محدودة العدد وكثير منها كان عن حضرموت . وحظيت تلك المنطقـة مؤخـرا بعناية خاصة . فقد اقتضت خطة إخضاعها إلى إرسال عد من الحملات التأديبيـة التى قادها سلاح الطيران الملكي . وشاهدنا فى سلسلة من الصور الاسـتعدادات المكثفة التى سبقت تلك الحملات. تبدأ أولا بإقامـة مسـتوطنات فـى المنـاطق المتمردة ، ثم تلقى عليهم التحذيرات ، وعندما لا تأتى تلك بجدوى يتـم إخطـار السكان بالمناطق التى سترمى بالقنابل ومواعيد إلقائـها . وإذا لـم تجـبر تلـك الخطوات على إخضاع القبائل المتمردة ، تلقى عليها القنابل باستمرار حتى تنتشر الأقمشة البيضاء على الأرض إعلانا بالتسليم . بهذه الطريقة فإن حضرموت التى كانت لها سمعة سيئة بحروبها المميتة التى لا تنتهي ، قد تم إخضاعها بخسـائر قليلة فى الأرواح.

وشاهدنا فى تلك الصور الجوية فى سلاح الطيران الملكي فى عدن تاريخ هـذه الوسيلة الجديدة لنشر قبلة السلام البريطانية (Pax Britannica) على جزء هام مـن الجزيرة العربية. وعندما نكتب عن حضرموت الجديدة سوف نعـود إلـى هـذا العمل الهام الذى أنجز دون ضجيج ، ويلقى ترحابا فى منطقة عـدن الخلفيـة , ويتمنى كل الملمين بالأحوال هنا أن يتم تعميمه .

وما أن حصلنا على الإذن بالرحيل من عدن التى ستكون نقطة انطلاقنـا ، حتـى أسرعنا فى حزم أمتعتنا الضرورية لرحلة بالجمال تستغرق شهرا على الأقـل ، واشترينا المؤن لنا ولحراسنا .

يمكننا أن نقطع المائة وأربعين ميلا الأولى الممتدة على ساحل الجزيرة العربيـة الجنوبي بالعربات . ونستطيع أن نركب جميعنا ونشحن كل أمتعتنا فى اللـوري . فبدأت المفاوضات لاستئجار سيارة جيدة . والسعر المألوف لهذه الرحلة ثمـانون روبية ولكن السائق الذى أوصونا به طلب ٣٠٠ روبية . وبعد البحث اتضح لنـا أن المبلغ يشمل ضريبة فرضها سلطان شقرة على كل المسافرين بالعربات الذيـن يمرون بمنطقته . ثم أخبرنا السائق أن الموظفين لهم إعفاء من هـذه الضريبـة . ولم يوافق السائق ولم نجد سائقا آخر ينقلنا بأجر أقل خوفا من غضب السلطان إذا لم تدفع الضريبة . فتقدمنا بشكوى إلى الكولونيل ليك ، وكـان منـدوب سـلطان شقرة حاضرا ، فلقنه الكولونيل ليك درسا قاسيا . وفى نهاية الأمـر أرسـل لنـا

الكابتن هملتون إحدى عرباته ، وبعد برهة بعث لنا الكولونيل ليك بسائق ليعمل معنا . وأمره أن يتقاضى منا تسعين روبية ليأخذنا إلى نهاية طريق العربات الذى يمتد اثني عشر ميلا بعد شقرة . وتطوعت حكومة عدن بدفع نصف أجرة الترحيل مقابل ترحيل الحراس . وهكذا اتجه بنا السائق نحو شقرة ، ومازال يرتعد فرقا من السلطان الذى لن يحصل منا على أي ضريبة بسبب تدخل الإدارة البريطانية .

وكانت تلك البداية بالنسبة للضباط السياسيين مثل ليك وهملتون ، دليلا مهينا على عدم انصياع السلاطين للقانون ، وهؤلاء السلاطين بالتعبير الحديث هم لصوص فى مناطقهم. وطلب منا كل من ليك وهملتون أن نتخلى عن العادة القديمة القاتلة بدفع مبالغ عالية فى منطقة عدن الخلفية مقابل مرورنا بسلام عبر مناطق أولئك اللصوص . كنا سنفشل من البداية، وكان سلطان شقرة سيرغمنا على دفع ضريبة عالية لولا النفوذ الشخصي للكولونيل ليك .

اكتملت الآن الاستعدادات للرحيل . وقسمنا أمتعتنا على مجموعات بحيث يسهل نقلها أو ربطها على ظهر الجمل . وحملنا فيما بيننا آلات التصوير وحقائب القماش لجمع النباتات، والمواد السامة لقتل الحشرات ، وأدوات رسم الخرائط ، والمفكرات وكراسات الاسكتشات . وكانت نقود الرحلة فى أربعة أكياس ثقيلة من ريالات ماريا تريزا النمساوية ، فقسمناها بين أمتعتنا حتى نقلل من فرص ضياعها كلها . وسافرنا هذه المرة أيضا بدون خيمة ، مؤملين على قلة الأمطار فى البلاد وعلى الحصول على ظل من حرارة الشمس عندما نتوقف أثناء النهار. وكان معنا لأول مرة بجانب قرب الماء أكياس من القماش مثل التى يستعملها الأمريكيون والبريطانيون . وتذكرنا تجربتنا السابقة فى النوم القاسي على الصخور ، فحملنا معنا هذه المرة فرشا مطاطية يمكن أن تنفخ ، ورغم أنها ثقيلة إلا أنها تأخذ مساحة صغيرة. وكنا نأمل أن تحمينا تلك المراتب من البرد عندما ننام فى صقيع الجول . وشملت أغلب معداتنا الطبية على أقمشة للغيار وأدوية مرخصة ، وكانت بكميات كبيرة بفضل كرم المنتجين. ولم نتمكن من حمل كميات كبيرة من الهدايا . وكان صندوق المؤن هذه المرة أكبر من المرة الماضية ومشحون بالمواد . وعلمتنا التجربة أن مغادرة المعسكر قبل طلوع الشمس أي فى جنح الظلام ، قد يتأخر بعادتنا الأوربية بتناول إفطار ساخن. أما العربي فهو أكثر اقتصادا ؛ فهو يأكل بعد أن يكون قد قطع مسافة من المسير . لذلك قررنا أن نترك طبخ الإفطار الذى يضيع الزمن . وحشونا جيوبنا بدلا عن ذلك بثريد مضغوط جاهز للأكل ومكعبات من اللوز والفاكهة المضغوطة ، وكانت لذيذة ، أما مضغ الثريد المجفف مثل الصخر فكان يبعث على الغثيان . أما بالنسبة

لوجبات المساء فقد حملنا معنا قضبانا من أنواع مختلفة من الحساء ومربعات من Beef - tea وخلاصة اللحم . فهي خفيفة , ولا تأخذ مساحة كبيرة وتمنح الأكل الممل طعما ونكهة . وتكونت مؤنتنا للشرب من ثمن جالون من البراندي وبعض علب الشاي واللبن المجفف . وما عدا ذلك فاعتمدنا على ما يطبخه جنودنا للقافلة من الأكل العربي .

وفى صباح الجمعة ٢٤ مارس ١٩٣٩ ، رفعنا أمتعتنا من أمام فندقنا فى عدن على لوري حمولته طنين . ويعتبر يوم الجمعة يوما ميمونا عند المسلمين لبداية رحلة طويلة ولم نكن نخشى من خرافات الغرب . واتخذنا مكاننا فى المساحة المتبقية على سطح اللوري مع حراسنا ، وبدأت المغامرة التي ستجمع قدرنا طوال الشهرين القادمين.

هوامش

١- تثير شخصية هاري بريدجرفلبي (١٨٨٥ - ١٩٦٠) جدلا واسعا . هو رحالة بريطاني ، بل لعله أشهر الرحالة الذين جابوا الجزيرة العربية . عمل أولا موظفا في الإدارة البريطنية في الهند ، وذهب إلى الجزيرة العربية لأول مرة عام ١٩١٧ . ثم استقال من الحكومة البريطانية واعتنق الإسلام وسمى نفسه عبد الله . والتحق بخدمة الملك عبد العزيز آل سعود وأصبح مستشارا له . وزار حضرموت ، وله صلات حميمة مع السلطان علي بن صلاح القعيطي حاكم شبام . ولم يكن محبوبا لدى الإدارة البريطانية في عدن لأنه كان في اعتقادهم أداة للتوسع السعودي . ويتهمه البعض بأنه عميل للمخابرات البريطانية . ويقول البعض عنه إنه يعمل لصالح أمريكا . وكان ثاني رحالة يخترق الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، وأول من وضع خريطة للربع الخالي . قام برحلة إلى حضرموت لدراسة الآثار ، بدأها من نجران إلى شبوة حيث زار مواقعها الأثرية ، ثم إلى وادي حضرموت وعاد إلى المكلا . ألف عددا من الكتب منها : قلب الجزيرة العربية ؛ الربع الخالي؛ مرتفعات الجزيرة العربية ؛ بنات سبأ ، العربية السعودية وغيرها .

٢- فريا ستارك رحالة بريطانية . بدأت حياتها موظفة في سكرتارية الحكومة لبريطانية في عدن . اهتمت بحضرموت وقامت بعدة رحلات بين ١٩٣٥ - ١٩٤٠ . ألفت كتبا ومقالات عن رحلاتها .منها البوابات الجنوبية للجزيرة العربية ١٩٣٦ ، وشتاء في الجزيرة العربية ١٩٤٠ .

٣- فيلق هملتون . في عام ١٩٢٨ أنشأ الإبجليز في محمية عدن جيـــش "الليـــوي" ، وهي تحريف للكلمة الإنجليزية levy ومعناها المجندون . ويتكون مـــن مختلـــف القبائل . وفي عام ١٩٣١ عين الضابط هاملتون لقيادة فرقة الهجانة التابعة لليـوي . وكان الهدف منه استخدامه في المناطق البلية . (راجع : سلطان ناجي ، التاريخ العسكري لليمن . ص ١٤٢ وما بعدها).

٤- ولد هارولد وليام إنجرامس عام ١٨٩٧ . انضم للإدارة الإستعمارية عـــام ١٩١٩ وعين في زنجبار مساعد مفتش مركز ، ثم مساعدا للسكرتير الإســـتعماري فـــي موريشوص عام ١٩٢٦ . وفي عام ١٩٣٤ عين ضابطا سياسيا في محمية عدن ، ثم مستشارا مقيما في المكلا من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٤ . وعمل مفتش مركز أول في ساحل الذهب بين ١٩٤٦-١٩٤٨ ، وأخيرا مستشارا للشئون الأفريقية فـــي وزارة المستعمرات . وتوفي عام ١٩٧٣. ويعتبر أحد بناة الامبراطزرية البريطانية .

الفصل الثاني

المحاربون
المصبوغون بالنيلة
(The Indigo Warriors)

فى الوقت الذى كان فيه المسلمون يستعدون للذهاب إلـــى المســـجد لأداء صلاة الجمعة، تحركنا من مرفأ السفن الذى يسميه العرب التواهي ، وهو ميناء ومرفأ السفن ، وتمركزت فيه حتى وقت قريب المؤسسات العسكرية . يستمر الطريق لبضعة أميال على امتداد الميناء ثم ينحرف شمالا إلى البرزخ الذي يصل شبه جزيرة عدن الصغيرة مع الجزء الرئيسي من شبه الجزيرة العربية . وتقوم المساكن الرئيسية لعدن على سفح صخور جرداء وجزء منها فى داخل بركان ساكن يقع وسط تلك الصخور . إنها قلعة حصينة وعرفت بذلك واستغلت منذ الأزمان القديمة . وشيد حائط عال فوق السفح الحاد لسلسلة الصخور ، لحماية المدينة على جانب البرزخ من عصابات النهب القادمة من الجزيرة العربية . ويقع الميناء القديم أمام هذه المباني , الذى يسميه الإنجليز فوهة البركان ولكنه فى الواقع هو عدن الرئيسية ومازال العرب يسمونه كذلك . وشيدت حصون على قمة الصخور الحادة التى تقع قريبا لحمايته من الهجمات البحرية.

قام البريطانيون بغزو هذه المدينة قبل أكثر من قرن وحولوها إلى جبل طارق آخر. وأصبحت تحمي المداخل الجنوبية للبحر الأحمر والطريق البحري إلى الهند . واهتم الرجال الذين حكموا عدن فى المقام الأول بتقوية وسلامة الإمبراطورية , فيجب أن تكون عدن قوية وقادرة على حماية نفسها من كل الجهات . لقد أنجزت تلك المهمة خلال الحرب العالمية الأولى ما عدا مرة ولحدة عندما هوجمت من جهة غير متوقعة . فقد قام الأتراك بمهاجمتها من مرتفعات اليمن ، حيث استقروا قبل احتلال البريطانيين لعدن بفترة طويلة ، وفى هجوم قوي مرتب اكتسحوا مدينة الشيخ عثمان وشكلوا خطرا كبيرا على عدن . وكان جليا أن المدينة لم تكن محمية حماية كافية من الشمال .

إن مهمة عدن لتصبح قلعة تحمي الطرق البحرية لبريطانيا العظمى جعلها مكتفية ذاتيا بالنسبة للبريطانيين ، وصرف حكامها عن الاهتمام بالمنطقة الخلفية للجزيرة العربية . إلا أن خطر التدخل الأجنبي فى جنوب غرب الجزيرة العربية الذى ظهر حديثا أرغم بريطانيا أن تعطى اهتماما دقيقا لهذه البلاد ، التى تشكل حضرموت منطقتها الشرقية القصوى ، والتى حظيت باهتمام أكبر مؤخرا . وبدأ السلاطين الأقرب لعدن يظهرون نزعة استقلالية . ولم يدركوا بعد أن أيام الأساليب القديمة قد تخطاها الزمن , أيام طغيانهم ، وذكريات الفروسية والأمراء فى العصور الوسطى , واستعبادهم للفلاحين والسرقة والنهب بواسطة المرتزقة ، وصراعات الثأر وعدم الاستقرار . وسرعان ما ظهر لنا الدليل بأننا ندخل منطقة تخيم عليها أوضاع اجتماعية وسياسية ما كنا نرى أنها من الممكن أن تكون موجودة قريبا من معقل بريطانيا القوي فى عدن .

وبدأت عدن المتحفظة تبدي الآن اهتماما جادا بالاحتياجات التى ظهرت جليا فى ما يسمى مناطق الحماية ، وأدركت أن عدم التدخل ليس تماما مثل استقلال الشعوب العربية الحرة ، بل هو تفاد لواجب تحملته بريطانيا كدولة عظمى فى مناطق أخرى ولكن لم تهتم به حتى الآن فى ما يخص هذه البلاد التى تعج بالفوضى .

وما كدنا نغادر عدن بأنفاسها البريطانية الفواحة ونعبر البرزخ ، الذى أقيمت فيه الآن المطارات ومحطات اللاسلكي والمعسكرات الحربية ، وسرنا فى الساحل الجنوبي للجزيرة العربية ، حتى شعرنا أننا فى عالم مختلق تماما . وتركنا القاعدة البريطانية المزدحمة وراءنا ، وانطلقت سيارتنا فى الساحل المنبسط الشاسع مثيرة فزع الطيور البحرية، وتوغلت بنا سريعا داخل الجزيرة العربية الغامضة . كنا نربض على ظهر اللوري فى وضع غير مريح متشبثين بأمتعتنا ، ولكن الفرحة بالتوغل السريع داخل الجزيرة العربية كانت أكبر من أن تحتويها تلك المساحة الضيقة . و انفجر حراسنا بأغان ترتفع موجاتها فوق ضجيج السيارة وتجعل المسافرين فى الطريق بالجمال والحمير يحدقون مندهشين من الخليط الذى يضم مجموعتنا . وعندما يحقق الغناء توازنا فى أرواحهم المهتاجة ويصمت الرجال ، يقوم "وصي" ، وهو الاسم الذى أطلقه حارسنا على الدكتور فاسيلفسكى مساعد فون فيسمان ، باستخراج هارمونيكا من جيبه ، وأخذ يتبع الأغاني البدوية بألحان غربية تجد عادة استحسانا .

سارت الشاحنة على الساحل مسافة أربعين ميلا . وكنا نرى هنا وهناك صيادا منهمكا بشبكته على الهورى (قارب الصيد الصغير) ، وتعبر علينا بعض القوافل فى طريقها إلى عدن محملة بالحطب ، وقوافل أخرى متجهة إلى الداخل محملة بالدقيق والسكر وبضائع أخرى . وبعد مسافة قابلنا العديد من طيور البحر، وأحيانا مجموعة صغيرة من طيور الفلامنقو (flamingo) التى عندما كانت تطير تفرد أجنحتها الحمراء ويظهر جمال أشرطتها السوداء ، ونادرا ما نرى صقر بحر يربض وحيدا فوق جذع شجرة خاوية أو قطعة من حطام . ما إن اقتربت رحلتنا الخاطفة على الساحل إلى نهايتها ، حتى رأينا السائق يتطلع بحثا عن مكان مناسب ليدور إلى الداخل . وعندما اعتقد أنه وجد المدخل اتجه نحو الشمال حتى يتمكن من عبور حزام كثبان الرمل بأقصر الطرق . وعلى الرغم من أن المحاولة تمت بأقصى سرعة ، إلا أن العربة سرعان ما انغرست فى الرمال البيضاء الناعمة . خرجنا جميعنا . وأفرغ السائق العجلات من نصف الهواء ليجعلها مسطحة وأكثر ثباتا على الأرض؛ ثم قطعنا الأغصان والأعشاب وحشرناها عميقا فى مقدمة العجلات . وقمنا جميعنا بدفع العربة فخرجت بسلام . واستطاعت العربة عندما

أصبحت فى مجرى الوادي فوق مرتفع التل أن تقهر كثبان الرمل . ولو كانت تلك الكثبان أكثر ارتفاعا لكنا فى ساحل بحر الشمال فى هولندا . وبعد الكثبان جاءت صعوبة المجارى الرملية الجافة ، إذ بعد الأمطار تجد مختلف مجارى السيل طريقها إلى البحر . وعبرناها بفضل توحيد جهودنا ، ثم جئنا إلى الحقول المزروعة. وهنا يعيش أناس يرعون الأبقار والأغنام والخراف ، ويقومون بعد هطول الأمطار أو عندما تسيل الوديان من الجبال فى الداخل ، بزراعة مختلف أنواع الحبوب فى المزارع التى تغطيها الآن العيدان الجافة . فقد تم ربط سيقان الذرة الطويلة الجافة فى حزم كبيرة تبدو من البعد وكأنها أكواخ (ويسمى تكل) قرية . وصلنا وادي سماك حيث رأينا الكود ، وهي أول قرية تقابلنا منذ مغادرتنا عدن ، ومنها عبرنا إلى وادي بنا .

هنا وجدنا مدينة زنجبار (Zunjubar) التى جعلنا اسمها نفكر فى تجارة الرقيق القديمة مع زنجبار فى أفريقيا . وعبرنا بعد ذلك بمشقة العديد من الأودية الرملية . وتمتد على الجانبين الحقول الصالحة للزراعة ، تتخللها بالتناوب قطع من الرمال حيث توفر الأعشاب والصنت مرعى جيدا للجمال والماشية. وبمجرد أن عبرنا الكثبان الرملية حتى أصبح الاتجاه الذى نسير فيه نحو الشرق مرة أخري . وسرنا محاذين للساحل وكنا نلمح البحر بين الفينة والأخرى . وما إن اقتربنا من شقرة حتى أطبقت الجبال على الساحل وانتصب جدار حاد الانحدار بصخوره البنية وحجب الشريط الساحلي الضيق فى الشمال الغربي . كما راكمت الرياح العنيفة الرمال البيضاء عند سفح الصخور .

نقترب الآن من شقرة ، القرية الساحلية حيث يسكن حاكم سلطنة الفضلي. وكنا نعلم أن البريطانيين شيدوا مهبطا للطائرات هناك ولذلك عندما عبرنا قطعة أرض مسطحة وخالية اعتقدنا أننا وصلنا المطار . ولكننا بحثنا دون جدوى عن العلامات المميزة المعروفة التى تكون عادة فى الأطراف وفى الوسط وتطلى بالجير الأبيض . واتضح أن المهبط الحقيقي يقع بعيدا بين شقرة والجبال .

ظهر الآن مسكن السلطان . ويبدو من البعد رائعا عند مضاهاته مع البحر بخضرته وزرقته مع القرية . وعندما اقتربنا منه وجدناه بائسا وقذرا ومهملا . وكانت أيضا تلك نفس الحالة بالنسبة لقصر السلطان الصغير . وعلى بعد مسافة بعيدة من القرية ، ينتصب بناء أبيض وسط السهل هو بيت السلطان الجديد . وقريته التى كانت مأوى للقراصنة ، أصبحت الآن تتصل مع عدن بدرب عملي بالنسبة للعربات القوية . ووفر له دخول العربات دخلا جديدا من المكوس ، ولكن وضع على عاتقه أيضا التزامات ليحكم دولته بطريقة سلطانية . وكان هو السبب فى تشييد القصر الجديد . واشترى أيضا سيارة فورد بلون بني خفيف وفرشها من

الداخل بفراش من الجلد شديد الحمرة ، ووجدنا السلطان داخل السيارة الحديثة المترفة ويقودها ببطء من القصر الجديد فى اتجاهنا . فأوقفنا عربتنا فى السهل أمام القرية وانتظرنا فى احترام .

أدى فشل السلطان فى إيجاد عربة لنا بمبلغ ٣٠٠ روبية بسبب التدخل البريطاني ، أصبح مزاجه نحونا غير ودي . ولهذا السبب ، وحتى لا نعطيه مصدرا جديدا للغضب منا ، رأينا من الحكمة أن نغادر منطقته بأسرع ما يمكن . ولذلك انتظرنا مقدم السلطان بعدم ارتياح . كان يقود السيارة بنفسه . وشكلت مفارش العربة الحمراء خلفية جميلة لهذا الأمير المغطى بالنيلة الزرقاء . فلم يتم التخلي عن عادات البلاد بدخول العربة . كانت عمامته السوداء المستقيمة تلتمع بفضل النيلة التى صبغت بها . وكان الجزء الأعلى من جسده العاري يلمع بالنيلة . وكانت الفوطة التى يتمنطق بها مشبعة بنفس الصبغة ، دليلا على الثراء وعلى التمسك بالذوق القومي ، لأن النيلة تحمى البشرة من الأمراض وتعطيها مسحة من لون زنجي . والتف فوق فوطة السلطان شال متعدد الألوان ، وفوق ذلك حزام الرصاص ويبرز من الجسم غمد عريض فضي يطل منه مقبض الخنجر (الجنبية) . كان السلطان محاربا مزهوا قوي البنية ، يحلو النظر إليه . أما سائقنا وحراسنا فقد انبهروا فى الحال من طلعته البهية وتقدموا نحوه الواحد تلو الآخر لتقبيل يده الممتدة بغير اكتراث . فى تلك الأثناء التفتت أعين السلطان الحادة نحونا فاحصة . وسأل محسن قائد حراسنا عمن نكون وإلى أين نتجه . وبما أن محسن نفسه لا يعرف الإجابة فقد قال له :"لقد جاءوا لمشاهدة البلاد وتصويرها ورسمها " . ولم يصدق السلطان ذلك .

فقال :"بالطبع جاءوا للبحث عن الذهب أو النفط" . عند ذلك تقدمنا نحوه وشرحنا له ما ننوي القيام به . فقال :"إلى أين تتجهون؟" . فقلنا :"إلى حضرموت". ولم يصدقني أو أنه يريد معرفة المزيد وقدم لنا دعوة فاترة لنكون ضيوفه . ولكنني رفضت بأدب وحزم دعوته، مما أصاب جنودنا بخيبة أمل لأنهم يحبون الاستضافة في المنازل . وسوف تحملنا العربة فى نفس المساء إلى أقصى ما يصل إليه الطريق ، وكنا نأمل أن نواصل رحلتنا بالجمال فى فجر اليوم التالي . وسوف نكون ممتنين لأي مساعدة تقدم لنا للحصول على الجمال فى الوقت المناسب .

عاد السلطان إلى قصره فى شقرة ، وبدأنا المساومة مع الناس الذين تجمعوا حولنا ليوفروا لنا الجمال عند نهاية طريق العربات قبل فجر اليوم التالي . وعرضنا عليهم سعرا مجزيا إذا أحضروها فى الوقت المحدد . وبينما نحن نحادثهم غربت الشمس . فقمنا بتجديد مخزوننا من الماء من بئر القرية . ثم

صعدنا إلى العربة وواصلنا سيرنا فى الظلام الزاحف واتجهنا شمالا إلى سفح الجبال . وعبرنا أولا أرض المطار الحقيقي . ثم أخذ الطريق يصعد نحو منطقة قفر مغطاة بحمم بركانية (يعرف بعضها فى كل الجزيرة العربية باسم harras) (١) ، وتتكون من حقول سوداء تنتشر فوقها قطع من صخور حادة . إنه ابتكار جديد أن تسير العربات لعدة أميال فوق تلك التلال الوعرة ، وبرهان على اهتمام عدن بمنطقتها الخلفية .

كان من السهل إقناع السلطان بأن تشييد هذا الطريق لن يكون عائقا له بل على النقيض سوف يوسع مصالحه . ولهذا السبب سمحت له الحكومة بتشييد الطريق فى دربه الخاص . وقام المهندسون البريطانيون أولا بتحديد معالم الطريق، ثم تولى السلطان مسئولية إزاحة الصخور ، وكان يدفع للعمال من مبالغ حصل عليها من عدن . وسمح له بفرض إتاوات على العربات التى تحمل مسافرين وبضائع عندما تعبر منطقته . وشجع هذا كثيرا سير العمل فى الطريق .

وجدنا من المستحيل التقدم بسهولة فى الظلام الدامس فى ذلك الممر الصخري البدائي المتعرج الذى يصعد بشكل حاد إلى سفح الجبل . وتعرضت ماكينة العربة للإجهاد باستمرار ، وبدأت العربة تتدحرج إلى الخلف . فقفزنا كلنا خارجها وحاولنا وضع حجارة كبيرة خلف العجلات ، وكانت مهمة مثيرة وشاقة . ولم نتقدم فى خلال أربع ساعات سوى اثني عشر ميلا . على أننا وصلنا عندئذ إلى قمة حيد العرقوب . وهنا كانت حقول الحمم البركانية أقل قسوة فى مظهرها . وتوجد بعض الأماكن المسطحة الممهدة وكانت مناسبة لبسط فرشنا فوقها بعد إزاحة الصخور المبعثرة .

وتعاونا جميعنا فى إنزال أمتعتنا من السيارة ، وأخرجنا منها ما نحتاجه للأكل والنوم. وجدنا صعوبة فى البداية فى أداء تلك المهمة ، ولكن أسلوبنا تحسن بالممارسة . واتضح لنا أن البطارية لا غنى عنها فى الظلام . وتمكنا من نصب معسكرنا فى وقت قصير. واستطاع بعض رفاقنا الحصول على حطب الطبخ ، وسرعان ما اشتعلت نار المعسكر ، فكشفت بشكل مثير الفوضى الضاربة . وما إن بدأت الكمية الأولى من الخبز تهس فى المقلاة ، حتى أصبح جو المعسكر يبعث على الإلفة ، وعندما تصاعدت رائحة الخبز وحدت بيننا بشعور غامر من التوقع السعيد . من المحزن أن الإنسان فى المعسكر لا يملك الحرية الكافية ليتمتع بمباهجه مباشرة . ومهما كان الإنسان مرهقا بسبب مشاق اليوم ، فهناك واجبات عديدة لابد من إنجازها قبل الخلود إلى الراحة وكان من المهم التصدي أولا لأكثرها صعوبة، وتشمل هذه حفظ وتسجيل وربط حصيلتنا من النباتات والحشرات والفراش وعينات الصخور . وأخرج كل واحد منا بلا استثناء حقيبة

النبات وزجاجة الكحول . وأفرغنا جيوبنا من الحجارة والمتحجرات وما شابهها . وإذا كانت الرياح لا تهب فإن هذا العمل مستساغ . ولكن عندما تهب نسمات الليل، كما هي الحالة في البقاع الجرداء ، فيالها من مطاردة تلك التي تبدأ مع أوراق النشاف التي تستعمل لتجفيف النباتات حيث أخذت تتطاير مختفية , وأيضا الأوراق الأخرى التي تكتب فيها الأسماء والتواريخ . وتتطلب مهام التصوير أيضا عملا مضنيا كل مساء . فيكتب على كل فلم تاريخه ومكان تصويره ويحفظ بعيدا بعناية . وتعد الأفلام الجديدة التي تستعمل في اليوم التالي . ثم تأتي كتابة المذكرات ، فتفحص المعلومات التي جمعت أثناء اليوم وتضاف لليوميات . وننتهي بفتح الفرش المطاطية ، والاختفاء خلف قطع من الأمتعة حماية من الرياح التي تهب عادة أثناء الليل .

ولكن بعد كل هذا العناء تأتي وجبة المساء وتجلب سكونا محببا . إن هذه الوجبات المسائية أمتع وقت في ليل المعسكر ، فالكل في مزاج سعيد . وعلى استعداد تام لإزالة أي خلافات ومشاحنات تكون قد نشأت أثناء الحرارة ومشقة السفر نهارا . وكان الجلوس حول نار المعسكر وطبق الأكل على الحجر ، أنسب مكان لتأكيد التلاحم وحسن النية ، وفي لمحة تتقلص مشاحنات اليوم التافهة التي كانت تنشب أثناء اليوم وتقليصها بنكتة إلى حجمها الحقيقي ، وتتلاشى هنا الفوارق القبلية والاجتماعية وعندما نجلس في دائرة حول النار ، تنشأ بيننا وحدة رفاقية ، بينما تحيط بنا في الخارج الفيافي والوحشة والمخاطر التي تهدد الإنسان إذا كان وحيدا. إن الرفقة الحقة تساعد في التغلب على الخلافات . لذلك فإن القائد الحصيف يستغل الوجبات الجماعية حول نار المعسكر ليلا لتمتين وحدة قافلته وتفادى أي انفجارات قد تهددها .

لم تتمتن وحدتنا بعد في حيد العرقوب بشكل حقيقي ومتكامل . ولم يلحق بنا البدو بعد ، وما زالت رائحة الحضارة تشع من العربة ، ولم يكن السائق مكترثا لحياة المعسكر . على أننا سرعان ما نبدأ نستنشق رائحة الجمال النفاذة التي ستحيط بنا وتلازمنا . ونسمع خوارها الخافت من أعناقها التي يبلغ طول الواحدياردة ونصف ينبعث في الظلام الذي يغلف المعسكر ، ونسمع تنهدها العميق عندما يقاطع اجترارها المنساب مضغها للطعام .

يرتفع المعسكر في حيد العرقوب بين ١٤٠٠ و ١٧٠٠ قدما فوق سطح البحر . ومازالت شقرة واضحة في البعد قريبا من البحر عند الشروق في صباح اليوم التالي . وكان المنظر مهما بالنسبة لفون فيسمان الذي بدأ الآن في رسم خرائطه وأخذ إرتكازات المكان ، أما الطول والعرض فقد حددته الجداول الجيدة التي وضعتها البحرية البريطانية . فتسلق فون فيسمان وفون فاسيلفسكي قمة جبلية

ومن هناك أخذا مرتكزات القمم الرئيسية ومعالم أخرى ووضعاها فى اسكتشات ضمناها مذكرة الطريق . بعد ذلك كنا على استعداد للتحرك.

سرنا صاعدين بالعربة حتى نهاية الطريق . ووجدنا هناك عمالا من العرب يعملون جاهدين فى المدخل الغربي إلى هذا الجزء من الجزيرة العربية ، ويراقبهم جندي من جنود سلطان شقرة . كانوا يرتاحون فى ذلك الوقت من الظهيرة ، وكنا محظوظين أن نجد ظلا فى خيمة المراقب لنحتمي بها من حمارة القيظ التى لم نعتد عليها بعد . وسرعان ما وصل الرجل الذى تعاقدنا معه فى شقرة لتوفير الجمال ، ومعه سبعة جمال ، واحد منها لركوب السيدة فون فيسمان والبقية لحمل الأمتعة .

إن تحميل الجمال فى المرة الأولى دائما صعب . ويتم بحذر شديد وبعد خلافات متعددة بين الجمالين ، يتم توزيع المتاع وربطه فوق الجمال التى كانت تحتج فى اكتئاب . وفى مثل هذه الحالات كلما قل تدخلنا كلما كان ذلك أفضل لراحة بالنا ، أي أن نترك البدو يقسمون ويتشاجرون فيما بينهم . على أننا أرغمنا فى أوقات كثيرة أن نهتم اهتماما بالغا بموضوع تحميل الأمتعة لتفادى الكثير من التعطيل لبداية الرحلة ولنضمن سلامة الصناديق التى تحوى موادا قيمة مثل النباتات الجافة وأجهزة التصوير حتى لا تربط مع قرب الماء التى تتصبب منها القطرات .

وفى الأسابيع التالية ستكون الجمال محط اهتمامنا الأول وقادتها محط اهتمامنا الثاني. وسيكون التشكي منهما ، ولكن من قادتها على الأخص ، نزعة توشك أن تكون جامحة . على أنه من الأهمية بمكان لنجاح الرحلة أن نحافظ على علاقات ودية مع الجمالين تقوم على الحزم ممزوج بمودة رفاقية ديمقراطية. وإذا استطعنا أن نجعل كل واحد فى مزاج سعيد وأن يتعلموا محبة بعضهم البعض، عندها يمكن التغلب على العوائق والتعب بسهولة . وعلينا أن ندرك أننا فى نظر البدو المصاحبين لنا أجانب غامضون ومراسنا صعب ، وتصرفاتنا تتناقض بشكل فظيع مع قواعد سلوك القوافل . فبدلا من أن نسافر ليلا فى فصل الصيف كنا نفعل كل شيء أثناء النهار حتى نتمكن من أن نرى البلاد ونرسم الخرائط ونأخذ الصور . واختلفت أوقات راحتنا مع أوقات البدو ، والأماكن التى نختارها لم تكن محسوبة لتوفر أفضل مرعى للجمال . ويرجع كثير منها لسوء فهمنا ، ووجدنا أن البدو اعتادوا أن يكونوا سادة أنفسهم . لم يتعلموا أبدا على الطاعة ، وبالنسبة للأجانب الذين يبدو أنه لا دين لهم ولا يؤدون الصلاة فلا يلقون منهم احتراما . وهناك صعوبة أخرى ، كان علينا أن نغير جمالنا باستمرار ، ونغير بالطبع الذين يقودونها . لذلك كان علينا أن نتعامل من وقت لآخر مع أشخاص جدد ونحاول أن

نفهمهم ونقربهم إلى طباعنا . وكان الجهد الذى نبذله معهم غالبا ما يـــأتي بنتـــائج مرضية .

لا يسافر الإنسان عادة فى اليوم الأول من الرحلة بعيدا : فـــلا بـــد مـــن ترتيب الأمتعة وحزمها جيدا . لم تكن المسافة إلى معسكرنا التالي إلى بئر لامـــص كبيرة ولم يشكل السير إليه مشقة . وتقع خلفنا سلسلة التلال الصخرية والحجـــارة البركانية الحادة ، لم تعد هناك منحدرات حادة بل أرض قليلة التعـــاريج وأمامنـــا قطع صخرية ورملية . وعندما تحركنا مباشرة بعد الظهيرة ، كان الحـــر شـــديدا ولكن هناك نسمة والهواء جاف جدا . وكنا نمشى عند بداية الرحلة بخطـــو وئيـــد لإحساسنا بالرضى . وكانت الجمال تطأ الحجارة والرمال بخفـــها فـــى هـــدوء . وصرير أمتعتنا يرتفع ولا يخفف منه ربطه الجيد بالحبال . وسار البـــدو بجـــانب جمالهم تعلوهم نظره تساؤل من الحمل الذى مافتىء يتأرجح . واختفى عن ناظرنـــا عمال الطريق والعربة وهي آخر ما وصل إليه التوغـــل الغربـــي فـــى البـــلاد . وأحاطت بنا جبال صخرية عتيقة ، تفتتت سفوحها بفعل الريح والرمال المحرقـــة . وأدى الفرق الكبير بين الحرارة فى النهار والليل إلى تحويل الصخـــور الضخمـــة إلى قطع صغيرة . وعلى مد البصر لم تتغير طبيعة هذه الأرض . كـــان الـــهواء يرتعش فوق الجبال وكثبان الرمل فتبدو أشكالها غير حقيقية . ويبدو كل شيء فـــى البعد غائما ومجسدا : أعشـــاب الصحـــراء القويـــة تصبـــح مثـــل الشـــجيرات ، والشجيرات تتخذ شكل الأشجار . إنه عالم صامت لا يسمع إلا حفيـــف الطرفـــاء عندما تحركها الريح ؛ أما الأعشاب الأخرى والأشجار القزمة قوية وجافة وغالبـــا شوكها طويل ، فلا تستجيب شجنا مع النسيم . الحيوانات نادرة . وعندمـــا تظـــهر فإنها نادرا ما تفلت من أعين البدو والجنود الفاحصة ، وإذا كانت صالحة للأكـــل فتطارد بإصرار . وسوف تقل الحيوانات وتصبح تسلية كبرى فى رحلتنا الرتيبة .

كان النبات أكثر خضرة مما كنا نتوقع ؛ بل أصبح أكثر تنوعـــا عندمـــا اقتربنا من وادي لامص حتى أن الأبقار تجد مرعى كافيا . وعندما ظهر قطيع من أبقار مبيضة ، كانت بشرى بالاقتراب من أماكن مأهولة .

كان وادي لماس جافا وتغطى مجراه أعشاب كثيفة . وأصبحت ســـفوحه أكثر ارتفاعا وحدة كلما واصلنا السير . وفجأة انتبهنا مذعوريـــن لصـــوت طلـــق ناري أخذ صوته يتردد فى أصداء متتابعة . وقلنا لأنفسنا إنـــها مصـــاعب غـــير متوقعة . وعندما نظرنا إلى أعلى نحو الاتجاه الذى جاء منه الطلق الناري رأينـــا على حافة الهضبة فى جزء عمودي من جدار الوادي الصخري عددا مـــن الوبـــر wubar الصغار (جمع وبر wabar) تنطلق ناجية بنفسها وتختفي فى شقوق الجـــدار . وعندما سمع الجنود كلمة وبر ، انطلقوا إلى جانب الوادي وأخذوا فى التســـلق .

ووصل أحدهم إلى الحافة ووجد آثار دماء ولكن لم يتمكن من العثور على الوبـر . وحل الظلام وحان وقت التوقف عن البحث والتحرك إلى المكان التـــالي دون أن نضيف لحم الوبر إلى وجبة المساء .

وسرعان ما وجدنا بقعة ناسبت البدو ولكنها لم تكن مناســبة لنـا . وتـم إنزال حمولة الجمال بالقرب من آبار لامص . أما نحن فقد نشرنا فراشنا أقصى ما يمكن فى بطن الوادي الرملي المتجعد . ويبدو أن القوافل تعسكر هنا كثيرا حتــى أن كل التربة حولنا كانت موبوءة بقمل الجمال . وهي فى الواقع لا تفضل دمـــاء البشر ولكنها تقتنع به عندما لا تجد جمالا . ورأيناها على ضوء البطاريات تزحف نحونا وسرعان ما تسلقت سيقاننا . وحاولت أن تصعد إلى أعلى بحثا عن مكـــان ناعم فى بشرتنا تلتصق به ، وتأخذ فى امتصاص الدم حتى تنتفخ وتصبـــح مثـل حبة البازلاء . وعندها كان لابد من انتزاعها بقوة ، ولمدى أيام تبقى بقعة زرقـــاء – حمراء فى المكان الذى كانت تتغذى منه . ولا تحدث احتكاكا ولكـــن دغدغـــة خفيفة. ولم أسمع أنها تنقل عدوى أو مرض ولكن بالنسبة لنا الذين افتقدنـــا عـــادة التعايش مع الطفيليات فالأمر مثير للغثيان . ومن حسن الحظ فإن هذه الحشـــرات التى تشبه لحد كبير قراد المنزل لا تخترق بطانية الصـــوف ولا تتسـلق الفـــرش المطاطية المنفوخة .

ولكن هناك الكثير من الواجبات التى تحتاج إلى إنجاز قبل أن ننـــام فـــى راحة وسكينة. وحالما اشتعلت نيران المعسكر فى بئر لامص ، حتى شعرنا فـــى الظلام المحيط بنا بوجود أشخاص جذبهم اللهب وضوضاء حركتنا . لم نتمكن مـن تبينهم ولكن جنودنا سمعوا أصواتهم وتبينوهم فى الظلماء . فقد التقط أحد الجنـــود عودا ملتهبا ورفعه عاليا ليضيء دائرة واسعة . وفى الحـــال تقـدم الفضوليـــون الغامضون وعرضوا خدماتهم على أمل أن نسمح لهم فيما بعد بمشاركتنا الطعام أو أخذ الفضلات وهي بالنسبة لهم نعمة غير متوقعة .

وجاء أيضا لزيارتنا شيخ المنطقة التى نعسكر فيها . ولم يأت متسولا بـل صاحب سلطة ، يحمل بندقيته ويتمنطق بحزام الرصـــاص وبـــالخنجر ويصحبـــه بعض أتباعه المسلحين. لم يكن وديا فى لقائه بل جاء يحمل مطالبا ، واخذ يـــراوغ ليرى كم من النقود يمكن أن يستخلصها منا . فأظهر نغمة ســـاخطة ولعـــب دور الشخص الذى وقع عليه تعد . فقد دخلنا أرضه بدون إذن منه . وكان ذلك صحيحا . فقد حصلنا على موافقة سلطان شقرة الذى يمتد نفوذه حتى بئر لامص . وحدثـت مناقشة طويلة . كان ذلك أول درس بالنسبة لنا فى طريقة السفر فى هـــذه البـلاد دون أن نتعرض إلى كثير من السلب والعراقيل . حاول الشـــيخ أن ينـــتزع منـــا ضريبة المرور بأرضه . وأجبناه أن الحكومة أكدت لنا أنه لا يحق له أن يســـألنا

عن الضريبة أو يأخذها منا وأوكلت لنا مهمة إيقاف مثل هذه الإتاوات والممارسات المثبطة للهمم. وعندما لم تنجح هذه الحيلة جرب الشيخ حيلة أخرى . كان علينا عند المرور بأرضه أن نستأجر منه الجمال ؛ وعند ذلك سوف يصاحبنا بنفسه ويتولى حمايتنا وطبعا سوف نجزل له العطاء . وهنا لراحتنا الكبرى برهن محسن قائد الحرس أن له صفات المفاوض . كان مهذبا لحد بعيد ومتماسكا ومستساغا وصبورا في الاستماع للجانب الآخر . فكان يستمع حتى تأتى اللحظة المناسبة عندما يكون كل جانب قد حدد موقفه بوضوح ووقف بجانبه بصلابة . عند ذلك يتدخل بملاحظات تلطف الجو ، ويتقدم بحل وسط يبني جسورا بين المنطق الغربي الصارم وشراهة البدو الفجة . كان واضحا منذ البداية أن علينا ان ندفع . فأصدقاؤنا البريطانيون كانوا بعيدا جدا ولم نكن مؤهلين بشكل كافي لقهر العادات السيئة المتأصلة فى منطقة عدن الخلفية . وجدنا مخرجا وأرضينا ضميرنا بتقديم تعويض لأننا لم نستأجر جماله ، ووضحنا له أننا لا نستطيع تضييع الزمن فى تغيير الجمال . لم نجعل مهمة الشيخ سهلة لاستخلاص ضريبته منا ، ولم نستسلم لمطالبه ولكننا أنهينا المناقشة بتقديم تعبير بسيط لصداقتنا . وكنا نأمل أن نزيح الانطباع بأننا أغنياء لأن مثل هذه السمعة خطيرة وسوف تفضي بنا إلى مشاكل تتعقد عند كل حاجز نمر به .

وعندما غادرنا الشيخ مع أتباعه انهينا يومنا بوجبة بسيطة . وحول رماد نار المعسكر المتوهجة وضعنا عددا من الحجارة المستديرة التى أحضرناها من بطن الوادي . وأعد الطاهي عجينة ، ثم التقط الحجارة الساخنة واحدا واحدا ونفخ عنها الرماد ووضع شطائر العجين بين الحجارة . وفى بضع دقائق كان هذا الخبز معدا وتناول كل واحد من أفراد المجموعة حجرا فوقه خبزا . وأزحنا قشرة الخبز وعلى الرغم أن بعض أجزائها به طعم الرماد والرمل إلا أن طعمها كان لذيذا جدا. ويقتضي السفر مع قافلة أن يأكل الجميع معا ، ويتقاسمون الطبق البدوي البسيط وأحيانا بعض الكماليات الغربية . كانت وجباتنا قصيرة ومكثفة . والكل راغب فى المشاركة فى إعدادها وكانت نكهتها الشهية تثير أقسى قلب بدوي . وفى أوقات الوجبات تصل روح المجموعة ذروتها ونصبح أكثر توحدا . ولابد أن يتبع ذلك أغاني دانا البدوية التى تشق السمع ، وإذا لم نتدخل فسوف تستمر إلى ما بعد منتصف الليل لأن رفاقنا نادرا ما يرهقون .

وتأخر تحركنا كثيرا صباح اليوم التالي . فى بئر لامص بئران كبيران مازال بهما ماء بينما المنطقة المحيطة بهما جافة . فتجمهر الناس من مناطق بعيدة وجاء سكان المنطقة بحميرهم ليحملوا الماء فى قربهم الكبيرة . ومنذ الصباح الباكر كان هناك تجمهر من الرجال والحيوانات حول البئرين . ولفت هذا انتباهنا

وأعطى رفاقنا من البدو الفرصة للتلكؤ . إن أي يوم يتأخرون فيه ويطيلون من أمد الرحلة يعنى بالنسبة لهم دخلا إضافيا دون القيام بعمل.

كانت الجمال والحمير والبقر والأغنام والضأن تنتظر مع رعاتها بالقرب من الآبار. وتقوم النساء بمهمة السقي ، إلا إذا كان حمل الماء ثقيلا فيتدخل الرجال . ويبلغ عمق الآبار فى بئر لامص ثلاثين قدما وقطرها عشر أقدام ، وليس فيها ماء كاف يساعد على نشله بطريقة عادية . فيقوم الرجال بالهبوط إلى قاعها حيث يتجمع الماء فى حفر ثم يغرف فى قرب جلدية تتدلى من حبال . ثم ترفع النساء القرب ويصببن الماء فى أحواض خشبية لتشرب الحيوانات المنتظرة ، أو فى قرب للقرويين المنتظرين . وبالطبع فإن الماء الذى يغرف من قاع البئر أبعد من أن يكون نقيا . ولكن الماء عنصر ثمين جدا فعندما يصبح نادرا فلا الإنسان ولا الحيوان يهتمون بجودة عالية . وتقوم الراعيات بإصرار وباستمرار بطرد الأغنام بعيدا عن حوض الشرب حتى تشرب الأبقار والحمير والجمال والضأن المنتظرة فى صبر. وسرعان ما ألفتنا النسوة ، وعلى الرغم من أنهن كن وجلات فى البداية من آلات التصوير ، إلا أننا نجحنا فى النهاية من أخذ صور لهن فى ذلك الوادي .

وعندما رفعنا متاعنا على الجمال وانفض المعسكر أدركنا أن الوقت تأخر كثيرا ولن نتمكن من الوصول إلى لودر فى نفس اليوم . وسار الممر فى البداية مع الوادي وسرعان ما رأينا قرية بمنازل بيضاء تربض فى الجانب المنحدر من الوادي . هنا المساكن الشتوية لسكان الوادي الذين يفضلون أن يسكنوا فى الصيف فى أكواخ من الطين وأغصان أعشاب جافة تربط مع بعضها وتغطى بحصيرة ، وتحاط بسياج سميك من الشوك حماية من الحيوانات المتوحشة . وتقف منازل الحجر فى الأعلى بعيدا من مجرى السيل فلا تتعرض لطوفان المياه فى فصل الشتاء . تقع القرية الصيفية بالقرب من بطن الوادي . وعندما استدارت القافلة حول القرية اقتربنا بحذر لأخذ صور لأسلوب الحياة . كان السكان على استحياء ولم نلق أي معارضة ، حتى جئنا على رجل ما إن رآنا حتى التقط حجرا واندفع نحونا بسيل من الشتائم المقذعة . ووصل صياحه إلى القافلة وفى الحال هب الجنود لنجدتنا، ولكن المهووس البائس لم يهدأ ، فتركناه للجنود واختفينا سريعا تحاشيا للمزيد من الاستفزاز. وعلمتنا التجربة أنه من الخطأ بالنسبة للأجنبي أن يقترب بمفرده من مساكن الأهالي ؛ يجب أن يكون مصحوبا دائما بأحد رجال المنطقة .

وسرعان ما افترق الدرب عن الوادي وبدأ يتعرج عبر سهل شاسع حيث ظهرت خطوط الممر الجبلي للقرى المظللة فى أعلى حافات التلال البعيدة . وشيخ

هذه المنطقة هو الرجل الذى جاءنا فى الليلة السابقة وظل ملازما لنا منـــذ الفجـر واعتبر نفسه دليلنا (سيارة) فى منطقته . وأقيمت القرى هنا بـــالقرب مـــن قطـع صغيرة من الراسب الطفالي حيث يمكن الزراعة . وأخبرنا الشيخ أن أربع سنوات من الجفاف أدت إلى قسوة شديدة حتى أنهم من أجل جلـــب المـــاء لاحتياجاتـــهم اليومية عليهم قطع مسافات بعيدة لجلبها من الآبار القليلة التى لم تجف .

وكانت الأرض التى نسافر عبرها تفتقد الماء اللازم لحياة النخيل . فـــلا نرى هنا أغصانها الخضراء بأطرافها الحادة التى تدل على الرفاهية العربية . وما زالت هذه منطقة النبق (يسمى أيضا العلب أو السدر ، وهي شجرة المناطق الجافة وشجرة الفقراء) . وثمرها الدوم واسع الانتشار ، حتى أن المارة يسمح لهم بـــهز الثمر الصغير من الأغصان أو رمي الشجرة بالحجار ليتســـاقط . وتحـــت هـــذه الشجرة تجد الراعيات وأغنامهن ملجأ من حرارة الشمس . وفـــى أوقـــات نقـــص الطعام يتسلقن الأغصان ويضربن الأوراق والأغصان بأعواد طويلة . إن منظـــر الأغنام وهي تقف على أرجلها الخلفية وتتطلع بتوقع إلى أعلـــى نحـــو الشـــجرة ، منظر يرتبط بلا استثناء بالنبق . ودخلنا أمصرة قرية الشيخ الكبيرة لمشـــاهدتها . والشباب فضوليون بشكل مزعج وغير مهذبين نحونا . وقد لاحظنا باهتمام هنـــا ، وكذلك فيما بعد ، أنه على الرغم من النفور الكبير الذى يبديه جمـــهور الأهـــالي نحونا ، فهناك قلة من الأفراد الذين يتألمون يأتون إلينا فى ثقـــة . فجـــاء جماعـــة وطلبوا مساعدتنا لطفلة ظلت تعاني لمدى شهرين ونصف من التهاب فى فكـــها . وكنا نرفض بقدر الإمكان الطلب لمساعدة طبيـــة : نحـــن غـــير مؤهليـــن طبيـــا ومخزوننا من الأدوية محدود . ولكن أحيانا ما كان باستطاعتنا تفادى تلك الطلبـــات فنوزع المراهم المطهرة والأدوية . يبدو أن الأهـــالي علـــى يقيـــن أن الغربييـــن المسافرين لا بد أن يكونوا أطباء . وما أن نبدأ فى تقديم المساعدة حتى يأخذ عـــدد المرضى يزداد بسرعة فيزداد حجم مسؤليتنا . بالنسبة للفتاة التى تعانى من جـــرح متقيح وعدناهم بأننا ما أن نصل لصندوق الأدوية وذلك فى نقطة توقفنا التاليـــة ، فسوف نرسل محلول بوريك وبعض الأشرطة . ولكن ما فائدة البوريك والأشـــوطة فى أيدي لم تغسل لأشهر ، وفى منازل لا يتوفر فيها إلا ماء الشرب فقط ومليئـــة بالذباب ؟ وحتى الطبيب سوف يواجه هنا مشاكل غير قابلة للحل .

توقفنا عند الظهيرة تحت ظل شجرة صنت لا تنفذ إليه الشمس . واندهـــش رفاقنا لأننا دائما نختار أماكن بعيدة عن سكن البشر . يتوفر هنا احتمـــال لراحـــة حقيقية وبعض النسمات ولكن الظل ليس ظليلا . وحاولنا أن ننشر بطانياتنا فـــوق قمة الأشجار المليئة بالشوك وكانت تلك مهمة شاقة ، خصوصا مع هبوب الريـــاح.

وأخذ الظل أيضا يتحرك مع الشمس . وعندما تكون الراحة غير كافية فهناك الأمل فى أننا سوف نتحرك سريعا . تتحرك قافلتنا عادة الساعة الثالثة بعد الظهر.

الممر جيد ، وعموما مسطح وينحدر تدريجيا إلى وادى الجوف . وأصبحت الشجيرات أكبر وتتخللها أشجار صغيرة . وهنا أيضا توجد الحيوانات بشكل أكثر . قفزت بعض الأرانب وانطلقت بعيدا من القافلة ، أخطأ الحراس اليقظين دوما من إصابتهم . وبذل الحراس قصارى جهدهم لتوفير شيء إضافي لوجبة المساء وأخذوا يبحثون بجد فى دوائر واسعة ولكن لم يحالفهم الحظ .

أقامت طيور الحباك عشها فوق أغصان الأشجار الشوكية ، وكان خفق أجنحتها وسقسقتها مصدر تسلية كبرى لنا ، حيث اعتدنا السفر فى أرض أحال الجفاف والحر الحياة فيها إلى موات . ويقع هذا الجانب من الطريق فى الطريق التجاري الكبير من البيضاء فى جنوب اليمن إلى الساحل بالقرب من شقرة ثم عدن. قابلنا العديد من المسافرين وحاولنا تبادل الحديث معهم . كانوا رجالا بسحنة داكنة تكاد تكون سوداء ، وزادوا من سوادها بمسح بشرتهم بالنيلة . وامتطوا جمالهم وتركوا بنادقهم تسترخي فوق ركبهم ، أو يسيرون بجانب حيواناتهم والسلاح لا يفارقهم يحملونه مثل النير على أكتافهم وتتدلى أيديهم فوق عقب البندقية .

ظهرت الجوف عند المغيب . إنها قرية كبيرة مربعة بها بعض المنازل الحجرية والعديد من الأكواخ تنشد حماية الحصون الصحراوية التى تحمى المكان. ويبدو أن المكان غني بالماشية ، إذ عند المغيب كانت قطعان الأغنام والضأن وبعض الأبقار فى رواح نحو القرية . والقرية محاطة بخندق من الروث الجلف . يأتي بعد ذلك حزام عريض من المزارع تنتظر السيل الذى تعتمد عليه الزراعة . ومازالت عيدان الذرة فى المزارع التى ظلت جافة لفترة طويلة . حتى الآبار فى الجوف جافة . تجلب كمية الماء الضرورية من مسافة ثمانية أميال وتحمل فى قرب على الحمير . أمكننا أن نتخيل العبء الثقيل الذى يقع على عاتق النسوة لاستيفاء الحاجة اليومية الماسة للماء . والأطفال الذين تجمعوا حولنا لم يغتسلوا أكثر من بضع مرات فى العام وذلك عندما تهبط عليهم نعمة السيل من جبال اليمن. والشخص الذى يبشر بقدوم السيل يحظى بجائزة من المجتمع . وهو أيضا بشير بالولائم . عند قدوم السيل يصبح الكل فى حركة : فلابد من حراسة السدود والقنوات فى المزارع وصيانتها بقدر الإمكان حتى يبقى الماء الثمين ويحفظ فى الأعماق فى المزارع وبالقرب من القرى . وتبدأ فترة اللهو المثالية بالنسبة للصبية. فيغطسون ويتراشقون بالماء ليعوضوا عن حرمانهم لأشهر وأشهر متتالية. ويتحلق الكبار حول البحيرة الصغيرة طال ما بقيت ويستمتعوا لساعات

بمنظر ورائحة الماء الوفير . وسرعان ما يختفي الماء ولكن الطفال يختزن ما يكفى منها لنضج محصول سريع .

ولكن الأطفال الآن يقفون حولنا ببشرتهم الرمادية وأجسامهم العارية . ويبدو أن أجسامهم تقاوم الغبار والجفاف لأننا لم نر أي أثر لأمراض جلدية . ولكن تتعرض عيونهم لخطورة أكبر من الغبار والذباب . فكانت حالات مرض العيون كثيرة .

نصبنا معسكرنا فى مجرى السيل الرملي ، على بعد مناسب من جدران الروث والغبار ورائحة الجوف . وبدأت مشادة حادة حول شراء شاة ، ليس لأننا نريد أن نوفر بعض الريالات النمساوية ، ولكن لنبرهن بكل بساطة أننا بشر عاديين لنا عقل ونحمد الله على النعم التى أسبغها علينا . وتوصلنا فى النهاية إلى اتفاق ، وبينما كانت الوليمة تعد فى طرف المعسكر أخلدنا إلى النعاس . وتابع القرويون وكلابهم فى اهتمام صامت كل تفاصيل إعداد الوليمة . ونمنا فى الحال من الإرهاق الشديد فى الهدوء الشامل ولم نرجع إلى الواقع إلا عندما أيقظونا للعشاء المكون من لحم الغنم والخبز السميك المستدير مقلي فى زيت السمسم .

ووصلنا فجر اليوم التالي إلى لودر حيث يسكن السلطان . يقع المكان فى سفح جدار جبل عاتي وبه نتوء رائع الشكل يقع فيه قصر السلطان الذى ظهر لنا فى اليوم السابق. ويسمى زارة ووصلناه بعد رحلة ساعتين من الجوف . وزارة قرية صغيرة على مسافة ساعتين من مدينة لودر الصغيرة ، ولعل السلطان اختارها سكنا له لأسباب استراتيجية . قابلنا فى طريقنا من الجوف اثنين من اليهود من لودر . ووجدنا لدهشتنا بعض اليهود فى الجوف ، يعيشون وسط العرب ويبدو عليهم الفقر والاتساخ مثلهم ، ولكن يمكن تمييزهم فى الحال بزنارتين تتدليان من آذانهم . وأكثر من ذلك فإن سلوكهم العام وتعابير وجوههم الهادئة تنبئ أنهم يهود . إن قرونا من الاضطهاد ومعاناة الازدراء فى صمت قد تركت آثارا غائرة على هذا الشعب الذى يصعب استئصاله . نحن هنا فى أقصى الحدود الجنوبية التى يسكنها يهود اليمن ، وهو الفرع الذى يقال إنه انقطع من المجموعة الرئيسية أيام الاضطهاد الذى أعقب تدمير القدس فى عام ٧٠ ميلادية . ثم قيل إنهم هربوا جنوبا وتوغلوا عميقا فى الجزيرة العربية حتى لم يعد فى إمكانهم المضي أبعد من ذلك فى هذا الركن الجنوبي الغربي أو لأنهم وصلوا أكثر جزء خصب فى شبه الجزيرة العربية . تمنينا أن نخلق صلات وثيقة فى لودر مع الناس الذين تمسكوا بجنسهم .

وفى لودر أيضا بعض العبيد ، أحفاد الذين جيء بهم إلى هنا . ويبدو هناك احتمال لقادمين جدد .

وأخبرنا أحد المتفائلين وهو يرفع من قدر قرينه ، فقال يمكن توقع السيل خمس مرات فى العام وفى هذه الحالة يمكن حصاد محصولين . ولكن هذه الجملة أثارت اعتراضا جادا من الكبار الواقفين ورفع عدد منهم إصبعه معترضا . حصاد واحد فى العام ! الله كريم! الله رحيم !

وبعد نتوء الجبل اقتربنا إلى حصن زارة الأول . فبعثنا رسولا قبلنا ليعطى إنذارا بمقدمنا بالطريقة اللائقة ، تقع زارة فى سفح خشم جبل صخري شديد الانحدار على مسافة من جدار هضبة اليمن العالية . شيدت حصون سكن السلطان فى منتصف جناح الجبل وتربطها سلالم بالمبنى الذى يجتمع فيه الناس عادة وبالمسجد . أما الجزء الخاص بالسكن وفى نفس الوقت الملجأ الأخير للتراجع فى حالة الحرب ، فيقع عاليا فى قمة الصخرة . وتقع منازل المواطنين فى القاع . وسرعان ما أصبحت السلالم بين الحصون تضج بالحركة . فجاء الجنود يهرعون من ثكناتهم وهبطوا إلى السهل ووقفوا فى صف واحد طويل ينتظرون السلطان الذى تبعهم ومعه أبناؤه وحاشيته . كان منظرا مثيرا للإعجاب. شيدت المباني من الحجارة المربعة التي ثبتت بالطين وارتكزت على بعضها وفى بعض الحالات أحيطت بصخور صفراء بنية . وكان بنيانها عاليا وتميل قليلا إلى أعلى وبسيطة وقوية فى اتساق . وعلى هذه الخلفية تحرك رجال صبغتهم النيلة بالأزرق والأسود . ويتمنطقون بحزام يلتمع منه الرصاص وتبرز أمامهم الجنبيات المطعمة بالفضة ، وتتدلى البنادق من أكتافهم ، ونزلوا الدرج يتقافزون فى خطو سريع . وكان غطاء رأسهم مصبوغا بالنيلة بغزارة حتى كان يلتمع وهومستقيم . وتتوج رؤوسهم خصلات شعر مدهونة ، ووضع كل واحد باقة زهر فواحة فى مؤخرة عمامته . كان المحاربون المصبوغون بالنيلة هؤلاء بألوانهم البراقة فى غاية الأناقة .

وحضر أيضا رهائن السلطان الذين يسكنون فى أسفل الصخرة ، لإرضاء فضولهم ولتضخيم أبهة حاكمهم . ويلتف حول أرساغهم حلقات حديدية ثقيلة يربط بينها شكال . وقام بعضهم برفع القيود الحديدية إلى أعلى سيقانهم وحملوا الشكال فى أيديهم وتمكنوا بذلك من السير بخطوات قصيرة حذرة . والبعض الأخر كان يتقافز مثل الأطفال عندما يتسابقون وهم داخل الجوالات . وتقدموا تصحبهم جلجلة شديدة وأحيانا يصطدمون مع بعضهم البعض ويسقطون على الرمل . ولم يسمح لنا بالاقتراب ولذلك نظرنا من البعد ، منتظرين وصول السلطان . وعندما وصل تصلبت وجوه الجنود وأصبحت حازمة جدا . وحل صمت مطبق ، ما عدا جلجلة القيود والأصوات المكتومة الرتيبة المنبعثة من الرهائن . وخلق قفزهم الأبله فى قيودهم الثقيلة إضافة حزينة للمنظر مشوبة بالسخرية .

وصدرت الإشارة أن دورنا قد جاء لنقترب . وتقدمنا فـــى صمـت مميت وحراسنا يسيرون خلفنا الواحد خلف الآخر وتقدمنا الصف الطويل الــذى يراقبنـا ولا تصدر منه أي بادرة بشعور ودي . ووقفنا فى صف قبالتهم ولكن تركنا بيننـا وبينهم مسافة . ثم تقدم محسن قائد فرقتنا ورجاله واصطفوا فـــى الفــراغ الــذى يفصل بيننا . وأشاروا عليه إلى نقطة بيضاء فى حائط صخري . فرفـع بندقيته على كتفه ، وأخذ يطلق الرصاص بتهديف محكم حتى أفرغ خزانته . وحذا بقيـة الجنود حذوه . وبقيت الصفوف صامتة . وعندما انتــهى حراسـنا مـن إطـلاق الرصاص ، تقدم السلطان محمد بن جعبل شخصيا ، وأطلق الرصاص ، ثم ابنــه جعبل بن محمد وأطلق كل واحد من جنوده طلقة واحدة بالتناوب . وعندما انتـهى هذا الجزء من الاحتفال و أصيبت آذننا بالصمم من الفرقعة المتواصلة ، ارتـاحت تقاطيعهم الجامدة وبدأت التحايا . وتقدم القواد نحو بعضهم البعـض ، وتصـافحوا بضربة قوية وأخذوا يتجاذبون الحديث بأصوات مرتفعة وانهمرت أسـئلتهم عـن متى وكيف ولماذا وعن الأخبار وما شابه ذلك . واختلسوا نحونا نظـرات عندمـا أخبرهم محسن من نحن وإلى أين نتجه . ويبدو أننا ألهمناهم بعض الثقة والعطـف وتركونا نقف وحيدين بعد انتهاء مراسيم ذلك الاستقبال المؤثـر وعـاد السـلطان وركبه إلى حصونه. وشعرنا أننا أفقنا من وهم بعد التوتر الذى أصابنا مـن ذلـك الاستقبال المعقد بشكل غير متوقع ، وبطريقة جادة ثقيلة ومتوحشة بأسلوب بربري أخاذ ونهايته المفاجئة. وحمل لنا محسن رسالة السلطان بأنه يرحب بنا وقد أعد لنـا منزلا لاستضافتنا فى زارة . واتضح أن المنزل صغير ومبني من الطيـن وبـه غرفة واحدة اشتركنا فيها مع جنودنا . المكان ضيق ولكنه حمانا مـن الشـمس . وجلسنا على بطانية فرشناها على الأرض.

وأرسل السلطان بعض جنوده ليتأكد من راحتنا . وأخبرونا أن هذا السـلطان يخضع لابن عمه الأصغر ، صالح بن حسين سلطان عريب وزارة . ولـم يكـن الأخير موجودا بل كان فى عريب بالقرب من مكيراس ، حيث شيد البريطـانيون مهبطا للطائرات ومحطة لاسلكي . وسرعان ما اتضح وجـود المطـار عندمـا ظهرت طائرتان من سلاح الطيران الملكي واستدارتا وهبطتا مثيرتين سحائب مـن الغبار فوق أرض منبسطة بين زارة ولودر . وأرسل السلطان فى الحال حصانـا مسرجا إلى المهبط , وبعد ساعة عادت تلـك الطليعـة المتقدمـة مـن السـلطة البريطانية.

أرسل لنا السلطان شاتين . وكان رأيه أن على المسـافرين أن يـأكلوا أولا ، ليكونوا فى مزاج معتدل ، ثم يستعدوا للرحيل . وللمرة الأولى منذ مغادرة عـدن غسلنا أيدينا جيدا قبل الأكل ؛ لم تكن تلك الأيدي القذرة فى الحقيقة عائقا . فعندمـا

يؤكل اللحم المشوي المقطع بسكين الجيب مع الخبز المدهون يكون مذاقه جيدا من الأيدي القذرة . لا ، إن الأيدي النظيفة مصدر إزعاج ؛ فالزوار الفضوليون يمسكون أيدينا بحرارة عند التحية ويتركون آثر النيلة اللزجة على الأيدي النظيفة .

بعد الوجبة أستبدل محسن ملابسه الرسمية الزرقاء بملابس مدنية زاهية الألوان واستعد ليقوم بزيارة للسلطان ليناقش معه تنفيذ خطتنا . وسرعان ما عاد بأخبار جميلة . لقد سمح لهيرمان وفاسى بتسلق الهضبة العالية وكانا يأملان أن يريا من هناك امتدادا رائعا من الأرض وسطح ارتكاز المعالم البارزة . ويمكن أن يجدا فرصة لجمع نباتات المرتفعات وسوف يحاولان أن يصلا محطة لاسلكى بريطانية متقدمة تحرس الحدود الجنوبية لليمن . وكنا قد وعدناهم فى عدن بأن نرسل لهم أخبار تحركاتنا إذا وصلنا تلك المحطة . وأرسل السلطان حمارا لنقل المعدات والبطانيات ، وحصانا لركوب هيرمان وجنديا يكون دليلا . وعليه يمكنهما التحرك فورا ويقطعان جزءا كبيرا من التسلق فى طقس ما بعد الظهيرة البارد. أما أنا فلم يكن بوسعي مصاحبتهم لأن السلطان ينتظرني للزيارة والحديث . وما إن غادر رفاق دربي حتى كنت فى طريقي مع محسن إلى القلعة . وما إن اقتربت من مجموعة مباني القلعة حتى تبين جليا أن الدفاع ضد الأعداء كان هو المبدأ الذى تحكم فى فنهم المعماري . المنازل عالية ومحمية من الخلف بالجدار الصخري الحاد الانحدار . الفتحات المربعة الصغيرة فى الجدران السميكة تسمح للقليل من الضوء والهواء النقي ليتسرب ولكنها تجعل دخول الرصاص صعبا . شيد السلطان أمام معقله القوي مسجدا تهبط منه سلالم واسعة .

وفضلنا أن نصعد متابعين دربا للأغنام إلى البوابة الصغيرة التى تشكل المدخل الرئيسي . وفى داخل البوابة انتظرنا السلطان محمد بن جعبل ليرحب بنا . ثم تقدمنا إلى المجلس ،الذى يقع بعد المسجد ويتكون من صالة استقبال واسعة وكانت غير مرتبة ومتسخة.

سأل أحدهم محسن من خلف ظهرنا :"هل يجب أن يجلس على كرسي؟"

فأجابه محسن :"لا ، إنه يعتقد أن أساليبنا جيدة" .

وعليه قادوني إلى مكان على الحائط وفرشوا جلد شاة كان معدا وجلس السلطان بعد ذلك . بدأ حوارنا متلعثما . من الواضح أن السلطان لا يدرى كيف يقيمنا ؛ وتوقعنا مقاطعة وكل واحد فى حالة ذهنية عدائية . وسرعان ما امتلأ المجلس بكبار السن الفضوليين . ورائحة النيلة التى تبعث على الغثيان والبقع الزرقاء السوداء على الجدار حيث أسند الرجال ظهورهم المصبوغة بالنيلة ، ظاهرة مألوفة فى تلك القاعات . لقد شاهدوا بعض الزوار الأوربيين ولكن لم يأتوا بعدد كاف للتغلب على الحواجز السطحية وبعث الثقة . ولذلك فضل السلطان أن

ينتظر ويسمع ما سأقوله . ورأيت أن أسلم طريقة أن أتقدم بأسئلة لا يـــأتي منـــها ضرر . كم عدد السكان ؟ على الأقل أربعة آلاف . هل هذا كل العدد ؟ بـالتقريب. هل يشمل هذا النساء والأطفال ؟ ضحك السلطان . بالطبع لا ! فهناك أعداد كبـيرة منهم . يبدو أنه عدد الجنود الذين يحملون السلاح . ثم تحدثنا بعد ذلك عن امتـــداد الأرض بين الحدود الجنوبية لليمن وسلطنة شقرة على الســـاحل . يمـــر عبرهـــا طريق تجاري كبير ؛ بالقرب من زارة تنقل البضاعة من الجمال على الحمير التى تحملها إلى الهضبة الجبلية العالية . صادرات اليمن قليلة . هل يوجد يهود أيضـــا؟ نعم ، كثيرون ؛ لم يكونوا أبدا مزارعين بل كانوا دائما حرفييـــن ، فـــى الغـــالب صاغة يصنعون للرجال جنبيات أنيقة وأحزمة ، وللنساء والفتيات أحزمة وحلـــق وحجول . واستمر السلطان يقول إن اليهود ضعاف جدا على حمل الســـلاح ، ولا يمكن أبدا أن يتعرضوا لامرأة عربية ، ولا حتى عندما تكون بمفردها فى الحقول. فهم يعلمون إن فعلوا ذلك ستقطع رقابهم . ولا يسمح لهم بـــالزواج مـــن النســـاء المسلمات إلا إذا اعتنقوا الإسلام وهذا يحدث نادرا . ويعرفـــون لغتـــهم ودينـــهم اليهودي ولهم معلموهم ومدارسهم .

ثم سألني السلطان لماذا يطرد الألمان اليهود من بلادهم وكيف تسير الثورة فى فلسطين . وقد واجهني السؤالان من قبل وسوف أجيب عليهما مرات عديـــدة فـــى المستقبل . وكان مستجوبونا بلا استثناء يريدون أن يعرفـــوا إذا كـــانت بريطانيـــا بجانب اليهود أم العرب . وسألت السلطان كيف عرف هذه المشاكل وهـــل يقـــرأ الصحف . ولعل هناك جهاز إرسال مجاور ؟ لا ، إنه يحصل على معلوماته مـــن الناس الذين يسافرون مع القوافل عبر البلاد . وأجبـــت بتعقـــل وبتحـــيز واضـــح للإنجليز . وليس ذلك بسبب المساعدة والثقة التى منحها لنا البريطـــانيون والتـــى مكنتنا من السفر فى البلاد التى بدأ يتسرب إليها النفوذ البريطـــاني ، ولكـــن عـــن اقتناع ، رغم أنى أوافق أن هناك أسسا للنقد .

على السياسية البريطانية فى فلسطين أن تعترف ببعض الأخطاء التى كان مـــن ثمارها المرة ما نراه فى هذه الأراضي العربية القصية . إن سوء الظن الذى تولـــد سينتهي فقط مع مرور الزمن وتطبيق سياسة عاقلة من العدل نحو السكان العـــرب الأصليين فى فلسطين . عندما تحدثنا مع العرب أكدنـــا علـــى حقوقـــهم القديمـــة المكتسبة ، ووجدنا من الممكن أن نؤكد أن التعاون مع اليهود مرغوب فيـــه وأنـــه سيعود بالمنفعة لكلا الطرفين ، وأن نشير إلى المنافع الاقتصادية العظيمـــة التـــى أدخلها اليهود فى فلسطين وبدأت تأتي ثمارها . ومن مناقشة الصعاب السياسية فـــى تلك البلاد الغنية بالتقاليد اليهودية المسيحية والإسلامية ، وجدت مـــن الممكـــن أن أنتقل إلى ما يهمني أكثر فى تلك اللحظة -- الوضع السياسي فى منطقة الســـلطان.

ومما أظهره فى تلك اللحظة ، يبدو أنه مقتنع بعد أن نجح فى هزيمة المجموعات المتمردة وأسر قادتهم والاحتفاظ بهم فى القيود كرهائن . وأثناء ما كان السلطان يتحدث ، عادت إلى ذهني صورة أولئك التعساء وهم يرسفون فى قيودهم الثقيلة . إن السجن مدى الحياة عقوبة طويلة جدا . أيها السلطان ! إن دينكم وديني يوصيان بالرحمة. وخيم على المجلس جو من عدم الرضى الذى أدركه الجميع ولكن الانتباه لم يتراخ . إن الرأفة فى السياسة لا هي غباء ولا ضعف . وقد برهن الملك الوهابي ابن سعود على ذلك ، فهو مهاب لعنفه ومشهور برأفته بالأعداء المنهزمين . وقد ساعدته تلك الميزة ليصبح أعظم حاكم فى عصرنا . فلماذا إذن لا يجربوا أسلوب الرأفة ويروا الخير الذى يضفيه على قلوبنا؟

انفجر السلطان ضاحكا واخذ يتحدث بصوت مرتفع للرجال الذين كانوا يجلسون على الحائط منصتين . وقد ازداد عددهم أثناء حوارنا . وكان كل قادم يحي السلطان بخبطة مدوية بالكف ثم يتظاهر بأنه سيقبل يد السلطان . فيصدر منهم صوت القبلة ولكن يسحبون أيديهم بسرعة حتى لا تلامس شفاههم الأصابع . أما أفراد عائلته وعلية القوم فيقبلون مرفقه أو كتفه أو يصدر منهم صوت استنشاق .

وفى هذا الأثناء تمر القهوة فى فناجين صغيرة متسخة . ويقوم الخادم بإعادة ملأ الفناجين الفارغة من براد كبير من النحاس ، ولا يتوقف حتى يهز الشخص فنجانه هزة خفيفة علامة على أنه لا يريد المزيد . واستمر الحوار ، فرغم أن الناس هنا معادين للوهابيين ، إلا أنهم يريدون سماع المزيد عن الزعيم الرائع للأسرة السعودية . وضحك السلطان ولكن رغم ذلك تأثر لحد ما .

وقال إنه أدى فريضة الحج قبل خمس سنوات . ويمكنني القول بأني عندما أعلنت أنى قادم رأسا من الأراضي المقدسة ارتفعت أسهمي فى الحال . وكان مثل هذا الإعلان غير متوقع من أوربي غريب . وسألوني عن آخر الأخبار وعن رأيي فى سير الأمور فى السعودية . ويمكن أن يقال الكثير عن هذه المواضيع مما يجد اهتماما عميقا من كل مسلم ، ويبدأ بعد ذلك التبادل السريع للأسئلة والأجوبة ويبدو أني بدأت أكسب عطفهم . وفى النهاية صاحبني السلطان للخارج مودعا ولكن توقف وواصل الحوار عند نهاية السلالم . وفى واجهتنا كانت شمس المغيب تفيض على الفضاء الموحش لونا ذهبيا أخذ يتغير تدريجيا إلى أحمر وبنفسجي . وعندما سألت عن موقع الممر الذى سلكه هيرمان وفاسي ، أشار السلطان إلى حدود عالية شديدة الانحدار من هضبة اليمن الجنوبية . يبدو أنها تعزل ذلك العالم الغامض عن العالم الخارجي .

وبعد عدة أيام لاحقة سوف نحاول أن نصعد نفس الهضبة ولكن إلى الشرق من حدود اليمن . سوف يمر طريقنا عبر ممر الطلح ، وهو العقبة التي حالت دون دخول الكابتن هاملتون وجماعته إلى الأراضي المرتفعة . ويبدو من هنا حيث نقف أنه من المستحيل تسلق هذا الجنب من الهضبة بالجمال . وحتى أتمكن من رؤية منظر أوضح للأرض المحيطة ، دعاني السلطان إلى الصعود إلى آخر المبنى ، حيث جناحه الخاص . وكنا هنا بمفردنا فاغتنم الفرصة وطرح بعض الأسئلة التي يبدو أنها ما زالت في ذهنه .

ما الذى حدث لتركيا ؟ لماذا لا يهب أمراء العرب لمساعدة إخوانهم في الدين فى فلسطين ؟ تركيا معروفة هنا لأنها حكمت ، بشكل أو آخر ، أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية حوالي أربعة قرون ونحن هنا فى أقصى الحدود الجنوبية لنفوذها السابق . ولكن برزت الآن تركيا جديدة ليس لها أي طموحات عربية . هل كانت أيام الأتراك جيدة ؟ آه ، نعم . والآن ، ماذا ؟ تحت الأتراك تركنا تماما لأنفسنا ؛ كنا أحرارا وكان دخل العائلات الحاكمة جيدا . وماذا عن الطبقات العاملة والعبيد ؟ البريطانيون أكثر عدلا من الأتراك . وهناك سؤال كان يحترق فى لسانه : ألست أنت فى الحقيقة أيضا مسلم ؟ لا ؛ لي ديني الخاص كما لكم دينكم . أنا أنتمى إلى أهل الكتاب . هكذا دعانا نبيكم ، وتحدث بإجلال عن نبينا عيسى ، الوحيد الذى بلا خطيئة . إذن كيف عرفت كل الأشياء عن ديننا ؟ ابق معنا لبضعة أيام أخرى وأخبرني كيف يمكن أن أساعدك .

وفى هذا المزاج من الود غير المتوقع ودعنا بعضنا البعض . كان الصبر والزمن ضروريان لتحقيق هذه النتيجة على أن مثل هذه التجربة فى أرض القبائل المحتربة الذين يكثرون من استعمال النيلة والذين لهم احتكاك محدود جدا بالنفوذ الغربي أعطاني الأمل وأكد قناعاتى بان كل شيء سوف يسير سيرا حسنا إذا وجد الإنسان الفرصة للتحدث مع الناس . وتكمن الخطورة فى احتمال التصادم مع المتعصبين نصف المتوحشين الذين لن يتبادلوا حوارا هادئا ويسكتون الإنسان بالصراخ ويتصاعدون بمشاعرهم ومشاعر رفاقهم إلى حافة الغضب . الحديث ، والإكثار من الحديث سيكون سلاحنا !

وعندما كان النهار يؤذن بالرحيل نزلت من الحصن ورجعت إلى منزل ضيافتنا المتواضع فى القرية حيث تركت السيدة فيسمان هناك . سوف تجد فرصتها فيما بعد فى جناح النساء . وحولنا صفوف من حوافر الأغنام على الصخر ، كانت القطعان فى طريق عودتها إلى المنزل . تعرف الحيوانات منزلها، فتدخله وتصعد السلالم وتظهر فوق السطح. وتبدأ مع أصحابها لتهيئة أنفسها لليل.

في اليوم التالي بينما نحن في انتظار عودة المتسلقين إلى التلال ، ألقينا نظرة على ما حولنا . الشيء الجذاب الأساسي في زارة هو مجموعة حصونها التي تتناسب بشكل رائع مع المنظر الطبيعي الصخري . الشيء الآخر الذي يثير الاهتمام قبة بيضاء عالية . هذا السياج الصغير الجميل يرقد تحت ظل شجرة طويلة قريبا من بئر القرية وفي مفارقة صارخة مع الاستحكامات القوية القريبة جدا ولكنها تحلق بالقرب عالية فوقها .

على مسافة ساعة ونصف من زارة ، فوق القمة المسطحة للتل الرملي، تقع مستوطنة لودر الأكبر ، العاصمة الفعلية للسلطنة . هنا أقام الكابتن هاملتون كتيبة صغيرة من جنوده الذين يقومون بأعمال استخبارات بدائية واتصال . وحالما وصلتهم أخبار قدومنا أقاموا معنا علاقات بل دفعوا اشتراكات واشتروا شاة وقدموها لنا هدية . وفي الوقت الحاضر كانوا يحتلون موقعا متواضعا غير معلن في عالمهم الصغير المستقل هذا وكان عليهم أن يسعوا جاهدين ليكسبوا الثقة . تقدمت مع السيدة فيسمان عبر قطعة من حقول جافة مثل العظم اليقق نحو الآبار التي تقع عند حافة التل الذي تقوم عليه لودر , والحركة الدائبة هنا تستمر طوال اليوم : جلب المياه وصبها في أحواض خشبية للقطعان المنتظرة والجمال ، تحميل الحمير بقرب ماء للمدينة . وجاء حفنة من الأطفال المصطرخين يهرعون نحونا عندما شاهدونا وغلفونا بسحابة من الغبار وبصيحات يطلبون البكشيش , وكانوا كلهم يتوقون لأخذ صورهم واخذوا يتزاحمون أمام العدسات ؛ فجعلوا أي استمتاع هادئ بالمنظر مستحيلا ,

يوجد في لودر بعض المنازل المبنية بالحجر ، ومسجدان وحي يهودي . ومعظم المباني مصنوعة من أغصان جافة وأعشاب مربوطة مع بعضها . ويسكن كل اليهود المكونين من ثلاث عشرة عائلة معا ، ويكاد العرب يحصرونهم . ومنازلهم مثل منازل العرب وربما لعلها أنظف قليلا في الداخل . ودخلنا دكان لصياغة الفضة يعمل به اثنان من اليهود بحزام امرأة . وبعطف خانع يميز هذا الشعب المقهور رحبوا بنا . ولم يعترضوا على صعودنا السلالم الخارجية لنلقي نظرة على غرفة الجلوس . وكان طلبنا هذا لنتخلص على الأقل للحظة من حراسنا ومن الصبية المزعجين . وبحق كانت الغرفة العليا أكثر نظافة وحفظا من المنزل العربي من نفس النوع . ولكننا وجدنا النسوة هنا لا يقمن بالأعمال الشاقة في الحقول مع الماشية مثل أخواتهن من العربيات . وكن يلبس ويصففن شعرهن بنفس طريقة نساء العرب وحتى وجوههن كانت مصبوغة بالأصفر . وفي الحال يمكن تمييز الرجال والأولاد من العرب بعقصة الشعر التي يضعونها أمام آذانهم ، وبغطاء الرأس بدلا من العمامة أو الشال وبغياب الأحزمة في جلابيبهم الطويلة .

وحسب ما يقول العرب فإنهم أضعف من أن يعملوا في الحقول أو حمل السلاح . أو ليس من المحتمل أنهم حرموا من امتلاك الأرض لذلك لم تكن أمامهم فرصة للقيام بالعمل الزراعي وأنهم حرموا من حمل السلاح منذ أزمان قديمة ؟ ولهم صفات ثقافية عالية استغلوها دوما بفضل ولائهم الرائع لدين وتراث أسلافهم . درسوا اللغة العبرية ؛ وقرأوا كتب العهد القديم ؛ وارتفعوا بروحهم المعنوية من حالة الذم والإحباط باللجوء إلى أنهم شعب الله المختار ، وبالتشبث بعقيدة لا تتزعزع بالوعد باستعادة قوميتهم والتصالح مع إله إسرائيل . واستطاعوا بهذه الطريقة أن يحتملوا عشرين قرنا من الاضطهاد ولم يتمكن أي احتقار أن يهزمهم روحيا .

واستطاعت الثلاث عشرة عائلة في لودر ؛ الذين يكاد يطوقها المسلمون المهيمنون ، أن تحافظ على عقديتها اليهودية . لم يتزوجوا من العرب ولم يقبلوا ديانتهم . واستطاعت هذه المجموعة الضئيلة المنقطعة بعيدا عن رفاقها وعن وطنها أن تحافظ على تقاليدها كان بوسعهم أن يعيشوا فقط إذا تحملوا في صمت ويمكنهم البقاء بالتشبث بتقاليدهم العظيمة وبعقيدتهم الباقية أكثر من القرون . وقد فرض عليهم الحكام المسلمون أشياء تميزهم خارجيا لفرزهم ولإبقائهم بعيدا ولكن لم تكن هذه في الواقع ضرورية . فعلى الرغم من أن اليهودي انقطع من جمهرة شعبه قرابة أحد عشر قرنا ، فإن اليهودي الوحيد المضطهد في جنوب الجزيرة العربية ، يحمل معه علامته المميزة . إنها تشع من الروح المتشبثة بتقاليد عظيمة وشرفها ووعد الرب لشعبه . لم يخضع العرب إخوانهم اليهود . كان هذا آخر انطباع عن لودر .

رجعنا إلى زارة وما زال يصحبنا جمهرة الأطفال العرب الذين أثاروا سحائب من الغبار في تلهفهم للاستمتاع إلى أقصى حد بوجودنا غير المتوقع وسطهم . وجدنا في بيت الضيافة اثنين من المتسلقين المرهقين جدا ، وكانت لديهم قناعة عميقة بالمناظر الجميلة التي شاهدوها ، وبحقيبة النباتات الضخمة التي جمعوها ، والصور البارونامية التي التقطوها، والارتكازات والاسكتشات القيمة جدا التي حصلوا عليها لخرائطهم . وفي الحال انهمكنا جميعنا في العمل نصنف ونحزم المجموعات حتى نكون على استعداد للتحرك مبكرا في فجر اليوم التالي .

هامش

١- يقال لها حرار (بكسر الحاء) جمع حرة وهي الحمم البركانية .

الفصل الثالث

الاقتراب من ممر الطلح

إذا غادرنا لودر مبكرا فى الصباح بإمكاننا أن نصل القليتة قبل حلول الظلام . تأخرنا بعض الشيء لأن الجندي الذى كان قد تسلق الهضبة سقط مريضا ربما من البرد أو من الإرهاق الشديد . وامتص القيء والإسهال مقاومته فكان لابد من تركه فى الهضبة . وأرسلنا حصانا من زارة لإحضاره وبدا بحق مبتئسا عندما وصل . ثم جربنا عليه المضاد الحيوي الذى يأتي بالعجائب . وابتهج حارسنا المحبط لما سمعه من قصص عن مفعول العلاج الناجع فى وقت قصير قياسي ولسعادتنا لم يخذلنا العلاج مرة أخرى . لن نترك أحدا خلفنا فى زاراة ، ولذلك ، وقلوبنا تفيض بالشكر ، غادرنا جميعنا القلاع الصخرية للمحاربين المصبوغين بالنيلة . ويبدو أن السلطان كان ممتنا لهدية صغيرة أرسلناها له ، لأن ابنه جاء مسرعا ولحق بالقافلة وتمنى لنا باسم والده أن تهبط علينا بركات السماء ، وسلمنا هدية وداع عبارة عن علبة عسل محلي . ثم جاء جنود هاملتون لوداعنا ورافقونا لمسافة طويلة بعد لودر .

يمتد الطريق عبر أرض مسطحة بها قطع ممتدة من الحقول المحروثة رميت عليها البذور توقعا للمزيد من الأمطار . كانت القافلة قد أخذت راحتها الكافية فتقدمت بشكل مرض. وغادرنا سلطنة العوذلي وسرعان ما وصلنا مصعام، أول قرية فى أرض دثينة . هنا يسكن شيخ معروف جدا لحارسنا . ويبدو أنه أخطر بمقدمنا مسبقا لأنه جاء يجرى مسرعا نحونا وهو يطلق الرصاص تعبيرا عن ترحابه . واستجاب له أحد حراسنا بنفس الأسلوب . وتصافحوا بخبط أيديهم بحرارة وبقبلات فى الهواء .

قدم لنا الشيخ دعوة حارة لنكون ضيوفه ، ونأكل معه ونقضى الليل . لم نكن راغبين فى التوقف لأننا حققنا تقدما جيدا وما زلنا نشعر بنشاط كاف لنسافر لساعات عديدة أخرى . كما أن القافلة عندما ينزل منها الحمل يصعب مواصلة المسير مرة أخرى . ولكن الشيخ كان مصرا ولن يقبل أي عذر للرفض . وبإصرار ودي وضع يديه على بندقية قائد حراسنا ، وأخذها كجائزة ، وسار على رأس القافلة وقادنا إلى القرية . وسرعان ما أصبحت داره مسرحا لنشاط جم بينما شاة الاحتفال تعد للذبح . من الواضح أنه كان يريد أن يظهر لنا ما هي حقيقة الكرم العربي فى أحسن صوره . ورجوناه إلا يذبح الشاة من أجلنا ، ولكن دون جدوى : بل ذبح شاتين .

وعندما كنا نجلس فى غرفة صغيرة مظلمة فى منزله الطيني ، اكتشفنا طلائع القمل ؛ ولكننا كنا متأثرين جدا بالعطف الفياض الذى غمرنا به هذا الرجل الغريب بالنسبة لنا ، ولذلك لم نسمح لأنفسنا بالتأثر بهذه الصغائر .

وأثناء انهماك الشيخ في التحضيرات كان يغشانا بين الحين والأخر لحديث عـابر . وشارك والده وإخوته في الترفيه عنا أثناء إعداد الوجبة . لقـد أصيـب الوالـد برصاصة في ساقه أثناء إحدى معاركهم ولهذا السبب أضفى على إبنـه جـلال القيادة في وقت مبكر . قبل أربع سنوات قام بدو الصيعر مع المشـقاص بغـارة على قبيلة همام (١) .واستولوا على بعض الجمال ولكن همام لاحقوهم ، وقتلـوا خمسة وثلاثين منهم وخسروا ثلاثة فقط واستعادوا جمالهم . هذه الحرب البدويـة التي لم تكن بأي حال صغيرة ، قد جرت تحت نظر البريطانيين قبل وقت قصـير مضى . وسأل الشيخ عن الأوضاع في أوربا : لقد سمعوا شـائعات أن الحـرب وشيكة هناك . وكان سؤاله الثاني هو الذى كنا نتوقعه : هل البريطانيون يعملـون بحق ضد العرب في فلسطين ؟ ومرة أخرى أبرزت الجانب الآخر من الصـورة مشيرا إلى عدالة السماح بإدخال عدد محدود من اليهود إلى بـلاد تعـاني فـي الأساس نقصا في السكان . وقلت شيئا أيضا عن الرخاء الذى حل بالبلاد وأهلـها من مجهودات اليهود . كان الشيخ الواهن مليئا بالنقد ولكن من حسن حظنا توقفت المناقشة بمجيء الوجبة الغنية التي أحضرها الشيخ بإعجاب لا يخفى . يبـدو أن موضوع مشاكل فلسطين الشائك مألوف لكل القادة العرب حتى في هـذا الركـن القصي من الجزيرة العربية . ولابد أن وجهة النظر المعادية لبريطانيا قد لقيـت مدافعين مقتدرين !

وصل الأرز في أكوام مع قطع من اللحم منغرسة فيه . ووضعت أمام كل واحد منا قطعة مستديرة سميكة من خبز القمح (البر) . وشمرنا عـن سـواعدنا وقلنا بسم الله وبدأنا . وأكلنا في صمت ولكن بمثابرة وحماسة ، ولم نشرب أثنـاء الأكل . بعد الأكل مرت علينا قهوة قشر البن مخلوطة بالعسل . وبعد ذلك فقـط يمكن للمضيف وأفراد عائلته أن يأكلوا .

وبينما كنا نجلس في أمان داخل المنزل ، هطل مطـر رزاز مصحـوب برعد عنيف بعيد وعبرت فوق قرية مصنعام ،وكانت الأولى التي نراها . كـانت السماء مازالت مغطاة بالغيوم عندما استأذنا الشيخ وعائلته للمغادرة ، بعد أن قـام بواجبه الديني باستضافة عابري السبيل بكرم فياض حتى انبهرنا وشعرنا بـالخجل من المثال الرائع الذى قدمه. وسمحوا لنا قبل المغادرة أن نشاهد المنظـر مـن سطح منزلهم ونأخذ صورا للقرية بخلفيتها الرائعة من جبال الجرانيت المحمـوة . وودعنا الشيخ وحتى يتمكن من أن يقول لي شيئا على انفراد لف إصبعه الصغـير في إصبعي وسحبني أمام القافلة بعيدا عن الجمهور الفضولي الذى كان يرافقنا . كان يعلم عن فشل الكابتن هملتون فـي اجتيـاز ممـر الطلـح وأراد أن يخبرني بالصعاب التي يمكن أن تواجهنا هناك . بعض القبائل بالقرب من الممـر

فى حرب مع بعضها البعض ولهذا السبب ، خوفا على أنفسهم من جانب ومن جانب لمجرد العناد ، قفلوا منطقتهم فى وجه أي مسافر غير معروف . فإذا نجحنا فى الحصول على مرشدين من القبائل المتحاربة يمكننا أن نمر لآن قواعد الشرف فى هذه البلاد تمنع أن نهاجم . وإذا فشلنا فى الحصول على مرشدين يتولون المسئولية بالنسبة لمناطق قبائلهم يجب أن نعود وسوف يدلنا على طريق يقع فى الشمال الشرقي الذى سيمكننا من العبور . وإذا عبرنا ممر الطلح فسوف نكون بالقرب من نصاب أو أنصاب حيث يسكن السلطان الذى يتبع هو لسلطته ويمكن أن يوصى به كصديق مخلص للبريطانيين . وقد أعطانا الكابتن هملتون رسالة لهذا السلطان الذى يبدو أن سيطرته على شيوخه من لوردات الحرب ليست محكمة .

يمر طريقنا الآن عبر مناظر ملوكية . السماء الملبدة بالغيوم تضفى بعدا غير عادي على الجبال المتوحشة التى نسير نحوها . لابد أن مطرا عنيفا هطل هنا لأن الممر ناعم ومليء بالطين فكان السير شاقا بالنسبة للجمال .وفى مجرى السيل الذى يكون عادة جافا جدا يندفع الآن وابل من الماء الطيني المحمر فتقدمت قافلتنا بخطو بطيء . وفوق الجبال الصخرية الجرداء التى تقع أمام السلسلة الرائعة أمكننا أن نرى بعض منازل البدو اليليبوتية(٢) . وتظهر حول مساكنهم أكوام من القصب لأن البدو هنا رعاة يتحولون بعد الأمطار الغزيرة إلى الزراعة. وتنمو فى الوديان العديد من أشجار الأثل التى تلون المنظر والتنوع الغني للأشكال فى كواليس (٣) الجبال شد انتباهنا بإعجاب . لم يحدث أن سافرت فى الجزيرة العربية عبر مناظر بهذا الجمال والتنوع ، ولم يحدث أيضا أن شاهدت جبال الجزيرة العربية فى هذا الجو الصافي الذى غسلته الأمطار ، يتقطر منه الماء فتسيل منه مجار تجرف الحجارة على الجوانب . وخففت كتل السحاب الضخمة من ضوء ما بعد الظهيرة القوي ؛ وتلاشى إلى النسيان ضباب الحرارة المرتعشة .

وعندما كنا نقترب من قرية صغيرة قام رجل كان منهمكا فى عملة وحمل بندقيته عندما رآنا وأطلق رصاصة فى الهواء . وانزعجنا كلنا ولكن تبين أن الرصاصة كانت إنذارا خادعا : لقد أطلقت تعبيرا عن الترحاب بواسطة جندي من عدن كان يقضى عطلة هنا ويساعد أخاه فى بناء منزله . وكان من الصعب التعرف عليه وهو مغطى بصبغة النيلة ولكننا عرفنا من الوهلة الأولى هذا النوع عندما تقدم واثق الخطو ليقدم نفسه وعليه مسحة عسكرية وثقة الرجال الذين دربهم الكولونيل ليك والكابتن هملتون . ورغم أنه فخور بجنديته فقد كان يشعر بالراحة تماما فى قريته التى يمكن أن يعود إليها فيما بعد كرجل مسئول .

رأينا قرب كوخه بعض الخدوش التى صنعها الأطفال أثناء رعي القطعان. ولاحظنا بشكل خاص التشابه بين حفريات ورسومات الرجال هذه والحيوانات التى توجد عبر الجزء الأكبر من الجزيرة العربية ، وهو تشابه يمتد حتى إلى رسومات الصخر للأزمان التى سبقت الإسلام . وعلى الرغم من أن الأخيرة تظهر إنجازا تكنيكيا أكبر إلا أنها تحمل تشابها واضحا إلى رسومات الصخور التى تنسب إلى الرعاة والرجال فى القوافل العابرة .

كانت الشمس تجنح نحو المغيب عندما وصلنا قرية الجبلة الكبيرة ، التي كانت تنتصب المعالم الخارجية لمجموعة حصون القليتة بشكل حاد ومتحد في واجهة سماء المساء ، وهي الهدف الذى حددناه لأنفسنا لذلك اليوم . ولكن كان من المستحيل أن نواصل السير فى الظلام بسبب رسم خرائط هيرمان . يجب ألا تكون هناك أي فجوات فى هذا العمل .

ما الذى ينتظرنا فى الجبلة ؟ إنه نوع السؤال الذى يسأله أي مسافر لنفسه عندما يحل الظلام ويرغم على البحث عن استضافة فى مكان غير متوقع . وأقبلت من القرية فرقة مزعجة من الأطفال واندفعت نحو القافلة عندما توقفت . ولم يستطع الأطفال الكبار أن يخبرونا إذا كان بوسعنا استئجار منزل خال لليلة واحدة . وبما أننا كنا نسافر بدون خيام فلن نستطيع البقاء فى العراء لأن السحب الراعدة كانت تدنو قريبا .

ثم دنا منا شاب صغير فى قميص أبيض نظيف وطلب منا ببساطة أن نتبعه . لم يكن أمامنا خيار آخر فوضعنا مصيرنا وعيوننا مغمضة بين أيديه . فقادنا عبر الركام المألوف من الروث الجاف الذى يبدو أنه يحيط بكل القرى المتسخة المزدحمة . وسرنا عبر اسطبل إلى قبو ضيق شديد الظلام ، حتى وإذا أخرجنا أيدينا لم نكد نراها . ووقفنا متكدسين فى بعضنا حيث تركنا مضيفنا . وشعرنا أن ثقتنا قد وضعت فى اختبار . ولكن مرة أخرى لم يخب أملنا. تقدم الآن والد الشاب وقال وهو يرحب بنا إن الغرفة فى الطابق الأعلى كانت تعد لنا. وسرعان ما وجدنا دليلا على حسن الحظ غير العادي الذى وضعنا تحت حماية رجل يعرف العالم . عندما احتلت إيطاليا الحبشة وجد مضيفنا فرصته وبدأ يسير حافلتين بين جيبوتى وأديس أبابا . وكان عملا مربحا وجاء الآن إلى بلاده لفترة استجمام بعد عمله المرهق .

قرية الجبلة كبيرة وبها مثل معظم القرى بعض اليهود الصاغة . ونتيجة لوصولنا المفاجئ تأجل حفل زفاف إحدى بنات الأسرة لليوم التالي .

قال الأب موضحا فى اعتذار : "كان علينا أن نبقيكم منتظرين فترة طويلة فى ذلك القبو المظلم ، لأن غرفتكم كانت مزدحمة باستعدادات الزفاف "

لم يفهم عندما صمتنا بعد سماعنا تأجيل حفل الزفاف لأننا تأثرنا بمثل هذه الضيافة وفقدنا تماسكنا للحظة . الريح والمطر تنذر بزوبعة رعدية قادمة . وكان الظلام حالكا فى الخارج وفى اللحظة المناسبة استقبلتنا هذه العائلة بكل قافلتنا وضحت بحفل زفافها من أجلنا .

وعندما أكلنا جميعنا ، بدأت النسوة ، اللائى تكدسن معا فى غرفة واحدة حتى لايراهن رجل غريب ، يمرحن مع بعضهن . ودعوا زوجة فون فيسمان لمقابلتهن . فوجدت غرفة مزدحمة ومكتومة مليئة بالنساء فى أبهى ثيابهن وأجمل حليهن . وكان منظرا بهيجا . وكانت بعض النسوة يرقصن مع إيقاعات رتيبة تردد بلا ملل ويصاحبها تصفيق بالأيدى وتصاعدت البهجة بزغاريد عالية . وقدموا للسيدة الزائرة سلة من البيض هدية ، بينما قدموا لنا نيابة عن كل القافلة عقد عروس تقبلناه بإعجاب شديد .

وبما أن المطر توقف الآن ، فقد قام الرجال والشباب بتسلية أنفسهم أمام البوابة بالرقص في ضوء المصابيح مع ضرب الطبل . واشترك حراسنا فى المرح . وارتدى كل واحد منهم فوطة مثبتة بحزام الرصاص الذى يحمل الجنبية الملتمعة . ومهما كانوا نحيلين وصغارا ، فإن عيونهم الداكنة تلمع بالفرح وشعرهم الأسود المدهون المتموج بلا غطاء. وفى الفراغ رقص شابان بالتناوب بشكل أنيق وأمسك كل واحد منهما بإصبع الآخر . وظلا فى قفز فوق وتحت حتى يأتى ثالث من خلفهما ليحل محل أحدهما الذى يتراجع . وساعد المشاهدون الإيقاع بالتصفيق وكثيرا ما يتطلعون إلى الأمام ليستمتعوا بتحركات الراقصين ذات التناسق النسائي . ولا يبدو أنهم قد ملوا من رتابته التى لا تتغير . وكان واضحا لنا أن الكل كان مستمتعا بقلبه وروحه برشاقة الحركة وإيقاعها .

وبناء على طلبنا بدؤوا رقصة بدوية يمكن أن يشارك فيها الجميع . وانتظموا فى صفين طويلين قبالة بعضهما البعض وأخذوا يصفقون بأيديهم لضبط توقيت الإيقاع ، بينما كان الصفان ينشدون بالتناوب . وعندما كانوا ينشدون بدأ الصفان فى التحرك وأصبح الآن ضبط وقت الإيقاع بالأقدام . وبتحريك الجزء الأعلى من الجسم برفق بدأ الصفان من الاقتراب من بعضهما البعض . وما إن بدأت المسافة بينهما تصبح أضيق فأضيق حتى ارتفعت حرارة التصفيق والغناء . وبين مرة وأخرى يصل أحد الراقصين حدا من الإثارة لا يستطيع معها أن يبقى فى صفه فيتقدم نحو الساحة الأمامية ويقدم بمفرده رقصا فى غاية الهياج . وعندما تكاد الصفوف أن تلتقي تبدأ فى التراجع إلى الخلف مرة أخرى . ويمكن أن يواصلوا هذا الرقص لساعات . وكان غناء الرجال وهو يعلو ويهبط مع مصاحبة الإيقاع بالأرجل يبعث همهمة واحدة لها رنين . وأحيانا يرفع أحد

المغنين صوته فى نغمة عالية وعندها يرتفع الإيقاع الرتيب والتصفيق مثل هدير الطبيعة فى عاصفة أو رعود . من أي القرون السحيقة جاء هذا الغناء والرقص إلى أجيال الصحراء الحديثة فى الجزيرة العربية؟ وجميعهم يغنون ويرقصون بهذه الطريقة حتى الأغاني المعقدة من أغاني الدانا الفردية فهي ملك للجميع على امتداد البلاد كلها . هنا يقع مجال شاسع للبحث ,

وبالطبع لا يمكن للقافلة أن تتحرك صباح اليوم التالي بدون أن تؤدى الاحترام اللائق للزفاف المتوقع . في الساعة السابعة تقريبا انتشرت الأخبار أن العريس قادم مع أصحابه من القرية . وعليه تدفق كل سكان قريتنا نحو السهل . ولكن لم تتخط النسوة كومة الروث حيث وقفن ينظرن وشكل الرجال صفوفا مع الطبال وحملة البنادق وانتظروا وصول الموكب القادم. وكانت الإجراءات التالية جزءا من احتفالات الزفاف .

واشتمل موكب العريس أيضا على طبال وحملة بنادق ، بالإضافة إلى جملين غير محملين . وأخذوا يرقصون ويغنون كلما صاروا أكثر قربا بينما جعلوا الجمال تدور فى دائرة فى خبب وئيد . ووصلوا إلى مسافة مائة ياردة منا. ثم بدأ الغناء بالتناوب من الجانبين. وبعد ذلك شكلت جماعة العريس طابورا من اثنين جنبا لجنب وتحركوا نحونا فى تعرجات عريضة مثل ثعبان مفترس . وعندما كانوا قريبا جدا انطلقت مجموعتنا بأغنية . ثم تراجعوا وبدأت جماعة العريس تتحرك نحوهم بنفس الطريقة المتعرجة ,

أعقب ذلك مباراة فى إطلاق الرصاص . نصبت أربع حجارة مسطحة فوق تربة هشة كأهداف وأخذوا يطلقون عليها الرصاص حتى أحالوها إلى شظايا. بدأت جماعة العريس بإطلاق الرصاص أولا وشارك حراسنا لأنهم كانوا يسيرون على رأس الطابور , وشاركوا فى الرقص وهم يرتدون أحسن ثيابهم . تقدم اثنان من رجال الدين المحليين فى لبس أبيض ، وأعلنا باسم كل مجموعة تقاليد المسلمين فى عقد القران . وكان ذلك حدثا قصيرا ولكنه يشكل حفل الزفاف الحقيقي . وأخيرا تقدم الجميع متحدين فى مسيرة كبيرة إلى بيت العروس حيث قدم الطعام وحمل الجملان بأمتعة العروس ورحلت العروس إلى قرية زوجها . ويعود حفل الزفاف إلى العادات البدائية التى سبقت الإسلام . وبعد أن قدمنا الهدايا مشاركة منا فى الاحتفالات تحركنا قاصدين قرية القليتة , مركز بلاد الفج.

قابلنا فى طريقنا ابن أحد الشيخين اللذين يبدو أنهما يقتسمان السلطة بينهما. وأعلن أننا سنكون موضع حفاوة والده الذى سيتولى تزويدنا بالجمال والسيارة . وعند وصولنا القليتة نظم حفل استقبال كبير صاحبة إطلاق رصاص كثير نحو جانب الجبل وتصفيق حاد بالأيدي . ثم اقتاد أحد الشيوخ نصف

جماعتنا واقتاد الشيخ الآخر النصف الثاني . واستغرق إعداد الوجبة وقتا طويلا ، ولكن عندما قدمت كان الأكل وافرا . على أن الانتظار لم يكن ضياعا للوقت لأننا نقترب من الجزء الصعب من الرحلة وكلما حصلنا على المزيد من المعلومات عن ما ينتظرنا كان أفضل . وأثناء تبادل الحديث هبت الريح ، وأخذ السحاب يعدو عبر السماء وهطلت الأمطار غزيرة . وانخفضت الحرارة كثيرا . وعندما يتوقف المطر نقف فوق السطح ونجيل النظر فى البلاد المحيطة بنا . وما رأيناه ملأنا بهواجس شريرة . المجارى التى عادة ما تكون جافة ، امتلأت الآن وفاضت بماء بني طيني أخذ يندفع بسرعة الإعصار من سفح الجبل وجرف في كثير من الأماكن الممر الذى كنا سنسلكه .

ليس هناك مجال لمواصلة سيرنا فى ذلك اليوم : علينا أن ننتظر حتى تنتهي السيول العنيفة ولكنها لا تبقى طويلا لنتمكن من اختراق بطن الوادي مرة أخرى . وأحضر مضيفونا العفش إلى المنزل الذى نقيم فيه . كانت هذه مهمة قذرة وجدنا فيها مساعدة قليلة . تحولت شوارع القرية إلى مستنقع عميق من الروث ، الذى كلما ابتل أكثر ازداد عفونة . وهكذا انحصرنا سويا مع القمل في المنزل الذى يرشح ؛ وليس هناك مهرب من أولئك الأعداء المتعطشين للدماء إلا بالتراجع إلى السطح .

على أن السبب الأكبر لانزعاجنا كان تقدمنا البطيء . كانت نقودنا تتقلص وربما عانينا نقصا فيها إذا أرغمنا فيما بعد أن ندفع لنمر عبر كثير من العقبات . مضاف إلى ذلك ، أن الزمن المتاح لهذه الرحلة محدد بجدول لا يقبل أي تعديل : تاريخ وصول السفينة الخاصة التى ستقلنى من المكلا عائدا إلى عملى فى جزر الهند الشرقية . ولكن رفاقي كانوا مرحين ومرتاحين . ولم يكن الحراس في عجلة من أمرهم ، كانت رحلتنا بالنسبة لهم تسلية كبرى ورجال القافلة لا يمكن أن يفكروا فى حظ أفضل من أن يدفع لهم بدون أن يقوموا بعمل . وفيما يخص الروح الجماعية فإن هذه الوقفة التى فرضت علينا كانت ممتازة . عندما يكون الإنسان مسافرا هناك الكثير من العمل الشاق وغالبا ما يتصاعد التوتر وفى وقت المساء فى المعسكر يكون الفرد فى غاية الإرهاق ليستمع لأحاديث مطولة . الآن الحديث تسلية طبيعية للوقت . وكنا نتناول وجباتنا سويا مع حراسنا ومضيفنا . ويتكون الطعام من خبز خمير تكسر منه قطع ونغمسها فى صحن من السمن أو مرق اللحم الذى يوضع فى وسط حصيرة الأكل . ويوضع الخبز المسطح في سلة ويغطى لحمايته من الذباب . ونبدأ بعد الوجبات فى تبادل الحديث والقصص ويتلوها كثير من المزاح والضحك . وفى مرة سألنى الحارس سؤالا غير متوقع:

"يا فاندر ، (وهو الجزء من اسمي الذى وجدوه أسهل فى النطق) قل لي ، من منا الذى تعتبره الأفضل والأكثر وسامة ؟ " وفى ردي لم أفضل أي واحد منهم ولكن حاولت أن أسخر من كل واحد وأضحك من الخصائص الفردية التى لاحظتها أثناء مسيرتنا . وعندما لا يجد الإنسان أي شيء ضد الشخص من الممكن عادة السخرية من قبيلته أو موطنه . وكنت محظوظا مع الرجل الذى قدم السؤال .

فأجبت "أنت يا محمد بن سالم المنصور من المفترض أن تكون أكثرهم وسامة لو لم تكن مشاكسا . والآن أكثر أعضائك مكسرة . ومن الأفضل أن نسميك محمد المكسور . ولو كانت عيونك مفتوحة لتفاديت طريق الرصاص ولكنت أكثر الحاضرين وسامة ."

وتقابل هذه الهجمة عادة بهدير من التصفيق ومنذ ذلك الوقت أصبح سالم الوسيم يسمى المكسور .

كان يمكن أن يتأهل عبد الله للوسامة لولا أنه خر فى إحدى الليالي مريضا فأصبح يلقب بالمريض .

وخادم القافلة الفقير الأحول أصبح فرج الله المحبوب وهكذا . كانوا يستملحون تلك الطرافات ويستمتعون بالسخرية الناجحة . هذه لعبة كثيرا ما مارسناها بمرح شديد خلال مسيرنا الشاق .

جاءني فى ذلك المساء حسين ابن مضيفنا الشيخ ، وطلب مني أن أذهب للقاء والده . وهبطنا سويا إلى الطابق الأسفل من المنزل ، وهناك فى غرفة صغيرة ضعيفة الإضاءة رأيت للمرة الأولى رجلا صبغت لحيته البيضاء بالنيلة السوداء وجلس ورجلاه مخلوفتان يدخن نارجيلته . كان وجهه قاسيا ولا يبعث على الثقة. وبدأ الحديث بأن طلب منى أن أقضي بضعة أيام أخرى مع كل القافلة. يوم السبت هو يوم السوق وسوف يأتى كل أصناف البدو المتوحشين من جبالهم القصية وسوف يقدمون لنا مادة رائعة للتصوير . كان الاقتراح مغريا ولكننى قلت إننا لسوء الحظ مجبرون على التحرك لأننا لا نعلم كم من الصعاب تنتظرنا. وبدأ الشيخ يخبرنى عن همومه السياسية ، وعن استقلاله التام عن الحكومة والمجهودات الجبارة المطلوبة للحفاظ على السلام الذى أبرم قبل أشهر خلت مع القبائل المحيطة . وبعد المراوغة الطويلة ، طلب الرجل بإلحاح شديد وسرية "بقشيش" . هذا الرجل الكبير رأس العائلة ، مضيفنا ، شيخ القرية استجدى بل ألح على مبلغ معتبر من النقود فوق الهدايا العادية . وذهلت فى لحظة إلى أبعد حد . ياله من انحراف عن الحفاوة العربية التقليدية . ومن شيخ ، ليس بدويا فقيرا ! هل هذا نتيجة لدفع الإتاوات بواسطة الضباط البريطانيين والمسافرين الذين لديهم نقود كافية ليبعدوا عن أنفسهم المشاكل والعقبات ؛ لقد

لفت الكابتن بسكوين ، المعروف بأسفاره العديدة الواسعة في حضرموت ، لفت النظر أخيرا إلى الحقيقة المحزنة ألا وهي أن الإنسان لا يمكنه بعد الآن أن يسافر في منطقة عدن الخلفية بدون بقشيش لزعماء المناطق التي سيعبرها ، وأضاف أنه قد حان الوقت لتغيير هذا .

واعترفت لنفسي مترددا أنني أمام عقبة لا يمكن تجاهلها . اقتربنا الآن كثيرا من ممر الطلح ولا يمكننا أن نخاطر بأي معارضة أم إزعاج يأتينا من الخلف . لذلك بدأنا مساومات لا تنتهي . أوضحت أننا لسنا موظفين بريطانيين من الذين يمكنهم أن يغترفوا من الخزينة العامة . نحن أجانب نعمل لخدمة العلم وعلينا أن ندفع كل شيء من مواردنا الشحيحة . وعليه أن يعاملنا بطريقة مختلفة تماما عن البريطانيين الذين ينتمون للحكومة . طلب الشيخ خمسين ريالا نمساويا. قدمت له خمسة . وتبع ذلك شرح مطول . إذن ، لتكن عشرة . وتظاهرت كما أنه يعرض نجاح كل الرحلة للخطر ولكن أعطيته في النهاية سبعة. وأملي أنى قد نجحت في إقناعه أن نهب قافلتنا لن يكون مجديا بأي حال . لم تكن الضيافة التى قدمت لنا هنا أصيلة : قدم تلك الضيافة خصمه الشيخ الآخر. وبما أن هذه لا يمكن أن تكون أقل من الأخرى ، فقد تقدم هو أيضا بدعوتنا ، ولكنه في نفس الوقت طلب منا بلا أي وازع من خلق ومثله مثل أي قاطع طريق، مبلغا من المال مقابل الضيافة التي تعتبر واجبا قوميا بل دينيا ، والتى يقدمها في أريحية وبفخر واعتزاز أفقر الناس في البلاد .

طردتنا الأمطار في تلك الليلة من سطح المنزل الضيق العالي حيث كنا نحاول النوم ونحن نعاني من القمل والحرارة الخانقة . وفى الصباح كنا على استعداد لتتحرك القافلة . كان علينا أن نستأجر جمالا جديدة هنا : هذا هو شرط مضيفنا الشيخ وقد اشترطه بالتحديد . وكان من الضروري أيضا الحصول على جمال تناسب التسلق المرهق لممر الطلح . ومن أجل أن نضع حدا للكلام وافقنا على أخذ ثمانية جمال على الرغم من أننا كنا مقتنعين أن عددا أقل كان كافيا . وأحضروا في الواقع عشرة جمال ولم يكن أي من الشيخين على استعداد لإرجاع واحد منها . وأدى هذا إلى انفجار صياح عال وأخيرا أعادوا جملا واحدا ؛ ورافقنا الجمل التاسع رغم أننا أعلنا أننا سندفع لثمانية فقط . وبما أن المنطقة ستصبح من الآن متوحشة أكثر فأكثر لعله من الأفضل أن نغني نغمة مختلفة في المستقبل القريب .

وأخيرا تحركت القافلة . وبما أن هيرمان كان يتولى المهمة الشاقة جدا ، فكان يتحرك في العادة قبلنا ، يصحبه شخص يعرف المنطقة جيدا . وغالبا ما كان يصل مرحلة اليأس من نفاذ صبر مرشده الذى لا يفهم لماذا يريد أن يعرف

إسم أي جبل وواد ومجموعة منازل ، ولماذا يجب أن تنطق هذه الأسماء ببسطء وتكرر ، ولماذا عليهم التوقف كل عشر دقائق لتحديد الارتكازات وعمل الاسكتشات وأن يستمر هذا على امتداد ساعات . ومباشرة بعد المغادرة غالبا ما يبدأ المرشدون فى إعطاء إجابات فارغة أو يجاوبون باختصار وبلا تهذيب، أو حتى يعودون إلى القافلة ويفقدون بذلك الأجر الإضافي الذى وعدوا به . ويمكننا أن نفهم مثل هذا السلوك ولكنه على أي حال مزعج وبدد منا جهدا كبيرا لأننا لا يمكن أن نتحرك حتى يعود السلام بين رسام الخرائط ودليله . وإذا كان ذلك مستحيلا فيجب أن نجرب رجل آخر. وأحبوا كلهم هيرمان وبدؤا يفهمون طبيعة عمله حتى أنه عندما بدأ محسن بأسلوبه الهادئ فى الاستجواب تأتى المعلومات الموثوق بها حتى من بدوي نصف متوحش . وإذا لم يكن محسن فسيكون سالم المكسور الذكي أو محمد المجنون المتلهفان كل بطريقته الخشنة ولكنها مرحة تعمل فى المساعدة للمحافظة على استمرار هذا العمل الصبور الدقيق . كانت مهمة هيرمان خارقة . وبراعته فى اللغة العربية التى افتقدها بعد رحلتنا الأولى لحضرموت، عادت إليه سريعا بفضل المران اليومي . والنطق باللهجات المحلية الموجود فى كل اللغات ، موجود بصفة خاصة فى الأسماء الجغرافية ، ويشكل صعوبة حتى النهاية ، وكان التكرار لنفس الكلمة قد جعل البدو الذين استجوبناهم يتعجبون إن كنا عقلاء . ساعات من العمل مع مختلف المساعدين فى غرفة الرسم ضرورية قبل أن تضمن المادة التى جمعت فى خريطة . ولكن ، بإصدار هذه الخريطة ، وربطها مع خريطة حضرموت التى نشرتها سابقا فى كتابي، فالذين يعرفون كم من العمل الشاق يحتاجه إعداد خريطة لبلد جديد ، سوف يقدرون باحترام وعرفان مدى المجهود الذي بذله هيرمان بمفرده . لقد أضفى عمله على رحلتنا قيمة خالدة . إن رسم الخرائط الذى قام به هيرمان سيحظى بذكر عابر فى هذا الكتاب – إنه قليل الإثارة ليحتل مكانا مركزيا على الرغم من أن ذلك ما يستحقه – ولكن الاهتمام برسم الخرائط هو السبب الرئيسي للقيام بهذه الرحلة ، وضمن لنا التأييد القلبي الخالص فى عدن .

كان الصباح باردا أثناء ترحالنا والسماء ملبدة بالغيوم . المطر ينذر بالهطول ولكن لن يعوقنا . الفتنة الغامضة لممر الطلح كانت تغرينا بمواصلة السير . وتجولت نظراتنا بإعجاب فى المناظر الطبيعية . وحولنا كانت الأشجار الصامتة التى تنمو فى البلاد الجافة قد غسلتها حديثا الأمطار الغزيرة . وبزغت شمس الصباح عنيفة من بين السحاب واستنشقنا رائحة التربة المختلطة مع النبات المتفتح طازجا . تراجعت السيول وانكمشت إلى مجار أمكننا أن نعبرها بسهولة . ونظرنا بقلوب واجفة إلى أعلى إلى سلسلة الجبال الشاهقة على يسارنا . والجدار

الضخم الذى شاهدناه فى الأيام السابقة ظهر الآن مكسرا وأمكننا أن نرى كتلا صخرية تهبط من كتلة الجبل الأصلية ، بينما انتصبت أمامنا القمم المنعزلة مثل الحراس . وفى اتجاه الطلح كانت قمم الجبال محتجبة فى السحاب . وكان هدف الرحلة لذلك اليوم بالنسبة لكل القافلة أن نصل النقطة التى يبدأ فيها الصعود الحاد. وسواء هنالك بلل أو جفاف، يجب أن نصل هناك . ولا يعنى المطر كثيرا طالما أن الجمال لا تنزلق بشكل خطير .

أصابنا بعض رشاش المطر ، وتشبعت ملابسنا بالماء ولكننا واصلنا السير إلى أن جفت الملابس علينا . كانت الحرارة مناسبة جدا حتى غدا السير متعة غير عادية . الجبال على يسارنا صارت أكثر تجعيدا بينما على يميننا تلال حجرية منخفضة . ثم أقدم نحونا بدوي من النوع غير المستحب وسألنا إلى أين نتجه ولماذا لم نأخذ جمالا ودليلا من قبيلته . وتصدى له الحارس فواصل سيره .

ظهرت الآن على يميننا كتلة من الصخر هيمنت على كل المنظر الطبيعي. وفوق قمتها معقل صرة المشايخ يقف فى عليائه وترتكز على أجنحته المتداعية أعشاش من حجارة مكومة حيث يعيش بدو نصف مستقرين وقد جاءوا يتقافزون نحونا وبنادقهم تتدلى من ظهورهم مثل النير . وحيونا بمصافحة ودية وقبلة فى الهواء . وكنا اتفقنا سابقا على أن نحصل هنا على السيارة . تطوع كل الرجال لمصاحبتنا ولكن بالرغم من تقديرنا لعطفهم رأينا أنه سيكون مكلفا جدا . لذلك أخذنا اثنين وسار أحدهما فى المقدمة وتحركت قافلتنا . الناس يشكرون الله كثيرا على الأمطار الغزيرة . فيزرعون أرضهم عندما تكون الأمطار كافية ولكنهم يعتمدون على الأغنام لتوفير أسباب معيشتهم الأساسية .

زارتنا مجموعة من العوالق من يشبم . محسن من تلك المنطقة ولذلك التقى مع عشيرته . كان لقاؤهم حميما ولكن ليس فيه إطلاق رصاص . شكلوا دائرة كبيرة واتكؤوا على أسلحتهم . وتبادلوا أسئلة قصيرة وقاطعة . كان هذا من بقايا كلمات قديمة وتعابير محددة من قرون خلت . وبشكل احتفائي وبوجه حازم هتفوا بهذا الرمز الصحراوي : كلهم لاعبون فى استعراض قديم العهد . وبعد انتهاء الطقوس ، انفضت الدائرة وأصبح بإمكان الأصدقاء أن يتكلموا معا بطريقة ودية . وواصلت القافلة سيرها بهدوء ، ونحن على يقين أن الذين تخلفوا سيلحقون بالركب فى خبب متواصل .

وسرعان ما جئنا إلى هضبة تقع بين مناطق القبليتين : إنها أرض الله ، وهكذا وضعت الطبيعة هذا المكان ليحاربوا فوقه معاركهم الثأرية . لا يستطيع أي شخص أن يمر هنا بدون حراس مسلحين . كل الذين قابلناهم يحملون بنادق .

أشاروا لنا على منحدر جبلي في البعد كان مسرحا لغارة نهب فيها ٨٠٠ رأس من الماشية . ولفت انتباهنا قبران بجانب المكان لأنهما يحظيان بعناية فائقة. وشرح لنا الدليل أن اثنين من الأعداء التقيا هنا وقتل كل منهما الآخر بالرصاص في وقت واحد . وتعتبر هذه المصادفة قضاء من الله وجديرة بالتذكار.

استدار الدليل الآن في اتجاه شمالي فأصبحنا نسير رأسا نحو الجبال . وغالبا ما تابعنا مجرى الوادي وازدادت النباتات رويدا وتراجعت الأعشاب لتحل محلها الأشجار الصغيرة . وعطرت رائحة النبات اليانع الهواء . كان المكان الذى توقفنا فيه لراحة منتصف النهار جذابا للغاية وهنا اتسع مجرى الوادي ليصبح حوضا عريضا .

ويقع على المنحدر الغربي للوادي كتلة صخرية ضخمة في قاعها كهف وجدنا فيه نحن وحراسنا السبعة ظلا نستريح فيه. وأعد لنا صالح الطباخ قطعا من الخبز سمكها نصف بوصة ممسوحة بزيت السمسم . وجمع حراسنا والبدو حجارة مستديرة ورموها في النار وصنعوا خبزهم كما في السابق . فكانت وجبتنا قد أعدت في بضع دقائق . هذا الأكل البدائي مشبع جدا ولكنه ثقيل على المعدة . وعلى الرغم من أننا سرنا من السادسة صباحا حتى الثانية ظهرا فإن هذا الخبز الساخن هدأ جوعنا سريعا واستطعنا أن نواصل السير حتى نصبنا معسكرنا المؤقت في الليل. واصلنا مسيرتنا مباشرة بعد الوجبة ودخلنا منطقة جبلية كان جمالها وجلالها في تزايد مستمر . وصعدنا سريعا إلى أعلى عبر وديان مغطاة بصخور ضخمة منثورة . وعندما وصلناها وجدنا أثرا لآدميين عاشوا أو تحاربوا هنا ، ولبعض الذين وجدوا الراحة الأبدية . هذه القبور تذكر بحروب بدوية بسبب الثأر بين القبائل . مثل هذه الحروب لا تنتهي أبدا ولكن تدعو إلى انتقام جديد وإلى استمرار سفك الدماء . هذه مأساة الانتقام الذى لا نهاية له ولا يحقق سلاما ولكنه يدفع بالمشاركين فيه أعمق وأعمق إلى شهوة الدم من أجل الدم .

وصلت القافلة الآن أول عقبة ، وهو الاسم الذى يطلق في الجزيرة العربية على ممرات الجبال وهي في هذا الجزء من شبه الجزيرة حادة الانحدار بلا استثناء .

الفصل الرابع

عبر ممر الطلح

كانت عقبة المرماة هي صعودنا الأول الشاق . وبسبب كل ما سينتظرنا فى اليوم التالي فضل رجال القافلة الانتهاء من تخطي هذه العقبة قبل غروب الشمس . وليس هناك من قرار كهذا كان سيجد منا ترحابا حارا ولكن هناك خطـورة فـى الاختيار . فإذا ما سرنا بجمالنا المحملة عبر ذلك الطريق الصخـري المتعـرج ، فلابد أن نستمر حتى نصل نهاية الممر . ثم بعد هبوط قصير بإمكاننـا أن نصـل مكانا حيث نجد مأوى كافيا من رياح الجبل العنيدة ومكانا كافيا لضرب معسكر لنا وللحيوانات . ويبدو أن القرار بالاستمرار وجد موافقة من كل القافلة لأن الجميـع شرعوا فورا فى العمل وكان الكلام قليلا . وانقسمنا فى الحال إلى مجموعتين لكـل مجموعة جملان ربطا معا وتأكدنا من الحمولة وأعدنا ربطها . وتحـرك القـائد أمامنا بأكثر الجمال تدريبا وتبعته بقية المجموعات وحافظوا على مسافة معقولـة بينهم . وظل أصحاب الجمال على اتصال وثيق مع حيواناتهم وشجعوها بالأنغـام والإنشاد المعهود . وأصغت الجمال وتبعت ، ووضعت أخفافها بتبصر فوق الممر الصخري الضيق . وكنا نسمعها تحفر طريقها فوق الجلاميد الجافـة ، وتـنزلق أحيانا كلما تدحرجت الصخور تحتها ثم تصطرع لتستعيد توازنـها . ثـم ترتفـع التحذيرات العالية من أصحابها عالية مشجعة وتستعيد الحيوانات ثقتـها وتواصـل السير . وتتفادى بهدوء المنعرج تلو الآخر . وعندما تكون المنعرجات حادة يذهـب الرجال بحذر ليتفادوا ببراعة الجلاميد البارزة حتى لا تصطـدم بحمـل الجمـال البارز فوق ظهورها الشاهقة . ويبدو أن الأوامر التى تصدر لأخذ الحـذر يمينـا وشمالا تفهمها الجمال وبطريقة طيعة وتميل جانبا ببطء متحسسة لموطـئ قـدم حتى عندما لا يفهم الحيوان لماذا صدر الأمر . تركز كل اهتمامنا على الجمـال ، لأن مهمتها الأكثر مشقة . وهنا تناقض صارخ مع طبيعة الجمل ، الـذى منـح جسدا متكيفا بشكل رائع مع السهول الرملية الحارة ، فكان عليه هنـا أن يجـاهد ليصعد ممرات صخرية حادة تتناثر فوقها صخور تتدحرج أمامه كلما سار . وقـد فاقمنا من مشاقه بأن رفعنا مركز جاذبيته أعلى بمراكمة أحمال ثقيلة فوق ظـهره العالي . ولذلك أخذنا نراقب الحيوانات المعذبة عن كثب حتى نتمكن من المسـاعدة إذا انزلق أحدها إلى الخلف، ونكون أيضا على استعداد لنقفـز بعيـدا إذا دعـت الحاجة . وفى غمرة إعجابنا بالجمال وقائديها نسينا إرهاقنا . كـان هـذا مجـرد تجربة لما ينتظرنا فى اليوم التالي ولكنه كاختبار أولي استطاعت القافلة أن تصمـد له .

كلما ارتفعنا عاليا صار النسيم باردا والمناظر أكثر روعـة فـى اتجـاه الجنوب فوق نتوءات سلسلة الجبال بقممها التى تقف وحيدة كالحراس فوق السـهل الذى نسافر فيه . وفارقنا منذ أمد طويل أي أثر لمساكن النـاس . كنـا وحيديـن

والجبل الذى يعلو بجنباته فوقنا يبدو كأنه يزحف ليعرقل طريقنا . وفى عالم الجبال الساكن هذا ، والريح والسحب الرعدية ، كنا مدركين لضآلتنا وارتعبنا لهذه العزلة . فكان الاقتراب من بشر آخرين مصدر راحة . والصيحات المنغمة من البدو والجنود التى يتردد صداها فى الجدران الصخرية كانت تحديا يعيد الاطمئنان فى المحيط الخلاب والسكون . ويبدو أن الرغبة للتغلب على ذلك السكون سيطرت على العرب فى الليلة الأولى التى قضيناها بمفردنا وسط الجبال وجعلتهم يبددونها بالغناء وسرد القصص ، فلم ننم إلا قليلا .

عسكرنا فى مكان يسمى باخديش حيث يتسع مجرى الوادي مرة أخرى . والأمطار التى حجزتنا عاليا فى السهل ملأت فجوات الصخور بماء بارد وصاف كالبلور . واختار كل واحد لنفسه بحيرة صغيرة واستمتعنا بحمام بالصابون فى غاية المتعة . واستطاع السمك الصغير أن يبقى حيا فى هذه المياه واندفعت فيها الضفادع بشكل غير متوقع أو مزقت السكون بنقيقها الأجش . تقع باخداش على ارتفاع ٣٢٠٠ قدما فوق سطح البحر . صفير الرياح عبر الوادي جعل الهواء البارد يزداد برودة كلما تقدم الليل ، ولكن بدايتنا الموفقة فى تسلق العقبة منحتنا الثقة لمعالجة المهمة التى تنتظرنا فى اليوم التالي . وبعد الفراغ من وجبة المساء، حرك الجنود الجمرات الخامدة وبدؤوا يرقصون على ضوء النار ، بمصاحبة الغناء والتصفيق بالأيدي وخبط الأقدام الحافية التى تتبع إيقاع الغناء . بعد الرقص أخذ البدو دورهم بأغاني "دانا" العاطفية بنمط مألوف للجميع ولكنه يختلف حسب ذوق الشخص وإلهامه . ولا شك أن الجزء الأكبر من الأغاني قد تحسن . وينشدها رجال القافلة بصوت أجش من الصعب احتماله إلا إذا سمع من البعد . على أن بعض الجنود كان ينشد بنغمات ناعمة حزينة تنتهي بأبيات مصحوبة بغصة فى الحلق . لم نتمالك أنفسنا من محاكاتهم وشاركنا فى الإنشاد الجماعي بتشنجات عالية ، وكانت مساهمة استقبلوها بضحكات عالية . كان الوقت متأخرا ، فأوقفوا الغناء بناء على طلبنا . عينا الحراس وحاولت البقية أن تجد الدفء فى النوم . وحلقت فوقنا السحب المزعجة التى حملتها الريح ، ويهطل أحينا رزاز خفيف فوق الوادي ، ولكنه كاف ليجعلنا ندرك الحالة البائسة التى سنصير فيها إذا بدأ المطر ينهمر . جعل هذا الرزاز نومنا متقطعا ، على الرغم من أن بعضنا أغفى مرة أخرى ، وتعرض بعض رجال القافلة إلى البرد الشديد تحت الأثواب القطنية الخفيفة أو جوالات العفش ففضلوا أن يجلسوا ويتحدثوا مع الحراس وينتظروا طلوع الفجر . عندما أشرق الصباح ارتدينا ملابس مشبعة بالندى وباردة كالثلج . وبسيقان متصلبة وأقدام موجعة بدأنا نسير بين قطع العفش ، ونلكز الكسالى ونحاول أن نحركهم للعمل .

كان هيرمان ضمير القافلة . لديه ساعة منبه كبيرة توقظه قبل بقيــة أفــراد القافلة . وكان يدفعنا للنهوض بلا شفقة . ثم جعلنا كلنا الحياة لا تطـــاق بالنسـبة للطباخ حتى يرغم أيضا فى النهاية على النهوض . أما إيقاظ البدو فأمر شاق جدا، بالذات عندما يكونون قد غنوا إلى وقت متأخر من الليل ولا يكون الصباح بــاردا لدرجة تمنعهم من مواصلة النوم . كانوا يرقدون مثل ألواح الخشب ومن الواضــح أنه ليس لديهم أي رغبة فى تجميع الجمال التى تسرح عادة بعيــدا أثنــاء الليـل. ولذلك تقع هذه المهمة على عاتق صبي القافلة على الرغم من أنه ما زال مجــرد طفلا صغيرا . وعندما يفشل فى العثور على كل الجمال ينضم إليه الرجــال فــى البحث عنها .

بينما كان الطباخ يعد الشاي ، انهمك هيرمان في آلته التي يحدد بها درجة الغليان المحلية وهو عمل يقوم به مرتين فى اليوم حتى يستطيع أن يحدد بــالضبط ارتفاع المكان من سطح البحر . الثريد الذى يتصاعد منه البخار والشاي الســاخن يجلبان أول ربع ساعة سعيدة من اليوم . العرب يقومون بعملهم اليومي على بطـن خاوية . بعضهم يفضل الصلاة . وحال ما تأتي الجمال للتحميل توضــع الأمتعــة على ظهرها وتربط .

اعتدت أن أجلس فوق جلمود الصخر حيث اطل على المعســكر وأكتـب مذكراتي في ضوء الصباح . وفى العادة هيرمان أول من يغادر مــع حارســه ، وبعدها تتبع الجمال مع الحراس ، ثم أسير فى النهاية حتى أتأكد أننا لم نترك شـيئا خلفنا وحتى أحافظ على سرعة معقولة .

فى يوم تسلق الطلح ليست هناك ضرورة لأوامر أو تشجيع . إنــه يـوم سفر عبر منطقة خالية حيث دارت فوقها حروب كثيرة وحيث الكمــائن مألوفــة الوقوع . كانت مقابر البدو التى عبرناها أثناء اليوم دليلا على ما حـدث هنــاك . سرنا فى تشكيلات متقاربة وكل عين وأذن متيقظة ، وشققنا طريقنا إلــى أعلــى متوحدين بنفس الرغبة – العبور . وبين كل لحظة وأخرى يتقدم أحـــد الحـراس ليستكشف الأرض أمامنا . وذهب محسن أيضا بنفسه وأخذ يتسلق حينا إلى الجانب وحينا إلى الأمام ، ويسير من موقع ممتاز إلى آخر يستطيع منه أن يشرف علــى الجمال التى تكدح.

كثرت النباتات وازداد عدد الحيوانات .لابد أن الماء فى هذه المرتفعــات العالية متوفر طوال السنة . فالرياح التى تهب من المحيط الهندي تعترضها هــذه السلسلة من الجبال التى يبلغ ارتفاعها بين ٦٠٠٠ إلى ٩٠٠٠ قدم فيسقط المطــر . ظهر بالقرب من آخر معسكر نوع كبير من الطيور ســماه الحـارس يعقــوب ، وشاهدنا أثناء المسير الأرانب والعديد من الطيور التى تشبه الحمام . وتنمو علــى

الجانبين الأزهار والأعشاب وحتى الأشجار . وهناك العديد من النباتات المزدهـرة التى تذكر بجبال اليمن التى تعترض السحب الممطرة .

جئنا من مجرى الوادي الذى تابعناه علـى درب متسـع يصعـد نتـوء صخري يسمى عقبة أم كبد . أصبح الصعود الآن شاقا . كان أداء الجمـال جيـدا وقادتها متيقظون ومتنبهون . ولم يقصروا فـي كلمـات التشـجيع والتحذيـر . وصياحهم يتردد من الصخور العارية الجرداء على جانبنا وسارت القافلة الصغيرة وسط دوامة من الأصداء . كان السيارة الذى يقودنا ، والمسئول عن سلامتنا طالما نحن فى منطقة قبيلته ، بدويا نحيلا قويا في عينه بريق . توقف عند نقطة حيـث اعترض طريقنا ممر جانبي وانتظرنا هيرمان وأنا . هل نتبعه لفترة إلـى الممـر الجانبي ؟ طبعا سنتبعه . ثم أوصلنا إلى نقطة ، حيث يوجد تحت صخـرة معلقـة مكان طبيعي لتوقف البدو . الآثار العديدة تدل على أنه استعمل كمعسكر . وأشـار السيارة إلى حجر بالقرب منه بقعة داكنة فوق الأرض . هل نعرف مـاذا كـانت هذه؟ لا . كان هذا دم ! قبل شهر ونصف قتل أحد رجالهم بخسة بينما كانت ترتاح القافلة التي يقودها . تسلل القاتل خلسة قربها. لم يره أحد . جثا خلف هذا الجلمـود وأطلق الرصاص . وأصيب السيارة فى ظهره ونزف حتى الموت . وهرب القاتل

غلبت ذكريات ذلك الاعتداء على الرجل فحكى قصته بتعجل وبعاطفـة . هـل ستحتمل الحكومة فى عدن مثل هذا الاعتداء الوحشي ؟ وهـل سـنخبر الكـيرنل (كلونيل) ونسأله لماذا لم يرسل بعد طائرة لمطاردة القاتل والامساك بـه ومعاقبـة قبيلته ؟

وأجبنا بأننا نعتبر ما حدث كان عملا جبانا وحقيرا وغـير جديـر بـأي شخص يسمى نفسه رجلا . ولكن لماذا التشكي ؟ أليس هذا عادي جدا ؟ ألم يكـن الانتقام قانونهم ؟ نعم ، هناك بعض الحقيقة ، فى تلك الحرب قبل فترة طويلة قتلوا أحد العوالق والآن جاء أحدهم للأخذ بالثار بهذه الطريقة . لماذا إذن يشتكي ؟ فقـد انتقمت القبيلة حسب قانونهم للأخذ بالثار.

هذا ما قلناه ولكن فى أعماقنا نتفق معه . وسمعنا فى كلماته صرخة رجل فقد صديقا ورفيقا بريئا قتل ضحية لمذبحة جبانة . وواجهنا يقين البـدوي العميـق بضرورة المساعدة البريطانية لوضع حد لنظام سفك الدماء المستديم . كان سيارتنا صحيحا . يجب أن تعلم الحكومة فى عدن بهذا وسوف تأتي فى النهايـة لتخلـص البدو من حربهم التى لا تنتهي . سوف تأتي الحكومة بقبلة السلام البريطانية : لقـد ظلت منطقة عدن الخلفية تنتظرها منذ زمن طويل .

بعد عقبة أم كبد جاءت كبد الصغيرة ، عقبة أم كبيد . ويمتد بعـد ذلـك جانب من الجبل ينحدر انحدارا تدريجيا حيث يمكننا أن نجلس لراحـة منتصـف

اليوم التى تفضلها الجمال بشكل خاص . وشعرنا أننا لسنا بعيدين من بداية الممر . توقف الرجال والحيوانات تحت ظل غير ظليل لشجرة صنت عجوز أرهقها الطقس ، يسمونها هنا سمر (١) . كانت الشمس محرقة ، وحملت دفعات الريح القوية البطانيات التى نصبناها فوق الأشجار للمزيد من الظل بعيدا .

كان ممر الطلح على يميننا . يخترق الممر حافة جبل شاسعة داكنة انشقت عميقا وتنحدر إلى السهل البعيد . تحجب السحب جوانب الممر . وعندما نظرنا خلفنا وجدنا أن السهل أسفلنا يشع بالشمس . وأمامنا تنتشر سلسلة الجبال التى كنا نتسلق عبرها التلال التى تتخلل طريقنا . وبعيدا إلى الجنوب كانت الأرض مسطحة فى اتجاه البحر . وتنتصب تلال مسطحة القمة معزولة بعيدا من حزام التلال المحيطة وكانت تبدو سوداء من هنا . ربما كانت براكين صغيرة خامدة .

كانت استراحتنا قصيرة . فلم يكن علينا أن نعبر الممر والنجد الذى يليه فحسب ، بل أيضا أن نهبط الجانب الشمالي من سلسلة الجبال . وكلما هبطنا إلى أسفل كان أفضل لحمايتنا من عصف الريح العنيف ليلا . وبعد أن تسلقنا ساعة كاملة وصلنا بداية الممر ، رأس العقبة ، وارتفاعها ٦١٠٠ قدما فوق سطح البحر. ومن الشرق والغرب ارتفعت قمم سلسلة الطلح ألف قدم أعلى . تحركنا نحو الهضبة العالية حيث دخلنا أرضا مختلفة . اعترض الجزء الجنوبي من الهضبة نسمات البحر التى تأتى بالمطر . ويبدو أن الجزء الشمالي بدأ يصغر . كانت أرضا متعرجة تتناثر فوقها جلاميد جرداء ملتمعة تنفجر باللون الأحمر والأصفر . ينمو هنا نوع من الأشجار التى أضفت بأشكالها وتكاثرها على المنظر الطبيعي صفة متميزة . هنا أرض الطلح (ربما جبل الحبشة الطلح) . إنه هذا الصنت العجوز المنحني هو الذى استطاع أن يصمد لقسوة هذه الأرض والصخر والحجارة حيث تهب الرياح العاصفة ليلا ونهارا . تتجنب القوافل أرض الأشباح هذه أو تحاول عبورها بأسرع ما يمكن وتنجو من رياحها القاسية . فشجر الطلح هنا لا يستعمل لحطب النار ولا لعلف الجمال لذلك يصل لعمر كبير . وبسيقان قصيرة كثيرة العقد مثل كتل الصخر ، تنشر قممها المسطحة منخفضة فوق التربة الصخرية ، وأغصانها المليئة بالشوك تشير إلى الرياح القاسية التى لا تنتهي . إن مملكة الطلح أرض الأسى ، حيث قبور البدو الذكرى الوحيدة للرجال الذين عبروا هنا .

بعد إرهاق مؤلم من التسلق طوال اليوم وجدت مفاصلنا المتعبة وأقدامنا راحة فى الحركة المنتظمة السهلة فوق الأرض المسطحة . رطبت الرياح الجافة أجسامنا المتصببة من العرق ونشفتها ، ويمكننا الآن أن نزيد من سرعتنا لأن أي

واحد منا يدرك أهمية قضاء الليل فى أرض أكثر وقاية تقع على بعد بضع مئـات من الأقدام أسفلنا . كانت الشمس قد انخفضت عندما وصلنا بداية الـوادي . هنا يمكننا أن نجد طريقنا بأنفسنا لذلك ذهب السيارة مع رجلين للبحث عـن المـاء ، وحمل كل واحد منهم قربة فارغة . وفى هذه الأثناء أسرعت القافلة فوق حجـارة بطن الوادي المتوحش . يبدو أن إسراعنا يشبه هروبا من المرتفعـات الموحشـة المرعبة حيث تعيش الأرواح الشريرة فى السحاب والريـاح ، وحيـث لا يـرى المسافر أي رجال وإنما يعبر على قبورهم . وإذا لم نتأثر بوحشة قمم الجبال التـى تعصف بها الريح وبأشجار طلحها العجوز المنحنية فى صراعها ضد الريح التـى لا تتوقف ، فإن رفاقنا البدو تأثروا بكل تأكيد : يتقافزون فوق الجلاميد ويسـتحثون جمالهم لتهبط الوادي ، لتقترب للعالم المأهول . وأرغمنـا الظـلام أخـيرا علـى التوقف ونصب المعسكر فى مكان تتسع فيه بطن الوادي . تقف الصخور منتصبـة على الجانبين وتعطى الوادي شكل نفق تهدر عبره الريح . وشرعنا كلنـا نعمـل على عجل . أزحنا الحجارة لنهيئ مكانا للنوم ؛ تسلق رجال القافلة الصخور طلبـا للمزيد من علف ا لجمال زيادة على ما جمعوه أثناء السير بينمـا ذهـب الجنـود للبحث عن حطب جاف لنار المعسكر الضخمة . توقعنا أن يكون الليـل بـاردا . ووجد الجنود مساعدة من بعض الرجال الذين انضموا إلى قافلتنـا مـن أجـل أن يعبروا بسلام تحت حمايتنا منطقة غير آمنة . أحد الشباب الذى كان دائمـا علـى استعداد للمساعدة رافقنا من لودر . كان يسافر بصحبة رجل كبير فـي السـن . غادرا اليمن سويا وسارا شهرا من قبل . جاء الرجل الكبير من إب وسـموه فـى القافلة الشايب ؛ والشاب من كوكبان وسموه الكوكباني . تبع الشـاب الكوكبـاني الرجال الذين ذهبوا للبحث عن الحطب وحمل معه فأسا وحبلا . وهاجموا جميعـهم أشجار صنت بدائية نصف ميتة . الخشب جاف وهش فكان تـأثير الفـأس عليـه قليلا. لذلك ضربوا الأغصان بحجارة ثقيلة ، وإذا لم تنكسر لفوا جانبا منها بحبـل وبهزات قوية تصاحبها أغاني العمل أسقطوا شظايا من عقد . وسحبوا تلك الكتـل بصيحات عالية إلى المعسكر واشتعلت فى الحال ناران فى المعسكر .

نحن في شعب نعمان ، ما زلنا فى الأماكن التي تسمى أرض الله . نأمل فـى صباح الغد أن نتصل بالعالم المأهول . لا ندرى كيف سيكون موقفه منـا ولـهذا السبب وضع محسن الحرس للمراقبة وهو نفسه كان قليل النوم . بعد وجبة المساء استعد كل الذين كانوا بلا عمل لحماية أنفسهم قدر ما استطاعوا من الريح العنيفة. اشتعلت نار المعسكر وتوهجت كتل الحطب الضخمة حمراء كلما هبـت فوقـها الريح : سوف تظل مشتعلة طوال الليل تبعث الدفء فى البدو الذين رقدوا ملتفيـن قرب النار . أعاق تسلق الطلح أي تكرار لحيوية الليـل قبـل أن تـهجع القافلـة

المرهقة للنوم . كانت الريح تهدر عبر فتحات صخور الوادي : الجمـــال تـبرك قريبا ، تمضغ علفها وتتنفس أحيانا آهات عميقة .

هوامش

(1) ورد ذكر شجر السمر في الأدب العربي الجاهلي والإسلامي باعتباره شجر نباتـه لا يؤكل وهو رمز للبؤس . ذكره أمرؤ القيس في حالة الجمع :

كأني غداة البين حين ترحلوا لدى سمرات الحي ناقف حنظل

ويقول أبو نواس في ذم العرب والفخر بالفرس مقارنا النباتات الفارسية بالعربية :

تعد الشيح والقيصوم والفقهاء والسمرا جني الآس والنسرين والسوسان إن زهرا ؟

الفصل الخامس

{الاقتراب من منطقة العدو}

يندمج شعب النعمان مع وادي حطيب ، الذي تنحسر جنباته بعيدا حتى مصاطب الراسب الطفالي على جانبي بطن الوادي ، وتقوم بزراعة المنطقة قبيلة فتحان التي تعيش هناك . وحاكمهم هو الشيخ عبد الله . ولابد من الحصول على إذنه لنعبر إلى جابر . وبعد جابر سنكون في أرض قبيلة ربيزي التى كانت في ذلك الوقت منهمكة في حرب. هنا يشيرون إلى الحرب بكلمة أكثر رقة وهي ربشة التى يبدو أنها تعنى شجارا . لا نتوقع صعوبة مع الشيخ عبد الله ولكن لا أحد يدري : يمكن أن تكون الحرب لها أثر معد .

في صباح السبت الثاني من أبريل عبرت القافلة وادي حطيب الذي كان انحداره الآن متدرجا . وما إن اتسع الوادي حتى عبرنا على أول سد مائي من حجارة كبيرة تشكل مدخلا لقنوات الري . عندما يفيض السيل منحدرا فى الوادي يحجز السد بعض الماء ويوجهه إلى القنوات التى تحمله إلى المزارع التى تقع في المنحنيات الداخلية للوادي وهي فى مأمن من الاندفاع العنيف . تسمى المزارع هنا "طين" ، ويعنى تربة الطفال الرملي التى تتكون منها (١) . هذه المزارع محروثة جيدا ومعدة في مصاطب . وكانت مفاجأة لنا أن نجد هذا البرهان لحضارة قديمة على حدود بلاد وجدت دعواها الحديثة للشهرة من الحرب ، العدو اللدود للزراعة . وكلما تقدمنا ازداد عدد الحقول واتساعها . وعلى جانب الوادي فوق الحقول شيدت أكواخ من الحجارة في الوقت الذي ينضج فيه المحصول . ولكن التربة الآن مغطاة بطبقة سميكة من التراب الناعم الذي غطست فيه أرجلنا بلا صوت . ثم جئنا على واد آخر به قلاع تصطف فوق قمم التلال . كل مجرى الوادي هذا مقسم إلى حقول انتشر فيها الفلاحون هنا وهناك يفلحون . أما بالنسبة لما تبقى فصمت مطبق ولا شيء يتحرك .

كان علينا أن ننتظر الشيخ عبد الله الذي سبقنا السيارة ليبلغه بقدومنا . ولم يمض وقت طويل حتى رأينا الرسل يتسابقون بين المباني فوق قمة التل وسرعان ما رأينا جماعة مصبوغة بالنيلة مسلحة بالبنادق تأتى فى اتجاهنا . وجاء آخرون من حصون أخرى ، يمشون عبر المزارع المحروثة حتى شكلوا تدريجيا صفا طويلا بجانب قافلتنا .

أطلقوا بعض العيارات النارية ترحابا . ومن جانبنا لم يكن هناك أي إطلاق للرصاص وإنما تحية حارة بالأيدي تعبيرا عن نوايانا السلمية . كان حفل الاستقبال منظما ورصينا . ثم بدأت المفاوضات . وسرعان ما أصبح جليا أن التقدم سيكون صعبا . ولم يصل بعد الشيخ عبد الله ؛ أخبرونا أنه كبير فى السن ومن غير المحتمل أن يتمكن من الحضور . بدؤوا يتحدثون فى الحال ويرفعون أصواتهم أعلى فأعلى . وفهمنا أنهم مستاؤون من الحكومة . ولاموها لأنها لم تف

بوعدها لتحقيق السلام فى البلاد وعلى طرقها التجارية . والطرق الأبعد مغلقة بسبب الحرب ؛ انتشرت الاضطرابات إلى منطقتهم ؛ وتوقفت التجارة والحركة تماما وتزداد خسائرهم كل يوم . ولم يساعدنا تفسيرنا بأننا لسنا الحكومة ولا شأن لنا بها. وترددت الشكاوى بكل بساطة بإلحاح أكثر وأكثر حتى انتهوا بصيحة عامة. ازداد ارتفاع صوت الكورس ورأينا أنهم يدفعون بأنفسهم إلى قمة الإثارة التى يمكن خلالها أن يقع أي عمل طائش بكل سهولة . اتخذ محسن موقفا حازما . فهو لا ينتمي إلى الحكومة وعليه أن يجيب على شكواهم . وفعل ذلك بروية وبقوة، فقال إننا رحالة من بلد غريب (نسمى هنا سراكيل) ولا شأن لنا بكل هذا ، ولكن نطلب بكل بساطة السماح لنا بالمرور عبر منطقتهم .

وبرز أمر صرف الأنظار بشكل مستحب ، وذلك عندما تحرك نحونا من بعيد مجموعة جديدة من الرجال مصبوغين بالنيلة يتقدمهم شخص صغير منحن وله شعر طويل أبيض وكان يتكئ على السلاح التقليدي ، الحربة الطويلة . إنه الشيخ عبد الله شخصيا . وأطلقت حاشيته عدة طلقات كما هي الحالة فى استقبال الغرباء . وتبع ذلك المصافحة بالأيدي ثم فى صمت متعاطف بدأ الشيخ حديثه . وسرعان ما تبدلت مقدماته الرقيقة إلى تجريم الحكومة البعيدة ؛ ونطق توبيخه بصوت غاضب وبانفعال متزايد انتهى بصيحات هستيرية هزت جسده الواهن العجوز . وكانت إشارة لأتباعه لينضموا إلى الصراخ ورفع أيديهم وبنادقهم . وانفجر الهرج بلا حدود . ولم ينجح حراسنا هنا . يبدو أن قبائلهم ارتكبت الكثير من أعمال الحرب فى هذه الأجزاء . وكان هذا هو السبب أن هيرمان وأنا ، مع اثنين آخرين رغم أننا وقفنا ننظر فى برود صامتين ، قد جرونا إلى الخلاف . لم نفهم فى البداية كلمة مما قالوه لنا لأنهم كانوا فى غاية الهياج وكان صياحهم عاليا جدا . واتضح فى النهاية أنهم يرغبون منا أن نرسل فى الحال رسالة إلى الحكومة نستحثها فيجب أن تقوم بعمل لتحقيق الأمن فى هذه البلاد بالذات على الطرق التجارية . يبدو أن المآسي التى سببتها الحرب فى المناطق القريبة كانت كبيرة وأدركنا أن تدخل سلطة قوية قد يعني الكثير . أثارت بريطانيا العظمى تطلعات وعليها أن تفي بها فى الأيام القادمة .

وعدتهم بان أكتب رسالة إلى "الكيرنل" فى عدن . لم يقتنعوا تماما بتأجيل اتخاذ خطوة ولكن بدأ الانفعال العاطفي يقل تدريجيا لأنة لم يلق معارضة . ولكن الأداء كانت له نتيجة .

جذب الشيخ كم قميصي وأخذني إلى مكان هادئ حيث نكون على انفراد. كم سندفع لنحصل على حرية المرور ؟ أوضحت له أننا حقيقة لا ننتمي للحكومة ولذلك لا يمكننا أن ندفع قريبا مما يدفعون ، البريطانيون يفعلون ذلك . قدمت

خمسة ريالات نمساوية ؛ طلب خمسين . وقليلا قليلا زدت المبلغ إلى عشرة ولكن بعدها كان علينا أن نسير سريعا مع السيارة عبر منطقة هذه القبيلة التي لم تقتنع بخمسة ريالات . ولم ندر إن كنا سنحصل على شيء جوهري مقابل هذا المبلغ ، أو بمعنى آخر كم طول الطريق الذي اشترينا سلامة العبور فيه . تحاشوا بخبث الإدلاء بمعلومات عن امتداد منطقتهم القبلية . وكان الخلاف بين حراسنا والناس المتجمعين على أشده عندما أعطى الشيخ الإشارة بالسماح لنا بمواصلة السير . وسار معي الشيخ وحاول أن يهدئ من غضب أتباعه الذين ما زالوا يتجادلون مع الجنود . يبدو أنه كان فى غاية الاقتناع بالريالات العشرة التي سيستلمها ابنه عندما نصل سالمين إلى حدود منطقته . وقبل أن يبارحنا ويعد بالقيادة إلى ابنه ذكرنا مرة أخرى بالرسالة التي علينا أن نكتبها للحكومة . ووعدته بأن أرسل تقريرا وأخبرته أن الرسالة ستكون أكثر فعالية وإقناعا إذا وضع صورته عليها . كان ذلك غير مستساغ ، وربما خطير ، لأنه طوال حياته لم يدخل فى مخاطرة كهذه . ولكن الشباب ، ومن بينهم ابنه , وافقوا على الفكرة . وعليه سرعان ما اتجهت عدسات آلات التصوير نحو الشيخ بلبسه غير المنسق . وتعلق الشيخ بحربته دفاعا ضد هذا العمل الشيطاني وأدت مشاعره تلك إلى ارتجاف الحربة الطويلة في يده . ثم عاد شيخ عبد الله إلى منزله الحصين فوق قمة التل وتقدم ابنه وأخذ بيدي بالطريقة العربية . وسرنا هكذا أمام القافلة وبهذا هربنا من الأصوات الخشنة التى تتجادل .

أصبح الوادي ضيقا مرة أخرى وسار طريقنا فوق قناة ري أنيقة جافة . تنمو العديد من أشجار الأثل(٢) والعلب هنا وتحتل المزارع المحروثة جيدا ما تبقى من التربة الطفالية فى بطن الوادي . ووصلنا أسرع مما توقعنا إلى أرض الله المحايدة بين منطقتهم والمنطقة التى تليها . لذلك كان كل ذلك الجدل وجزء من الإثارة التى قاموا بها من أجل انتزاع ضريبة عالية منا لعبور أرضهم الليليبوتية. كم نحن شاكرون الآن أن تمثيليتهم الشريرة اعتصرت منا فقط خمسة عشر ريالا. لقد لعبوا دورهم جيدا ولكننا صمدنا ولهذا يمكننا أن نودعهم كأنداد .

عبرنا بدون دليل مستجمع الماء الذي يشكل أرض الله بين القبيلتين . وبينما كنا نسير فوق المرتفع الرملي الأخير تأملنا اتساع الوادي . وتقهقر الرجال المزعجون من حطيب إلى الخلف وتركونا وحدنا فى الصمت الرائع . وأمامنا تماما حقل بر(قمح) مستو شديد الخضرة . هذه الثروة من النضارة والخصوبة أصبحت ممكنة بفضل الري المستديم من بئر على حافة الحقل . وقام جمل وحمار بجر عجلات الرفع التى تئن . ورأينا فى البعد فى امتداد مجرى وادي حدود شجر أثل رمادي أخضر . وفى أعلى على سفح متدرج تقع قرية جابر بقلعتها المهيمنة

وهي تطل لتحمى مملكة الوادي الصغير . بناء البيوت المنخفضة التي تحيط بالقلعة قوي من الحجر . تذكرنا جابر بمساكن العصور الوسطى الأوروبية . وتقف بعيدا فى أسفل المنحدر خارج القرية قبة مسقوفة بحجارة بشكل بارع . إنها ذكرى لرجل صالح كرموه بإحياء ذكراه بها . وبجانبها المقبرة وأكوام من الحجارة فوق القبور . وفى سفح التل مزيد من الحقول بها بعض محصولات الشعير .

يهبط الطريق الوادي . سرنا على مهل نحو بعض شجر العلب العالي الذى يقع مباشرة قبالة القلعة . سمح لنا هنا بإناخة الجمال وإنزال حمولتها لأنه لا مجال لمواصلة السير. أرسلنا أمامنا اثنين من الحراس ، سالم وعوض ، للبحث عن شيخ جابر الذي يبدو أنه يسكن في مكان أبعد . وسوف نتفاوض معه حول مرورنا بأرضه ، ولكن الأهم أن نحصل منه على معلومات عن جيرانه قبيلة ربيزي المقاتلة . عليه أن يكون وسيطا لنا أو على الأقل يقوم بتوصيلنا إليهم . انتظرنا فى ظل أشجار علب القرية التي تتخللها الشمس ونحن نجلس بين قطع متاعنا الذي تناثر بطريقة فوضوية فوق الأرض .

ولم يتركونا ننتظر بدون إزعاج . خرجت نصف القرية لمشاهدة المنظر الفريد . تجمهر حولنا الرجال والأطفال ، وأثاروا سحبا من الغبار حملها النسيم فوقنا . لم تأت دعوة من الحصن بالضيافة . اكتفوا بإعطائنا فنجانا من القهوة الذى يعني بالنسبة لهم إضفاء الحماية علينا . يبدو أنهم يفضلون الانتظار ليروا ما سيحدث . وعلى أي حال تركوا الباب مفتوحا ليدوروا حولنا ويعاملونا كأعداء . ولكنهم بتركنا فى قارعة الطريق نجلس فى التراب ، قد اخترقوا تقاليد الضيافة نحو الغرباء بشكل واضح . وحسدنا المخلوقين البائسين من اليمن اللذين لا يملكان سوى ملابسهما المهترئة التى يرتديانها ، واللذين عاشا عالة علينا ، ولكن هنا قبلوهما كإخوان ووجدا سقفا يحميهما وراحة وأمنا فى مسجد القرية . كان علينا أن نبدل أماكننا باستمرار لنبتعد من الشمس . وزحف الوقت وئيدا : يبدو أن هذا اليوم الذي ينذر بالشر لا يقترب أبدا إلى النهاية . وإذا هبط علينا الليل هل سنرقد فى التراب العاصف ، ويتسلى بالنظر إلينا كل من لا خلاق له ؟

وما إن أوشكت الشمس على المغيب ظهر سالم وعوض أخيرا يصحبهما ابن الشيخ الذي سنعبر منطقته . كان مجرد طفل ومن الواضح أنه لا يستطيع تحمل أي مسئولية نحو أي شي . ولكن يبدو أنه أرسل لغرض : يريد الشيخ أن يماطل كسبا للوقت . لا يمكننا أن نتفاوض مع الطفل أو نواصل السير. لذلك وقفنا هنا عاجزين . جنودنا الحماة والمستشارون بدأوا مكتئبين . اقترحت مختلف الخطط ما عدا الرجوع – هذه غير قابلة للنظر . هل من الممكن أن نلتف حول

هذه المنطقة غير المضيافة ؟ يبدو أن هناك ممرا عبر الجبال الصخرية المحيطة ولكن لم يحاول أي أحد أبدا أن يسير فيه بجمال محملة . ويعتقد أهالي جابر أن رحلتنا ربما استغرقت خمسة أيام لنصل إلى نصاب في حين إذا واصلنا السير عبر الوادي سنصل في يومين . وإذا حاولنا الالتفاف علينا أن ندفع نقودا للقبائل الأخرى التى سنعبر منطقتها وأن نستأجر عددا من المرشدين . عارض محسن هذه الخطة اليائسة واقترح أن نبعث رسالة لقائده فى عدن وننتظر هنا للنجدة التى سترسل . هذا ما لن نفعله . لقد وعدنا السلطات فى عدن بألا نطلب مساعدة . وكيف يمكنهم مساعدتنا ؟ لا يا محسن ، لن نهزم ! يجب أن نحاول ونتفاوض . إذا استطعنا أن نخلق صلة مع صناع المشاكل ! عندها يمكننا أن نستعمل الريالات النمساوية ونصل إلى أعلى عرض .

وهكذا تجمدت حركتنا فى جابر على الرغم من أن العقبة الحقيقية تقع بعيدا أمامنا . لا يمكننا الآن الاقتراب من العائق ونواجه خصومنا . أصبح سوء طالعنا المظلم حقيقة قاسية . محسن ورفاقه فى حالة يأس ويبدو أنهم فقدوا الأمل . ونظروا إلى تفاؤلنا باعتباره سخافة وضايقهم .وبهدوء تراجعنا إلى مجرى الوادي الرملي حيث سمحت لنا سلطات جابر بإقامة معسكرنا . يتابع السيل هنا منحدر الوادي ويفصله عن القرية شريط من حقول مزروعة . وعلى الرغم من شعورنا بالإهانة لعدم استضافتنا إلا أننا وجدنا عزاء فى سكون المكان . تبعد جابر نصف ميل وقد أوى حتى أكثر سكانها فضولا إلى منازلهم عندما حل الظلام . سيمنحنا شريط من شجر الأثل على جانب الوادي حماية من الفضول وظلا من الشمس فى النهار . حرك النسيم أشجار الأثل فترسل أنينا ناعما ونحن نرقد على فراشنا وننظر عموديا إلى جدار الصخر الذي يرسم خطا حادا أسود عبر السماء الطليقة . انتهى يوم مليئ بالتوتر والمشاكل . ما أسفنا عليه أكثر الضرر الذي أصاب وحدة مجموعتنا . عانى محسن ورفاقه من رد الفعل الذي أعقب الغضب العنيف ومن كل التوبيخ الذي انفجر فى وجوههم . فقد عادوا مع قائدهم الكبتن مرة من ممر الطلح. كنا فوق الممر ولكن اعترضتنا عقبة أخرى . فقدوا الثقة فى النجاح النهائي لمجهوداتنا بينما نحن لم نفقد الثقة . شكل الحراس مجموعة واحدة منعزلة وشكلنا نحن مجموعتنا الخاصة بنا . واغتربنا عن بعضنا البعض فى تلك الليلة .

كان كل اليوم من شعب نعمان إلى قرية جابر سلسلة طويلة من التوتر وخيبة الأمل . وبينما كنا نجلس فى التراب تحت شجرة علب كبيرة أدركنا أنه يوم الأحد (palm Sunday) ، وكنا نشعر بالبؤس والكآبة وذهبت أفكارنا بعيدا . ثم صدمتني مقولة مسافر قديم فى الجزيرة العربية :" وبعد كل شيء فإن الرحالة يسافر دائما نحو بلاده ."

هوامش

(١) كلمة طين تستعمل بشكل عام لتعني الأرض الزراعيـــة ، لأن الطيـــن مبتـــل بالماء. ويقولون فلان صاحب أطيان أي أراضي زراعية .

(٢) جاء ذكر شجر الأثل في القرآن في سورة سبأ - ١٧ : "فأعرضوا فأرســـلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل خمط وأثل وشـــيء مـــن سدر قليل" . وأشار إليها محي الدين بن عربي في إحدى قصائده الصوفيـــة. فذكرها في صيغة الجمع مشيرا إلى ما قيل من أن الرسول استظل بها فأظلتـــه رغم ظلها الشحيح فقال :

يا أثيلات بجد ما لعبت ضحى إلا لعبت بقلبي يا أثيلات

الفصل السادس

هكذا بعيدا وليس أبعد

سيكون مجرى الوادي قبالة جابر مكان معسكرنا ليومين وثلاث ليال . هنا وضعت الخطط وانتهت إلى لا شي ، كتبت الرسائل وتواصلت المفاوضات . وبدأنا تدريجيا نمسك بعض الخيوط عن الوضع السياسي حولنا ونحصل على معلومات طفيفة عن جغرافية المنطقة التى تفصلنا عن نصاب .

لم يكن شيخ جابر زعيم قبيلة عادي ترتكز سلطته على تقاليد عائلية ، أو ثروة أو سطوة الشجاعة الشخصية . لقد تبين أنه واحد من أولئك الزعماء الذين نادرا ما يقابلهم الشخص فى هذه المناطق والذين لسلطتهم جذور دينية . وكانوا ينادونه "المنصب" (١) ويستمد وضعه من سلالة من الرجال الذين لهم بعض صلة ما مع الرسول بطريقة لم تكن واضحة بالنسبة لي . لم يكن من سلالة الرسول نفسه ، فتلك تمنح صاحبها لقب سيد ، الذي يحمله العديد من الناس بالذات فى حضرموت ، حيث يحظون فى المجتمع بمكانة متميزة جدا . ويمنحهم الانتساب حقوق سياسية قد تقود إلى اختيارهم قيادات فى المحيط السياسي وليس الديني. المنصب الذي قابلناه هنا لم يكن سيدا . ربما كان أسلافه زعماء دينيين ، ولعلهم قد بعثوا روحا جديدة في الممارسات الإسلامية المتدهورة ؛ وربما كانوا مبشرين انحدروا من أولئك الذين أدخلوا الإسلام فى البداية فى هذه البلاد . وتمشيا مع تقاليد السادة ، لا يحمل المناصب سلاحا ولذلك لا يشاركون فى الحروب ؛ ولذا يختارونهم كمفاوضين ، ويتمتعون كوسطاء بنوع من الحصانة , هذه هي النظرية التى يجب أن تظل باقية فى بلد مسلم . وتكون الممارسة غالبا دون هذا ولذلك يفضل منصب جابر أن يعيش فى حصن يسهل الدفاع عنه . وما زالوا يقفون متباعدين ، هؤلاء الرجال الذين رفعهم الدين فوق مصاف عامة الناس ، ويختلفون عن الدنيويين العاديين الذين هم رجال غارات وحرب .

سعى منصب جابر للاتصال بنا منذ اليوم الأول لوصولنا بينما كنا ننتظر بصبر تحت شجرة العلب وأرسل ابنه ليناور . وعندما وصل هو أخيرا بدأ معنا حوارا طويلا ، ومن الطبيعي أن يبدأ بالاستفسار عن الأسباب آلتي جاءت بنا إلى بلادهم . فأجبنا بأننا فى طريقنا إلى حضرموت حيث يوجد العديد من الرعايا الهولنديين ، أصدقائنا ، الذين جمعوا ثرواتهم فى مستعمرات هولندا فى جزر الهند الشرقية ، والذين نحن فى طريقنا لزيارتهم . يبدو أن الشك قد انتابه وهذا أمر مؤكد لحد ما لأنه يعرف القليل أو لا يعرف أي شي بتاتا عن حضرموت . وشرحنا له بالتفصيل العلاقة بين مستعمرات هولندا وحضرموت وبعد ذلك لم تعد القصة بتلك الإثارة . وفى أثناء حديثنا ظهر أن المنصب نفسه قد سافر : على سبيل المثال أدى فريضة الحج مرتين إلى مكة . وهكذا مرة أخرى فتح الموضوع المبارك عن الأراضي المقدسة . وأرخى الواقفون آذانهم مدركين أن تجربة

زعيمهم تتطابق مع ما قلناه لهم عن الأراضي المقدسة عندما كانت تحت النظام القديم وعندما أصبحت تحت الحاكم الوهابي ابن سعود . ومما يبعث على الإثارة كيف تبع ذلك سريعا الطلب غير اللبق بأن ننطق بالشهادتين . فالرجال الذين يعرفون الأراضي المقدسة لابد أن يكونوا مسلمين على الرغم من مظهرهم الغريب . فأجبتهم بآيات من القرآن تعترف بحق اليهود والمسيحيين فى البقاء على دينهم . وهكذا انتهت أول محادثاتنا نهاية مريحة جدا ووعد المنصب بالمساعدة وطلب ١٠٠٠ ريال نمساوي فقط مقابل مرورنا الآمن .

بعد أن قطعنا شوطا بعيدا فى حزم أمتعتنا جاءت اللحظة التى لا يمكننا تقديم المساعدة الطبية التى وعدناهم بها . وكان أحد رجالنا الذي يقود جملا قد طلب علاجا لزوجته . وموطنه جابر وظلت زوجته تعانى لوقت طويل من مرض غريب . وفشلت إجابتنا عن إثنائه بأننا لا يمكن أن نعالج مريضا بدون أن نراه. وبقلوب مثقلة سرنا عبر الظلام إلى القرية يتبعنا صندوق الأدوية . وانتظرنا عند باب المنزل حتى سمح لنا بالدخول إلى صالة مظلمة . ونزلت زوجته السلم ؛ لم تكن محجبة مثل النساء هنا . نظرت إلينا بلا خجل ، واستمعت بانتباه عندما كان زوجها يسرد تاريخ حالتها وكانت تتدخل بين الحين والآخر للتصحيح . أنجبت تسعة أطفال متتابعين : يعيش منهم واحد الآن . ثم ، فجأة لم تنجب لفترة سبع سنوات . وهي الآن حبلى فى شهرها الخامس وما زال الجنين فى بطنها حتى الآن. وخلال تلك الفترة يمكنها أن تحس به . وبحق كانت بطنها منتفخة ولكن لا يبدو أن المرأة تتألم . كانت لها أسنان جميلة ونبضها منتظم ولكنها متورمة قليلا فى الذراعين والساقين . ما ذا يمكن أن نفعل نحن غير الملمين بالطب ؟ لا أكثر من بعض الملاحظات المفرحة وتذكيرها بأن الله هو الشافي . ولكن لابد من إعطائها دواء ، وهنا أسعفنا مخزوننا المحترم من أدوية باير واخترنا لها مقويا . وتجمع فى هذا الأثناء بعض النسوة ، وكلهن يتصرفن بلا أي إحساس بخجل أو رعب كما هو مألوف فى هذه الأجزاء من الجزيرة العربية التى يمارس فيها الإسلام بتعصب . النساء الصغيرات تكسو وجوههن صبغة صفراء وكلهن يلبسن جلباب الدرع الأزرق الفضفاض الذي يكشف غالبا جانبا من نحورهن . والعقود العديدة التى يلبسنها – تلبس كل واحدة على الأقل عشرة عقود – أكثرها من الفضة ولكن بعضها من الأحجار المرجانية والبذور . وفوق أقدامهن حجول قوية عرضها أربع بوصات .

زرنا فى المسجد رفاق دربنا اليمنيين . وجدنا فى قدم الرجل الكبير تورما ضخما به مادة سائلة ، وسبب له آلاما مبرحة . ويا له من مجهود ذاك الذي بذله الرجل الكبير وهو يعرج متوكئا على عكازه صاعدا ممر الطلح خلف القافلة .

على أنها لم تكن بتلك الخطورة فى ذلك الوقت ، وكلما وجدنا فرصة أثناء السفر سمحنا له أن يركب واحدا من الجمال . ولكن جرحه الآن سيئ جدا . ومازال طريقه بعيدا من تريم فى حضرموت حيث يدرس ابنه علوم الدين . لابد من عمل شي . حاولنا فتح الجرح بسكين ولكن الجلد كان قويا وأخذ المريض يئن من الألم. ثم تولى رفيقه اليمني المخلص إجراء العملية ، بتشجيعنا ، وقفنا بجانبهما حتى خرجت المادة السائلة مندفعة من الجرح . لابد أن يكون هذا قد أحدث عجائب لأنه بعد بضعة أيام خرج الاثنان معا وسارا بلا صعوبة إلى نصاب حيث تقاربت طرقنا مرة أخرى .

الليالي باردة جدا . نحن على ارتفاع حوالي ٤٨٠٠ قدم . يلامس معسكرنا الحائط الجنوبي العمودي للوادي الذي تهب على امتداده ريح باردة . وننام فى الصباح فى رفاهية نتدفأ تحت الشمس ، ونستمتع بموسيقى وأنين رافعات الماء الخشبية والحبال تهبط وتعلو فيها تحمل الماء لتروي مزارع قمح القرية . أفقنا عند الشروق على غناء الساقي وهو يستحث حيواناته للعمل لرفع قرب الماء، وهذه الموسيقى السعيدة للجزيرة العربية قادتنا تدريجيا لنتذوق أغاني الجنود والجمالة .

وفى وادينا كنا فى رفقة حمام رمادي أبيض بينما مختلف الطيور السوداء تعشعش بين أحجار صغيرة فى القمة . وحلقت الصقور الجارحة بعيدا وهي تدور ببطء باحثة عن فريسة . وعندما تصبح الشمس ساخنة جدا ننتقل إلى أشجار الأثل ونفرش البطانيات فوق أغصانها المتدلية لنحصل على قليل من الظل نمضي تحته اليوم. ووجدت النباتات التى بحوزتنا فرصة هنا لتجف تاما . علمتنا التجارب أن هذه ضرورية من أجل حفظ النباتات التى بها عصارة كثيرة ونباتات البلاد الجافة التى تحتوى على نسبة كبيرة من السوائل تؤدى إلى تعفنها السريع .

وما إن تأتي تقارير جديدة حتى توضع خطط جديدة وتجرب . ولكن الأمور لم تسر بعد كما ينبغي. يمكننا أن نخترق منطقة منصب نصاب وأيضا منطقة جاره الذي قالوا إنه أيضا منصب ، ولكن تلك فقط مسافة ثمانية أميال . وبعد ذلك تأتي منطقة الربيزي ، حيث هل شمس (ولعل هل تحريف لأهل ، أي ناس) تحت زعامة شيخهم علي بن صالح ، كانوا فى حالة حرب ولذلك قفلوا الطريق أمام كل الحركة وبالتأكيد للأجانب من عدن ، مقر الحكومة ، التى تمنعهم من أخذ القانون فى أيديهم بهذه الطريقة البالية .

ولسوء الحظ لم نتمكن من خلق صلات شخصية مع شيخ هل شمس هذا. وتم كل شي عن طريق الرسائل والوسطاء . وبهذه الطريقة بددنا زمنا كثيرا بدون تحقيق أي تقدم . فكرنا فى إمكانية القيام بالتفافة أو حتى هبوط ممر الطلح

مرة أخرى . وما أن نصل راجعين إلى سفح الطلح علينا أن نجرب السفر على امتداد الانحدار الجنوبي لسلسلة الجبال إلى يشبم . أخبرنا في البداية أنه علينا أن نسير أربعة أيام من سفح ممر الطلح إلى يشبم . ولكن ظهر الآن أن الرحلة تستغرق سبعة أيام ، وبينما نحن هناك علينا أن نعبر عددا من القبائل ذات المزاج المتقلب . وسوف ينتشر خبر فشلنا بين القبائل قبل منطقة ربيزي مثل النار في الهشيم وهناك الخطر الأكبر من أن آخرين سوف يتشجعون على اعتراضنا . إذا تراجعنا هنا فسوف يعنى الفشل الماحق . ولذلك علينا أن نراهن على كل شي بالقيام بالتقافة فى الحال عبر الجبال ، وأن نقوم بها سريعا قبل أن تسمع بنا القبائل. راجع الحراس هذه الخطة بكثير من الريبة : كانوا يعتقدون أنها لن تتم بجمال محملة . وفوق ذلك علينا ، حتى فى ذلك الحين ، أن نتحاشى اختراق شريط منطقة هل شمس . ولذلك فعل محسن أقصى ما فى وسعه ليفرض مخرجا. وكان لديه ، كما اتضح فيما بعد ، كرتان يلعبهما . الأول خباش ، منصب القبيلة المجاورة الذي يعيش فى المدينة ، والذى يحتل مكانا رفيعا بسبب حكمته . وأرسل شخصا للبحث عنه . وبعد ساعات ظهر خباش على حمار يتبعه بعض الخدم . وقام الخدم برفع المنصب المقعد من حماره ووضعوه على الأرض . الجزء الأعلى من جسمه عادي ، ولكن ساقيه ضعيفتان وقصيرتان وغير قادرتين على حمله . كان يمشي وهو يمسك ساقيه بيديه القويتين ويدفعهما إلى الأمام .

بعد تعرفنا على خباش ، راقت لنا عينيه الجادة الذكية التى تنظر أبعد من جسده الكسيح و بحثنا فيهما عن الرجل الحقيقي وعل مقدرته على الفهم وعلى صفاء روحه . يبعث خباش على الثقة ؛ أدرك محنتنا ، واستمع بصبر وقدم نصيحة لاذعة . عندما يذهب منصب جابر إلى داره سوف يصحبه ليرى الزعيم المقاتل ويحاول التأثير عليه . وقال :"عليكم أن تدفعوا ، سوف يطلب على الأقل ١٠٠٠ ريال نمساوي ." تشاورنا مع محسن ووافقنا على دفع ٢٠٠ ريال . لم يعدنا خباش بأي شي ولم يطرح أي توقعات . ولكن على الأقل أعطانا بعض الأمل ، هذا الرجل الذي منحته معاناة جسده المقعد عطفا ومعرفة عميقة بالبشر ، وهي مشاعر قدرناها بامتنان فى هذا المحيط الذى تقل فيه مثل هذه المشاعر . عندما ظهر منصب جابر حملوا خباش إلى حماره ، ووضعه رجاله فوقه ، وغادرا سويا إلى لقاء أخير للمشاورة .

وكان محسن يدرك أن عليه أن يوضح إلى رئيسه الكبتن أسباب أي فشل أو تراجع بالقهر ، ولذلك فكر فى مخرج آخر . اقترح علينا آخر ملجأ ، وهي حيلة. "هل أنتم على استعداد للكذب فى هذه المسألة ؟"

أجبنا "لنستمع إلى الحيلة أولا" .

واتضح أنها فكرة منصب جابر التى أيدها بحماسة اثنان من قبيلته مـــن حراســنا. الحيلة وسيلة مستعملة ولا يحتقرها البدو هنا بأي حال مـــــن الأحـــوال . ويقـــول الاقتراح يجب أن ندعي أننا موظفون بريطانيون ، "رجال عظام" من الحكومة فـــى عدن. ولن يكون هذا صعبا لأنهم لا يعرفون أي أوروبي هنـــا . ولكننـــا تأخرنـــا بكذبتنا. فيجب أن نعطي شيخ هل شمس إعلانا مكتوبا باسم الحكومة و أن الشـــيخ ورجاله لن يعاقبوا لحربهم ضد العوالق وإغلاقهم الطريق . ويرى محسن والجندي سالم الذي صاحبنا خصيصا لهذا الجزء من الرحلة أن هذا سيكون أملنا الأخــير . والتفتوا نحونا بأوجههم الحادة الجذابة يغمرهم التوقع : يا صاب (وهـــي الطريقـــة الهندية لنطق صاحب) ، مافى طريقة ثاني إلا الحيلة" . وأجبنا بأننا على اســـتعداد لاستعمال الحيلة ، شريطة أن نقوم بها بطريقة لا تعرضنا فيما بعد إلى اللوم .

" آه لا ، لا يوجد خطر فى هذا ؟ إذا نجحت فإن البدوي المخـــدوع ســيقول إنــه احتجزنا وحصل عليه."

"وماذا عن الحكومة فى عدن ؟"

"هذا ليس من شأننا ، عليهم أن يهتموا بأنفسهم ."

"لا يمكننا أن نلزم الحكومة . يجب أن تكـــون كلمـــة البريطـــانيين هـــي رابطتهم بين كل البدو هنا . حتى كيرلن ليك وكابتن هاملتون ، وهما أبواكمـــا ، لا يمكنهما أن يلزما الحكومة بدون إذن خاص . نحن على استعداد بأن نلتزم بتقديـــم النصح للحكومة بأن لا تعاقبهم إذا سمحوا لنا بالمرور."

ولكنهم لا يعتقدون أن هذا يكفي . وعلى أي حال سوف يحاولون إذا كتبنـــا رسالة بالإنجليزية وسمحنا لمحسن أن يترجمها بحرية إلى العربية . وطلبنـــا فـــى تلك الرسالة بشكل خاص أن يأتي شيخ هل شمس خلال الليل متخفيا إلى معسكرنا، حتى نتحدث سويا . من الواضح أن الخوف من الطائرات البريطانية التـــى تـــنزل العقاب مازال حيا جدا فى أذهان هؤلاء الناس .

كانت ليلة محبطة بسبب الآمال المؤجلة . وغدت السماء ملبدة بـــالغيوم ؛ وكان الرزاز يهطل ثم انهمر المطر فيما بعد . وأرغمنا فى الظلام أن ننتقل مـــن مجرى الوادي الرملي ونعبر إلى طرف أشجار الأثل . ونشرنا فـــوق الأغصـــان المنخفضة قطعا من الماكنتوش التى نستعملها لحزم أمتعتنا وتحـــت ذلـــك الظـــل الشحيح تكدسنا في بعضنا . من حسن الحظ لم تكن هذه المرة عاصفـــة مطريـــة بحق: هذه مخبأة لنا بعد نصاب .

ولم يصل فى تلك الليلة المنصب ولا الشيخ المقاتل . وفى صباح اليوم التـــالي انقضت ساعات قبل أن نعلم بالاختراق الحقيقي الذى حـــدث فـــى المفاوضـــات . استعمل المنصب كل كروته ولكن زعيم هل شمس لم يتحـــرك لا بـــالنقود التـــى

عرضناها عليه ولا بتهديده بسلطة الحكومة . أصر على حقه كرجل حر أن يواصل حربه مع العوالق وينتقم ويأخذ بثأره وحتى يتحقق ذلك سوف يمنع أي مرور بأرضه . لا ، ولا حتى نحن ولا الحكومة نفسها حتى ولو دفعنا ١٠٠٠ ريال سوف يسمح لنا بالمرور .

كان من الأفضل أن نقف على هذا بالتحديد حتى نتخلى عن القيام بمجهودات غير مثمرة . شرح لنا المنصب الموقف الذي تمثل في قيامنا بالتفافة حول أرض ممنوعة عبر الجبال ووعد بكل مساعدة مع دليل وسيارة . وفى الواقع كان أغلبهم متوفرا فى جابر ، فهم مثل الصقور الجارحة يشتمون فريستهم من البعد وينقضون ليروا ما يمكن التقاطه . ولكن على أي حال ما زال أمامنا إغراء حراسنا . الرجلان اللذان صاحبانا خصيصا في هذا الجزء البالغ الصعوبة فى هذه المناطق يؤيدان هذه الخطة . يعرفان هذه الجبال الجهنمية ولم يهاباها . لم يكن محسن متيقنا من قدرتنا على اجتيازها . ولهذا بذل جهدا كبيرا حتى النهاية لإيجاد مخرج عبر الطريق العادي . ولكن الإحباط الذي أصابه وفشل مجهوداته والضغوط التى مورست عليه من الجنديين اللذين معه أقنعته فى النهاية . وتبعه الآخرون فى تردد وهم الذين لم تكن لهم حماسة للرجوع عبر ممر الطلح .

جعل وضع الخطط الجديدة والاستعدادات الفورية كل واحد فى مزاج أفضل . وتم تحديد السيارة الضروريين قبل حلول المساء : سيكون ابن منصب جابر دليلنا لليوم الأول . بالإضافة إليه سنحتاج إلى ثمانية من السيارة لذلك الجزء الأول بتكلفة ٤٥ ريالا نمساويا . ولابد أن يحصل محمد منصب جابر وخباش من المدينة على جائزة للمساعدة الخاصة التى قدماها . وبعد أن أنجزنا هذا بدأنا فى حزم متاعنا واقتسمناه بيننا عن طيب خاطر . كنا نشعر لثلاثة أيام أننا فى مأزق ، والآن نعمل كلنا بعزيمة لننفلت ونجد طريقا عبر الصخور العاتية .

٦) اتخذت مكانة المنصب مهاما مختلفة في مجرى تطورها التاريخي ، كما اختلفت تلك المهام أيضا من منطقة إلى أخرى . واقتصرت مكانة المنصب على السادة والمشايخ . والمنصب هو المرجع في منطقته في الأمور الهامة والمشاكل الاجتماعية والسياسية . وبعد تأسيس الدولة المركزية تقلصت مهام المنصب . وتتلخص أهم واجبات المنصب في إرشاد الجهال ، والعمل على نشر المبادئ الإسلامية ، وإصلاح ذات البين ، وعقد الصلح بين القبائل المتصارعة ، وإكرام الضيف .

الفصل السابع

{ عبر الصخور }

منذ الفجر الباكر فى اليوم التالي كان كل واحد فى شغل شاغل على ضوء القمر حتى نبتعد عن وادي حطيب . يمتد هذا الوادي حتى نصاب وكنا نأمل خلال ثلاثة أيام أن نراه فى موقعه الأسفل مرة أخرى . سافرنا راجعين غربا مسافة نصف ساعة ونحن نصعد وادي حطيب ثم بدأنا نتسلق جدار الجبل الشمالي. كان هذا الصعود من ٤٨٠٠ إلى ٦٠٠٠ قدم تجربة ممتعة بالنسبة لنا ولكن أصبحت بالنسبة للجمال مشقة عسيرة . هبت نسمة كثيفة فوق هضبة الجبال التى أشرفنا من فوقها على المنظر الطبيعي الخلاب للريف الذي سافرنا عبره بعد ممر الطلح وسلسلة الجبال اللامتناهية التى ما زالت تمتد أمامنا . يعبر الممر الآن على هضبة متعرجة مغطاة بجلاميد حيث وجدت الجمال السير فيها سهلا . ويغطي أحد الوديان العريضة الضحلة أرض طينية كثيرة تزرع عند هطول أمطار كافية ، ولا ترى أي آثار لسدود . أشار الجنود إلى بقايا جدار مشيد من الجلاميد ويشكل سياجا بيضاويا حول كل المنطقة الطينية . يدعى الناس أنه بقايا من الأزمان السابقة على الإسلام وعليه فهو أثر من الحضارة الحميرية . واستعملوا كلمة حمير وقالوا إن الحميريين لم يكونوا عربا بمعنى أنهم لم يكونوا مسلمين . فى وسط الطين المسطح ينتصب عدد من المربعات المستطيلة المستقيمة الحجرية التى هي أيضا مخلفات من أيام خوال . نحن هنا فى منطقة انتشرت فيها الحضارة الحميرية فى وقت من الأوقات . كل العرب فى هذه الأجزاء الذين كانوا خارج جيرانهم المباشرين يعرفون النقوش القديمة والرسومات على جدران الصخر وبقايا المباني التى ينسبونها إلى الشعوب الوثنية .

لاحظ محسن أن قبيلة تسكن قريبا تسمى حمير ، وربما كان على حق ، أن هذا يعني انتسابا إلى شعوب تلك الحضارة القديمة .

واصلنا السير . وسرعان ما عبرنا الهضبة وبدأنا سلسلة من الصعود والهبوط استمرت طوال اليوم. وبما أننا نتبع طريقا جانبيا قليل الاستعمال فقد كانت عملية الصعود والهبوط شاقة جدا وخطيرة بالنسبة للجمال أكثر مما كانت فى الطريق الريفي الذي يصعد ممر الطلح . وعندما نهبط الأماكن الأكثر خطورة كنا نري أصحاب الجمال يتشبثون بذيول الحيوانات ويجرونها إلى الخلف بكل قوتهم حتى يجعلوا الجمال تشعر بالثقة وهي تعالج المنحدر الحاد . منظر الجبال الطبيعي هنا خلاب ومتنوع ولكنها أرض خالية من النبات ، وتبدو ميتة . عبرنا مجاري شاسعة من مقذوفات البراكين تتكون من صخور قوية حادة سوداء . وأحيانا كان من الممكن تتبع مجرى الحمم وجعلنا ذلك أن نتعرف أين كانت فوهة البراكين . وجاهدنا فى المسير عبر وديان عميقة وفوق مرتفعات صخرية . وكان على الجمال أن تقوم بحركة التفاف فى الأماكن التى نحاول أن نتسلق فيها صخرة

جرداء ، وعندما نصل الحافة نرتاح وتبرد أجسامنا عندما تهب الريح الجافة . لم نتوقف ذلك اليوم . وكان الطباخ منهمكا منذ الرابعة صباحا يعد الخبز لكل فرد ليحمله مؤونته للطريق . وأكلنا كيك القمح على جانب الطريق ، وابتلعناه بجرعات من الماء ثم واصلنا السير مرة أخرى . لا حاجة لنستحث أحد، الكل مقتنع أن بذل أقصى مجهود من جانب كل واحد هو الذي سيمضي بنا قدما.

واستمرت القافلة تجاهد فى سيرها . وفى هذه الأرض التى يبدو أنها خالية من حياة البشر ، فإن الطريق غير المطروق يعبر وسط صخور تهب فوق قممها رياح جافة ، كما كان علينا ان نهبط وأحيانا نمضي عبر أخاديد خانقة . وانحرفنا بكل فرحة من حرارتها الخانقة لنصعد المرتفعات مرة أخرى ونستجم قليلا فوق قممها بالنسيم العليل . وقام الجمالة وحيواناتهم بعمل بطولي سوف تتناقله الألسن فيما بعد حول نيران المعسكر بين طلح ونصاب . ومن قمة أعلى الجبال يمكن رؤية واد رملي شاسع على مسافة بعيدة يمتد خلفه سهل الحاضنة . وفى مكان ما فى الرمال بيننا وبينه تقع نصاب .

كنا نأمل أن نعسكر فى نهاية هذا اليوم الأول عند سفح جبل العر بارتفاعه الذي يقدر ب : ٧٠٠٠ قدم، وينتصب قليلا فوق سلسلة الجبال المحيطة . ورأينا بعد الظهيرة حافة سوداء تعلوها بقايا قلعة حميرية هي التى أعطت كل سلسلة الجبال أسمها المصنعة (أي البناء) . أخبرونا أن سفح الجبل كان بئرا ، انهارت الآن ، وأيضا منشآت حميرية . القلعة والبئر كلاهما يقع بعيدا جدا بالنسبة لنا لنتمكن من زيارتهما ، لأنه فى هذه المنطقة غير المضمونة من الأحسن ومن الأفضل أن نبقى سويا ونواصل السير . وقبيل المغيب غادرنا ابن منصب جابر ورجاله . وحصلوا فيما بينهم على مبلغ لا بأس به ولكنهم خدمونا جيدا .

وصلنا مكان المعسكر عند المغيب . وكان الوادي الذي سرنا فيه المرحلة الأخيرة من الرحلة عريضا هنا ، ولأول مرة نجد تربته تتكون من رمل وطين . سارت الجمال لمدى إحدى عشرة ساعة دون توقف عبر أكثر المنطقة صعوبة لم نر أي جمال محملة تعبرها . فى الساعات الأخيرة من ضوء النهار أمكننا مشاهدة بعض النبات فى الوادي ؛ ينمو بالقرب من المعسكر شجر يعرف باسم نشر ، يستخرج منه البدو شرابا مسكرا . الكمية المستخرجة ليست كبيرة ولكن جميع من فى القافلة يعرفون الشراب ويعتقدون أنه ليس نبيذا ولا يمكن أن يكون محرما على المسلم ليسكر منه.

بعد حرارة النهار الشديدة سيصبح الطقس باردا بالليل لذلك أوقدت ثلاث نيران فى المعسكر . والرياح العنيفة التى هبت فى منتصف الليل جعلت النوم مستحيلا لبعض رجالنا . مضاف إلى ذلك أن صناعة الخبز بدأت منذ الصباح

الباكر ليوم آخر من السير الشاق الذي ينتظرنا . كما أن الأطراف الخشنة لشجر النشر القصيرة أحدثت خشخشة مع هبوب الريح جعلتنا نترك فكرة النوم نهائيا . وبعد شروق الشمس مباشرة كانت القافلة مستعدة للتحرك . وتوقعنا ألا يكون السير شاقا كما فى اليوم السابق ولكننا اعتمدنا على أنفسنا بدون مساعدة البدو الذين كانوا يرقدون فى انتظارنا . وبينما نحن فى ذلك الصباح اقترب منا طليعة من الحراس الذين منعوا أي تقدم لنا عبر الوادي . وتبع ذلك مناقشات حامية مع سيارتنا وجنودنا . وكان سبب الانفجار أننا رفضنا دفع أي مبالغ إضافية . ولكن هذا يعنى أن نفارق الوادي الذي أصبح الآن ميسرا فى المسير . تولى الآن عوض الجندي من هل عبود الذي ينتمي لهذه المنطقة قيادتنا وسار على رأس الجماعة . كان يرعى بأغنامه هنا عندما كان يافعا . وأخذ يسعى جاهدا وهو يصعد الصخور الحادة الانحدار وقام بالتقافة مرهقة فى هذه المرحلة من رحلتنا . لم تستطع الجمال متابعته هنا ، ولذلك تولى قيادتها شخص آخر يعرف المنطقة جيدا ، ومضت تلتف بعيدا مما جعلنا نسبقها بمسافة كبيرة . وسألنا عوض وهو يمتلئ زهوا عن رأينا فى هذه المنطقة . وأجبناه بأنها أرض الشيطان نفسه ولابد أن أهلها يعيشون على الحجارة والرمل, وأثار قولنا هذا مرحا صاخبا . وأصبح اسم "بلاد الشيطان" منذ ذلك الحين وطوال الرحلة يطلق على هذه الأرض التى نسافر فيها . وكان علينا أن نصعد قمما ضخمة لنهبط مرة أخرى بمشقة إلى الجانب الآخر . ثم لفترة قصيرة قادنا الطريق حول جلاميد فى مجرى الوادي فقط لنبدأ الصعود من جديد . حافات الجبال تقترب باستمرار من ارتفاع ٦٠٠٠ قدم وهناك نجد النسيم باردا ومنعشا . واستمرت المناظر التى كان لها جلال وروعة ، ولكن العين أرهقت من الأرض الجرداء والنغمات المملة للصخور التي كان كثير منها أسود لماعا .

وأعطانا إبطاء الجمال فرصة لنرتاح كلما وصلنا مكانا به ظل . من المستحيل أن نفهم كيف يمكن أن تعيش قبيلة بدوية فى هذه الأرض الجرداء . مثل هذه الأسرار لليباب والصحارى يمكن فقط أن تتكشف لرجل له العزيمة وقوة التحمل ليعيش مع قبيلة طوال عام كامل . وما زالت الأغنام وبعض الضأن والجمال كما يبدو تجد بعض ما تقتات به هنا . لا توجد آبار فى هذه البلاد ويعتمد الناس على الماء الذي يبقى ويتجمع فى فجوات الصخور العميقة . ومن تلك الأماكن ملأ لنا رجالنا قرب الماء وشربنا الواحد تلو الآخر بشراهة من فم القربة . فكنا نضغط على القربة من أسفل فيصعد الماء إلى أعلى ونتمكن من الشرب . وغالبا ما يكون فى طعم الماء رائحة الدباغة والأغنام ، ولكن الشارب لا يلاحظ هذا إلا بعد أن يكون قد أطفأ ظمأه ، بعد ذلك يشعر بالطعم .

اقتربنا من مكان السكن المؤقت للشيخ صالح ، دليلنا لهذا اليوم . وسار خبر وصولنا أسرع من سيرنا ، ولذلك عندما توقفنا لراحة قصيرة قابلنا اثنان من الصبية ، وتبين أن أحدهما ابن الشيخ صالح . سمحوا لهما بالاقتراب منا وتقبيل يدنا ، وبعد ذلك ، جلس أحمد النحيل الذي كان ينظر إلينا بلا خجل قريبا من والده. وقبله الأخير في جبهته . كانت عينا أحمد مليئتين بالتساؤل . كان عالمه يتكون حتى الآن من الصخور ، والقطيع الصغير الذي يرعاه والقبيلة .أعطاه أحد الجنود قطعة من السكر احتفظ بها في يده لفترة طويلة قبل أن يقضمها . أطفال البيداء هؤلاء ليسوا شرهين وأبدوا الكثير من التحفظ في أكل أي شي قدمناه لهم . ألفوا القليل من التنوع في وجباتهم وما أعطيناه لهم أثار شكوكهم ولم يحظ إلا بتقدير قليل .

عندما رأى أحمد الساعة التي معنا أغراه ذلك بالاقتراب . استمع ولم يتمالك من كتمان صيحة انبهار . وما أثاره أكثر وضع نظارة شمس فوق أنفه . أحمد ذكي ويبدو أنه غير متعصب . طرح أسئلة واستمع بانتباه عندما حدثناه عن عجائب أخرى عن البلاد التي جئنا منها . إن والده شخصيا هو الذي جاء بهؤلاء الأجانب معه وكان رفيقا معهم ، فلماذا لا يحذو حذو هذا النموذج الموثوق به ؟ سار أحمد الصغير معنا ، وأمسك بأيدينا ، وسأل أسئلة واستمع واستفسر إن كان بإمكانه أن يتبعنا . لا نريد أن نمضي بعيدا . ألن يكون أحمد سعيدا هنا بدلا من التجول في العالم خارج صخوره المألوفة ؟

عند منعطف في الوادي جئنا فجأة على معسكر الشيخ سالم . وحتى لا نزعج النساء والأطفال ، وكذلك العديد من الرجال ، طلبوا منا ألا نقترب من الأكواخ والخيام ولا نلتقط صورا . وخرج من خيمة في الوسط ركب من رجال سود يحملون بنادقهم . ولم يصاحب تحيتهم إطلاق رصاص - كان هذا سيكلف هؤلاء الناس البؤساء كثيرا ، استقبلونا بحفاوة . وعلى طرف المساكن في الوادي، نشرت قطع طويلة من مفارش شعر الأغنام تحت ظل بعض أشجار الصنت . جلسنا هنا في حلقة واستمتعنا بفاكهة هذا المنطقة ، الدوم . إنه فاكهة البائسين ويمكن ان يأكل منها الإنسان ملء كفه حتى تتألم أسنانه ، لمجرد الإحساس بمتعة أنه يبتلع كمية كبيرة من الفيتامينات .

كان أحمد ورفاقه مفيدين جدا . وبما أننا كنا في غاية الظمأ فقد قدموا لنا ماء صافيا في إناء خشبي . وأخذ الإناء يمر ببطء وحزم من فم إلى فم ولم ينبس أحد ببنت شفة في هذه الأثناء ، وبشفاه مزمومة شرب كل واحد من الإناء دون أن تمسه شفتاه . هذا جزء من خرق لعادة بدوية لأن البدوي عادة يصبر على الظمأ

حتى يتم إعداد مراسيم وتقديم القهوة . القهوة تطفئ الظمأ أفضل من الماء وتجنب الإنسان شرب كميات كبيرة من السوائل .

استرقنا بعض النظرات خلسة إلى المساكن ، التى يتكون أغلبها من أكواخ بدائية مبنية إما قبالة صخور معلقة فلا تحتاج إلا لحائط أمامي أو تقف منفردة تغطيها أغصان النشر التى يضفرونها .

وكان والد الشيخ سالم المسن على رأس الرجال الذين خرجوا لتحيتنا يحملون أسلحتهم التقليدية الرماح. وجلس فى مكان الشرف ونحن بجانبه . تولى هو القيادة وتولى ابنه الخدمة . وأحضرت الشيشة ، وبعد أن أخذ منها بعض أنفاس عميقة مررها لمن يليه وأخذت تدور على كل الحلقة من الرجال . وتم فى هذا الأثناء إعداد القهوة . وهي مصنوعة من قشر البن . ووضعت فى برادين فى عنق كل واحد ليفة من خيوط نباتية لتمنع القشر والزنجبيل من التسرب ، ومعهما سلة منسوجة وبها عدد من الفناجين . فى العادة عدد الفناجين أقل من عدد الضيوف ولذلك تتداولونها بينهم . فى بلاد الاضطرابات والحروب هذه فإن شرب القهوة احتفال سلام للقاء البدو . هذا النوع من الضيافة دائما منعش وحتى تلحق بنا الجمال نجلس هناك نشاركهم سخاءهم المنفتح ونتلذذ بمتعة وجودنا وسط هؤلاء الناس البسطاء الذين يعيشون أقصى درجات البساطة فى أرض صحية ولكنها قاسية .

كانت الجمال فى غاية الإرهاق ولكن من أجل تنفيذ الخطة التى وضعناها لسيرنا لابد أن نواصل السير لبضع ساعات أخرى . كنا نقرب من مناطق أكثر كثافة سكانية والبدو من القبائل ذات الصلة أسرعوا نحونا وبدؤوا يتشاجرون بأصوات عالية مع سيارتنا حول حقهم فى ابتزاز بعض النقود منا أو يطالبون بمشاركتهم فى الأجور التى دفعت إليهم . كان علينا دفع ثمانين ريالا نمساويا لمسيرة هذا اليوم وليس لدينا أي استعداد لزيادة هذا المبلغ . استمر النزاع ولكننا واصلنا السير . وبما أن الممر أصبح ضيقا فإن البدو المتعطشين للغنائم ، لازمونا بالجري على حافات الصخور وقممها على الجانبين ، وهم يهددون ويجادلون أثناء سيرهم . كان مشهدا جنونيا أن نرى أولئك الرجال ، مسلحين بالبنادق ، ويقفزون بخفة مثل أغنام الجبال ، ويعدون فوق الصخور الحادة الانحدار ، ومع ذلك لهم بقية من نفس ليرسلوا أمواجا من الشتائم المدوية . حاولنا أن نندفع إلى الأمام بعيدا من الضوضاء ، تاركين حراسنا الواحد والعشرين ليدافعوا بجدارة عن أجورهم بأنفسهم.

عندما حل المساء توقفنا فى شعب الفروع (تنطق محليا أم فروع) على ارتفاع حوالي ٤٠٠٠ قدم . تضخم حجم القافلة بالعديد من السيارة حتى كان علينا

إشعال خمسة نيران بالمعسكر لنحتمي بقدر الإمكان من ريـــاح الليـل البـاردة . الرجال والجمال أرهقوا واستمتع واحد براحة ليلية كاملة في سكون لا نألفه أثنـــاء النهار . وفي وقت متأخر عن المعتاد ، أي في الساعة الخامسة صباحـــا ، بـدأت الاستعدادات لمسيرة اليوم الثالث . وقام رجال القافلة أنفسهم بحثنا ، لأن هذا اليـوم سيشهد رغبتهم الكبرى بنهاية رحلتهم . فبعد تسلق شاق لجبل آخـــر تبـدأ القافلـة الهبوط إلى وادي محلية الذي يجب أن يقود في النهاية إلى الوادي العريـض مـن الطفال وهو وادي ضراء الذي سيقودنا تدريجيا إلى الرمال المتسعة حيث يجـب أن تقع نصاب . كان كل واحد شاكرا عندما تغير المنظر ، وأصبحـــت الانحـدارات أكثر رقة ومسطحة ، وقاع الوديان العريضة بأشجارها ، وتظـــهر هنـا وهنـاك مزرعة . وسرعان ما لاحظنا أننا تركنا الريح الباردة في المرتفعات الجبلية خلفنـا وأصبحنا نسافر مرة أخرى في حرارة صحراء الجزيرة العربية . وحـــل محـل الصخور المنثورة التي ترن مثل المعدن فوق الرمال والراسب الطفالي .

سارت الآن الجمال في صمت ، تطأ بأخفافها السطح الذي يتناسب معها . وتقدم الرجال بأقدامهم المتعبة كأنما يسيرون فوق سجاد فاخر فمضوا في أمـــان دون أن يحاذروا في خطوهم . لا صوت يسمع سوى أصوات الحبال التـي ربـط بها متاعنا . كان في الوادي في البداية أشجار صنت بشوك كثـــير . ثـم ظـهر الحرمل الذي أصبح فيما بعد رفيقنا اليومي . إنه نبات سام منخفض تعافـه حتـى الجمال والحمير . ويعزي هيرمان لقبه العربي حرمل إلى التشابه في الصوت بيـن الكلمتين . ولأنه كان محبوبا لحد بعيد ولأن كل واحد يدرك الأسس الحميمة التـي يعيش بها مع الرجال فقد أطلقوا عليه هذا الاسم غير الملائم ، الذي نادرا مـــا إن ينطق في القافلة حتى يثير ضحكا مرحا .وبعد الحرمل رأينـــا الأراك المـألوف ، وهو شجيرة لها ثمر أسود بنفسجي يؤكل . ويستخرج العرب من جذوره المسواك. وتأكل الجمال الأراك بشراهة على الرغم من أنه يسبب لها إسهالا .

وعندما تسافر القافلة لمسافة طويلة في منطقة أراك ، فعند تحريك الجمال لذيولـــها يتناثر رشاش أخضر من فضلاتها ، ولا تفارق رائحته القافلة . والذين يشـــربون لبن الجمال التي تأكل الأراك يعلمون ما يسببه من إسهال .

وادي ضراء له مجرى رملي شاسع ، وعلى امتداد سفح التلال مصـــاطب سميكة من الراسب الطفالي ، التي تشكل طليعة لوادي ، وقد قطعها السيل عموديا. وعندما تكون المصاطب عريضة بشكل كاف فإنها تزرع لأنها بالإضافـــة لمـاء السيل تروى أيضا من الآبار . وكان النسوة والأطفال منهمكين في ري القطعـــان عند عبورنا . تنمو أشجار العلب الضخمة على الجسور وشـــاهدنا تحـت ظلـــها الأغنام وهي تأكل ثمر الدوم والأوراق التي كانت الفتيات يضربنها بأعواد طويلـة.

وبدأنا عند أول شجرة علب فى جمع الدوم الطازج ، وملأنا جيوبنا لما يكفينا أثناء سيرنا. وتوقفنا عند إحدى الآبار وشربنا حتى ارتوينا لأن الطقس كان حارا .

وظهرت على حافة الجبل من البعد أول أبراج مراقبة تشير إلى أننا نقترب من جوار كرسي الدولة لأن سلطان نصاب أو أنصاب لا يسكن فى مدينة نصاب وإنما على بعد ستة أميال للجنوب . وأصبح الوادي عند هذه النقطة شاسعا جدا وأرضه مغطاة بتلال من الرمال والراسب الطفالي . تقع قلعة السلطان فى النقوب، صامدة عند الجبال ، لأنه من المحتمل أن يكون المكان أكثر ملاءمة من الناحية الاستراتيجية من نصاب ، وعلى نتوءات الجبل المحيط يمكن أن يبني السلطان قلاع مراقبته وحصونه . وكانت القلعة الكبيرة الأولى التى تقع عالية فوقنا جيدة التحصين . وعندما عبرنا نظر إلينا الجنود من شرفات السطح . يسكن السلطان فى السهل ، فى قرية النقوب ، حيث المنازل مبنية من الحجارة ومبلطة بالطين المخلوط بالقصب . هذه المنازل عالية وبها نوافذ صغيرة عليها شريط من الطلاء الأبيض لأن الجير يجلب من مكان بعيد . ويحيط بالسقوف المسطحة جدران منخفضة بها أشكال بسيطة وفى الأركان حجارة طويلة مستقيمة .

كان استقبالنا أمام مجموعة مساكن السلطان متحفظا ومخيبا للآمال ، وكنا متعبين وظمآنين وبحاجة إلى مودة . ولكن قلنا لأنفسنا إنه أمر مفهوم ، فالسلطان واجه زيارة غير متوقعة ولا يريد أن يلتزم بشي . وبعد أن انتظرنا قليلا أدخلونا أول قلعة تشبه الحصن حيث كنا مع الجنود ورجال القافلة فى شقة واحدة ضيقة. استضافنا هنا جنود السلطان . جاء ثلاثة من إخوان السلطان الواحد تلو الآخر ثم اختفوا مع محسن الذي كان عليه أن يسلم رسالة الكابتن إلى السلطان . ا...م يتبع ذلك الدعوة المتوقعة لنمضي إلى غرفة مجاورة على الرغم من إحضار قهوة القشر وإناء كبير من الماء أخذ يمر من فم إلى آخر . ما ألذ طعمه !

وجلسنا لساعات فى تلك الغرفة المربعة شديدة الزحام ومنافذها الصغيرة لا تسمح إلا بقليل من الهواء المنعش ، وقليل من الضوء وغير باردة . جلسنا على الأرض وظهورنا على الحائط اللزج من دهن النيلة الذي كان على ظهور الجنود الذين اتكؤوا عليه قبلنا . وسبحت أفكارنا نحو الوجبة المتوقعة من اللحم المقلي وأكواب الحساء التى لابد أنهم يعدونها الآن . أصبحت خيالاتنا صبيانية بعض الشي بعد تلك الأيام الثلاثة . كانت خيبة أمل بسيطة عندما أحضروا لنا أكلا بدويا بسيطا . فرشوا أولا سجادتين ليوضع عليهما الأكل ، وجلسنا حولها فى مجموعتين ، كلتاهما جائعة . ثم أعطي كل رجل خبزا بنيا ساخنا وعندما وضعوا صحنا من السمن وسط كل مجموعة قلنا باسم الله وانهمرنا على الأكل . كنا نغمس قطعة الخبز فى صحن السمن المصفى ، وأكل كل جماعتنا حتى عادت الشجاعة

إشعال خمسة نيران بالمعسكر لنحتمي بقدر الإمكان من ريـــاح الليـل البــاردة . الرجال والجمال أرهقوا واستمتع واحد براحة ليلية كاملة فى سكون لآ نألفه أثنـــاء النهار . وفى وقت متأخر عن المعتاد ، أي فى الساعة الخامسة صباحــا ، بـدأت الاستعدادات لمسيرة اليوم الثالث . وقام رجال القافلة أنفسهم بحثنا ، لأن هذا اليـوم سيشهد رغبتهم الكبرى بنهاية رحلتهم . فبعد تسلق شاق لجبل آخـر تبـدأ القافلـة الهبوط إلى وادي محلية الذي يجب أن يقود فى النهاية إلى الوادي العريـض مـن الطفال وهو وادي ضراء الذى سيقودنا تدريجيا إلى الرمال المتسعة حيث يجب أن تقع نصاب . كان كل واحد شاكرا عندما تغير المنظر ، وأصبحـت الانحـدارات أكثر رقة ومسطحة ، وقاع الوديان العريضة بأشجارها ، وتظـهر هنـا وهنـاك مزرعة . وسرعان ما لاحظنا أننا تركنا الريح الباردة فى المرتفعات الجبلية خلفنـا وأصبحنا نسافر مرة أخرى فى حرارة صحراء الجزيرة العربية . وحــل محـل الصخور المنثورة التى ترن مثل المعدن فوق الرمال والراسب الطفالي .

سارت الآن الجمال فى صمت ، تطأ بأخفافها السطح الذي يتناسب معها . وتقدم الرجال بأقدامهم المتعبة كأنما يسيرون فوق سجاد فاخر فمضوا فى أمــان دون أن يحاذروا في خطوهم . لا صوت يسمع سوى أصوات الحبال التـى ربـط بها متاعنا . كان فى الوادي فى البداية أشجار صنت بشوك كثـــير . ثـم ظـهر الحرمل الذي أصبح فيما بعد رفيقنا اليومي . إنه نبات سام منخفض تعافـه حتـى الجمال والحمير . ويعزي هيرمان لقبه العربي حرمل إلى التشابه فى الصوت بيـن الكلمتين . ولأنه كان محبوبا لحد بعيد ولأن كل واحد يدرك الأسس الحميمة التـى يعيش بها مع الرجال فقد أطلقوا عليه هذا الاسم غير الملائم ، الذي نادرا مـا إن ينطق فى القافلة حتى يثير ضحكا مرحا .وبعد الحرمل رأينـا الأراك المـألوف ، وهو شجيرة لها ثمر أسود بنفسجي يؤكل . ويستخرج العرب من جذوره المسواك. وتأكل الجمال الأراك بشراهة على الرغم من أنه يسبب لها إسهالا .

وعندما تسافر القافلة لمسافة طويلة فى منطقة أراك ، فعند تحريك الجمال لذيولـها يتناثر رشاش أخضر من فضلاتها ، ولا تفارق رائحته القافلة . والذين يشـربون لبن الجمال التى تأكل الأراك يعلمون ما يسببه من إسهال .

وادي ضراء له مجرى رملي شاسع ، وعلى امتداد سفح التلال مصـاطب سميكة من الراسب الطفالي ، التى تشكل طليعة لوادي ، وقد قطعها السيل عموديا. وعندما تكون المصاطب عريضة بشكل كاف فإنها تزرع لأنها بالإضافـة لمـاء السيل تروى أيضا من الآبار . وكان النسوة والأطفال منهمكين فى ري القطعـان عند عبورنا . تنمو أشجار العلب الضخمة على الجسور وشـاهدنا تحـت ظلـها الأغنام وهي تأكل ثمر الدوم والأوراق التى كانت الفتيات يضربنها بأعواد طويلـة.

وبدأنا عند أول شجرة علب فى جمع الدوم الطازج ، وملأنا جيوبنا لما يكفينا أثناء سيرنا. وتوقفنا عند إحدى الآبار وشربنا حتى ارتوينا لأن الطقس كان حارا .

وظهرت على حافة الجبل من البعد أول أبراج مراقبة تشير إلى أننا نقترب من جوار كرسي الدولة لأن سلطان نصاب أو أنصاب لا يسكن فى مدينة نصاب وإنما على بعد ستة أميال للجنوب . وأصبح الوادي عند هذه النقطة شاسعا جدا وأرضه مغطاة بتلال من الرمال والراسب الطفالي . تقع قلعة السلطان فى النقوب، صامدة عند الجبال ، لأنه من المحتمل أن يكون المكان أكثر ملاءمة من الناحية الاستراتيجية من نصاب ، وعلى نتوءات الجبل المحيط يمكن أن يبني السلطان قلاع مراقبته وحصونه . وكانت القلعة الكبيرة الأولى التى تقع عالية فوقنا جيدة التحصين . وعندما عبرنا نظر إلينا الجنود من شرفات السطح . يسكن السلطان فى السهل ، فى قرية النقوب ، حيث المنازل مبنية من الحجارة ومبلطة بالطين المخلوط بالقصب . هذه المنازل عالية وبها نوافذ صغيرة عليها شريط من الطلاء الأبيض لأن الجير يجلب من مكان بعيد . ويحيط بالسقوف المسطحة جدران منخفضة بها أشكال بسيطة وفى الأركان حجارة طويلة مستقيمة .

كان استقبالنا أمام مجموعة مساكن السلطان متحفظا ومخيبا للآمال ، وكنا متعبين وظمآنين وبحاجة إلى مودة . ولكن قلنا لأنفسنا إنه أمر مفهوم ، فالسلطان واجه زيارة غير متوقعة ولا يريد أن يلتزم بشي . وبعد أن انتظرنا قليلا أدخلونا أول قلعة تشبه الحصن حيث كنا مع الجنود ورجال القافلة فى شقة واحدة ضيقة. استضافنا هنا جنود السلطان . جاء ثلاثة من إخوان السلطان الواحد تلو الآخر ثم اختفوا مع محسن الذي كان عليه أن يسلم رسالة الكابتن إلى السلطان . لم يتبع ذلك الدعوة المتوقعة لنمضي إلى غرفة مجاورة على الرغم من إحضار قهوة القشر وإناء كبير من الماء أخذ يمر من فم إلى آخر . ما ألذ طعمه !

وجلسنا لساعات فى تلك الغرفة المربعة شديدة الزحام ومنافذها الصغيرة لا تسمح إلا بقليل من الهواء المنعش ، وقليل من الضوء وغير باردة . جلسنا على الأرض وظهورنا على الحائط اللزج من دهن النيلة الذي كان على ظهور الجنود الذين اتكؤوا عليه قبلنا . وسبحت أفكارنا نحو الوجبة المتوقعة من اللحم المقلي وأكواب الحساء التى لابد أنهم يعدونها الآن . أصبحت خيالاتنا صبيانية بعض الشي بعد تلك الأيام الثلاثة . كانت خيبة أمل بسيطة عندما أحضروا لنا أكلا بدويا بسيطا . فرشوا أولا سجادتين ليوضع عليهما الأكل ، وجلسنا حولها فى مجموعتين ، كلتاهما جائعة . ثم أعطي كل رجل خبزا بنيا ساخنا وعندما وضعوا صحنا من السمن وسط كل مجموعة قلنا باسم الله وانهمرنا على الأكل . كنا نغمس قطعة الخبز فى صحن السمن المصفى ، وأكل كل جماعتنا حتى عادت الشجاعة

والبهجة مرة أخرى إلى الأجساد المجهدة . سمحوا لنا بعد الأكل أن نصعد إلى السطح لغسل أيدينا وأخذ بعض الصور . ولكن رافقنا عبد أسود ، ومنعنا من إدارة عدساتنا فى اتجاه المنازل الأخرى .

كان المنظر من السطح مطابقا للانتقال من الجبال إلى الصحراء الرملية والسهل . وانحسرت الجبال فى اتجاه نصاب أكثر فأكثر نحو حافة الوادي الآخذ فى الاتساع . وتقف منازل القرية الصغيرة البنية مثل الطفال الذى بنيت منه على البعد . ويمكن تمييز نصاب فقط بشكل معتم فى الأفق ، ليس لأنها بعيدة ، ولكن بعد منتصف النهار أثارت أعاصير الرياح الرمال فى أعمدة طويلة من شياطين التراب التى كانت تنبئ بقدوم عاصفة رملية . وتقف على أعراف الجبال بعض القلاع في نسب يمكن وصفها بأنها نسب جسورة ومتناسقة ، تدل خطوط تشييدها القوي أننا نقترب من بلاد مهندسين معماريين . وحضرموت هي موطنهم . وبدأت تظهر الوديان التى يقع فى اتجاهها هذا الفن وأخذ ظهورها يزداد أكثر فأكثر ، وهو فن ظل باقيا من حطام حضارة قديمة .

وبما إن الدعوة التى قدمت لنا لقضاء الليل هنا كانت باهتة جدا فقد قررنا أن نسافر حتى نصل نصاب قبيل حلول الظلام . وعند الوداع أخبرنا أحد اخوة السلطان أنه متوعك ولذلك لم يتمكن من مقابلتنا . وسيحضر هو بنفسه صباح الغد لمقابلتنا فى نصاب ليناقش ترتيبات الجزء التالي من رحلتنا . وأخبرنا أننا ربما وجدنا مسكنا فى منزل سيد الجفري فهو معتاد على استضافة الأجانب . وهناك سيأتي أخ السلطان ويتحدث عن الجمال، ويبدو أنه يريد أن يؤجرها لنا بنفسه . لم يعلق محسن ولكن كابتن هاملتون قد وجهه أن يطلب الجمال من قبيلة آل همام الذين ينصبون خيامهم على الجانب الآخر من نصاب .

وبعد أن طلبنا الإذن للرحيل ، تجمع الرجال من سكان نصاب حول القافلة بشكل فضولي ، ثم واصلنا السير إلى السهل الرملي العريض . وغدت الرؤية فى الضباب البعيد صعبة . أعمدة طويلة من الإعصار الرملي تتحرك فوق السهل . والمسافة إلى المدينة ، التى تظهر مبيضة باهتة ، ليست بعيدة واعتقدنا أننا يمكن أن نقطعها دون الحاجة إلى دليل ، وبعد الجلوس مكدسين لساعات فى تلك الغرفة الخانقة ، أصبحنا وحيدين . لذلك اتجهنا رأسا إلى نصاب وتركنا القافلة لتلحق بنا. ولكن المسافة كانت خداعة ؛ الرمال الناعمة جعلت المسير صعبا . وفى الوقت الذي كنا نقترب من المدينة جمعت الرياح المثقلة بالرمال قوتها وأصبح الضوء خافتا تحت السماء المنخفضة . كنا في غاية الإرهاق لنتمكن من الحديث فواصلنا السير في صمت . وعند وصولنا المقبرة التى تقع قبل المدينة الصغيرة انتظرنا المجموعة غير المنظمة وجلسنا نفرغ أحذيتنا من الرمال التى

تجمعت فيها . وهناك أحس شباب المدينة بأن شيئا غير عادي يحدث : شاهدوا في البعيد قافلة وأمامها أربعة أشخاص شكلهم غريب ومعهم بعض الجنود. والآن أخذوا يجرون نحونا للقائنا وهم يطلقون صيحات عالية ، وكان الجسورون والطائشون في المقدمة . ومع صياح جمهرة من الصبية الذين تدافعون حولنا تحركنا مرة أخرى ولكن كان علينا أن نتوقف بين مرة وأخرى لنختبر مسلكهم العدائي المتصاعد . تراجع بعضهم الآن وبقوا لفترة على بعد مسافة منا بينما البقية جرت أمامنا لتوقظ المدينة .

قادنا الصبية فى موكب ونحن تغلفنا سحائب الغبار حيث تجمع فى طوف المدينة جمع من كبار القوم ليشاهدونا ندنو قريبا . إن وصول أربعة غرباء مرهقين ومتسخين ويعرجون ولا يدرون إن سيجدون ملجأ ، لابد أن يكون مشهدا مثيرا .

أصيب الكبار بعدوى صفاقة الصغار . تجمهروا قريبا من أقدامنا وأطلقوا بعض الصيحات الاستفزازية . التفت محسن وطلب منهم أن يتصرفوا بأدب . توقفوا للحظة والتزموا الصمت . ولكن ما كدنا نتحرك مرة أخرى حتى بدؤوا يضحكون ويصيحون بل قذفونا بكتل من التراب . اندفع جنودنا بغضب نحو مهاجمينا ورموهم بالحجارة لتخويفهم ، ولكن عاد بفائدة قليلة . وسرنا بسرعة بقدر ما سمحت به الطرقات الضيقة وسحائب الغبار الكثيف والهجمة المتزايدة . وبدأ الوضع يبدو قبيحا عندما شق طريقه نحونا عبر الجمهور الخطير رجل صغير لفت النظر لأنه الوحيد بين كل الناس كان بملابس بيضاء نظيفة . ودون أن ينطق كلمة أخذ أحدنا بيده وأشار علينا لنتبعه بكل سرعة . وأسرع عبر واحد أو اثنين من الشوارع الضيقة إلى ظهر منزل وفتح بابه وحشرنا فى ممر مظلم . وتبعنا الحراس ؛ وأغلق الباب ؛ ووضع بنفسه المزلاج الخشبي ووقفنا فى الظلام فى دهشة صامتة .

السيد عبد الله بن محمد الجفري ، مضيفنا فى نصاب الذي لا ينسى ، قاد ضيوفه بهذه الطريقة غير المألوفة إلى منزله . وفى الخارج كان الجمهور الذي حرم من متعته يصرخ . ضحك السيد مطمئنا : قال :أنتم فى أمان فى بيتي . وفوق سطحه المضياف وتحت مظلة سلطته الروحية انتهت التفافتنا الناجحة للمنطقة حيث ربيزي يواصلون حربهم ويمنعون مرور كل المسافرين .

الفصل الثامن

مدينة نصاب القديمة

علينا أن نبقى فى نصاب لبضعة أيام من أجل ترتيب قافلة جديدة للجزء التالي من الرحلة التى ستكون عبر صحراء رملية . لم يكن علينا أن نختار جمالا قوية فحسب نتمنى أن نحتفظ بها حتى نصل هدفنا حضرموت ، بل علينا أن نجري مفاوضات مطولة حتى نصل إلى سعر مناسب لأجرها ونتأكد أن الأجر سوف يبقى دون أن يتأثر بالأحداث غير المرئية فى الطريق . ولا بد من جمع المؤن أيضا .

نصاب مدينة صغيرة تعود إلى الأيام القديمة الخوالي عندما كانت الجزيرة العربية تشكل جزء هاما في حركة التجارة العالمية ، ولعلها لو تأخرت قليلا لكان لها وضع أفضل فى عالمنا . إن الطريق التجاري الذى كانت تمر عبره البضائع الغالية من الصين والهند إلى البلاد المتحضرة فى البحر الأبيض المتوسط ربما مر عبر نصاب . وقامت فريا استارك ، التى قادتها خريطة فون فيسمان حول وداخل حضرموت باستكشافات مقدرة هناك ، وسجلت رحلاتها فى العديد من الكتب التى سوف تحظى بقيمة خالدة ، لأنها فوق كل شي لها ميزة أدبية . وبحثت عن آثار "طريق البخور" هذا ووصفت ما توصلت إليه فى مقالات ومقابلات(١) وفى كتبها(٢) . وبحثت بشكل خاص الساحل الجنوبي حيث تنتهى حركة التجارة البحرية وتبدأ حركة القوافل . لا شك أن القوافل البعيدة التى كانت تبدأ رحلتها شمالا من هذا الساحل قد عبرت ضمن مسارات أخرى بطريق نصاب. (٣)

لم تكن لدى مضيفنا أفكار غير مألوفة . فهو مثل معظم العرب يهتم اهتماما خاصا بالتاريخ والجغرافيا ، ويعرف أيضا أخبار الجغرافيين العرب القدامى ، بعضها من قراءاته وبعضها من الموروث الشفاهي . وليس بإمكاننا أن نجد دليلا أكثر حماسة واقتدارا في نصاب القديمة من السيد . خرج هيرمان وفاسي فى نفس اليوم تحت قيادته لمشاهدة النقوش الحميرية فى صخور الجدران التى تحد الوادي من الشمال.

وكانوا يريدون أيضا الذهاب إلى الجبال من أجل رؤية المنطقة المحيطة ولتحديد موقع نصاب وبيئتها بدقة فى خريطتهم . وكان لديهم وقت كاف لمشاهدة النقوش ونقل ما يجدونه . إن قيمة رسائل القدماء هذه لا يفهمها العرب المعاصرون تماما . وما عاد بإمكانهم فك رموز النقوش بأنفسهم ويشكون (غالبا بلا تبرير) أن لها صلة بالتقاليد المحلية السابقة على الإسلام التى ينبذونها لوثنيتها.

على أن السيد سرعان ما استساغ الحديث : طرح للبدو أسئلة يمينا وشمالا وبحث بنفسه النقوش بغريزة صائبة ولكنه توقعنا أن نكون أكثر اهتماما

بآثار الأسلاف القدماء وعظمة مدينة نصاب أكثر من الشظايا البليدة للمعلومات الحميرية .

قضيت اليوم الأول فى المنزل مع محسن لتسوية الأمور المالية والبحث فى ترتيبات الأيام العشرة التالية من الرحلة . كان علينا استقبال اثنين من إخوة سلطان النقوب والاستماع إليهما . حاولا أن يعرفا لماذا لم نأت بالطائرة مثلما يفعل البريطانيون دائما ولماذا قاسينا كل تلك المشقة بالسفر برا . يقع مهبط الطائرات البريطاني لهذه المناطق بين النقوب ونصاب . كان من الصعب أن نجعل هؤلاء الرجال يفهمون أن هناك رجالا بيضا غير البريطانيين وأن هؤلاء الآخرين لا يمكنهم أن يسافروا فى أبهة مثلما يفعل الموظفون . أبدى رجال السلطة هؤلاء بعض القلق حول مسلك القبائل التى عبرنا مواطنها . لم يكن من المقبول بالنسبة للسلطان أن يقابل الغرباء الذين شاهدوا بوضوح قصوره فى ممارسة السلطة. ربما كان توعكه أثناء زيارتنا له بعض الصلة بحرجه والتقرير الذي حمله له اخوته منا يكاد يكون قد أعاد له ثقته .

وفوق ذلك هناك خيبة أمل : ليست لدينا نية لاستئجار جمال من السلطان. لم يكتشفوا أننا حذرنا فى عدن من استئجار جمال من السلطان وقد رشحوا لنا شيخ آل همام باعتباره أكثر سمسار جمال موثوق به . على أنهم عرضوا علينا باسم السلطان أن يقدموا أي مساعدة أخرى نحتاجها . وتكشف فيما بعد أنه مقابل هذا العرض السخي الأخير فإن أخ السلطان يتوقع أن يحصل على هدية بسيطة من النقود . وجاء محسن غاضبا ليخبرني بهذا . وشعر بالخجل من سلوكهم واصطنع العذر بأن الموظفين البريطانيين أنفسهم أدخلوا هذا الأسلوب المثبط لتسهيل أمورهم ، ولو أنهم الآن بعد أن ظهرت لهم نتائجه سوف يكونون سعداء لوضع حد له .

سافر السيد كثيرا ؛ ذهب إلى جدة بل ادعى أنه رآني هناك في "بيت هولندا". ونصحنا بالمغادرة في ظهر اليوم التالي وألا نمضي في ذلك اليوم أبعد من معسكر قبيلة همام . وأوصانا بأن نذهب من هناك إلى عياد أقصى حامية بريطانية ، حيث وضع كابتن هملتون قبل فترة عشرة رجال مع جهاز إرسال . وفى عياد ، وقبل أن نخترق وادي جردان الذي لم يستكشف بعد ، يمكننا أن نجدد المحاولة بإخطار عدن بتقدمنا الذي فشلنا فيه قرب لودر . تنبأ السيد الجفري بأننا سنجد المزيد من الآثار الحميرية بالقرب من وادي جردان. ولذلك بدأت خططنا للمستقبل تأخذ شكلا محددا .

وشاهدنا مرة أخرى خيولا بين النقوب ونصاب للمرة الأولى منذ مغادرتنا لودر . كانت حيوانات جميلة وقوية ولعلها استوردت من اليمن . وظهر أن سعرها

عال جدا . طلبوا بين ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ ريال نمساوي للحصان الجيد . المبلغ الذي توقعته - حوالي ١٠٠ ريال - تكلفة حمار جيد أو جمل حمل .

وشاهدنا هنا للمرة الأولى منذ أن بارحنا الساحل بعض أشجار النخيل الطويلة اليانعة . وقد شرح لنا السيد فيما بعد السبب في قلة عددها عندما كنا نتجول في محيط نصاب بحثا عن مخلفات الحضارة الحميرية. وأثناء سيرنا عبر نصاب اكتشفنا لتعجبنا مدرسة صغيرة ، حيث كان الصبية في الصباح يتمرنون على حفظ القرآن وتتباهى المدينة بستة مساجد على أطرافها الخارجية ، وبالقرب من المقبرة هناك بعض القباب التي شيدت تخليدا للصالحين من أسلاف المنطقة .

في صباح الأحد ٢٩ أبريل ، يوم عيد الفصح ، وتحت قيادة السيد ، سرنا إلى تل اسمه حيد المعاقر بالقرب من الجانب الشمالي للوادي . وفي أثناء سيرنا في ذلك الطريق استحضر لنا السيد صورة نصاب القديمة . وبالنسبة له فإنها كانت حديقة للبهجة ، بفضل نظام الري المتطور جدا . ولم يكن الماء أكثر مما هو عليه الآن ، ولكن بالعناية والذكاء وميزة السلطة السياسية القوية تم الاحتفاظ به في تلك الأيام في مأمن في صهاريج ووزع بعد ذلك بمقدرة فائقة . إن غياب سلطة قوية وعادلة هو السبب الرئيسي في الفقر والنزاع الحالي . ومضاف إلى ذلك أيضا الحرب المستمرة وتدهور أسلوبهم في ترشيد استغلال الماء والسيطرة عليه. وبينما كان الاعتقاد في الماضي أن المزارع لا يمكن الاعتداء عليها ، لأن مصدر الغذاء الرئيسي للناس هو النخيل ولا يمكن أن يترك ليندثر ، دمرت المزارع في الأزمان اللاحقة وقطع شجر النخيل أو أحرق بالكيروسين . وحتى الرجل الذي له مجرد خمس نخلات يجمع الآن القليل من محصولها ، لأنه نسبة لانعدام الأمن يسرق محصول التمر الناضج . الينابيع والغدران المعروفة منذ أيام الأسلاف ما زالت قائمة . جلب القدماء الماء من الجانب الجنوبي الغربي لوادي معربة إلى المدينة عبر نظام من القنوات الحجرية تحت الأرض ، وبينما كنا نسير عبر الشوارع أشار السيد إلى الأماكن التي توجد بها القنوات .

وقفنا خارج المدينة أمام شريط عريض من الحقول المزروعة . وأقيمت عليها الجسور ، وتدل القنوات والخزانات على نظام الري الحالي من مجاري السيول التي تتخلل المنطقة المزروعة . وأطلعنا السيد على أشياء تقع عميقا : أشار كيف كانت القنوات القديمة تجري من بركة إلى بركة . كانت تلك البرك تمتلئ أثناء الليل عندما لا تستعمل الماء في المدينة فيمكن توزيعه بالنهار إلى الحقول تحت مراقبة دقيقة . وفي بعض الأماكن تقف جدران البركة عالية فوق الحقول ، وجدرانها متماسكة بالأسمنت الذي وضعه القدماء ، وقد ضاع سر تركيب هذه المادة . احتضن السيد بذراعه الممدودة الأرض المحيطة ، وأطلق

العنان لخياله وهو يصف الجنة التى لابد أنها قد عاشتها عندما كانت القوافل المحملة بالحرير والآنية الصينية، مع توابل الهند والطيب، والنباتات الطبية والبخور، وذهب الجزيرة العربية، كلها كانت تسافر شمالا عبر أرض سبأ، مخترقة العربية السعيدة، وربما عن طريق مكة والمدينة، إلى البلاد التى كانت معابدها التى لا تحصى تستنشق الطيب الذي كان يهب عليها عبر هذا الطريق التجاري .

والآن معظم أجزاء هذه الأرض التى كانت مزروعة فى الماضي أصبحت جرداء . كان يزرع فى بعضها القطن . النباتات عمرها أربعة أعوام، أو هكذا خبرونا، وينسج إنتاجها قماشا فى نصاب . هنا رفات متداعية لزراعة وصناعة كانت فى وقت ما مزدهرة . وبذرة القطن لها أيضا قيمتها إذ تستعمل فى الظروف العادية علفا للأبقار وتذكر السيد مجاعة قبل ثلاثين أو أربعين عاما مضت عندما أكلها الرجال أيضا، بل أكلوا حتى جلود الأغنام والأبقار .

بعض القطع الأخرى مزروعة بالنيلة، ورأينا بعيدا على أطراف المدينة قدورا ضخمة تعد فيها صبغة النيلة من أوراق الأشجار التى تحملها الحمير من المزارع . وكمية النيلة التى تنتج محليا لا تكفى الطلب فى البلاد لأن هذه الصبغة مرهم يعتقد أنه يحفظ البشرة قوية وصحيحة .

وعبرنا السهل الذي حرقته الشمس عندما أدت خطايا الإنسان إلى اختفاء وفرة الفردوس المخضرة، وصلنا حيد المعاقر . يتكون السهل من قطع ضخمة من الحجارة وفرت سطحا أملس استغله الحميريون لكتابة نقوشهم . كان عملا فجا: الحروف الكبيرة عبارة عن اسكتشات تقريبية لونها بني خفيف على سطح الصخور، وربما كانت فى الأصل بيضاء . كانت باهتة جدا فلا يمكن تصويرها فاكتفينا بنقل شكل النقوش الحميرية البسيطة .

تعلقنا بسفح الصخرة كالذباب، وأخذنا ننقب ونرسم فى حماسة يساعدنا السيد، وبعض الصبية وجنودنا . وفى الأماكن التي اختفت فيها الأحرف حدق السيد فى سطح الصخرة وأخذ يتابع بلعابه ما كتب قبل قرون عديدة . من يدري أي طموح وثني قد سجل هنا ؟ وعلى الرغم من الحصاد الهزيل من النقوش التي جمعناها ربما أضاف القليل إلى المادة الموجودة عن هذه الفترة الغامضة من التاريخ فإن ما اكتشفناه فى بضعة أيام سوف يزداد بلا شك خلال مقام أطول، وطريق البخور الذي أثبتت فريا استارك نقطة بدايته ربما أمكن تتبعه بوضوح ودقة عبر يشبم وحبان إلى النقطة الهامة فى نصاب . وبعد يومين إلى الشمال قليلا عبر هذا الطريق، عبرنا على معلم به ذكريات باقية ربما ساعدت على

إزاحة قليل من النقاب الذي يحجب عن ناظرنا منظر الجزيرة العربية عندما حكمت ملكة سبأ جنوب الجزيرة العربية وحكم الملك سليمان شمالها .

عندما رجعنا إلى نصاب وضعنا اللمسات الأخيرة لاستعدادنا للرحيل إلى العطفي حيث يقع المعسكر الضخم لقبيلة همام عند آخر بئر نحو الشمال .

تزاحمت حولنا العديد من طلبات المساعدة الطبية وكنا نحتاج لقلب من حديد لنرفضها بدون تهدئة من الصندوق الصغير أو ظرف به بعض الحبوب أو قطعة من رباط أو أمبوبة مرهم . إن سمعة علم الطب الغربي ، لن تعززه محاولات الهواة هذه التى لن يوافق عليها بكل تأكيد أي قارئ في الطب . لكم افتقدنا طبيبا مقتدرا فى مجموعتنا الصغيرة ! ولكن إذا كان معنا كنا بكل تأكيد سنتقدم ببطء شديد .

علينا هنا أن نفترق مع اثنين من حراسنا ومها ينتميان إلى هذه المنطقة التى حددها كابتن هاملتون بحق أنها الجزء الحرج من الرحلة وسوف نمر عبرها الآن ويريد كل منهما أن يقضي بضعة أيام مع عائلته ثم يعود إلى عدن . وقالا إنهما يفارقاننا وهما مترددان . سوف نفتقد خلال باقي الرحلة سالم المكسور المرح بتحمله الشديد وضحكه الجذاب ، وأحمد بن علي من أرض جبال الشيطان، لقيادته لنا عبر صخورها المفزعة وقد برهن على قيمته . والسيد أيضا ، الذي وجدنا فى منزله الإرشاد الحسن والصداقة ، ونفارقه بأسف . إنه ممثل جيد للسادة، ويبرز عاليا فى هذا المحيط الفظ بثقافته وسلوكه الإنساني ونظرته . لقد تجاسر واستعمل نفوذ مكانته الروحية فى الإسلام لمصلحة النصارى .

الجمال محملة وهي على استعداد للرحيل . وأبدى العديد من أهل نصاب رغبته لمصاحبتنا لمسافة بعد المدينة . ومرة أخرى أحاط بنا حشد مرح ، ومرة أخرى سرنا فى سحاب غبارهم ، ولكن هذه المرة لم تكن هناك إهانة دع عنك القذف بالحجارة . وعلينا أن نشكر السيد على هذا ، ولحد ما للأدوية التى وزعناها. وفى الخارج أمام القافلة سرت مع السيد ويدي فى يده وأصابعنا متشابكة بالأسلوب العربي . سار معنا علي بن محمد الجفري حتى العطفي ثم عاد إلى داره على حماره الصغير .

الحواشي الثلاث التالية للمؤلف

١. The Geographical Journal , Vol. Xciii, London, 1939
٢. كتابها بالإنجليزية ــ شتاء في شبه الجزيرة العربية
٣. يشير إلى مقالته في المجلة الجغرافية الهولندية في مايو عام ١٩٤١

الفصل التاسع

قافلة جديدة

يعتبر موقع العطفي مكانا مثاليا للمعسكر للعديد من البدو . إنه سهل شاسع حيث تنمو فوق الرمال الصفراء الصافية كثير من أشجار الصنت بقمتها المسطحة . وفوق مساحة شاسعة في الظل الشحيح لهذه الأشجار الشائكة التي تحبها الجمال ، نصبت خيام منخفضة خشنة من صوف أسود منسوج من وبر الأغنام . الخيام مفتوحة من جميع الجهات ولكن يوجد فى العديد منها جزء خاص للنساء يتكون من مربع صغير مقفول بنفس مادة الخيام إلا أن بها شرائط غالبا ما تكون بيضاء أو بنية منسوجة من وبر حيوانات بيضاء أو بنية .

وبما أن هناك مساحة كافية فقد نصبت الخيام بعيدة عن بعضها البعض وبينها زرائب للأغنام من الأغصان . والجمال تتجول بين الخيام ترعى من أعلى الأشجار وكلاب تحرس المعسكر وبيوت الشعر . وصلتنا ضوضاء هذا المشهد الصاخب عندما كنا ننظر إليه من مسافة . قبيلة همام بها ٢٠٠ رجل قادرون يحملون السلاح ، وتعدادهم حسب تقديرهم ٧٠٠ نسمة ، ولكن العدد الكلي لابد أن يكون أعلى . جاءت مجموعة من الكلاب تجري نحونا لتمنعنا من الاقتراب أكثر . خصصوا لنا مكانا بالقرب من البئر ، حيث كان الناس فى تلك الساعة من اليوم مشغولين بسقاية حيواناتهم من أوعية مصنوعة من جذوع الأشجار المحفورة .

استقبلنا شيخ القبيلة وإخوانه استقبالا حارا . كانوا رجالا طوال القامات ووسيمين ، وعيونهم فيها عطف ولونها بني خفيف وأصواتهم تكاد تكون شجية وناعمة بالنسبة لمثل هؤلاء الرجال الأقوياء . وعلى الرغم من أن مطالبهم المالية كانت باهظة ولم تمض المفاوضات فى يسر إلا أنهم يبقون أرستقراطي الصحراء، استقبلونا بلطف ، وأرسلوا لنا شاة للعشاء ، وعاملونا بما يجب أن نعتبره امتيازا وذلك بأن سمحوا لنا بالسفر على جمالهم الجميلة وتابعيها الأقوياء . وأطلعونا على رسالة تقدير من الكابتن هاملتون وعلى المبلغ الكبير الذي دفعه واعتبروا ذلك سابقة ثابتة . وفشلت محاولاتنا للحصول على ترحيل إلى وادي حضرموت مقابل جملة تقديرية من المال . إنهم يعتبرون الطريق غير آمن لحد بعيد وهناك احتمالات اعتراضنا والقيام بالتفافة كبيرة . وأصروا أن يكون الدفع باليوم وبالجمل وبنصف أجر لبقية الأيام . كانت تلك هي المرحلة الأولى من المفاوضات.

ثم جاءت المرحلة الثانية : تحديد عدد الجمال . كانوا يحاولون أن يفرضوا علينا أكبر عدد ممكن بينما هدفنا ان نسافر بأدنى عدد . ولذلك كانت خيبة أمل بالنسبة لهم أن يعرفوا أننا ننوي أن نسافر سيرا على الأقدام ونتوقع حراسنا أن يفعلوا نفس الشيء . وقلنا فى النهاية تسعة ، وقالوا عشرة . من المعلوم أن مثل هذا الأمر من الأشياء المساعدة التى لا مفر منها لرحلتنا . وجدنا فى رجال همام رجال قوافل أشداء ومن نوع مهذب ومترف لم نلتق بمثلهم حتى الآن

وجمالهم تفوق الإطراء . كانت حيوانات طويلة فاقعة الصفرة وأرجلها طويلة على طول قامة الرجل : حافظت على خطو رشيق خلال السهول الرملية اللامتناهيـــة وحملتنا بلا مشقة خلال أيام السفر فوق العقبات المنحدرة والهضاب الصخرية .

هجعنا بالليل وأنفسنا موفورة الثقة أن عيد الفصح يوم الأحد سيكون تحت حماية معسكر الهماميين . وحصن كل واحد منا مكان نومه بقطع مـــن الأمتعـة حماية من الرياح وسافيات الرمال . كانت الشاة المشوية والخبز المستدير وجبـــة رائعة ؛ المشكلة الوحيدة أن رائحة الوليمة اجتذبت عددا من الكلاب التى تشـاجرت حول فضلات العظام وظلت تحوم حول معسكرنا حتى ساعة متأخرة من الليل .

تقع نصاب على ارتفاع ٣٣٠٠ قدم فوق سطح البحر[1] . ونحن هنا علـــى نفس الارتفاع فبعد فترة ازدادت الرياح الليلة برودة . ولذلك فرشنا معاطف المطـر الجلدية العريضة فوق البطانيات لتحمينا من الرياح . وسرعان ما رحنا فى سـبات عميق ولكن استيقظنا بحسيس غير عادي وبسقوط قطـرات كبـيرة دافئـة فـوق وجوهنا . ومن البعيد اقترب صوت مندفع . إنه المطر ، نعمة ولكننا لعناها مـــن قلوبنا فى تلك اللحظة . اختفت النجوم وبات الظلام حالكا . وفي ضوء البطاريـات استخرجنا بسرعة قطعا من المشمع وفرشناها فوق أمتعتنا التى جمعناها الآن فـى كومة واحدة . أما نحن فسوف نجف مرة أخرى ولن يأذينا المطر ولكننـــا سـحبنا أفرشتنا قريبا من العفش لنلقى وقاية جزئية تحت حماية المشمع . وكانت معـــاطف المطر صامدة للماء وواسعة بقدر كاف يغطينا تماما . وانهمر الماء فى دفعـــات. وتحول الطقس إلى برودة وبدأ الماء ينسكب من أمتعتنا فى جداول. إذا كنـــا فقـط ابتعدنا عن أمتعتنا ! أبعدت المعاطف الماء عنا ولكنها وجدت طريقها إلى فـــرش المطاط وتجمعت هناك فى بقع . وسرعان ما وجدنا أنفسنا نرقـــد فـــى بحـيرات صغيرة من الماء البارد. وفى هذه الأثناء استمرت السماء تمطر وتمطر . وليـس هناك ما يمكن عمله سوى الانتظار فى صبر . وبقينا هناك مثل أطفال عـــاجزين عن ضبط أنفسهم وأخيرا برغبة ملحة مشتركة وجدنا متنفسا فى ضحك لم نسـتطع السيطرة عليه وانقطعت أنفسنا حتى كدنا أن نختنق . وهكذا انتظرنا حتى توقـــف المطر ثم قفزنا على أرجلنا وأخذنا نجري لنحصل على بعض الدفء مرة أخرى . وبقي متاعنا والنباتات ومواد التصوير جافة . أما نحن فسـوف نسـتعيد الـدفء سريعا وتجف الفرش والملابس فى الشمس والريح خلال توقفنا لراحـــة منتصـف النهار .

وفى صباح الاثنين يوم عيد الفصح ، ١٠ أبريل ١٩٣٩ ، استعدت القافلة للرحلة الطويلة عبر الصحراء إلى وادي حضرموت . وسوف لن نجد ماء خـــلال الأيام القليلة القادمة ولذلك علينا أن نملأ كل القرب وتأخذ الجمـــال كفايتــها قبـل

مسيرة الأيام بلا ماء . وحول البئر الكبيرة التى أعاد الهماميون حفرهـــا قريبـــا ، كانت الحركة على أشدها . ويقال إن البئر عمقها عشرون قامة . أخـــذت مقيـــاس الحبل الذي يستعمل لرفع الماء فوجدت طوله ٤٣ ياردة . لذلك ليس من المستغرب أن يأخذ شرب الحيوانات وملء القرب ذلك الوقت الطويل : كل قربة ترفـــع إلـــى مسافة تصل ارتفاع برج كنيسة . أخيرا تحركنا.

وبعد مضي بعض الوقت لاحظنا لدهشتنا ، أن اليمني العجـــوز ورفيقـــه الشاب ، وكنا قد تركناهما فى مسجد القرية فى جابر ، يسيران مع القافلـــة مـــرة أخرى . التأم الجرح الذى كان فى قدم الرجل، وواصلا ســـيرهما ببـــطء وعـــبرا منطقة الحرب فى ربيزي دون عائق . من سيلتفت إلى اثنين مـــن المشـــردين لا يملكان شيئا سوى ملابسهما البالية وعكازة ؟ ولأنهما سلكا طريقا أقصر وأســـهل تمكنا من اللحاق بنا هنا ومن الآن فصاعدا سيركب الرجل الكبـــير علـــى جمالنـــا لمسافات طويلة بين مرة وأخرى ، بينما برهن الشاب باستمرار على أنه مفيـــد ولا يتعب ورفيق درب كثير المرح .

سارت القافلة رأسا إلى تل صخري طويل يشبه زواحف ما قبل التـــاريخ الضخمة المتحجرة ولها ظهر حرفشي ينتصب حادا على رمال الصحراء الصفراء التى يرقد فوقها ممتدا .هذا هو قرن السران الذي يتكون من حجر أزرق رمـــادي ، حيث تبرز طبقاته عموديا من الرمال . استخرجت من هنا الحجارة لبنـــاء البـــئر الحميرية العظيمة ومن أجل حراسة البئر والحقول المزروعة المجـــاورة فالقبيلـــة الآن على وشك تشييد حصن من الحجر . وتم إحضار كتل الصخـــر الضروريـــة بالجمال بعد وضعها فى قوالب خشبية تبرز على جانبي جسد الحيوان .

وبينما كانت القافلة تواصل السير التفتنا جانبا لفترة لنرى هـــذا العمـــل . وعند ما تحدثنا مع العمال علمنا أنهم وجدوا على سطح الصخور كل أنواع الكتابـــة والرسومات التى هي حسب رأيهم من عمل الكفار . وذهبنا فورا لفحصها . وبـــلا مشقة وجدنا العديد من النقوش قد انطمست أجزاء منها وفقدت الكثير مـــن لونـــها المبيض ومصداقيتها . ومن بينها رسومات لنخيل وحيوانات . وعلى العموم فـــإن حجم قرن السران ليس كبيرا إلا أن شكله المتميز وموقعه فى الســـهل الرملـــي ، جعله معلما بارزا . والقوافل القادمة من الشمال تتوجه نحوه وهي تعلم أن نصـــاب لا تقع بعيدا بعده . وتوجد فى جانبه الشمالي أسطح ملساء كأنها صممت خصيصـــا لتسجل نقوش الأسلاف. توجد قطعة واحدة ارتفاعها ٤٥ قدم وطولـــها ٩٠ قدمـــا مغطاة بقطع جيدة الحفظ . وقفنا وحملقنا بطرب إلى النـــص الموضـــح بســـخاء ، ولكن لابد من نقله كله لأننا إذا أردنا أخذ صورة علينا أن ننتظر حتى يتوفر ضـــوء مناسب . توجد مادة وفيرة هنا مما يحتم القيام برحلة خاصة إلى نصاب من أجـــل

فك رموزها وقراءة ما كتب عندما كانت الحركة على طريق البخور على أشدها. رسمت هنا صفوف من أشجار النخيل والجمال والخيول وزسومات رفيعة للوعل بقرونه الأنيقة القوية ، وهو موضوع قد أحبه بلا شك الفنان الحميري . كم من الأشياء يمكن اكتشافها بفحص مترو للصخور حول نصاب ؟ بجمع هذه الخطرات مع ما هو معروف من مصادر أخرى يمكن للمتخصص أن يضيف فصلا إلى تاريخ تجارة العالم القديم ويلقي المزيد من الضوء على مستوى الحضارة التي وصل إليها أولئك الناس الذين يحظون باهتمام خاص من جانبنا عبر صلتهم بالعهد القديم .

قضيت وقتا طويلا مع فاسي أنقل النقوش وآخذ الصور لقرن السران . اختفت القافلة بعيدا فى الأفق ولكن كان من الصعب علينا أن ننتزع أنفسنا بعيدا من هذا المكان . لابد أن المعينيين والسبئيين والحميريين قد عبروا هذا المكان بقوافلهم العديدة . عسكروا هنا وقام الرسامون والخطاطون الذين معهم بتسلق هذه الصخور اللزجة أو هبطوا بالحبال لينحتوا رسوماتهم وسجلاتهم هنا . لم يتخيلوا أبدا أن أرض الحضارة الرافية هذه سوف تهوى صامتة ، وأن التجارة العالمية سوف تتعلم استعمال الطريق البحري ، وأن البخور سوف يفقد قيمته الكبيرة ، وأن أنظمة الري سوف تهمل ، وأن الصحراء سوف تغطي مرة أخرى أشجار النخيل المثمرة والحقول وأن قرونا من الصمت سوف تهبط على طرق القوافل التي كانت فى وقت ما صاخبة بالحركة . ولهذا بقيت النقوش محفوظة دون لمس أو خراب لأجيالنا ليقرءوا رسالتهم .

ونحن يملؤنا العرفان لهذه التجربة أخذنا نسرع للحاق بالقافلة . أبقينا معنا اثنين من جنود الحراسة فليس هناك خوف من أن نضل طريقنا لأن هؤلاء الناس الذين تربوا فى الصحراء يثقون فى قدرتهم فى تتبع أثر القافلة . اخترقنا السهل الرملي بخطى معقولة وأعيننا تتجول نحو الأفق حيث تبينا بشكل باهت فى الهواء الحار المرتعش خيطا من الجبال . وما عدا بعض أشجار السنط المبعثرة فى الرمال فالمكان خال من النبات . وما بعد ذلك ، يقع الطريق فوق دروب من حجارة خشنة حيث لا ينمو أي شيء بتاتا . يقود الدرب فى اتجاه ممر منخفض فى عرف الجبال . وعلى جانب الجدار الغربي للممر نقش حميري طويل باهت إلى الحد الذي لن يستطيع أي شخص نقله ما عدا خبير .

وهناك حيث توقفت القافلة لمنتصف النهار اجتمع شملنا مع رفاقنا . ووفر ظل متناثر لشجرة سمر كبيرة بعض الحماية من حرارة الشمس العنيفة . صنع الخبز ، وأكلناه بشهية وابتلعناه بكثير من الشاي . بالنسبة لنا كان الحر شديدا لنبقى طويلا ولكن رجال القافلة لم يكونوا فى عجلة من أمرهم والجمال حيوانات لها

جمجمة قوية كالحجر ويبدو أنها محصنة ضد حرارة الشمس . مضى بعض الوقت قبل أن نحمل القافلة على التحرك مرة أخرى بعد استراحة قصيرة ولكن تم التحميل أخيرا ، ورأينا بارتياح الجمال الأحد عشر تتحرك ومضت مسرعة في خطوها المنتظم الذي سيحافظون عليه طوال ساعات النهار المحرقة ، حيث يبدو أن الزمن لا يكاد يتحرك حتى الغروب .

وعند مكان توقفنا لمنتصف الظهيرة فحصنا ثلاثة براكين ، وأكبرها جبل مرة الذي لاحظه فلبي في الرحلة بالسيارات والجمال التي قام بها عام ١٩٣٦ التي وصفها في كتابه بنات سبأ(١) . وصل هنا أقصى توغله جنوبا وعبرنا طريقه الذي سنكون على اتصال أطول معه فيما بعد في عياد . نصبنا معسكرنا في وادي حراج ، وهو منخفض لا تكاد العين المجردة تراه .

اتفقنا مع الحراس على أن نحاول ونمضي قدما دون توقف إلى عياد ، حيث نأمل أن نجد بعض رجال هاملتون في أقصى مركز اتصال لاسلكي متقدم في الصحراء . وهناك أيضا ، يمكننا أن نخبر عدن بتقدمنا ، ولعلنا نتمكن في سكون الليل أن نلتقط من جهازهم الضعيف بعض الأخبار التي تتناقلها إذاعات العالم . ليس لأننا تواقون لسماع أخبار لأننا نتوقع أن نسمع القليل غير النزاع والاتهامات التي تنذر بقدوم الحرب العالمية الثانية . ويبدو من ظاهر الأمور أننا سنكون أكثر سرورا بدون الاتصال مع العالم الخارجي .

أقام البريطانيون نقطة عسكرية في عياد قبل بضعة أشهر . نشب خلاف مع الإمام يحي الذى كان يطالب ببعض المناطق المجاورة باعتبارها تابعة له . ثم طالب فيما بعد بحضرموت ، بل سمعنا أنه يطالب بكل حضرموت بما فيها ميناء المكلا . ونحن أنفسنا نعلم كحقيقة أن الإمام يطالب أيضا نظريا بعدن ، بمنطقتها الخلفية ، باعتبارها منطقة يجب أن يكون سلاطينها تابعين له . وبالتأكيد امتد نفوذ اليمن في التاريخ القديم جنوبا وشرقا ، وعندما كانت اليمن وحضرموت ومنطقة عدن الخلفية تسمى كلها العربية السعيدة . ويسمى الإمام نفسه الخليفة الشرعي لملوك حمير ، ويحافظ على بقاء الفكرة حية باستعمال بودرة حمراء لتجفيف الحبر في الوثائق الحكومية والرسائل ولصق ختمه الملكي . فالكلمة العربية أحمر موجودة في جذر كلمة حمير .

ومن وقت لآخر فإن الصراع الكامن حول السلطة الذي لم يتوقف أبدا بين الإمام وجيرانه البريطانيين وسلاطين حضرموت ما يفتأ يشتعل مجددا . كان السبب هذه المرة شبوة . كانت شبوة مدينة هامة في عهد السبئيين وليس من المستحيل أن "سبوتا" عند قدماء الجغرافيين ، أو "شيبا" موطن تلك الملكة ، التي حظيت بشهرة خالدة عن طريق زيارتها للملك سليمان في بيت المقدس .

لقد عرف منذ فترة طويلة أنه يوجد مدفونا فى شبوة تحت الرمال لقرون بقايا معابد وقلاع تنتظر الاستكشاف والحفر . ويتحدث البدو من تلك المناطق أيضا عن العديد من الحجارة المنقوشة التى توجد هناك . ولذلك يمكن أن نفهم بسهولة لماذا كل رحالة للجزيرة العربية يتعلق بآمال سرية ليرى وينقل المادة التى ستوضح بلا شك مفاهيمنا الغائمة عن مستوى الحضارة الذي تحقق فى هذه الأرض فى عهد الملك سليمان . ولأن هذه المنطقة بالذات عصب الصراع بين الإمام والسلطات فى عدن فقد أبعد عنها الأجانب . نجح المغامر الألماني هانز هلفريتز وهو يخاطر بحياته ، في رؤية لمحات من شبوة ، ولكن فلبي فى رحلته سالفة الذكر ، هو الذي استطاع بالفعل بجدية تستحق الثناء وبحذق أن يكتشف ويحدد ويصف شبوة . وجاء من بعده آخرون ، من بينهم مهندسون أمريكيون يبحثون عن النفط . ويبدو أنهم قدموا تقارير عن احتمالات مشجعة عن المنطقة حول شبوة .

أصبح الإمام غير مرتاح لكل هذا الاهتمام بالمنطقة وبثروتها المعدنية المتوقعة فأرسل جنوده إلى المكان . وكانت تلك بالنسبة لعدن مؤشرا كافيا لتقوم بإجراء ما . قاد الكبتن هاملتون مجموعة من فرقته العربية مسلحين بالمدافع الرشاشة واستقلوا الطائرة إلى نصاب، ثم استأجروا جمالا من جماعة همام ووصلوا شبوة . فأمر الإمام جنوده بالتراجع ليتفادى وقوع معركة بينهما . ولم يبق هاملتون أيضا طويلا . كان يكفى العلم أن عدن لن تقبل قوة أخرى هناك : بالنسبة لشبوة اليوم فقد تدهورت وتحولت إلى مساكن صغيرة للبدو ، الذين لا يجدون فى الصيف الماء حتى لاحتياجاتهم المتواضعة فهاجروا منها .

لهذا تم اختيار عياد لتأسيس حامية عسكرية وكان لكل من الإمام والحكومة فى عدن عين ساهرة على شبوة بكنوز آثارها المدفونة وبالروح الجديدة التي بعثتها العربات ، وما زال الأجانب حتى الآن لا ينظر إليهم نظرة إيجابية .

من أجل تنفيذ خطتنا بنجاح كان من الأفضل أن نوضح جيدا أننا لا نرغب بتاتا في الذهاب إلى شبوة . إن الحاجة فى شبوة لم تعد للمسافرين الذين يمكثون فقط ليوم أو يومين ، ويقومون ببعض الحفريات العاجلة وأخذ بعض المذكرات ، وإنما لعلماء الآثار الذين يقومون بحفريات منتظمة ومنهجية وبفحص متخصص لما يرقد مخفيا تحت تلال الرمل .

لم يطلب كل من هلفريتز أو فلبي إذنا لرحلتهما إلى شبوة . سجن الإمام هلفريتز فى عاصمته صنعاء ، واصطدم فلبي مع السلطات فى عدن . ولكن العلم مدين بالفضل إلى فلبي الذي جلب معه مادة هامة عن شبوة ، متجاهلا الصراعات السياسية الصغيرة وزاد مادة الدراسة عن فترة الحضارة السبئية – المعينية فى

جنوب غرب الجزيرة العربية . لم نتعلم فى عدن الكثير عن هذا الفصل من تاريخ هذا الركن القصي من الصحراء . صحيح أخبرنا الكابتن هاملتون بدون تحفظ عما شاهده وأطلعنا على رسومات حول الحفريات القليلة التى قام بها ورسمها ولكن بعد قراءة قصة فلبي والاستماع إلى القصص التى حكاها حراسنا والرجال فى عياد ، اتضحت لنا الخلفية السياسية عن الذي حدث حول أنقاض شبوة .

كانت مسيرة شاقة بلا توقف حتى الثانية والنصف بعد الظهر عبر أرض تكاد تكون خالية من النبات إلا حيث تكون الأرض منخفضة فعند ما تمطر السماء يفيض الماء أو يتجمع فى غدران . شاهدنا فى الصباح فى إحدى تلك الأشرطة المزروعة غزالا (يسمى هنا ظبيا) انفلت بعيدا واختفى . وشاهدنا فيما بعد ثلاثة غزلان أخرى فى الأفق . وكان يقفز أمامنا أحيانا أرنب بري ونسمع غناء قبرة الصحراء . وبما أن الأرض مسطحة أمكننا أن نرى المعالم من بعيد ويبدو أننا نسافر لفترة طويلة دون أن ندنو قريبا منها . هذا هو الجانب المثبط فى السفر عبر صحراء منبسطة : ترهق العيون من المنظر الرتيب الذي يبدو لساعات متتالية أنه لن يتغير . وهكذا لوقت طويل نرى أمامنا هضبة منخفضة من شظايا متناثرة من الحجارة الرملية وبينها راسب طفالي . عبرناه أخيرا ، وعند ما هبطنا إلى الجانب الآخر ، تبينا بشكل خافت على حافة بعض التلال الرملية فى البعد الغائم ، كتلة بنية لا شكل لها ، ثم تبين تدريجيا أنها معالم قلعة وعدد من أبراج المراقبة . إنها عياد على أطراف الربع الخالي ، حيث البئر عمقها ١٢٥ قدما كاملة ومع ذلك يجف ماؤها فى فترات الجفاف . لقد فارقنا الآن المنطقة العريضة من الجبال الساحلية والهضاب واقتربنا من "البحر الصافي" ، إنه امتداد شاسع إلى الأطراف التى يجازف فيها البدو بقطعانهم ، ويبقون بقدر كاف إلى الحافة ليتمكنوا من التراجع إلى بئر حيث يمكن العثور على الماء فى أشهر الجفاف .

وعندما اتجهنا شمالا بعد نصاب شاهدنا على يميننا على مسافة بعيدة طرف الهضبة العالية التى تقع بيننا وبين وادي حضرموت . إن لها تشكيلات مشابهة لجدران الوادي فى كل مكان فى حضرموت : أولا جزء عمودي من الحجر الجيري يسقط رأسا من طرف الهضبة ثم منحدر من شظايا متراكمة على الطبقة التحتية ، التى يمكن التعرف عليها من هذا البعد . وأمام هذه الحافة الخشنة غير المنتظمة (تسمى هنا جول أو سوط) تقف مثل جزر صغيرة منقطة على السهل الرملي ، جبال هرمية منحدرة يعلو كل واحد منها عمود من حجر جيري وجنباته عمودية . إن حافة الهضبة غير المستوية والتى بها أحيانا حفر عميقة ، أخذت تشكيلتها من حركة السيول التى تحمل الماء بعد الأمطار من الهضبة إلى

السهل الأسفل ثم إلى تلال الرمال اللامتناهية فى الربع الخالي . وأصبحت الآن مخارج وادي جردان ، ووادي عرمة البعيد ، واضحة .

يقود الطريق إلى مساكن عياد الطينية ، التى يجسمها السراب ، عبر تلال رملية امتدادات نباتية على جانب من الكثافة . وكلما اقتربنا تضاءل حجم القلاع والحصون ، حتى رأينا فى النهاية قرية صحراوية متواضعة يحيطها شريط عريض من حقول محروثة . ورقدت نائمة بعيدا عن العالم فى حرارة منتصف النهار المرتعشة ، تنتظر بلا حراك ، كأنها ميتة ، لبرودة المساء . لايسمع صوت ولا حركة ، ولا نقطة من ذلك الطلاء الأبيض على المباني ، الذي يعتبره العرب مظهرا للرفاهية . وفوق أحد الميادين ، حيث تربض مساكن مثل القلاع ، رأينا عمودا مائلا وفوقه خرقة . لابد أن تكون تلك هي الحامية البريطانية . تمثل الخرقة الصغيرة العلم البريطاني ومن العمود المائل حتى ركن السقف يمتد سلك - هوائي جهاز الإرسال - الذي يجذب صوت العالم إلى هذه البقعة النائية . إنه صوت لكم نحن تواقون لسماعه ,.

انتبهت عياد لوجودنا . وانبعثت الحياة والألوان فجأة فى تلك الكتلة الرمادية البنية الصامتة . واندفع سكان القرية والجنود والسلطة لمشاهدة من يقترب والترحاب بالزوار إذا كانوا أصدقاء . وبما أن جنود هاملتون بلباسهم الغريب كانوا بينهم فإن القرويين كانوا أقل تحفظا تجاه مقدم الغرباء المفاجئ .

هوامش

(١) صدر كتابه بالألمانية عام ١٩٣٥ باسم : لمحات من شبوة (حاشية المؤلف)

الفصل العاشر

أقصى حامية في الصحراء

وقف جنود هملتون فى انتظام عسكري : جاء بعدهم شيخ عياد والوجهاء وفى الخلف تجمهر كل الفضوليين رجالا وأطفالا من المناطق المجاورة . استقبلنا بحفاوة تحف بها أناقة . أطلق الجنود الرصاص ترحابا ورد عليهم جنودنا ثم جاءت المصافحة بالأيدي . واتضح أن سكان عياد من المشايخ ، أي الناس الذين يخضعون لحكم شيخ ، بعكس قبائل البدو الذين يخضعون لقانون الرعاة القبلي ويعتبرون أنفسهم أحرارا وأرفع منزلة من السكان المستقرين فى القرى والواحات الذين يعيشون على تربية الحيوانات والحرف اليدوية . والفلاحون أقل ميلا للحرب لأنهم سيفقدون الكثير من جراء القتال ، وليسوا كالبدو الذين يتنقلون بقطعانهم . وفى العادة يتحالف المشايخ مع قبيلة أو أكثر لحمايتهم ويدفعون لهم مقابل ذلك جزءا من المحصول .

لم يتقدم شيخ عياد كثيرا إلى المقدمة ؛ ترك جنود هاملتون يتصرفون كأنهم لوردات المكان . فهم الذين أخذونا إلى الطابية الطينية المربعة التي يبرز فوق سطحها الهوائي للإرسال اللاسلكي . وجدنا الجلوس مريحا في غرفة الجنود المعتمة فوق البطانيات الحمراء المفروشة على الحائط والجنود يقومون بواجب الضيافة بهمة . وسرعان ما ظهرت قهوة الزنجبيل والذين حصلوا على فنجان شرعوا فورا في إطفاء ظمئهم وإنعاش أنفسهم بعد الحرارة وإرهاق الطريق . وانتظر البقية دورهم بشغف ، وهم يحكون في هذه الأثناء الأخبار التي ينتظرونها بفارغ الصبر من عدن وفرقة هاملتون . من الواضح أن الحياة تصبح شاقة بعد فترة طويلة من البقاء فى هذا المركز النائي . وما زال السلام والأمن يتعرضان دائما لتعكير صفوهما فى المنطقة المحيطة . وقبل فترة وجيزة قتل بعض الرجال فى وادي عرمة، ولم يكن الوضع فى وادي جردان في تمام الهدوء .

يشكل طرف الهضبة العالي الذي نراه إلى الشرق حدود منطقة حضرموت . هناك ، فى هذه اللحظة ، يقوم انجرامس ، الذي قفز إلى الشهرة فى فترة قصيرة ، بوضع نهاية للحروب الداخلية التى أرهقت البلاد . لقد عرف الحضارم الأثرياء فى الملايو ومستعمرات هولندا فى جزر الهند الشرقية قيمة السلام والأمن ، وناشدوا الحكومة فى عدن باستمرار وبالحاح فارسلت أخيرا انجرامس لمساعدتهم لتخليص أنفسهم من الثارات الدامية والغارات. اقترح عليهم انجرامس عقد اتفاق متبادل لهدنة تستمر ثلاث سنوات . وبدأ يزداد باستمرار عدد زعماء القبائل المتمسكين "بصلح انجرامس" . وكثيرا ما سمعنا هذه التجربة تناقش، أحيانا بإطراء شديد ، وأحيانا بازدراء لأنها تبرز موقفا من الحياة غير جدير برجال أحرار ، وحينا ثالثا بريبة فلعلها خدعة بريطانية لغزو البلاد : وأمام هذه الملاحظة الأخيرة لم نتمالك أن نسأل عن نوع الكنوز الخفية التى يعتقدون أن

البريطانيين يبحثون عنها فى هذه البلاد العربية التى ليس بها أي شيء لــه قيمـة غير الحجارة والرمال .

ومن عياد ، بعد أن هدأت أعاصير منتصف النهار ، أمكننا أن نرى حدود البلاد التى ينتشر فيها صلح انجرامس . ولكن فى وادي جردان لم يقبل هذا الصلح ولذلك يجب أن نحصل على سيارة مرة أخرى . مضاف إلى ذلك أن أهالي عيـاد غير راغبين فى السماح لجمال الهماميين بالمضي قدمـا : يريـدون أن يؤجـروا جمالهم لنا . خرج شيخ عياد خلسة وبهدوء، وسرعان ما نشبت المناقشات الحاميـة داخل وحول البرج . كان لابد من دراسة كل هذا جيدا قبل أن نرحل ، لأنه مـن المهم عند السفر ألا نخلق عداوات مع الناس الذين سنتركهم خلفنا . وعلينا أيضـا أن نمضي الليل فى عياد من أجل التقاط رسائل لاسلكية . ووجد هيرمان وفاسـي الفرصة لأخذ جمال ودليل والقيام بزيارة سريعة إلى جبل الملح ، الذي يقع علـى مسافة بضع ساعات من القرية والذى تدين له القرية ببقائها الطويل . لم يسـتطع أهالي عياد إبراز أي دليل على آثار قريتهم القديمة لأن مبـاني الطيـن لا تحفـظ بالطبع النقوش ولا تبقى لقرون . بينما لعب الملح دورا هاما على الأقـل مسـاويا للبخور فى تاريخ الإنسان فمن المحتمل أن ملح عياد وشبوة قد اكتشف فى أزمـان متأخرة ولم يؤد إلى ظهور طريق الملح فى حضارة العالم القديـم. وبينمـا كنـا نقترب من عياد قابلنا العديد من قوافل الملح وأشار رجالنا إلى آثار الدرب الـذي سافرت فيه . واتضح مما شاهده هيرمان وفاسي ومما أخبرهما به العمـال فـى منجم الملح المفتوح أن عرقا من الملح سمكه ٢٥ إلى ٣٠ قدما يجري على امتداد طرف الربع الخالي ويظهر على السطح هنا وبالقرب من شبوة . زار فلبي جبـل الملح عام ١٩٣٦ وذكره فى كتابه <u>بنات سبأ</u> .

فى هذه الأثناء طاف بي الشيخ على القرية وما جاورها . فى أعلى نقطـة ينتصب الحصن القديم المشيد من الطين بجدران سميكة تآكلت كثيرا بفعل ريـاح الصحراء . أعلن الشيخ أن الحصن عمره يزيد على قرنين وقاوم الحصار الطويل عدة مرات . وعلى بعد ستين ياردة من الحصن فى ميـدان صغـير فـي وسـط المنطقة التي تعج بالحركة اليومية للقرية تقع البئر العريضة ، عمقها ١٣٠ قـدم . ويمتد نفق تحت الأرض من الحصن إلى عمود البئر ، وبهذا يسهل أخذ الماء أثناء الحصار بدون أن يتعرض المدافعون لكشف أنفسهم فى العراء .

وعند المغيب نصبنا معسكرنا على مسافة من القرية ولكنه كـان قريبـا بدرجة كافية تجعلنا على اتصال مع الجنود فى برجهم . لا توجـد فـي غرفتـهم مساحة كافية لنا جميعا : بجانب أنها خانقة ، ونشك أن بها عددا مـن أصحابـهم الذين يسكنون معهم . وعلينا أن نتآلف فى الخارج مع كلاب القرية التى اهتمـت

بنا طوال الليل والتي يبدو أنها لم تهتم كثيرا بكتل الطين الجافة كما اهتمت بالإضاءة المباغتة لبطارياتنا .

تخاطب الرئاسة فى عدن فى وقت محدد فى الصباح والمساء كل محطات إرسالها فى جنوب غرب الجزيرة العربية . فى تلك الساعة ، وفى كل مركز صحراوي معزول ، ينتظر عامل اللاسلكي العربي باهتمام ليتأكد أن الاتصال سيتم بنجاح ، وإن كان سيفهم ما سيرسل له ويفهمون ما يرسله لهم ، وإذا كانت هناك رسالة له ولرفاقه قد يكون فيها تغيير لحياتهم الرتيبة.

وبإشارة من عامل اللاسلكي ، تبعته ومساعديه إلى السطح . ، وهذا العامل أهم رجل فى المركز . وضع في السطح جهاز الإرسال والاستقبال تحت قطعة مشمع قديم . فى حالة الاستقبال يأتي التيار من بطاريات جافة ، ولكن عند الإرسال على المساعد أن يبذل كل طاقته ليدير المولد الصغير . ومن الطبيعي أن يقتصدوا فى التيار ، فالاستماع خارج الأوقات المحددة ممنوع ولا يستعمل الجهاز إلا للرسائل الرسمية . تقع برقيتنا للسكرتير السياسي فى عدن ضمن المجموعة الأخيرة ، ولكن الضيافة التى امتدت إلى الضيوف أعطتنا الفرصة للاستماع إلى وقت متأخر من الليل إلى البرامج التى تذيعها عواصم العالم . كان إرسال عدن فى تلك الليلة قصيرا واقتصر على التوتر العالمي المتزايد . التقط العامل رسائل من المكلا وسيئون . وأرسل برقيتنا ولكنه لم يستلم إشعارا باستلامها . ثم قفل الجهاز وحاولنا أن نلتقط لندن وإيطاليا ومصر . أمكننا مرة أخري أن نستمع إلى بعض الفتات : لندن لهجتها جادة جدا ، تحدثت عن التوتر المتزايد فى أوربا وأعلنت انتزاع إيطاليا لألبانيا . وجاء من هولندا إعلان بداية التعبئة العامة مع شرح لأسبابها من دكتور كولين ، رئيس الوزراء الهولندي . جلست لساعات أستمع إلى أسلوب باري الاستعراضي الرنان . كانت إيطاليا تبني إمبراطورية وكان ضحاياها ، طبيعيا ، على خطأ . وما أمكن سماعه من المحطات الألمانية لا يزيد ثقة الواحد فى مستقبل أوربا : كان مشحونا بالخطر . وصرت محبطا عند منتصف الليل ، وتركت محاولة الاتصال مع العالم المتحضر . ياله من عمل مرهق وكيف أزاح كل الهدوء الداخلي والقناعة !

عادت السيدة فون فيسمان ورفيقان آخران لتوهم ، كانوا مرهقين ولكنهم يشعرون بالرضى ويبتسمون من رحلتهم إلى جبل الملح ، وانتظروا فى المعسكر المؤقت ليستمعوا إلى تقريري عن الرحلة التى قمت بها من فوري إلى العالم الذي تركناه خلفنا ، ذلك العالم الذي علينا أن نعود إليه ونعيش فيه مرة أخرى . فتلاشى الجو المرح : أيقظت الأخبار فى كل واحد منا ردود فعله الخاصة به وهمومه . أخذت كلاب القرية تحوم حول المعسكر وهي تدمدم وتنبح حيث رقدنا متيقظين

تماما فوق فرشنا تثقلقنا أفكار مؤرقة ونحاول عبثا أن نرتاح تحت الجمال الصامت للنجوم .

تقف المظلات المربعة لقلاع عياد شامخة قبالة سماء الليل الصافية . أما القلعة المركزية البالغ عمرها ٢٠٠ سنة فيمكن تمييزها بسهولة من شكلها الأقوى. هنا يعيش الناس فى بؤس لا ينتهي لأن الأرباح الضئيلة التى يحصلوا عليها من استخراج الملح وبيعه كانت إغراء مستمر لقطاع الطرق وكان لابد من حمايتها دائما. وأخيرا تدخلت بريطانيا العظمى حتى هنا وبدأ الناس يدركون أن التدخل الأوربي فى هذه الأجزاء يعني فى المقام الأول السلام الداخلي . فى اليوم التالي ، أو الذي يليه ، سوف نصل بلاد "صلح انجرامس" . هنا فى عياد ، نحن فى أقصى مركز لقبلة السلام البريطانية الزاحفة على منطقة عدن الخلفية . وقدرنا بامتنان نعمة الغرب هذه . ولكن فى تلك الليلة كانت قلوبنا مثقلة من يقيننا أن البلاد التى لها رسالة عالمية لتنجزها سوف تتعارك قريبا مع أمة غيورة يقودها مجرمون متعصبون وسوف تشتبك فى صراع مميت معهم من أجل حقها فى مواصلة مهمتها . كانت جائزة الانتصار فى عياد أرباح منجم الملح : وفى الخارج فى العالم العريض ما بعد ذلك ، المجد والمكسب هو سيادة العالم .

الفصل الحادي عشر

وادي جردان

جلسنا في صباح اليوم التالي ، ١٢ أبريل ١٩٣٩ ، فوق الحواجز الطينية(١) التي تحيط بالحقول بالقرب من عياد حيث يصبح من السهل في أوقات السيول حفظ كميات كبيرة من الماء تتشبع بها تربة الراسب الطفالي فيتم جني حصاد وفير. والمياه التي لا يمكن الاحتفاظ بها تسيل وتختفي في رمال البيداء في الربع الخالي . كان ذلك سر السبئيين والحميريين الذين نبحث جاهدين عن أنقاض حضارتهم : السر في السيطرة على فيض الماء الثمين بواسطة السدود والقنوات والخزانات واستغلال مائها لزراعة بساتين النخيل والحقول المستديمة من الراسب الطفالي ذي الخصوبة العالية . أخبرونا عن احتمال وجود أنقاض في وادي جردان ، ولذلك غادرنا عياد مفعمين بالأمل لنحاول أن ندخل ذلك الوادي الذي لم يدخله حتى الآن أي رحالة أوربي .

تخطينا برفق الشجار حول إذا ما كنا سنستمر في السفر بجمال آل همام أم لا ، وذلك بمساعدة الجنود العرب بعد أن أبلغوا برغبة هاملتون المحددة . ولكن سوف يصاحبنا ابن الشيخ ليكون سيارة لنا ويعبر بنا أرض الله بين عياد والقرى الأولى في وادي جردان .

قام رفاقنا الحراس من عدن بواجب الضيافة على خير وجه وذبحوا شاة على شرفنا . وقاموا مع الشيخ وبحضور القرويين الذين لابد من وجودهم بمرافقتنا في الطريق إلى مسافة قصيرة إلى السهل الذي سنتبع عبره درب الجمال المتعرج الذي يقود إلى مدخل وادي جردان. وتركز تحديقنا على نتوءات هضبة الصخر الجيري العالية التي ما زالت تقف بيننا وبين وادي حضرموت ، وهو حاجز يحتاج إلى رحلة تستغرق عدة أيام . وبرز جدار الوادي الشمالي ناتئا داخل السهل الرملي مثل لسان منحدر . وفي قمة الجانب الشمالي للسان تقف قرية صغيرة من أكواخ الطين اسمها صعدة التي عبرناها من مسافة بعيدة . منذ فترة ليست بعيدة سالت دماء بين أهل صعدة وآل همام ولهذا السبب رأينا من الأفضل أن نعبر المدخل إلى الوادي تحت حماية السيارة .

المدخل إلى وادي جردان واسع جدا . وتشير كمية النبات الوافرة إلى أن السيول فاضت عبر الوادي وأن المياه تحت الأرض قريبة من السطح . ولا نري شجيرات بل أشجارا متناثرة وتجد الأغنام والضأن كفايتها من المرعى . تتحرك بعض القطعان في حيوية بألوانها المتنوعة وبنشاط رشيق ، وما عدا ذلك فالمنظر جامد لا حراك فيه .

يقف كوخ مربع من طين وحيدا فوق تل بعيدا من الخطر والسيول ويشرف على الأرض المحيطة . وبقي الرعاة القليلون على مسافة آمنة ولا يرى أي شخص سواهم . وعندما ضاق الوادي قليلا في وسط المجرى الذي أخذه

فيضان السيل ، جاءت القافلة على رابية ضخمة من الحطام تعرف باسم البريرة(٢) . وفى مكان تشعب فيه مجرى السيل يقف أساس متين من مربعات من حجارة جيرية منسقة مع بعضها البعض . امتلأت الفروج الآن بحجارة صغيرة ولكن ربما انضاف إليها فى الأزمان القديمة الطين الجاف . هذه المربعات ليست ملتصقة مع بعضها . كان التصميم على شكل مربع بأجزاء بارزة مربعة . وملىء الداخل بالطين وأكوام من الحجارة مما قادنا لنخمن أن الجزء الأعلى من المبنى قد صنع من حجارة أصغر ، وشيد الجزء الأكثر علوا من الطين . ويشير موقعه فى وسط مجرى السيل إلى أنه كان نوعا من أعمال الري : لعل الجزء المحصن من الخزان قد انجرف الآن أو أنه قلعة تحمى المدخل إلى الوادي الذي كان فى الماضي غنيا . توجد فى الجدران الشمالية والجنوبية التى تواجه بعضها مباشرة ، وفى مقدمة الجدار ، فتحات عريضة ، ويبدو أيضا (الجانب الشرقي) أنه كان هناك مدخل . أثناء فحصنا السطحي لم نجد نقوشا ولكننا رأينا عددا من الحجارة المقطوعة ولاحظنا أن أكوام الفضلات داخل الجدران تغطيها قطع من بقايا فخار أحمر وبني . إن جنبات الوادي هنا ربما أفرزت مخلفات أكثر عندما كان وادي جردان طريقا للقوافل التي تحمل منتجات حضرموت ، وإن الأراضي المحيطة التى وجدت لها مدخلا إلى طريق التجارة العظيم الذي يسير شمالا وجنوبا عبر نصاب ، تمتد على طول شبه الجزيرة العربية .

وبعد ساعة من البريرة ، توقفت القافلة التى كانت قد سبقتنا للراحة ولذلك أرغمنا نحن أيضا لنتوقف هناك لراحة منتصف النهار . ولكن يظهر أن المكان غير مناسب ؛ إنه قريب بشكل غير مريح من أول قرية صغيرة فى وادي جردان وليس به ظل سوى بعض أشجار العلب . وبالطبع لن يترك لنا سكان القرية الفضوليون لحظة واحدة للراحة . وتسمى قرية الباردة "حق عبد الحق" ، وهي تعني "ملك عبد الحق" أو "التي يتحكم فيها عبد الحق" (٣) . وتبدو خلابة بمبانيها المشيد نصفها من الحجارة ونصفها من اللبن . ولكن ما كادت تنتهي التحايا الأولى حتى هوجمنا بأسئلة من رجال مدججين بالسلاح خرجوا لمقابلتنا . وانطلق السؤال المعتاد "من أنتم وما الذي جاء بكم ؟" .

اليقين الراسخ بين الذين استجوبونا أننا موظفون بريطانيون جئنا لنستكشف الأرض ونمهد الطريق للإدارة البريطانية . وكان رد فعلهم الأول لهذا الافتراض هو :"هؤلاء الرجال معهم نقود كثيرة ؛ وسيدفعون مبالغ ملوكية ؛ وهناك الكثير الذي يمكن أن يبتز منهم ." وكان رد الفعل الثاني الكراهية الفطرية :"اتركونا فى سلام ؛ اتركوا لنا حريتنا ؛ لا شيء لكم هنا" . وفتحوا موضوع النقود فى الحال . ومن الواضح أن عدم رغبتنا فى إرخاء فتحة كيس نقودنا كثيرا

خيب آمالهم . وسرعان ما اتضح أنهم اتصلوا بالكابتن هاملتون ، الذي عسكر عند عودة حملته إلى شبوة ، في مدخل الوادي ومعه خمسة وعشرون جنديـــا و ١٠٠ جمل وكمية كبيرة من الأمتعة . وكان سخيا بنقوده . لا يخجل هؤلاء الرجال مـــن طلب العون بوضوح ولا يسمون طلبهم بالاسم الساري فى البلاد العربية - بقشيش - ولكن بتعبير فيش . وكانت حجتهم :"ألم نسمح لكم بالسفر عبر أرضنـــا بـــدون عوائق؟" وكان ردنا عليهم :"ولكن ألسنا فى حدود ديار انجرامس حيث كما أخبرنـــا يسود صلحه ؟" . وأطلق ذلك فصاحة ألسنتهم. بعض النـــاس أغراهـــم الســـلام بالوعود الخلابة ولكنهم الآن فى خيبة أمل عميقة : انتهى السلام إلى كلمات فقـط ، لاشيء سوى الكلمات ! بعد إمضاء الاتفاقية الاختيارية للحفاظ على الصلح لثـلاث سنوات قامت قبيلة مجاورة بارتكاب عمل عدواني ضد أهل قرية مجـــاورة وقتـل قناصوهم من نقطة عالية فى الوادي ثلاثة من أقرباء الشيخ يسكنون القرية . وماذا فعل انجرامس ؟ هل أرسل طائرات وجنودا ومدافع رشاشة وأوقع عقوبة مباشـــرة وحاسمة على المذنب ؟ لا ! لم يحدث شيء . ولذلك هربوا واهتاجوا لهذا التدخـــل غير المجدي في شئونهم . من الأفضل أن يظلوا أحـــرارا ويواصلـــوا حروبـــهم ويمارسوا حقهم فى الانتقام من مثل هؤلاء الجناة . ولكني في الحقيقة وقفت بجانب انجرامس ونصحتهم بأن يصبروا . صحيح الحكومة بطيئة ولكن المعاهدات التـــى تبرم مع الحكومة لا يمكن نقضها بدون توقع عقوبة . لينتظروا وسوف يرون أنـــه يمكنهم الاعتماد على البريطانيين .

لم يقتنع الرجال ولم نستطع حتى أن نكسبهم إلى موقف متعقل صديـــق . رأينا بوضوح كاف أنه فى هذا الجزء من "ديار انجرامس" لا بد لنا من السيارة . ويطلب كل واحد من هؤلاء عشرين ريالا نمساويا . وكان محسن صبورا ومجربـا فى المفاوضات المطولة والمبلغ الذي حدده قبلناه بدون تردد . ولنا أسلوب منظـــم فى المساومة : نبدأ المفاوضات ونتمسك بمبلغ معين . ثم يتقـــدم محســـن ، ابـــن موطنهم وأخوهم فى العقيدة ، ويمارس دور الوسيط ويجعل الطرفين يقبلان حـــلا وسطا . ويهدأ التوتر الذي نشأ فى البداية ، وتثبت المساومة بالمصافحة بـــالأيدي وتعود العلاقات الطيبة إلى مجراها .

قادت المفاوضات هنا إلى نهاية مقبولة بشكل مناســـب ، ولكـــن هـؤلاء الناس، على السواء ، منفرون . بعد أن نجيب عن أسئلتهم باســـتفاضة وصـــبر ، كانوا يعودون باستمرار إلى نفس النقطة : لماذا نرهق أنفسنا بالسفر عبر بلادهـــم الفقيرة وغير الآمنة ؟ واتسع النقاش ليصبح حادا واتضح أنه مـــن الضـــروري أن نتركهم ونواصل السير .وتقدم رجلان كانا يقفان بعيدا ، وسالا سؤالا غير متوقـــع

إن كنت أتحدث الملاوية . ومن أجل إقناعهم أجبتهم باللغة الملاوية وسألتهم إن كانوا في جاوا .

أجابوا "نعم ، مكثنا بضع سنوات هناك " .

فقلت ،"إذا كنتم تعرفون الأسلوب الذي ندير به الأمور في جاوا واستمتعتم بضيافة حكومتنا هناك فكيف سمح لكم ضميركم باستقبال ناس من جاوا بهذا الأسلوب غير اللائق ؟ "

أجابوا بأنهم كانوا يتمنون أن يكون عكس هذا ولكنهم فقراء وليس لهم نفوذ في قريتهم. وبسؤالي إذا كانوا لم يستقبلوا في جاوا بأسلوب لائق وإذا لم يمنحوا الفرصة للحصول على بعض المال ، أخبرونا أنهم تمكنوا خلال بضع سنوات من توفيير ٦٠٠ جلدر ولكن في هذه الأرض الفقيرة سرعان ما صرفوها. يريدون أن يعرفوا هل سنذهب من حضرموت إلى جاوا ؟ وهل هناك مركب سيبحر رأسا ؟ وهل يمكن أن يذهبوا معنا ؟ أخبرتهم أني سأذهب فيما بعد من المكلا إلى جاوا ويمكنهم أن يأتوا معي إذا كان مع كل واحد ٦٠٠ جلدر ، منها ١٥٠ ضريبة دخول ، و ٢٠٠ أجر السفينة والبقية ليبدأوا حياتهم في جاوا . وثبط هذا حماستهم مؤقتا. وسيبقى الأمر مشجعا أن نجد حتى في هذه الأطراف العدوانية من حضرموت، أشخاصا يعرفون بعض الشيء عن الأوضاع المنتظمة ، ولهم أسر ومصالح في جاوا والذين يمكن أن نعتمد على مساعدتهم ، أساسا لأن كل هؤلاء الناس ممتنون من قلوبهم للفرصة التي وجدوها هناك لتحسين مستوى معيشتهم . إن هؤلاء الرجال المتوحشين الذين لا يلبسون سوى الفوطة ويتسلحون بالجنبية ، من المستحيل اعتبارهم رفاقا مواطنين من جاوا . وعندما سألناهم لماذا لا يريدون أن يبقوا في بلادهم وصلح انجرامس يقترب وسرعان ما يمكنهم أن يمارسوا زراعتهم ورعي قطعانهم دون مشاكل ، أجابوا بأنهم يبذلون هنا جهدا شاقا ويجنون حصادا ضئيلا وغير مضمون ، بينما توفر لهم جاوا الفرصة لتحقيق حياة أفضل بكثير. لن يكونوا بهذا الغباء مرة أخرى ويعتقدون أن توفير ٦٠٠ جلدر سيجعلهم أغنياء ويمكنهم شراء نساء وقطيعا ويعيشون حياة مريحة في موطنهم .

وعلى أمل لقاء أشخاص أكثر يتحدثون الملاوية واصلنا بعد تلك الوقفة ، التي كانت توترا أكثر منها راحة ، وتوغلنا أبعد في وادي جردان في مناخ كان واضحا أنه معاد ، وأصبح الوادي تدريجيا أكثر جمالا وجاذبية . تابعت القافلة مجرى السيل العريض ، أحيانا عبر قطع رملية ، يغطي أكثرها حصا يؤذي راحة القدم . وتقع على جنبات الوادي رواسب سميكة من الراسب الطفالي محروثة جيدا ومقسمة إلى حقول . وكانت أطراف الحواجز محمية من الفيضانات العنيفة

بجدران من الحجارة مبنية بمهارة . توجد بالقرب من مجموعة الحقول قرى صغيرة أو مساكن محصنة معزولة . لم يسمحوا بالتقدم قريبا منها : لم يأت غربي بعد إلى هنا والناس يخافون من مظهرنا الغريب . أضف إلى ذلك أننا مازلنا في منطقة الحرب حيث سالت الدماء قبل فترة وجيزة مضت ، وحيث الضغائن ما زالت جمراتها حية وقد تشتعل في أي لحظة بدون إنذار .

وأمرت أفراد القافلة أن يبقوا قريبين من بعضهم البعض وأن يتتبعوا الدرب الذي يلتف حول وسط مجرى السيل ، وبهذه الطريقة يمكن رؤية مقدمنا من بعيد من القرى الواقعة فوق الحواجز العليا ونتجنب خطورة مفاجأة أو إزعاج السكان . وعندما نريد أن نصعد إلى أعلى حواجز الراسب الطفالي ونلتقط صورا للقرى الصغيرة أو الفلاحين وهم يحرثون ، فيجب أن يذهب أحد السيارة أمامنا ويطلب الإذن ويطمئن الناس . ولكن حتى مع هذا يجب أن نبقى بعيدين من المنازل . وفي مرة أو مرتين إذا ما شد انتباهنا جمال منظر أو نسق بديع لبعض معاقل قرية ، علينا أن نقترب في صمت بمفردنا لنلتقط بعض الصور ، ولكن صيحات النسوة اللائى رأيننا بلا شك من المنازل ، حذرتنا ألا نقترب أكثر .

وعلى أطراف الهضبة العالية ، وأحيانا على شفا الربوة ، تنتصب حصون عبارة عن نقاط مراقبة وخط الدفاع الأول ضد أي عدو قادم . وبالإضافة ، فأي منزل معزول في الوادي كان قلعة ، والقرى الصغيرة كانت نظاما دفاعيا حيث تنتصب قلعتان أو أكثر فوق المنازل المنخفضة التي تتكدس مع بعضها ، وتشكل مع جدرانها الخارجية جدار حماية دائم لكل المجموعة .

أصبح الوادي جذابا أكثر فأكثر . ويحمل تشابها شديدا مع أفضل الوديان في حضرموت . وبينما الجوانب كانت مخترقة هنا وهناك بوديان جانبية فإنها في معظم أجزائها تشبه القسمات الأساسية مثلما في حضرموت : عند القمة ، حجر جيري به معاقل ضخمة تهوي عموديا من طرف الهضبة ، ثم منحدرات من فتات الراسب الطفالي في كومة عالية عند السفح ويحجب عن العين الطبقات – عادة حجارة رملية – التي تقع تحت كتلة حجر جيري مركبة فوقها . تعرت جنبات الوادي بفعل الريح وعوامل أخرى ولذلك هي مبقعة بتجويفات غريبة مغطاة بحجر جيري أبيض خلاب وحلقت فوقها نتوءات بأشكال غير منتظمة من مزيد من الحجار القوية . مجرى السيل العريض في الوادي مليء بحجارة مصقولة بفعل المياه وهي غالبا في حجم كرة القدم وتتكون من الحجارة الجيرية من الهضبة العالية ، ولكن في بعض الأماكن امتدادات من الرمل أو راسب طفالي بلون بني فاتح ، وناعم مثل السجاد ، انجرفت تلك الامتدادات من الحواجز وتحيط في كثير من المواقع بمجرى السيل . بالنسبة لوادي حضرموت ، إذا نظر الإنسان إلى

أسفل من حافة الهضبة العالية إلى الوادي ، فإنه يرى جسور الراسب الطفالي مثل كتلة شديدة الخضرة من أشجار النخيل ، بينما قريبا من مجرى السيل يرى الحقول المزروعة بالذرة والبرسيم تشكل فسيفساء من الظلال الخضراء المتنوعة .

يفتقد وادي جردان بساتين النخيل ، ولكن تزداد أشجار العلب كلما تقدمنا داخله . وظهرت في الحقول القريبة من القرية شجرة من نوع جديد تسمى مشوط، وأضفت علينا بهجة النظر إلى شجر طويل بعد ما حرمنا منه طويلا . أما شجرة العلب فما إن يجنى محصول ثمارها من الدوم حتى تتجرد من أغصانها . وتسلب الأغنام والضأن الفروع المقطوعة من أوراقها وعليه لا تتمكن الشجرة العارية الأغصان أن تغطي الزراعة المحيطة بها .

سرنا عبر قرية تلو أخرى ولكننا لم ننجح في الحديث مع السكان . كانوا يصرخون ويوبخوننا عند قدومنا ؛ ويمنعنا الرجال من الاقتراب وتهرب النسوة إلى بر السلامة خلف جدران القرية . فقط واصل عمال الزراعة حرثهم ووضع التراب لإقامة خزانات صغيرة أو ردم الأماكن المنخفضة في أرضهم – وهي عملية تتم بواسطة لوح خشبي يوضع على زاوية معينة وتجره الأبقار . وتستغل الجمال أيضا في الحرث . يواصل الفلاحون الصياح باستمرار في حيواناتهم ، ويستعملون أدوات بدائية ولكنها تحرث عميقا في الأرض الجافة مثل العظام النخرة . وكان يمكن أن يكون المنظر تعبيرا عن سلام في الريف ورفاهية ، ولكن سكان الحصون ومدن المراقبة التي ترى واحدة منها أو أكثر في نقاط أعلى ، والخوف والمسلك المعوق للسكان تشير كلها بوضوح إلى انعدام الأمن ، كما أن الحروب المستمرة غالبا ما تهدد وتعوق ممارسة الزراعة . من الواضح أن انجرامس مواجه هنا بمهمة صعبة . وحتى الرجال الذين يرفعون أصواتهم عاليا في معارضة التدخل البريطاني لا يمكنهم إخفاء خيبتهم من أن صلح انجرامس لم يدخل بسرعة وفعالية في واديهم وما زالوا يفقدون ما كانت تملكه حضرموت من قبل وهو الأمر الذي ما زالوا يرغبون فيه من كل قلوبهم منذ فترة طويلة .

تستحق الساعات في وادي جردان اهتماما خاصا . فهي تختلف عن تلك الساعات في كل الأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية . وصل الفن المعماري في هذه البلاد مستوى رفيعا وكل منطقة لها شخصيتها المميزة . هذا الموضوع يوفر مادة لدراسة مستغرقة بواسطة مهندس معماري له معرفة بعلم الأعراق البشرية(٤) . إن اختلافات المناخ بين الجبال العالية والسهول الحارة أدت إلى تشييد مختلف أنواع المباني والمعاقل في أماكن مختلفة وحتمت أيضا استعمال مادة مختلفة . تتطلب الأراضي المرتفعة الممطرة في اليمن استعمال الحجارة في البناء. تعلم الناس هناك نحت الحجارة من الصخور وبناء منازل ضخمة وحصون

فوق مرتفعات التلال التى يصعب الوصول إليها . فرضت خطورة الحرب بنـــاء مثل هذه المنازل بتلك الطريقة التى تقاوم البرد والأعاصير الممطرة وأيضا قـوى الدمار البشري , يبعث اليمنيون الحيوية فى داخل منازلهم الكئيبة بوضع إطـارات نوافذ وخطوط من جير أبيض . وفى الأماكن التى توجد بـها حجـارة خضـراء وحمراء وزرقاء رمادية ، فإن الأمراء والتجار يبنون منازلهم الصيفية مـن تلـك الحجارة ذات الألوان الزاهية . فتطور فى اليمن فن معماري مفعم بالتنوع والقـوة والجمال ، وهو فن له شخصيته الخاصة به التى تعود بلا شك إلى العهد الذهبـي للسبئيين والحميريين .

حضرموت مركز آخر للفن المعماري فى جنوب الجزيرة العربية ، وهـو فرع له مسار تطوره الخاص من تراث الحضارة القديمة التى توارثتـها الأجيـال جيلا بعد جيل ومكنت البنائين المعاصرين من التشييد بدون خطـط ورسـومات ، وإنما يحملون فى رؤوسهم الخطوط التقليدية والمقاسات التى اعتمدوا عليـها فـى عملهم .

كلما صرنا أقرب من حضرموت صار الجمال أكثر وتنوعت المباني الـى نشاهدها . إن حضرموت التى لها صلات وثيقة مع العالم الخارجي سوف تكشـف لنا كيف ينحدر الفن بشكل مريع عندما يتخلى عن تقاليده ويبدأ فى المحاكاة وبـهذا الفعل يفقد فهم مواده، وبيئته والظروف التى يألفها .

يدل الفن المعماري لوادي جردان أنه أحد المداخل إلى حضرموت وأنـه حافظ بعض الشيء على حضارة حضرموت القديمة . أغلب المنازل هنا مبنية من الطين الشاحب الرمادي البني الذى تقف عليه ، وهي متسقة لحد بعيد مع المنظـر حتى أنه عندما يكون الضوء عموديا يصعب تمييزها منه . وتقوم الحصون بحماية سكانها وسكان القرى أيضا . الجدران سميكة والنوافذ صغيرة والأجـزاء السـفلي تكاد تكون بلا فتحات أو زخرفة . وتصبح الجدران بالضرورة أقل سـمكا نحـو القمة ولذلك تتقارب خيوطها إلى أعلى . تقع أرض الطابق الذي به غرف السـكن بارزة بعد الجدران وبها جزء حجري بارز ؛ نفس الشيء بالنسبة للطابق التـالي. السقوف المسطحة بها متراس يرتفع إلى نقطة زخرفية في كل جزء وفى وسط كل جانب . في وسط كل سقف مسطح تقف نسخة طبق الأصل رفيعة صغـيرة لكـل القلعة ، ربما قصد منها أن تكون نقطة للمراقبة ، تضفي على المكان جوا من الثقة . من هو الفنان المجهول الذي أبدع هذه الكينونة البسيطة ، والتـى كيفـت جيـدا لتخدم غرضها ومع ذلك تسر الناظرين ؟ وياله من إحسـاس بالنسـب وبالعلاقـة بالبيئة امتلكه الذين شيدوا الحصون الطينية فى تلك الأيام ! وشرفات الطوابق حيث تقع أماكن السكن صنعت بطريقة تسمح بالحديث عبر فتحات التهوية مـع الذيـن

يقفون فى سفح البرج . وبنفس الطريقة يمكن إنزال مفتاح ليمكنهم من الدخول او إنزال سلة صغيرة لبعض المشتريات البسيطة . وبذلك لا يمكن رؤية سكان البرج من الخارج - لأنهم فى الداخل فى شبه ظلام - ولا يعرضون أنفسهم لخطورة الرصاص المعادي . النماذج الصغيرة للأبراج المبنية فى وسط الأسقف المسطحة تخص الفن المعماري المحلي لوادي جردان : لا توجد فى أي مكان آخر فى هذا الجزء من الجزيرة العربية .

تعتبر قرية العميق ، بخلفيتها الأسرة التى تكونت من التعرية المستمرة للقمة البيضاء لجبل عريق ، من أكبر وأجمل القرى فى الجزء الأوسط من جبل جردان . وقد عبرناها عندما غمرتها الشمس بكل وهج الضوء الناعم لما بعد الظهيرة .

وتوالت القرى الصغيرة واحدة تلو الأخرى . فى كثير من الأماكن كان الرجال منهمكون فى حرث الحقول .

وبينما نحن سائرين فى طريقنا عبر مجرى السيل ، قابلنا بالقرب من إحدى القرى مجموعة من الأطفال كان بعضهم من الجرأة بحيث تجاسر وتحدث معنا . قالوا إنهم كانوا فى كتاب القرآن بجوارهم وهم فى طريقهم الآن إلى ديارهم. ولكن عندما حاولنا تصويرهم انفجرت صيحات التحذير من القرية واختفى الأطفال طائعين .

تجمعت مياه الوادي فى بعض الأماكن فى برك حيث اندفع السيل تحت فجوة صخرية. وعندما اقترحنا أن نعسكر فى هذا المكان قال السيارة إنه مستحيل - لابد أن نذهب أبعد إلى بقعة غير مطروقة كثيرا . وهكذا واصلت القافلة سيرها بينما أحد جوانب الوادي كان قد أمسى كله فى الظل وغسلت شمس الغروب منازل الطين فى الجنب الآخر بضوء برتقالي فياض . هبط المساء وما زلنا نواصل السير ، ورغم إرهاقنا إلا أننا بقينا متيقظين ونحن في حالة انبهار بالجمال الغريب فى هذا الوادي الجديد . وأخيرا أعطى قوادنا الإشارة لنعسكر . هذا الاختيار كان غير متوقع لأن المكان لا يبدو أنه مناسب تماما . أولا لأنه مأهول بشكل كثيف ، وثانيا لا يوجد شيء تحت أقدامنا سوى الجلاميد الضخمة التى يصعب حتى أن يبقي الإنسان أقدامه فوقها . وعندما سألناهم عن سبب اختيار هذا المكان ، أجاب السيارة أن أهل القريتين اللتين فوقنا ، النقيب فى المنحدر الأول والجايف فى الثاني ، فى صراع مع بعضهما البعض : وعليه إذا منعنا أهل إحدى القريتين أن نعسكر هنا ، فإن القرية الأخرى سوف تساندنا ضد منافسيها .

لا يبدو هذا الجانب من الاستراتيجية مطمئنا ، ولكن أصبح الظلام حالكا والرجال والحيوانات قد أنهكوا وبحاجة إلى الراحة . لذلك أنزلنا الحمولة من

الجمال وساعد كل واحد بهمة، وجمع حطب الحريق وسرعان ما ارتفـــع اللـــهب عاليا وأضاء منظر الرجال المشغولين.

جذبت نار المعسكر انتباه القرويين فجاءوا يتدافعون نازلين المنحدر فـــى حالة انزعاج ليروا ماذا يحدث . وسرعان ما استفسروا عن هويتنا وماذا نريـــد . وطمأنهم وجود السيارة ولكنهم أنبوهم لأنهم لم يعلنوا عن قدومنا ولم يطلبوا إذنـــا لنعسكر . فى هذه الأثناء لاحظنا شخصا من القرية الأخرى ، وبرز من الجـــانب المقابل من الوادي تشكيلة من الأشخاص خارجة من الظلام إلى دائرة ضوء نـــار معسكرنا . وتصرفوا بطريقة أفضل ولقنوا جيرانهم درسا صغيرا فـــى الطريقـة المهذبة لاستقبال الأغراب . فاطلقوا العيارات النارية التقليدية تحية لنا مما جعلتنـــا نقفز فى انزعاج . فامسك حراسنا بنادقهم وقفزوا إلى الأمام ، ولكنـــهم اطمـــأنوا عندما أدركوا النوايا الودية للعيارات النارية . ثم كان التصـــافح بـــالأيدي ولكـــن توترت أعصابنا مرة أخرى بسبب صراخ حاد من النساء صادر من القلعة التـــى فوقنا . وجاء أيضا المزيد من الرجال يجرون وهم مسلحون بالبنـــادق ، واخـــذوا يصرخون فى الآخرين الذين تجمعوا حولنا من قبل . ولم يســـتطع السـيارة الآن السيطرة على العاصفة المتزايدة وانسحبوا وتركوا الميـــدان لمحســـن ورجالـــه . وحاول هؤلاء أن يجعلوا الآخرين يسمعونهم ولكن الصراخ ارتفـــع إلـــى درجـــة الهستيريا ؛ وصرخ القادمون الجدد قائلين إننا لا يمكن أن نعسكر فى هذا المكـــان ويجب أن نتحرك فى الحال . وبعضهم اندفعوا كأنهم مجـــانين وصدهـــم بعـــض رفاقهم بينما كانوا طوال الوقت يحاولون الإفلات منهم . وكـــان الضجيـــج مثـــل مستشفى مجانين منفلت . وسألت محسن إن كان هناك أي خطر . فقال :"ربمـــا ، ولكن لا يمكن عمل أي شيء حياله سوى التزام الهدوء وننتظر النتيجة " . وأدرنـــا عيوننا باستمرار من الحشد حتى نتجنب التأثر بهياجهم الوحشي . أما السيدة فـــون فيسمان فلم تفهم كلمة من الصراخ الموجه لنا ، فوقفت خلفنا فى حالة انزعاج مـــن الغوغاء الغاضبين .

وتمكن بعض القياديين من الانفلات من الجمهور وأخذوا يشدون هيرمـــان وأنا ويصيحون بشتائم . وأخذ البقية ينظرون وبدأت الضوضاء تقل . ولم نحـــاول أي مقاومة فعالة ولكن لم نسمح بجذبنا بعيدا . وفجأة هدأ التوتر قليلا . تبدد هيـــاج الرجال الذين أمسكوا بنا ويبدو أنهم فقدوا شجاعتهم مؤقتا . اغتنم السيارة الفرصـــة وتقدموا إلى الأمام وطالبوا بمعاملتنا بأسلوب مهذب . نحن نسافر حســـب التقـــاليد المتبعة مع السيارة فى هذا الوادي : لماذا إذن يعترضوننا ؟

استردت المجموعة التى أطلقت الرصاص أنفاسها ، وبدأوا المعاكسة مـــرة أخرى ولكن ردعهم رفاقهم . فلقد وجدت الآن العناصر الأكـــثر هـــدوءا فرصـــة

للكلام وبناء على نصيحة محسن وجهنا إجاباتنا إليهم ثم ذهبنا وجلسنا بفخر على السجادة المفروشة : لن نسمح لأنفسنا بأن نطرد !

بدأ أفراد المجموعتين يتناقشون . سمعوا مني أننا لسنا بريطانيين وأنا فى طريقي إلى جاوا. وكانت تلك مفاجأة غير سارة ، إذ يبدو هنا أيضا وجود روابط مع الهند الشرقية الهولندية . ولكن هل يمكنني أن أبرهن أن لي علاقة مع حكومة جاوا ويمكنني أن أتكلم الملاوية ؟ عند ذلك أخبرتهم بتلك اللغة ما أراه فى تصرفهم هنا وأني أعلم كيف يعاملون بطريقة مختلفة فى مناطقنا . وسألت : "من منكم كان فى جاوا . من يفهمني ؟ " , حاول بعضهم أن يختفي خلف الآخرين ولذلك أعدت السؤال باللغة العربية . عند ذلك أشاروا على المنافقين ودفعوهم إلى المقدمة . واتضح أن واحدا من الذين كانوا أكثرهم صياحا قد كان فى جاوا . ذكرت له بعض الحقائق عن مسلكه العدائي وأن لدينا السلطة لنمنعه من العودة إلى تلك الأرض الغنية وإلى ممتلكاته هناك . حاول أن يجد أعذارا لنفسه وبدأ يكذب . ولاحظ الواقفون، الذين لم يفهموا ما قيل ، ذلك التغيير بدهشة . وتقدم لنجدة ذلك الفصيح أحد اخوته وقال إنه ليس بالرجل الذي له مكانة وأهمية وليس من حقه أن يدفع بنفسه إلى المقدمة . إذا كنا أعلنا عن قدومنا من قبل برسالة لاستقبلنا بشكل أفضل . ثم شرحنا لهم كم مكثنا فى الطريق وكم اضطررنا لتغيير خططنا باستمرار ولذلك لم نستطع من وضع ترتيبات مسبقة . وعلى أي حال فقد التزمنا بعادة البلاد وجئنا هنا تحت حماية سيارة من الوادي .

وأصبحت الجماعة التى قامت بمظاهرة الاحتجاج الوحشية فى حالة خجل من مسلكهم وبعد بعض المشاورات بينهم دعونا لقضاء الليل فى قريتهم . وكان لأخ قائد الجماعة شيء إضافي يقدمه على سبيل إصلاح الخطأ ، وقد تصرف بلا شك وهو يضع فى اعتباره مصالح الأسرة فى جاوا . جاء إلينا سرا وسأل إن كنا نسمح له بإرسال بعض اللبن . وافقنا ، ولم يمض وقت طويل حتى وصل إناء خشبي كبير من اللبن إلى المعسكر وأخذت طاسة الثريد تغلي فوق نار المعسكر .

هدأ العداء والصخب ثم بدأ اهتمامهم بنا . انعكس ضوء نار المعسكر فى العيون وعلى أسنان الجردانيين البيضاء وعل أشرطة الفضة التى زينوا بها فوهات بنادقهم . سألوا العديد من الأسئلة عن عملنا وكان هناك حديث كثير عن صلح انجرامس والتدخل البريطاني الوشيك . ورغم اضطجاعنا لفترة طويلة لنحاول النوم إلا أن الزوار الجدد مازالوا يفدون ، كانت أشباحهم السوداء منتصبة قبالة السماء عندما هبطوا المنحدر إلى معسكرنا وجلسوا على حافة المعسكر

يتحدثون مع الآخرين عن هذه الزيارة الأولى لأجانب لواديهم . هل تبشر بخير أم شر ؟ من الواضح أن عهدا جديدا يقترب .

صحونا متأخرين فى الصباح لأننا نمنا بعمق بعد الإرهاق وتجارب اليوم فى وادي جردان . يقع معسكرنا على ارتفاع أكثر من ٣٣٠٠ قدما فوق سطح البحر وكان الليل لطيف البرودة . قدم لنا الشخص المشاكس الذي له صلات فى جاوا إناء من اللبن في الصباح وقبلناه شاكرين ، ولكن رفضنا بأدب أقراص العسل التى أحضرها معه ، لكي يفهم الرجل أن حسابنا لم يسو بعد .

تحركت القافلة فى وقت متأخر على غير المعتاد فكان هناك ضوء كاف لتصوير قريتي النقيب والجايف الجذابتين . وكلما تقدمنا احتفظ الوادي بجاذبيته ولكنه أصبح أضيق والقرى أقل ، وأصبحت قطع الراسب الطفالي أضيق ولكنها ما زالت تزرع بكثافة . يتم تصريف الماء بسدود حاجزة طويلة من الصخر فى زمن السيل إلى قنوات محفورة فى الجانب الصخري للوادي . وعلى الرغم من أنها مدعومة بشكل بدائي بأغصان وجذوع أشجار فإن هذه الخزانات يجب إعادة بنائها بعد كل فيضان .

كان الناس منهمكين فى تسوية الأرض بلوح خفيف رمادي : تتم التسوية بقطعة خشب بسيطة تسحب فوق كتل التراب لتكسيرها بثقل رجل يقف فوق اللوح. هذا بالمقارنة مع الحرث بالجمل فهو صامت بينما لسان الرجل الذي يقوم بالحرث فى ذلك العمل لا يسكت لأنه يستحث به الحيوان .

نقترب الآن من عقبة كنيفة التى نفارق منها الوادي ونصل هضبة جبل السوط . الجمال التي يمتلكها آل همام حيوانات معتادة على السهول وعلى الرغم من أن التسلق لم يكن صعبا إلا أن هناك حاجة لعناية ومجهود كبيرين لقيادة الجمال لصعود الممر . كان المنظر خلفنا فى الوادي بديعا . وتظهر فى الأعلى قرى وحقول زراعية وتبدو الأرض التي تقع بعدها غير مزروعة وغير مأهولة ، أرض مرعى للجمال والأغنام والضأن .

هوامش

١. تعرف محليا بالأسوام ومفردها سوم .
٢. البريرة موقع أثري ويطلق عليه الأهالي هجر البريرة ، والهجر في لغة اليمن قبل الإسلام تعنى القرية أو المدينة .
٣. الباردة أكبر قرى آل عبد الحق وهي مركزهم الرئيسي .
٤. تمت بالفعل تلك الدراسة في الستينات وقام بها دو B.Doe وسارجنت R.B.Serjesnt ونشرت في بحثين في مجلة معهد الراسات الأفريقية والأسوية التابع لجامعة لندن في مجلد ٣٨ عام ١٩٧٥ .

الفصل الثاني عشر

هضبة جبل السوط

بعد بضع ساعات من التسلق وصلت القافلة إلى رأس العقبة . وأصبح الوادي أسفلنا على بعد ١٢٠٠ قدم لأننا هنا على ارتفاع أكثر من ٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر . كانت الساعة الواحدة بعد الظهر والحرارة مشتعلة . نظرنا عبر سهول صخرية لا متناهية فوقنا ، حتى الهواء الحار يرتعش في ضباب تحت سماء مبيضة رمادية تحلق مثل قبة من فضة سائلة تعشى البصر . وفي البعيد تقف تلال لها قمم مسطحة وفوق منحدراتها الرقيقة تنتشر أشجار قزمة جافة بنية مثل الصخور التى تقف فوقها . وأسفلنا في الوادي رجال وحيوانات ومسحة من خضرة منعشة ؛ دخلنا هنا عالما صامتا ، لا لون له ، ولا شكل ، يبدو بعيدا لأن خطوطه الباهتة التي لا تتغير ، وبدت التلال بقممها المسطحة المتشابهة في حرارة منتصف النهار أرضا جرداء طاردة . وعلى حدود المنطقة ، أي على امتداد انحدار الوادي وعل قمم التلال ، لاحظنا صفوفا من أكوام حجارة تظهر من البعد مثل بقع سوداء . وعندما سألنا السيارة عنها قالوا إنها بنايات ترجع إلى فترة ما قبل الإسلام ، أزمان الكفار : كانوا كفري (مشتق من كفر) .

ماذا كان الغرض منها ؟ إنها ملحدة ولذلك لا معنى لها ؛ ربما مدفون بها الكفار . يبدو هذا غير محتمل . تخيلنا ربما لها علاقة ما بالدفاع عن وديان كانت مهمة في الماضي والطرق المؤدية لها . واتضح أنها أكوام من حجارة الراسب الطفالي : مربعات طولها أكثر من ياردة ، وكذلك عرضها وارتفاعها ، وتمتد في صفوف طويلة على الأقل في اتجاهين تبدأ من مربعات أكبر من الحجارة ترقد وسطها . وكلما نظرنا لاحظنا هذه المربعات تقف حادة في واجهة الأفق الخلي الذي لا يتغير . في تلك الخرائب التي ربما كانت حميرية لا توجد نقوش أو أي دلائل أخرى . في هضبة حضرموت الصخرية شاهدنا كل أنواع الخرائب التي توحي بأنها مقابر وتحصينات ، ولكن هذه هي المرة الأولى التي نرى فيها صفوفا عديدة من أكوام الحجارة جيدة البناء موضوعة في مسافات منتظمة مع بعضها البعض وكلها من أشكال متشابهة . هل نحن نسافر الآن عبر الطريق التجاري العظيم للقدماء ؟

على الرغم من الإرهاق الذى بدا على الرجال والجمال بسبب التسلق كان من المستحيل أن نرتاح على حافة الهضبة لأنه لا توجد حتى قطعة من ظل . ولذلك واصلت القافلة سيرها لأكثر من ساعة حتى وصلنا مكانا حيث أيقظت فينا بعض الأشجار الصغيرة أمل العثور على مأوى . وكالمعتاد ، أصبنا بخيبة أمل ، وسرعان ما أرغمنا على التحرك مرة أخرى لأن تحمل حرارة الشمس أسهل عندما نكون متحركين . أصبحنا الآن وحيدين مرة أخرى : نسافر أبعد فأبعد من ملازمة الرجال فجعلتنا الوحدة ندنو أقرب من بعضنا وتولدت فينا الصداقة وروح

التفاهم . وساعد أيضا رد الفعل لروعة الوادي في تقوية الشعور بالزمالة بين كل أفراد القافلة .

وهناك في البعيد حصن قلعة مربع الشكل ساعد على كسر رتابة أرض الجول . وبالقرب منه حفنة من المنازل الصغيرة تتكدس في تجويف حيث جرفت الأمطار النادرة تربة تكفي لنمو بعض أشجار العلب وجعلت من الممكن جمع حصاد ضئيل. على أن السكان سوف يعتمدون أساسا في معيشتهم على قطيعهم الصغير ويعيشون على الماء الذي يتجمع في الاجحار وكهوف الصخور المحيطة. عبرت القافلة مسافة آمنة دون أن تلتقي ببشر . كانت الشمس قد غربت عندما وصلنا مكان معسكرنا لقضاء الليل ، مدخل وادي حريف . هذا ا لوادي في بدايته شلال منحدر . الماء الذي ينحدر في أوقات الأمطار ، حفر في الحجارة الجيرية مجرى عميقا به حفر عديدة تحتفظ بالماء طوال موسم الجفاف العادي . يجلب الماء من تلك الحفر أفراد قبيلة بدوية صغيرة . وكما هي العادة في حضرموت فإن هؤلاء الناس لا يعيشون في خيام ولكن في كهوف في الصخر . وما إن نصبنا معسكرنا حتى قادنا السيارة إلى مكان الماء . وشاهدنا عند بداية الظلام بين جدران الحجر الجيري المنحدر وميضا مثل المرآة . تملكتنا الرغبة لنستحم وعملنا عكس نصيحة حراسنا وسرعان ما هبطنا متزاحمين مستعينين بضوء بطارياتنا . ثم خضنا الماء ، واستمتعنا برفاهية الاغتسال بالصابون ونشفنا أجسادنا بينما كورس غير مرئي من الضفادع حيانا في الظلام . تجدد الآن نشاطنا وأصبحنا في شكل أفضل لتحمل مشاق الليل ، فصعدنا جانب الصخرة مرة أخرى . تكونت وجبتنا المسائية من ثريد شعير مغلي مع بعض ملاعق اللبن المجفف وأكلناها مع كوب من الحساء ، وكانت تغييرا مستحبا بعد الخبز الثقيل .

وبفضل البرد تحركنا مبكرين في صباح اليوم التالي ، الجمعة الرابع عشر من أبريل . تحركت القافلة ببطء لأننا تسلقنا العديد من التلال ذات قمم مسطحة ، وعبرناها وهبطنا منها مرة أخرى . وسار الممر أيضا عبر منطقة مدخل مياه لعدد من الأودية وكانت جمالنا غير معتادة على المنحدرات الصخرية . وبعد فترة وجيزة من تحركنا عبرنا منحدرا صخريا شاهقا به سلسلة من الكهوف الواسعة ولكنها مسطحة . هنا تعيش القبيلة البدوية التى جاء رجالها في المساء الماضي إلى معسكرنا للتعرف علينا . وكانت النساء والبنات قد بدأن في إخراج قطعان الأغنام السوداء من عدد من الكهوف .

وعندما عبرنا هذه الأرض المسطحة أمكننا أن نرى في البعيد فوق أرض تخدشت بعمق عبر قرون عديدة بفعل المجاري التى تغذي الوديان . عبرنا تجمع المياه بين وادي جردان ووادي حجر ، اللذين يمكن تمييزهما فقط باتجاههما الذي

يبدأ هناك ، إذ لا يوجد في شكل الأرض ما يشير إلى التغيير . وهنا يتابع الممـــر الوادي الذي تنمو به حشائش طازجة خضراء ، وأشجار العلب التى أمطرتنا بوابل من ثمر الدوم عندما قذفناها بالحجارة . اندهشنا لعدم وجود أي أثر للسكان هنـــا . الوادي مليء بالناموس شديد النهم بحيث أمكننا قتل عشرة منها على أذرعنا فـــي وقت واحد. ألم تطرد الملاريا السكان بعيدا من هذه الأرض الخصبة الرطبة ؟ قال السيارة إنها أرض مليئة بالأرواح الشريرة ،وهذه ربما طريقة مختلفة للتعبير عـــن نفس الشيء .

انسل خلسة من أمامنا بعيدا ثعلب له ذيل جميل غزير الشعر ، ولكن لونـه رمادي خفيف ، بينما الثعالب التى رأينها في مناطق أخرى من الجزيرة العربيـــة محمرة بنية . وقليلا على البعد ، وبينما نحن في وادي الأرواح الشريرة ، رأينـــا منظرا غريبا . تمدد جملان مستقيمان عبر الممر ، أحدهما بلا حراك . وعندمـــا دنونا منهما رأينا رأس أحد الجملين انحشر بين الساقين المقيدين للجمل الآخـــر . وجاهد الجمل ليخلص نفسه حتى كاد أن يختنق . وعندما خلصه رجالنا من هـــذه المعانقة المميتة فتح عينيه ولكنه لم يستطع أن يقف .

استمر التقدم بطيئا فوق هضبة جبل السوط ، لأن المنحدرات الصخريـــة للأرض المنبسطة ، التى تسلقناها صعودا وهبوطا ، كانت عديدة رغم أنها لم تكـن عالية . سائقو الجمال غير معتادين على هذا النوع من الأرض : لا يعرفون كيـف يقودون جمالهم بحذق ولا تأمين الحمولة في الوضع الصحيح للتسلق . وبناء علـى نصيحة محسن وجهت لهم تحذيرا حازما : إما أن يسيروا بشكل أفضل أو نرجعهم قبل أن يروا حضرموت . ومنذ ذلك الوقت حققنا تقدما أفضل لأن كـل أصحـاب الجمال يتوقون لرؤية الأرض التى كانوا يســمعون عنــها باسـتمرار القصـص العجيبة.

مررنا في هذه المنطقة بأول أحواض ماء الجول الكلاسيكية . في الأماكن الأخرى في حضرموت تسمى هذه الأحواض النقاب (مفردها نقبة) ، ولكن هنـــا يسمونها حسو . كلها مشيدة بنفس الأسلوب . إنها أحواض ماء منحوتة في الحجـر الجيري، والوصول إليها عبر قصبة ضيقة . الماء الذى يأتي من الأمطار النـادرة يوجه إلى فم الحسو من أكبر منطقة ممكنة عبر أنابيب رقيقة تجري على جانبيـها شواطئ منخفضة من حجارة الراسب الطفالي ثم تجري بعد ذلـك خـلال مجـار تنساب عبر مدخل قصبة ضيقة إلى الحوض حيث بمكن الاحتفاظ بـــها لسـنوات متتالية . وتحول القنوات الضيقة دون أن يتبخر الماء . وفي العادة توجد كل اثنتين من الحسو قرب بعضهما البعض وتسور مساحة واسعة حولهما بجدران ، لعلـــها للدفاع في حالة الحرب ، ولكن لأنـها تتمتع بهذه الميزة ، فإن الحسو يمكن التعـرف

عليها من مسافة بعيدة . ولا يتوقع أن الماء المحصور والمخزون بهذه الطريقة ماء كثيرا : وكلما بقي فترة أطول كانت رائحته نتنة وطعمه كريه . وأحيانا يختفي أيضا حيث نجد قليلا من الطين الرطب بدلا من الماء الذي كنا نتوقعه ؛ ولكن هذا يحدث نادرا لأن القافلة دائما تهتم بسؤال بعض الناس الذين تقابلهم عن حالة أحواض الماء على طول الطريق . الماء أهم من كل شيء بالنسبة للمسافرين في تلك الأجزاء بالذات إذا كانت هناك فترة جفاف طويلة قد تستمر أحيانا لسنوات . وكان من حسن حظنا أننا نسافر بعد موسم أمطار جيد على غير العادة حتى أن الحفر والفجوات في الصخور ما زالت تحتفظ بماء طازج ومستساغ . إن تشييد الحسو ، الذي ربما تم قبل قرون خلت ، جعل من الممكن السفر فوق هضبة حضرموت في كل الفصول . ولكنها تكفي فقط لقافلة حجمها معقول .

جول السوط الذي نسافر عبره ، مزدهر . فلم نعبر فقط على فجوات عديدة حيث يوجد بها أحيانا بعض المساكن المؤقتة وحقولها محروثة وبعض شجر العلب ولكن أيضا بعض الحفر والشقوق التي تجمع فيها الماء وأمكن بذلك تربية قطعان من الغنم والضأن . وزيادة على ذلك عبرنا في طريقنا باستمرار على منشآت حجرية ، تدل على أنه في العصور القديمة إما أن الناس عاشوا هنا أو مروا عابرين بأعداد كبيرة . وطالما أنه لا يعرف عنها أكثر من ذلك فيمكننا فقط أن نقول إنها بقايا حميرية . ويبدو أن موقعها قد تم اختياره بالمفاضلة، على امتداد حافة الهضبة . قبل أن نهبط نحو الحقول المزروعة في الشقوق حيث تقع قرية الروضة الصغيرة ، شاهدنا في المنحدر الصخري المتدرج أكواما صغيرة من الحجارة ، بعضها مستدير ، والبعض الآخر بيضاوي . بالقرب من إحداها يقف عمودان من الحجر مربعان ومقطوعان جيدا ارتفاعهما أربعة أقدام . ويتصل مع هذه الأعمدة أحجار أخرى مسطحة معظمها مازال يقف منتصبا ، ومصفوفة في شكل مستطيل . هل هي مقابر حميرية أم أماكن مقدسة ؟ لا توجد نقوش تساعد على حل المشكلة . قال مرشدونا إن هذه الجلاميد المربعة ليست محلية وإنما جلبت من وراء البحار . هذا بلا شك تفسيرهم لوجود أعمدة حجرية لا يعرف أحد هنا كيف تصنع . بعض أكوام الحجارة التى عبرناها ليست من أصل قديم ولذلك كان للسيارة والبدو المحليين ما يقولونه عنها . إنها مساكن شيدت لحماية الحيوانات المولودة حديثا من برد الليل القارص . ويشيد البدو أحيانا مثل هذه المباني التى تحمى من الصقيع . تعرفوا على هذه فورا ولذلك اقتنعوا أن المباني الأخرى من صنع أهل الجاهلية .

عبرنا من بعيد على قرى صغيرة أمكن التعرف عليها من مسافة من قلاع دفاعها المربعة . قاد السيارة القافلة بعد الظهيرة عبر حقول مزروعة لقرية

صغيرة عرف سكانها بمودتهم . الناس الذين شاهدونا لم يتراجعوا ولكن هرعــوا نحونا لتقبيل أيادينا ، وهو شرف يمنح فقط للسادة . وسـمعنا حراسـنا ينبهونـهم سريعا إلى خطئهم . واحتج القرويون قائلين "ولكنـهم يشـبهون السـادة بلحـاهم وملابسهم الفاخرة " . فقط بدت لهم أغطية رأسنا مثيرة لبعض الشكوك . وبينمـا نحن محاطون بالناس البسطاء ملأنا جيوبنا من ثمر الـدوم الـذي سـقط تحـت الأشجار، وقام بعضهم بهز الأغصان فانهمرت الثمار .

وفي المغيب كنا مرة أخرى على حافة الهضبة عنـد Dalat al Muleibi دلعة المليبي بالقرب من حسوتين حيث حصلنا على الماء ونصبنا معسكرنا لليل .

يوم السبت ، الخامس عشر من أبريل ، حلق ضباب رمادي فوق السـوط الرتيب وأصبحت الرؤية في الصباح الباكر محدودة . الهضبة المغطـاة بحجـارة الراسب الطفالي التى ترن تحت الأقدام مثل المعدن ، كانت سهلا صخريـا علـى امتداد البصر لا لون ولا شكل له. وقادت الحفر التى تشبه الأحواض إلـى بدايـة الوادي ، وكلها تصب في حوض صرف وادي حجر ، الذي يصب بـدوره فـي المحيط الهندي ، وهو النهر الدائم الوحيد في حدود حضرموت . قبل ثمان سـنوات تابعنا ، هيرمان وأنا ، هذا النهر في رحلة عودتنا من حضرموت بعد أن تخلينـا عن محاولتنا للوصول إلى عدن برا . لقد انقضى وقت طويل قبل أن نتمكن مـن تكرار المحاولة ولكن يبدو أننا نحقق نجاحا في الاتجاه المعاكس . ولذلـك ونحـن يغمرنا شعور بالرضى نظرنا أسفلنا إلى الوديان التى تشكل مدخل وادي حجـر ، أقصى ظاهرة طبيعية في جهة الغرب تمكنا من الوصول إليها في رحلتنا السابقة .

بزغت الشمس وتلاشى الضباب فشاهدنا مرة أخرى أكوامـا مـن تلـك الحجارة التى افترضنا أنها من أصل حميري . ويبدو بعضها متماسكا لحـد مـا ، وبها حجارة مسطحة صفت مستقيمة في مربع وغالبا ما تتصل مع ممـر ضيـق حجري بدائرة من حجارة صغيرة مستقيمة , وتغطى أرض الدائرة حجارة مسطحة صغيرة بالية بلون رمادي أزرق . وهناك المزيد من أكوام الحجـارة ، بعضـها قطره ست ياردات في القاعدة وأبعادها كثيفة عالية ويمكـن رؤيتـها مـن حافـة الهضبة . وتوجد في الغالب كومتان من الحجارة تشيران إلى النقطة التـى يصـل فيها الممر نهايته . لابد أن هذه كانت معالم وضعت مباشـرة فـي الأيـام التـى أصبحت في السوط طرقا ، فكان من الضروري وضع معالم من الحجارة في تلـك البيد التى ليست بها معالم حتى يمكن التعرف عليها من مسافات بعيدة .

بالقرب من أحد أكوام الحجارة الحميرية يقع مدخل الوادي . في الأعلـى حيث لم يكن باستطاعتنا رؤيته في العمق بين جدران الصخـر ، هنـاك قطعـة صغيرة مخبأة من الفردوس . اقترب واحد أو اثنان من جنودنـا الحـراس نحـو

الحافة ، وأطلا إلى أسفل ، ثم اختفيا ولم يعودا . وذهبنا نحن أيضا لنلقي نظرة ، وهناك بين الخضرة الغنية رأينا شعاعا من بحيرة صافية كالبلور . ويسمى المكان الطويلة في وادي فرج . لم تستطع القافلة أن ترى أي شيء من الممر فتخطته مواصلة سيرها. يالها من متعة لم نحلم بها ، أن ننسى هنا للحظة فيافي الصخور الخالية من اللون ، وأن نشاهد النبات بخضرته اليانعة ، ونسمع الطيور ، نرى الضفادع تتقافز بينما نطفو فوق الماء المنعش الفاتر أو نقف عراة مبللين ونترك رياح الصحراء الدافئة تلعب غير مبالية فوق أجسامنا في هذا المكان الصغير حيث ازدهرت الطبيعة بسخاء في الصخور القفرة . وبينما كنا نرتدي ثيابنا رأينا مرة أخرى ضبا بزرقة الطاؤوس يستدفئ تحت الشمس . هذا النوع مألوف كثيرا في جبال اليمن العالية . هذه الحيوانات الأنيقة لها شريط وردي اللون بالقرب من مؤخرة ذنبها الطويل الرقيق ، وبقية الذنب له نفس اللون الأزرق الرائع مثل بقية الجسم . وهي غير صالحة للأكل ولذلك تترك في سلام .

توقفنا لراحة منتصف النهار بالقرب من قرية رول الصغيرة التى يمكن رؤيتها تقبع على مسافة في تجويف بالقرب من حقول قليلة مزروعة . وفي فترات منتظمة كنا نستغل راحة منتصف النهار كي تجف قليلا النباتات التى جمعناها . إنه عمل يستغرق وقتا كثيرا حيث نضع الحزم الصغيرة تحت الشمس والريح ونثبتها بالحجارة ، ولكنه عمل لابد من القيام به ، لأن تجارب الرحلات السابقة علمتنا أن التجفيف المتكرر يحفظ النبات من التعفن .

سار طريقنا بعد الظهر فوق سهول ممتدة لا نهاية لها . لا يوجد في أي مكان ماء أو علف للحيوانات . رغم أننا سرنا عبر قرية صغيرة وكان بإمكاننا أن نشتري علفا للجمال ونحصل على ماء ، لكننا ترددنا في قضاء ليلة بالقرب من مكان مأهول فواصلنا السير ، وأرغمنا الآن أن نمضي حتى بعد المغيب على أمل أن نجد منخفضا به بعض الشجيرات . لم يطلب أصحاب الجمال التوقف الآن : فهم يتلهفون إلى مواصلة السير ، فالجمال لابد أن تجد مرعى أثناء الليل . جاهدت الجمال كثيرا خلال اليوم ولم تظهر بعد نهاية لتعبها . لقد أدهشني دائما كيف تعمل الجمال طوال اليوم ثم ترعى طوال الليل تقتات من العشب ، وتقطع مسافات طويلة من أجل ذلك ، لأن الأشجار الصغيرة والشجيرات تنمو بعيدة عن بعضها ، وتستطيع مع ذلك أن تواصل السير في اليوم التالي . ويبدو أنها لا تحتاج للنوم .

السير بعد المغيب مرهق جدا .أما كيف يمكن العثور على مكان مناسب في ذلك الظلام الحالك فهذا يبقى سره عند السيارة وأصحاب الجمال ، ولكن بالفعل هناك شجيرات بالقرب من المكان الذي اختاروه ، وبمساعدة بطارياتنا تمكن الرجال من جمع الحطب . وما ان اشتعلت نار المعسكر حتى تلاشى كل إحساس

بالعزلة . والجمال ، التي تقودها أنوفها ، وجدت طريقها في الظلام إلى الأماكن التي تنمو بها بعض الأشياء . وقام كل واحد منا بإزاحة أكبر عدد من الحجارة ليجد مساحة كافية يفرش عليها فراشه وراكمنا بعض الأمتعة حماية من رياح الليل. لقد سرنا في ذلك اليوم من السادسة حتى الثانية عشرة ومن الثالثة حتى السابعة والنصف فكنا في غاية الإرهاق . ورقدنا على فرشنا نحدق عاليا نحو النجوم ننتظر الطباخ في صمت . وعبرت تجربة اليوم على أذهاننا . كانت مسيرة طويلة وساخنة ؛ تقرحت عيوننا من الإرهاق والتحديق وحقول الصخور اللامعة ومن النظر إلى أسفل باستمرار لإيجاد موطئ قدم آمن . ولكن الآن رطبت رياح الليل الباردة أجسامنا التي لفحتها حرارة الشمس وكان الليل مريحا للنظر . جاء الشاي ليطفئ ظمأنا ؛ وتبعه كوب من الحساء ، وصحن صفيح من الثريد ورغيفان مجوفان خبزا فوق حجارة مستديرة . تدفأنا وغمرتنا القناعة وأخذنا في ضغط النباتات وترتيب الحجارة ، وتفريغ وشحن آلات التصوير وكتابة يومياتنا . وبعد المزيد من أكواب الشاي الساخن زحف كل واحد تحت بطانيته ، وتغطينا بمعطف المطر من الرأس حتى أخمص القدم واستغرقنا في نوم عميق استمر حتى الرابعة والنصف عندما انطلقت ساعة التنبيه ، التي كان هيرمان هو الوحيد الذي يسمعها. وبعد فترة أرغمنا أنفسنا على الخروج قسرا من تحت الغطاء الدافئ .

تجميع الجمال في الصباح عمل مرهق على الدوام . يكلف بهذه المهمة عادة اثنان من الصبية اللذان يصاحبان قافلتنا دائما . كان عليهما أن يستيقظا قبل الآخرين وعندما تكون البقية مستعدة للتحرك على الطريق يكونان قد قطعا شوطا بعيدا في بحثهم في المنطقة . وفي بعض الأحيان يدفع الجوع بعض الجمال فترعى بعيدا مما يجعل الرجال يشاركون في البحث عنها . يمكن أن يؤخر هذا بداية السير في الصباح . وحدث هذا في مودمود Mudmud ؛ وعلى أي حال كنا مصممين أن نحاول الوصول في ذلك اليوم إلى قمة العقبة ، والانحدار الحاد إلى وادي عمد . يفضل الرجال أن يبدؤوا الجانب الصعب وغالبا الخطر من الهبوط عندما يكونون نشطين .

عقبة باتيس الرهيبة لها شهرة واسعة بتكويناتها الخطرة . سرنا في ذلك اليوم عبر منطقة تجمع مياه وادي رخية وجئنا على تلك التي تخص وادي عمد . وبعبورنا مناطق قبائل هميم وباعلوي وصلنا حدود منطقة باتيس .

سرنا في الصباح عبر قرية القبلي الصغيرة (الجبيلي أو الجربة) ولها برج عال في الوسط ومحاطة بشريط من حقول محروثة جيدا ينمو فيها البر وبينه صفوف من البقول . وكانت هناك بالطبع أيضا بعض أشجار العلب . كان السيارة قد اخبرونا من قبل أن بعض الناس الذين يقطنون هنا كانوا في جاوا ،

وبينما كنا نلتقط بعض الصور تقدم نحونا رجلان وتبعهما بعض الصبية وكانوا في الواقع يعرفون الملاوية وتبع ذلك دعوة لتناول القهوة معهم . ووضحنا لهم أننا في عجلة للوصول إلى العقبة ولذلك يجب أن نرفض دعوتهم الكريمة ولكن سنكون سعداء إذا سمحوا لنا بالصعود إلى برج القلعة لنستمتع بالمنظر من السطح . قالوا بإمكاننا أن نفعل ذلك ، ولكن القلعة غير مأهولة ومهملة لفترة من الزمن . وعاونا بعضنا البعض لنصل إلى الطابق الخارجي حيث جناح السكن . الناس هنا أكثر مودة وثقة في سلوكهم لأننا دخلنا الآن ديار إنجرامس ، الأرض التى يسود فيها الصلح .

عاد شيخ القبيلة من فوره من زيارة إنجرامس ، الرجل الذي جاء بالسلام إلى بلادهم . كان من الطبيعي أن يعرفوا عنا : لماذا لم نأت بالطائرة ؟ لماذا جئنا من بلاد غنية لنشاهد بلادا بهذا الفقر ؟ أو أننا في الواقع نبحث عن المعادن ؟ هذه الشكوك التى قويت باهتمامنا بالطبقات الجيولوجية والمتحجرات وبرسم هيرمان للخرائط ، سخرنا منها : الذهب والنفط في بلادكم ؟ لماذا ، لا شيء هنا سوى الحجارة الرمال والبدو في فقرهم المدقع ! وعلى هذا رد الشيخ قائلا إن أوربا بلا شك متقدمة جدا هذه الأيام في الثروة والنمو ولكن الجزيرة العربية كانت في وقت من الأوقات تمتلك القيادة . وافقته بحرارة وقلت إن هذا هو السبب في أننا نفهم بعضنا جيدا .

عند تامين ، بالقرب من حسو وتحت الظل المعهود لأشجار السنط ، وجدنا عزاء من حرارة الشمس العنيفة على أمل أن هذا سيكون آخر توقف لنا في الجول في منتصف النهار لفترة طويلة . يقع الممر فوق حقل صخري أجرد ، حيث اندهشنا مرة أخرى عندما هبطنا إلى تجويف تحيط به كتل بيضاء من حجارة جيرية فوجدنا حوضا صافيا ، ذكرى لأمطار غزيرة هطلت في الماضي . هذه الأحواض أماكن لشرب قطعان صغيرة ، وليس بعيدا منها تظهر الراعيات يراقبن أغنامهن الهزيلات السوداء وهي ترعى في مساحة شاسعة. وبمساعدة السيدة التى معنا كنا ننجح أحيانا في حمل أطفال الفيافي هؤلاء على الاقتراب منا ؛ بل تمكنا في بعض الأحيان من أخذ صور لهم . تلبس الفتيات الصغيرات نفس نمط التنورة مثل أمهاتهن وجداتهن إلا أنها مطرزة كثيرا بالأحمر والأخضر وحسنة الذوق . ويضعن حول أعناقهن وخصورهن العديد من السلاسل الفضية وتتدلى من الجزء الأعلى من آذانهن كمية كبيرة من الحلق الرقيق الفضي. وتغطي وجوههن الصغيرة صبغة صفراء بينما جباههن وشفاههن وخدودهن ، وبشكل خاص موضع الذقن ، كلها مزينة بكل أنواع الخضاب بالنيلة . والشعر فوق الجبهة محلوق من قعره بطريقة تترك خصلة متدلية عليها دهن كثير . كل هذا يعطي صورة ليست

غير جذابة ، ولكنها تؤكد حقيقة أن الاتجاه بين هؤلاء الناس هو تلطيخ شيء فوق الجلد وليس إزالة شيء منه بغسله . ولكن يجب أن نحترم عادة البلاد . إن التعرف عن قرب على نساء البدو ، الذي سيأتي بعد قليل ، جعلنا نفزع من فهمهن للنظافة .

سرنا في المساء عبر قرية صغيرة يقف على أطرافها عدد من أكوام الحجارة وهي في العادة كبيرة : بعضها مربع الشكل وتتألف من كتل ضخمة ، والبعض الآخر حلقات مفتوحة من ألواح مستقيمة . وحسب ما يقول القرويون فإن هذه الأكوام تعود إلى أزمان قديمة . جاء أحد الرجال يجرى نحونا من عمله في الحقول ، وسرعان ما تبعه عدد من الأولاد الصغار الذين لهم وجوه جاوية نموذجية . نعم ، كان في جاوا لسنين عديدة ، وتزوج هناك ، وعاد بأبنائه معه هنا ليتعلموا اللغة وينشأوا أقوياء بممارسة الحياة الشاقة في موطنهم . الأولاد لهم المسحة الرقيقة لأهل أمهاتهم التى تتجلى في الصوت والملامح أما البقية فقد أصبحوا بدوا نحافا شديدي السمرة . ألح والدهم علينا بشدة لقبول ضيافته ولكننا كنا غير راغبين في التلكع هناك واتفقنا أن يأتي بالأغنام التى تكرم بها إلى معسكرنا ليستمتع معنا بالوليمة التي سنعدها تلك الليلة . ولم يفهم لماذا نفضل قسوة الجول على مسكنه المضياف ، على أنه قبل اقتراحنا .

أخبرنا الأولاد أنهم ولدوا في مالانق ، وما زالت أمهم تعيش هناك ، ولكنهم نسوا جانبا كبيرا من لغتها . سرنا معا سويا ، وعندما عبرنا منزله ، تحسر نصف البدوي نصف الحضري هذا على ضياع الفرصة ليستضيفنا في منزله بطريقة تليق بمقامنا . ثم ذهب مع أبنائه ليحضر الأغنام التى وعد بها . اعتقدا اثنان من رجال قافلتنا أنه من الأفضل أن يذهبا لمساعدته ، ولكن بلا شك كانا يفكران في التأكد من أنه يختار شاتين جيدتين سمينتين .

وما كدنا نصل مكان معسكرنا ، حتى وصلوا بالشاتين . وكما هو لائق ، فقد فحص رجالنا الشاتين بدراية للحكم بجودتهما وجودة شحمهما وعندما انتزعوا أنفسهم أخيرا من تأمل المشهد الذي يحرك الشهية سادت روح الأخوة والتعاون في القافلة بطريقة نادرا ما حدثت من قبل . وفي أقصر وقت ممكن أنزلت حمولة الجمال واختفى الكل بحثا عن الحطب . وجمع الكل قواهم وسحبوا كتلا ضخمة من جذوع السنط إلى المعسكر . وسرعان ما اشتعلت النيران عالية وكانت تلك آخر وليمة لنا على أبواب حضرموت .

ذبحت الشاتان ووزعت المهام . كان هناك شواء وتحمير وغلي وشارك كل واحد في إعداد الوليمة . وحملت النسمات روائح مثيرة للشهية لنا نحن الذين جلسنا على بعد نشاهد كل الحركة حول اللهب المتصاعد عاليا . تم إعداد كل شيء

بسرعة وبأكثر أسلوب بدائي . كان الجوع ، بعد أيام عديدة بلا لحم ، هو البهارات التي أعطت الوجبة نكهة . وسرعان ما سكتت كل الأصوات ، وما عدا ذلك كانت الأفواه في شغل شاغل . إنها متعة قصيرة الأجل ولكنها مكثفة . وعند نهاية الوليمة استلت الجمبيات . تم بها تنظيف عظام منتقاة وكسرت لامتصاص نخاعها. وكسرت الرأس واستخرج منها أي قطعة صالحة للأكل وامتصت حتى آخرها . الرجل الذي تبرع بالشاتين شارك في الوليمة وقضى الليل معنا في المعسكر .

فارقنا السيارة هنا : انتهت مهمتهم فقد أوصلونا عبر منطقة الحدود غير الآمنة إلى بلاد "صلح إنجرامس" . كانت تلك مناسبة عظيمة بالنسبة لهيرمان ولي. قبل ثمان سنوات ليس بعيدا من هنا من وادي عمد ، بدأنا محاولتنا للوصول إلى عدن برا . كان وادي عمد في ذلك الوقت يعج بالصراع والمخاطر . تسلقنا العقبة على الجانب الآخر من الوادي مع بعض التابعين الموثوق بهم لنصل جول بدو الدين وبينما كنا نتسلق أطلق علينا النار رماة حاذقون من برج المراقبة . توارينا وأخذنا نجرى من صخرة لأخرى واجتزنا تلك الأجزاء من الممر حتى لا يرانا الأعداء .

الآن سيعود السيارة ونحن على وشك الهبوط إلى ذلك الوادي الذي نحمل لمخاطره مثل هذه الذكريات الحية . وبناء على طلبنا رافقنا صديقنا ، الذي تبرع بالشاتين ، إلى الوادي . لم يكن ذلك إقحاما عليه لأن له في الوادي منزل وزوجة أخرى وربما كان للزيارة المفاجئة فوائدها . كان أمرا مطمئنا لنا أن يكون معنا شخص يعرف الطريق ويمكن أن يوضح الأماكن الخطرة ، وإذا دعت الحاجة يقوم بدور الوسيط عندما نستعيد اتصالنا مع أهل وادي عمد الذين ما زلنا لا نثق بهم كليا.

الفصل الثالث عشر

{ عقبة باتيس }

أصبح مزاج المعسكر ممتازا بعد وليمة الوداع التى ختمنا بها رحلتنا فوق جبل السوط .عندما تكون البطن مليئة تماما بطعام جيد فإنها تعطى البدوي شعورا غامرا بالرضى . ويكون في مثل هذه الأوقات ميالا للتصالح مع رفاقه ولاحتواء المشاحنات الصغيرة التى تنشا من إرهاق السفر فوق هضبة حارة من الصخور التى لا تنتهي . جاء قائد البدو وجلس في دائرة الجنود وعبر عن تأكيده على النوايا الحسنة في المستقبل واعتذاره عن القصور الذي حدث في الماضي . وأخيرا بعد الكثير من استجماع القوى ، انفجر الضحك وتأكدت بشكل أمتن الوحدة الديمقراطية للقافلة . وبالتأكيد نحن بحاجة إلى الكثير من التضامن الصحي ، لأن الجزء الأصعب من الرحلة مع آل همام تبدأ في اليوم التالي ونأمل بعد ذلك أن نستمر معهم لأيام أكثر عبر وادي حضرموت حتى نصل مدينة صديق رحلتنا الأولى إلى ، السيد أبوبكر بن شيخ الكاف . لم يتوقع أحد في القافلة أن يكون هيرمان وأنا قد شاهدنا حضرموت من قبل . أغلبهم لم يسمع حتى بالاسم إلا قريبا عندما أجرى إنجرامس تجربته للصلح وحملت الأنباء هذا الخبر العظيم في تاريخ الصحراء وانتشر من قبيلة إلى قبيلة وأصبح موضوعا للحديث حيثما تقابلت القوافل في الطرق الصحراوية المقفرة أو عسكرت بجنب بعضها البعض .

سمعوا قصة من نوع آخر عن حضرموت . لم يعرفوا أن الحضارم كانوا في الأصل فقراء مثلهم ولكنهم غامروا وتركوا موطنهم في الوادي أو الجول وركبوا البحر إلى الأراضي الغنية في زنجبار والهند وجاوا . ووصلوا فقراء ، وأصبح كثير منهم أغنياء ، وبعضهم أغنياء جدا . وبالأموال التى حصلوا عليها في الخارج بنوا في واديهم حضرموت تلك القصور والمساجد والمنتجعات الصيفية التى لا مثيل لها في كل الجزيرة العربية .

كانوا كلهم يتلهفون لرؤية هذه الأشياء وفي صباح الثامن عشر من أبريل ١٩٣٩ ، سارت عملية تحريك المعسكر إلى الأمام برشاقة . بذلت عناية فائقة حتى لا تطيش الجمال بعيدا ولأول مرة لم يكن هناك شجار حول توزيع الحمولة .

بعد مسيرة ساعة بهمة وصلنا بداية عقبة باتيس . وكانت الجمال تسير في السهل ورأس كل جمل كان مربوطا في ذنب الجمل الذي أمامه ، وفك منه الآن الرباط . وثبتت الحمولة جيدا مرة أخرى وبدأ جمل بعد الآخر الهبوط الشاق . ولم تتوقف ألسنة سائقيها لحظة واحدة وهم يصيحون أما مشجعين أو منذرين . وعندما يكون الانحدار شديدا يربط السائق الفرامل بجذب ذيل الجمل بكل قوته .

تقدمنا في السير لننظر من أعلى إلى وادي عمد من حافة القمة العمودية ، لأننا لم نر بعد الجزء الذي يقع فوق مدينة عمد ، ولم يتم وضع خريطة هذا الجزء بعد . ما زالت حافة الوادي على بعد مسافة ، لأنه عند بناء العقبة استغل بالطبع

الجانب الصغير من الوادي لتجنب كل جدار الوادي . وارتفع من الأخدود صياح رجال الجمال . من حسن الحظ لا يمكننا رؤية المشكلة التى هم فيها وتمنينا الأفضل . هم وجمالهم لهم تفوق كبير علينا لأنهم لا يعرفون ما هو الدوار فليسوا في خوف من الجرف . وتقدمنا نحن بحذر بقيادة صديقنا من باتيس ، نحو معقل الصخرة البارز في الفضاء التي تشبه الخليج . وقفنا مأخوذين نتأمل البانوراما الرائعة التى برزت فجأة تحت أقدامنا . وتقع أسفلنا بمسافة مائة واثنتا عشر أو ربما مائة وخمسة عشر قدما قاع الصدع الضخم الذي يشق طريقه عبر الهضبة الصخرية شمالا نحو الوادي الأكثر اتساعا : وادي حضرموت .

كان مثل مجرى فارغ لنهر عريض جدا وعميق . وفي واجهتنا ، ولكن على بعد أميال ، جدار جول بدو الدين . ومن حيث نقف كنا نرى بداية سهل بلا نهاية ، وكواليس غائمة في قمم التلال المسطحة ، تشبه تماما المناظر التى شاهدناها لأيام متتالية فوق جبل السوط . لم نر وجه الأخدود الذي نقف فوقه ، ولكن الجانب المواجه ينتصب أمامنا حادا ومحددا . معقل تلو معقل تقف هناك منحدرات بها أكوام من الحجارة تكدست قبالتها ، وقاعدتها العريضة في قاع الوادي . الوديان الصغيرة الجانبية حفرت تلك القمم الصخرية من طبقة الحجر الجيري السميك في الجول . ويقف مكشوفا أمامنا جانب من تاريخ طبقات الأرض والتغيرات التى حدثت لها. في تلك الضخامة من الأرض العارية نبدو نحن البشر لا وزن لنا مثل ذرات في رمل . كم من القرون مرت على تلك الوديان وصخورها !

منذ بداية التاريخ البشري عاش الناس وهاجروا عبر تلك الوديان . ما هي الآثار التى تركوها خلفهم ؟ بالنظر من هذه المرتفعات ، لاشيء . " لأن الريح عبرت فوقه ، ثم مضت ؛ ولذلك لن يعرفها المكان أبدا ." السكان الحاليين في بيوتهم الطينية لا يعرفون شيئا عن أهل الحضارات القديمة . وعندما يشاهدون مخلفات مباني قديمة وخزانات يهزون فقط أكتافهم في ازدراء . أولئك ؟ أنهم كفار ملحدين وثنيين . ومن أجل خطاياهم أبادهم الله بطوفان عظيم .

وتحت في الأسفل في قاع الوادي يسكن رجال اليوم الذين يبجلون أنفسهم بأن الله اختارهم : المؤمنون بحق الذين يعرفون طريق الخلاص وينظرون إلينا باعتبارنا نصارى . ويخجلون من الاعتراف بأنهم من سلالة الوثنيين على الرغم من أن أولئك الوثنيون هم أصحاب الحضارة الحميرية . خرجنا قسرا من فيض الدهشة والتأمل : الجانب العملي هو ضرورة رسم خريطة لهذا الجزء من وادي عمد . كان هيرمان يتطلع بلهفة إلى اللحظة التى سنمر فيها على الطريق الذى عبرناه عام ١٩٣١ ، لأننا من هناك سوف نسير عبر منطقة رسمنا خريطتها من

قبل. من حيث نقف الآن لا يمكن رؤية تلك البقعة ، ولا رؤية مدينة عمد الصغيرة التى أعطت اسمها للوادي والتى كنا أول أوربيين ندخلها ونصفها . ولكن أمكننا رؤية بعض القرى ، تجميع لمربعات صغيرة بلون الغبار تجمعت بين شريط الحقول الخضراء وبساتين النخيل وجدار الوادي . يجب ألا يحتل المنزل مساحة من الأرض التى يمكن أن تزرع : إنها تقف على المنحدرات الجافة ، معرضة لوهج الشمس كله ، وهذا له ميزته من الناحية الصحية .

عندما ننظر إلى أسفل من هذا الشاهق لا تبدو أكوام الحجارة شديدة الانحدار ، ولكن فيما بعد عندما نظرنا إلى أعلى من مجرى السيل في وادي عمد، بدت كأنها تتشبث بشكل غير مستقر للمنحدرات الحادة وتعجبنا إذا كانت هناك بعض الخطورة من أن تتدحرج أكوام الحجارة إلى أسفل وتحطمهم . هذا بلا شك يحدث في بعض الأحيان ، ولكنه نادر .

مجرى السيل شريط أبيض صافي ، نهر من الرمال ، يتعرج عبر الوادي . وعندما تكون الشواطئ عريضة ومسطحة توجد قطع من الحقول الخصبة وبساتين النخيل . وعلى الرغم من أن السيول العنيفة قد تجرف من وقت لآخر بعض أجزاء الضفاف ، إلا أنه من أعلى القمة يمكن أن نرى كيف أن الأرض المغطاة بالرمال قد استعيدت مرة أخرى وأعيدت زراعتها بأشجار نخيل صغيرة . إن قطعة النبات التى تعطى الوادي مشهده الذى يبعث على الانتعاش وتضفي على سكانه رخاءهم ، تقع بين نهر الرمال الأبيض ومنحدرات ركام الحجار البنية . لم يرتفع إلينا صوت إلى أعلى من العمق ويمكننا أن نستبين أنه لا أثر للحياة . يبدو كله غير حقيقي مثل لعبة صغيرة . والحرارة العنيفة في أسفل الوادي حيث لا تتسرب رياح الجول ، جعلت الناس يبقون داخل بيوتهم الطينية بفتحات نوافذها أو تحت ظل النخيل .

كان يمكن أن تصل القافلة بسهولة إلى قاع العقبة قبل أن ينتهي هيرمان من أخذ مقاساته واسكتشاته . وقمنا نحن في هذه الأثناء من التقاط الصور وتسلقنا من صخرة إلى صخرة حتى نرى أكثر ونثبت في أذهاننا بوضوح هذا المنظر لواد حضرمي نموذجي . ومن المشاهدة من أعلى يبدو أنه لم يتغير شيء في هذا الوادي . ورغم ذلك كنا نعلم أن تغييرا كبيرا في تاريخه الجامد وشيك الحدوث ، تغيير كان قد بدأ من قبل لسنوات خلت في حضرموت الداخل . استطاع الغرب أن يخترق تحصينات الجول والصحراء ، بل تمت دعوته بواسطة الحضارم أنفسهم . هل سيكون مجديا لهم في المدى الطويل ؟ كنا نتطلع بشغف لما يمكن أن نراه .

رأينا قبل ثمان سنوات أسلحة غربية ، اشتريت بأموال الشرق ، وجعلت الحروب المميتة أكثر دموية وأكثر استطالة . رأينا مباني جديدة نقلها الأغنياء من تلك التى شاهدوها في البلاد التى كانت مصدر ثرائهم . كان ذلك بداية التغيير. يبدو أن الفن المعماري المحلي البسيط القوي الجميل ، قد حكم عليه بالفناء . ولكن يبدو شيء جيد آخر من الغرب ، شيء يرسل همسة أمل عبر الصحراء المحيطة، ويحمل اسم "صلح إنجرامس" . هل سيكون مخيبا للآمال عند الاحتكاك بـه عن قرب ؟ هناك يقع وادي عمد : سوف نذهب ونرى بأنفسنا .

وصحبنا فقط صديقنا من باتيس ومحسن ، وهبطنا عقبة باتيس التى يبلغ ارتفاعها ١٣٠٠ قدما . إنها عمل حضرمي خالص . الضرورة هي التى أرغمت الناس في النهاية على التكاتف : المقدرة لإنجاز مثل هذا العمل الجسور كانت دائما موجودة . ولكنها أدت إلى حرب شاركت فيها قبيلة باتيس لسنوات وعزلتهم من الجول ليصلوا إلى النقطة التى أنجزوا فيها هذا العمل العظيم . لابد أن تكون لهم مواصلات مع منطقتهم الخلفية ، ومنطقة باتيس في الجول ، من أجل أن يحصلوا على إمدادات الغذاء والذخيرة . ونجحوا بعد سنوات من الجهد ، بجمع كل طاقاتهم ، لبناء خط الإمداد هذا في الجانب العمودي للوادي . إنها أكثر عقبة جسورة نشاهدها حتى الآن . وبشعور بالفخر الذي له ما يبرره ، أشار علينا دليلنا من باتيس إلى الصعوبات التى كان عليهم التغلب عليها . كان الممر على طول الطريق يتشبث بجرف منحدر أو يلتف حول وديان عميقة . نحتت أجزاء منه في واجهة الصخور الجيرية . وفي أماكن أخرى تواصل الممر فوق جسور من الصخر شيدت على جانب الجرف . ومن وقت لآخر هبطنا درجات من الصخر . في بعض الأجزاء تعرج الممر في منعطفات كالشعرة ترتكز على أبراج بنيت متكئة على الجرف وقواعدها فوق قمة منحدرات الحجارة . انزلق أحد هذه الأبنية في مرة وتحطم في القاع مع العمال . بعد ذلك استعمل العمال الأسمنت ورفعوا البرج من جديد . القصص التى رواها الدليل كانت حية حتى أني في عدة مرات جلست على الأرض وأشحت بعيوني عن المنخفض حتى أبعد صورة العمال وهم يندفعون نحو القاع . وكنا نقف في منعطفات الدرب وننظر إلى قاع الوادي ، مئات الأقدام تحتنا ، أو نتطلع نحو قمم الصخور الجيرية البيضاء الخلابة التى حفرت الرياح الرملية أسطحها قرنا بعد قرن . كانت طبقات الصخور الجيرية منكشفة في خطوط أفقية واضحة وهنا وهناك ألواح كبيرة تقف في واجهة الجرف، مازالت مستقيمة ، ولكن سرعان ما تتداعى وتنهار إلى القاع . جانب الصخرة التى ثبتت أحد هذه الألواح إلى واجهة الجرف قد اخترقت وأخذت الريح تزيد من اتساع حفرة فيها . وفي الأسفل وقفت الجمال مثل فئران صغيرة ، بعد أن أنزلت

منها الحمولة ، وارتحات من العناء . عندما كنت أجرجر أقدامي عبر الممر المتعلق بحافة الجرف ، لم أتخيل الجمال المحملة تتقدم خطوة إثر أخرى هابطة نفس الدرب . وعند تلك المنعطفات الحادة لابد أن رقابها الطويلة كانت تبرز بعيدا فوق الهاوية التى تدير الرأس .

استغرق إنجاز هذا العمل ثلاث سنوات لأن الزراعة تترك فقط جزء من السنة للعمل فيه فيمكن توفير خمسين رجلا في المتوسط في كل مرة . كانت تكلفته المالية قليلة . يكلف شق الصخرة إلي جزئين خمسين ريالا نمساويا ، وهذه حيلة تعلمها أحد أفراد القبيلة في الخارج . عمر العقبة الآن حوالي خمسة وعشرون عاما.

عند سفح العقبة رأينا مرة أخرى ، ورأى الآخرون لأول مرة ، ، نظام إمداد الماء للمسافرين في وادي حضرموت ؛ تلك هي السقايات وهي بناء صغير، حوالي ثلاثة أقدام مربعة وارتفاعها خمسة إلى سبعة أقدام وسقفها قبة مطلية بالجير الأبيض البهيج مثل المساجد والقباب ومنازل الأثرياء . ثبت في داخل السقاية حوض تلمس أطرافه الجدران من كل جانب . وفي أعلى الحوض فتحات صغيرة بها إناء خشبي للشرب وأغلبها هذه الأيام من الصفيح . عن طريق هذه الفتحات في الجدار يغرف المسافرون الماء من الحوض لإطفاء ظمأهم . مساعدة المسافرين فضيلة للمسلم لأنها واجب ديني والسيارة مدينون لها ببقائهم وتزويدهم المستمر . إنه عمل جليل أن يكتب الشخص في آخر وصية له بناء سقاية وملئها يوميا بالماء . ووجودها مبرر فقط في الأماكن التى يمر بها المسافرون بانتظام وبما أنها يجب أن تملأ يوميا فهي موجودة فقط في المناطق المأهولة . النقاط البيضاء اللامعة ، تشير إليها من بعيد وتشاهد تلمع بجنب الممر وتسبب راحة كبرى للذين يسافرون في الوديان الحارة .

انتهى هبوطنا للعقبة بزيارة موعودة لمنزل صديقنا من باتيس حيث توجد زوجته من الوادي . إنه في قرية مخية . وبعبورنا مزارع نخيل وحقول ذرة جميلة وصلنا نفقا مائيا ربما يعود إلى أزمان قديمة . بالقرب من النفق ، ومحاط بشكل قريب بمنازل القرية ، يقع حوض مستطيل جنباته المنحدرة مبلطة ناعما بالأسمنت . إنه بالتحديد في شكل حوض سباحة ضخم .ودائما عندما تكون موجودة ولها ارتباط بخرائب جاهلية فإن هذه الأحواض لها شكل أحواض سباحة مائلة الأجناب . لابد أن يكون أصلها حميري لأن السكان الحاليين ما عادوا يعرفون صناعة الأسمنت الرائع الذي استعمل فيها . أخبرنا أهل مخية أنه يوجد ٣٠٠ حوض في منطقتهم منها القليل فقط الذي تمت نظافته من الرمل والأوساخ التى ملأته . هذه الأحواض مؤشر واضح على المستوى الحضاري الذي وصله

الوادي في الفترة الحميرية . بها شيء معوق الآن ، عندما تمتلئ فقط بالسيل ، فإن الماء الذي يبقى لفترة طويلة يصير أخضرا ولزجا . ولابد أن أنها تشكل خطورة كبير من وجود الملاريا.

واحد من جملة الأسئلة التى يسألها الإنسان في منطقة جديدة يكون عن الآبار . يمتلك الناس هنا العديد منها ، عمقها بين عشرين إلى خمسين قامة . القامة هي المسافة بين أطراف الإصبع الوسط من كل يد عندما تكون الأذرع ممدودة : أي حوالي خمسة أقدام ونصف . فقط بئر واحدة عمقها خمسون قدما . إنها الحرب مرة أخرى التى قادت إلى حفر الآبار بهذه الكثرة . تقريبا كل منزل له بئره . من الواضح أن وادي عمد لم يكن غريبا على الحرب .

وصلنا في هذا الأثناء إلى منزل قائدنا من باتيس ، مسكن طيني عال بني فوق مساحة صغيرة نسبيا . المنافذ المربعة صغيرة بحيث يمكن تغطيتها براحة اليدين . والغرف أيضا في مثل هذا البرج ليست كبيرة وإنما منخفضة ومعتمة. وداخل هذا المنزل الفقير غير الجذاب بتاتا وذكريات تجارب سابقة جعلتنا نتبع دليلنا في ريبة . ولكن مضيفنا أكد أن المكان نظيف وأعلن أنه يجب على الأقل أن نشرب القهوة معه ونذوق أول تمر حضرمي في منزله . إنها من تمر العام الماضي ، تم ضغطها في شكل كيك قوي لحفظها ، ولونها بني ومليئة بحصى التمر. ومن الواضح أن الكيك لم يتم التعامل معه بالنظافة المناسبة ولا يبدو عليه أنه شهي ؛ ولكن قبول الضيافة يفرض علينا واجبات وعندما أخرجنا بعض قطع منها بأظافرنا وجدنا أن طعمها لا بأس به .

سرعان ما امتلأت الغرفة بمجموعة مزعجة من الجيران البسطاء الذين هرعوا من حقولهم والطين ما يزال في أيديهم . كانت أصواتهم عالية وخشنة ، أصوات ناس ظلوا طوال اليوم يصيحون على جمالهم في المحراث أو الساقية . كان صياحهم مرهقا مما جعل اللهجة أولا تكاد تكون صعبة على الفهم . ولديهم الكثير جدا ليقولوه ، فغمرونا بالأسئلة ، وبالشكاوى أيضا . وكانوا في هذا الأثناء يبصقون بعنف وبتصويب محكم عبر فتحات النوافذ الضيقة . وكان بصاقهم يمر عبر السيدة فيسمان مما جعلها في غاية الامتعاض . فأرغمنا على التدخل واعتبروا تدخلنا فيه نوع من الشذوذ ، ولكن منذ ذلك الوقت أخذوا يبصقون تحت الحصيرة التى نجلس عليها برفع أطرافها . مسألة أخرى أزعجت هدوء بالنا . كان رفيق دربنا مرة أخرى الذي اكتشف أولا أن المسكن الفقير هذا يأوي جيشا من الحشرات . زحفت في أنواع أكثر مما يمكن التعرف عليها .كانت قملا أحمرا صغيرا ، وآخر أبيض صغير ، والنوع المسطح المألوف لم يكن غائبا . وسرعان ما كنا منشغلين بالحك والذبح ، وهو نشاط لم يلتفت إليه رفاقنا ولم يخدم بأي حال

في مقاطعة المناقشة . اعتبرونا في البداية بريطانيين وكان المتوقع منا أن نخبرهم عن ما سيحدث بعد انتهاء سنوات الهدنة الثلاث . لقد سمعوا أن عليهم أن يدفعوا ضرائب بعد ذلك . وهذا ما لن يفعلوه ! أخبرتهم أني لا أعرف أي شيء عن الضرائب : هذا شغل الحكومة في عدن وإنجرامس في المكلا . ولكنهم تشبثوا بالنقطة .

ثم قلت إنه من المستحيل أن تكون لهم حكومة جيدة دون أن يدفعوا لها وفي كل بلدان العالم يدفع الناس لحكوماتهم بالضرائب . ولا أرى لماذا لا يدفعوا ضرائب إذا رغبوا في أن يكونوا بلادا تحكم جيدا . لا شك أنهم الآن قد مروا بتجارب كافية عن ماذا تعنيه الحرب .

في هذه الأثناء هربت السيدة فيسمان من الغرفة الخانقة ، والحشرات والألسنة الصاخبة . لاحظ مضيفنا حك أجسامنا وكان خجلا ، وأيضا من أخلاق جيرانه الفظة . لا يستطيع طردهم ، ولكنه قال توجد في السطح غرفة صغيرة وهي نظيفة . فذهبنا إليها . لم تكن نظيفة ولكننا نعمنا أخيرا بالهدوء وتمكنا من فوق السطح الذي تحرقه الشمس أن نأخذ عددا من الصور لقرية مخية المشيدة فوق أساس حميري .

أحضروا القهوة . والحشرات بالتأكيد أقل عددا هنا . اشتكى مضيفنا من نساء العرب . المرأة التى يستأجر منها المنزل لسنوات لم يعبر حتى عتبة دارها . بعد القهوة استطعنا أن نفارق هذا الرجل الذي يعيش حياة مزدوجة : تاجر صغير، ومرابي ومكافح منتج في مدينة في جاوا ، وفي نفس الوقت بدوي ، ترك قلبه في الجول وفي الوادي حيث حياة الفلاح الشاقة وراعي قطيع صغير حقق له في النهاية رغباته المستحبة .

انتظرت قافلتنا تحت ظل أشجار النخيل حتى انتهت أكثر ساعات اليوم حرارة ، ثم واصلت السير قدما إلى وادي حضرموت .

الفصل الرابع عشر

{ في وادي عمد }

لم تكن الرحلة عصر اليوم الأول عبر الوادي سهلة . صحيح ، لم تكن الحرارة عالية فوق الجول أثناء النهار ولكننا استمتعنا بالنسمات المستمرة . هنا نحن منغلقون في واد ، بل في أعماق الوادي حيث تطفو الحرارة فوق الأرض في أمواج ضبابية وتنعكس من جدران الصخر . بدأت راحة أقدامنا تتألم وأرهقت عيوننا أصبحت حمراء من التحديق المستمر في الحجارة الزرقاء البيضاء لاستطلاع مكان آمن لكل خطوة . وحيثما أردنا أن ننظر حولنا نحو المساكن الطينية في القرى الصغيرة فوق ركام الحجارة كان علينا أن نتوقف برهة لنستعيد توازننا فوق قمة الجلاميد . حدث هذا مرارا ، لأن كل شيء كان جديدا بالنسبة لنا، تفتقد المنازل الفن المعماري الجذاب مثل تلك التى في وادي جردان ولكن بساطتها والنسب الجيدة ، والطريقة التى تنسجم بها مع المنظر الطبيعي المحيط بها ووضع أشجار النخيل ، التى أصبحت فيما بعد غائبة في وادي جردان ، أعطي وادي عمد سحرا خاصا .

وسرعان ما أدركنا إمكانية الوصول إلى مدينة عمد الصغيرة قبل غروب الشمس . ذكريات الليلة واليوم التى عشناها هيرمان وأنا قبل ثمان سنوات كانت تجربة مريرة . فالناس الذين كانو من الممكن أن يساعدونا في طريقنا ، عاملونا كنصارى بحقارة وكانوا إما غير راغبين أو تنقصهم الشجاعة لقيادتنا بسلامة عبر منطقة الحرب . وفي النهاية أعطونا عبدا أسود لإرشادنا . وغادرنا عمد بعد الظهر ونحن مغتاظون من تلك المعاملة واتجهنا إلى العقبة التى تقود إلى جول بدو الدين. ومن البعد كان الحراس يطلقون علينا الرصاص من بنادقهم عندما كنا نتسلق ، وأرغمونا على الجري من صخرة لصخرة بحثا عن ساتر قبل أن نصل إلى الجزء المحمي من العقبة . كان ذلك وداعنا لوادي عمد قبل ثمان سنوات .

ولهذا السبب حاولنا تجنب الاتصال بمدينة عمد وقررنا أن نعسكر تحت جدار الوادي الشمالي الذى يواجهنا . أن نكون في العراء ، بعيدا من التعقيدات التى يمكن تسببها عمد ، أعطانا شعورا بالحرية والراحة . وما كدنا ننتهي من تنظيمات معسكرنا حتى اقتربت منا امرأة عجوز تطلب المساعدة لطفليها . وذكرت لنا قصة نموذجية بالنسبة لحضرموت في تلك الأيام . وقع أهالي عمد على معاهدة الصلح ولكنهم ارتكبوا أعمالا عدوانية فأصرت الحكومة على تسليمهم رهائن لتمنع أي خرق للاتفاق في المستقبل . ممثلو حكومة المكلا هنا كانوا من عائلة باصرة ، أبناء الحاكم الحيوي السابق لوادي دوعن (١) . ويبدو أنهم واجهوا مهمة شاقة مع أهالي وادي عمد المتمردين . فأخذوا طفلين يتيمين كرهينتين واحتجزوهما في قلعة الحاكم في دوعن . ماذا يمكن أن تفعل جدة عجوز إزاء هذا؟ وعلى الرغم من أننا حاولنا أن نشرح لها أنه لا شأن لنا بالحكومة فإنها لم

تصدقنا ولم تسمح لنفسها تحمل مشقة الطرد قبل أن نسجل كل الحقائق ووعدناها بأننا سوف نتحدث مع إنجرامس شخصيا . يستخدم أخذ الرهائن في جنوب الجزيرة العربية كوسيلة هامة منتشرة لاستتباب الأمن . وعندما يفكر الإنسان في أولئك البؤساء وهم يرسفون في قيودهم في المنفى ، يصبح الواحد مقتنعا أنه بامتداد النفوذ البريطاني فإن هذه الممارسة القاسية لابد أن تنتهي . ولكن عندما يؤخذ الضعفاء الذين بلا حماية رهائن فإن هذه الفظاعة تصبح ممقوتة مثل شرور الحرب التى تحاول أن تمنعها.

واجهنا إزعاجا متكررا في معسكر وادي عمد أكثر من الجول . ورغم أن مجرى السيل في الوادي واسع ، فكان من الواضح أن عددا كبيرا من الناس يعيشون على مسافة قريبة جدا . جاء الفضوليون ليلقوا نظرة ، والبعض الآخر يدعي أننا نعسكر فوق أرضه وعلينا ان ندفع . لم نوافق على الدفع ولكننا خطبنا ودهم بشراء علف الجمال منهم . لا يسمح للجمال بالرعي طليقة لأنها قد تدخل البساتين والحقول المزروعة القريبة من المعسكر . ربطت عقالات على ركب الجمال ووضعت في دائرة حول قصب الذرة الذي اشتريناه لعلفها . وكانت تلك ميزة أن تكون الجمال قريبة حتى لا نضيع وقتا في الصباح في البحث عنها إذا تجولت بعيدا .

تحركنا مبكرا صباح اليوم التالي . نجحنا في تفادي مدينة عمد التى ما زالت مختفية في ضباب الصباح عندما التففنا حولها على مسافة آمنة . وهكذا تفادينا أيضا واجب تسجيل زيارة للسلطات المحلية . وعلى جدار الوادي المقابل تعرفنا على العقبة التى كانت طريق خروجنا من الوادي في رحلتنا الأولى . ظاهريا لا يبدو أن هناك شيئا قد تغير ، على ان الوادي كان مختلفا تماما . الآن يسير الرجال بدون بنادق والنساء والأطفال يعملون بدون حراسة في الحقول اليانعة . لم يهربوا بعيدا عندما لاحظونا بل أقدموا نحونا لتبادل حديث ودي . وعندما رأوا أننا نلتقط ثمار الدوم اليانعة التى سقطت تحت الأشجار أصروا ان نشاركهم في ما لديهم . حقول الراسب الطفالي محروثة جيدا . سوف ينقضي أسبوع أو ما يقارب ذلك قبل أن يأتي سيل وافر إلى الوادي ، وهنا وهناك في الأماكن المنخفضة ما زال الماء موجودا . أغلب الحقول زرعت حديثا أو مغطاة بالذرة الصغيرة البنفسجية .

توقفنا لراحة منتصف النهار عند سراوة تحت ظل شجرة علب كبيرة . جاء عدد كبير من الناس من القرية لتحيتنا ولمعرفة الأخبار في نفس الوقت . كانوا في غاية المودة . هل ذلك فقط لأنهم استشفوا وجود علاقة بيننا وبين إنجرامس ؟ وبما أن بعضهم كان في جاوا تواصل التخاطب بالملاوية مما أعطى

اللقاء المزيد من نغمات الإلفة . وفيما بعد أحضروا ماء الشرب الجيد والوقود من القرية وعندما سرنا فيما بعد عبر سرواة نفسها تجمع السكان حولنا بلهفة وحاولوا استعراض معرفتهم باللغة الملاوية ببعض الكلمات.

بعض السواقي التى سرنا عبرها كانت فارغة ربما بسبب العمل في المزارع الذي كان على أشده . ولكن الاحتمال الأكبر أن يكون ذلك بسبب الأمطار التى هطلت مؤخرا وخلفت على طول ممر مجرى السيل بحيرات صغيرة وفرت ماء شرب حلوا للمسافرين الظمآنين . توجد في بعض الأماكن ينابيع صغيرة في جدار الوادي حيث ترتكز طبقات الحجارة الجيرية على الحجارة الرملية . عرفنا الينابيع من البعد بالأحواض البدائية وعليها جبص الجير ، وتحمل قطرات الماء لحوض مجاور . تظهر على البعد مثل شريط متعرج من لون أبيض يشع . كان تقدمنا بطيئا خلال فترة بعد الظهيرة . يقع الممر فوق حجارة مستديرة ، وأحيانا عبر قنوات ري جافة عند سفح جدار الوادي مرورا بالعديد من القرى الصغيرة حيث لفتت قافلتنا نظر جمهور فضولي سد علينا كليا الشوارع الصغيرة . في قرية شامخ سقينا الجمال وملأنا قرب الماء من خزانين حميريين كبيرين . أحدهما طويل وضيق ، مقاييسه مائة وعشرين في ستين قدما وله نفس الشكل التقليدي لحوض الحمام . يحتوى ماء للغسل . ويحتوى الثاني على ماء الشرب ومقاييسه ستين في ثلاثين قدما . القرويون الكثيرون الذين كانوا منهمكين في الغسيل أو رفع الماء والآخرون الذين جاءوا للفرجة كونوا مجوعة مرحة وثرثارة .

سرنا خلال كل فترة ما بعد الظهيرة عبر شريط من الأرض واسع مزروع وكان هادئا تماما حتى أمكننا أن نمضي عبر الوادي ، بدون أن يصحبنا حراسنا ، والتقطنا صورا لقرى الجدفرة ، خنفر ، والسيلة ، والمصانع ، وقرن المال وكانت وقتها تتوهج في ضوء الشمس . يخيم على تلك القرى صمت مميت . ولا يسمع سوى صياح ديك أو نباح كلب لأن كل السكان يعملون في الحقول . ولم يتركوا حارسا واحدا لحراسة القرية . لم يصح فينا أحد ولا حاول إيقافنا ، فقط جاء الأكثر فضولا يخبون وبمصافحة ودية بالأيادي طرحوا الأسئلة العادية : متى وكيف ولماذا . وعندما يكون بينهم حضارم من جاوا يصحبوننا لمسافة قصيرة يتحدثون ويطرحون الأسئلة . ويقف الأطفال جانبا في خجل .

وحسب ما يقول الناس فهذا الوادي لابد أن يكون مليئا بالآثار الحميرية . أشاروا إلى بعض قمم التلال التى تتمتع بموقع استراتيجي ملائم والاحتمال الكبير أنها بقايا قلاع . وأشاروا كذلك إلى الحرب التى دارت على أيامهم . أبراج ، أسوار ، خنادق ، كلها لها نصيبها في قصة المعارك المستمرة التى دارت قبل زمن ليس طويلا . لفتوا انتباهنا بشكل خاص إلى بعض الخنادق الطويلة . لقد تم

حفرها بجهد جهيد في الليل من أجل الاقتراب من القرى التى ينـوون غزوهـا أو ممرات آمنة بين القرى والبساتين . وفجأة أصبح كـل ذلـك لا معنـى لـه . إن العبقرية السابقة والمثابرة في الهجوم على الآخرين تبدو الآن سخفا لا معنـى لـه يسخرمنه الرواة كما يسخر الشخص على حلم مزعج بعد أن يصحو منه .

رأينا في الطرف الأقصى من القرية شيئا جديدا - مخازن تحـت الأرض لعلف الماشية وأقبية حفرت في استحكامات من الحجارة ثبتت عليها أبواب خشبية. وخزنوا في الداخل قصب الذرة . وفي الوادي حيث الكثافة السكانية عالية وجـزء منه فقط مزروع لا يمكن ترك الحيوانات لترعى باحثة عن قوتها ، لذلك لابد مـن توفير المؤن لها .

على الرغم من الدعوات الملحة العديدة التـى تلقيناهـا مـن الحضـارم الجاويين لقضاء ليلة في منازلهم ، فقد واصلنا السير في الظلام بحثا عـن مكـان غير مأهول في الوادي لنقيم معسكرنا في العراء . وربما يكون آخر معسكر لنـا لعدة أسابيع تالية . نقترب من حريضة حيث يقيم العديد من أصدقائنا . وبعد ذلك ، عندما نكون في وادي حضرموت ذاته ، سوف نمضي من قرية لأخرى وهنـاك نجد الأصدقاء الأثرياء الذين يمكن أن نقضي الليل في منازلهم الجميلـة . وذلـك شيء خلاب في حد ذاته .

قبالة حصن يحنس ، نصبنا معسكرنا في الظلام . تبع قافلتنا رجل مريض جدا على حمار ، يصحبه اخوته الأوفر صحة يعاني كثيرا مـن الأزمـة ونفتقـد المعرفة الطبية التى تساعده . ولكنه شعر بالرضى عندما سمع منا أن الله خـير مع البشر وأننا سوف نخدمه . بالنسبة لهؤلاء الناس ليست هذه كلمة عـابرة مـا عادت توفر لهم العزاء . الإسلام ، وهو يعني الخضوع لله , يمثل بالنسـبة لـهم حقيقة تجيب عن كل الأسئلة . وفي المساء رجع الرجل المريض على حماره إلـى القرية ومعه اخوته يسيرون بجانبه ، ولعله شعر ببعض الراحة وهو يمسك بإحكام زجاجة الدواء التى أعطيناها له .

الكل هنا يعرف إنجرامس ، وملم بنشاطه في هذه السهول . ما شـاهدناه اليوم ، المفارقة بين وادي عمد قبل ثمان سنوات والحاضر ، جعلنا نغبط الرجـل الذي أوكلت له هذه المهمة . هناك نقد من المواطنين ومـن الأجـانب مفـاده أن الصلح لم يتحقق بدون إراقة دماء . ونأمل فيما بعـد أن ننـاقش مـع إنجرامـس شخصيا في هذا الجانب من الصورة . أما أنا فمقتنع أن سلاح الطـيران الملكـي استطاع بقنابل الإنذار وبالقنابل الحقيقية القليلة التي ألقاها أن يحقق مهمة السـلام . لقد أرغم أباطرة الحرب على الإدراك أنه قد وضعت نهاية لحكمهم المزري ، وأن جولاتهم التى استمرت طويلا جدا قد انتهت بلا رجعة . والآن كـل البـلاد التـى

انتظرت صلح إنجرامس طويلا بدأت تنتعش ولن تقبل أبدا تبديله بالحرية القديمة التى كانت في الواقع رابطة غير إنسانية .

شاهدنا الآن في وادي عمد فلاحين تركوا بنادقهم عديمة الفائدة في منازلهم، والنساء والأطفال يسيرون بلا هموم وسعداء في الممرات التى كانت مهجورة أو يعملون في الحقول التى كانت خرابا . والمنازل التى ما كان من الممكن الاقتراب منها بدون أن يعلن الشخص عن نفسه ويطلب الإذن بالتقدم والتى كانت هي أيضا مشحونة بالرجال المسلحين ، ومعظمهم ضاق ذرعا حتى الموت بكل ذلك ، أصبحت الآن خالية . فالناس يوسعون حقولهم وبساتينهم بحرية .

واصلت القافلة سيرها ووصلت حريضة في التاسع عشر من أبريل . كان هذا يعني بالنسبة لنا أن نلتقي مرة أخرى مع أصدقائنا الطيبين القدامى ، أسرة السيد العطاس . بعثنا فقط ذلك الصباح رسالة نعلن فيها وصولنا . وقبل أن يجدوا فرصة للقيام باستعدادات واسعة لاستقبالنا سنكون معهم .

الجزء الأسفل من وادي عمد ، أي بالقرب من التقائه مع وادي حضرموت، زراعته قليلة . فلا تحتاج القافلة إلى دفع زائد لتسرع بخطوها ، على الرغم من أن بعض رفاقنا غير ملمين بهدفنا لذلك اليوم ، فقد سمعوا ما فيه الكفاية عن روائع حضرموت وعن ضيافة وكرم السادة مما يجعلهم يسرعون متلهفين .

واجهنا قبل ثمان سنوات بالقرب من حريضة مدينة السادة ، الحرب وانعدام الأمن ، وبقي الكثير الذي يذكرنا بتلك الأيام . المنازل في الحقول عبارة عن أماكن حصينة يمكن منها الإشراف على كل المنطقة المحيطة التى يمكن الدفاع عنها ضد الجيران المقاتلين . هذه المساكن ذات الأبراج العالية ، موضوعة في صفوف على امتداد جدار الوادي ، وهي جذابة جدا وتعتبر قرية المسور نموذجا حضرميا جيدا . كان الناس هنا في شغل يرفعون الماء من الآبار التى حفرت حديثا لري بساتين النخيل الأحدث . الأرض الجرداء أعادت إلينا زمن الحرب . استطاع الناس في تلك الأيام أن يواصلوا حياتهم هنا ، ويحفظوا ممتلكاتهم سليمة ، وذلك بفضل الأموال المرسلة من جاوا . في رحلتنا السابقة وجدنا ريفا خاليا ، وسكانه أسرى داخل بيوتهم :الآن يسيرون بدون بنادق وبدون الرغبة في الفرار عند قدوم الأغراب .

طبقات الراسب الطفالي وفيرة هنا وهذا الجزء من وادي عمد يمكن تحسينه بسرعة بالمساعدة المالية من الخارج . على أن التطور يمكن أن يتعرقل بسبب غياب العديد من الرجال في الخارج ، بالذات أولئك الأكثر حيوية . عندما يعودون إلى بلادهم بعد سنوات في الغربة فإن العمال الزراعيين يتلفونهم . ولكنهم لا يفقدون أبدا الرغبة الحضرمية المميزة في بناء منازلهم الخاصة بهم ، في قطعة

أرضهم الخاصة ، في موطنهم . كلما اقتربنا أكثر إلى المنطقة المتأثرة بجاوا والملايو ، رأينا البراعة المحلية في تشييد المباني وتقلب الأذواق الذي انحط بهندستهم المعمارية .

لاح في البعد جبل زهران (٢) العالي ، الشموخ الصخري الذي يحدد ركن وادي عمد ووادي حضرموت . وعند سفحه على الجانب الشرقي ، شيد حضرمي جاوي مزرعة – حصن لعائلته الكبيرة وحاشيتها من الخدم . واختار صخرة مسطحة أمام جدار الركام موقعا وفوق سطحها الواسع بنى المنزل . وأقيمت المصاطب التى بنى فوقها العبيد والخدم مساكنهم ، وكانت حظائر الماشية مشيدة في الصخر . الجدران العالية تحمى الصساطب ويقع المدخل الصلب في خط مباشر من نيران فتحات القنص في أسوار المنزل . فإذا عادت أيام الحرب التعيسة فإن هذا الحضرمي سوف يضمن سلامة أهله وممتلكاته . سيغلق بواباته ، ويضع الرجال في الأسوار ثم يعيش مقطوعا عن العالم الخارجي ولكنه مستقل في مملكته داخل قلعته . هكذا كان يحلم وهو طفل ، وبفضل المال الذي حصل عليه من جاوا، استطاع أن يحقق حلمه . وكان وفيا لنمط الحياة التقليدي لأسلافه .

هوامش

(١) يقصد المقدم عمرباصرة الذي زاره المؤلف في رحلته الأولى عام ١٩٣١ . راجع كتابه سالف الذكر ص:٨٣-٩٢ . تحدث عن باصرة أيضا الشيخ عبد الله الناخبي وأشاد باستقامته ووصفه بالزعيم الكبير والعبقري المقدام .(راجع كتابه: حضرموت . جدة ، ١٩٩٧ ، ص ٩٩ – ١٠٣) .

(٢) لعله يقصد جبل حجلان

الفصل الخامس عشر

حريضة ، المدخل إلى حضرموت

نجحت خطتنا لدخول المدينة بدون احتفال وإقامة علاقات فورا مع أصدقائنا آل العطاس في موطن أسلافهم . كانت أخبار قدومنا قد وصلتهم لتوها . جاء السيد حامد علي العطاس يجري من بستان نخيله في لبس العمل . أما عمه ، محمد بن عبد الله بن أحمد العطاس ، رأس العائلة في حريضة ، فقد انتظرنا في المنزل . السيد علي بن أحمد بن حسين العطاس والسيد عبد الله بن هارون العطاس جاءا وانضما للسيد حامد . السيد علي هو ابن سيد أحمد الشهير الذي توفي قبل نحو من عشرين سنة وكان رجلا له نفوذ واسع على امتداد حضرموت. كان السيد حامد صديقنا في زيارتنا الأولى . لم يتزحزح من كرسي العائلة ولكنه صرف كل طاقته في بناء المنازل وتوسيع البساتين . سيد عبد الله بن هارون بن حسين العطاس كان مدير المدرسة التى تصرف عليها عائلة العطاس من الدخل الذي يأتي من بعض المنازل في بتافيا والتى اشتريت خصيصا لهذا الغرض . إنها مدرسة حديثة بمنهج شامل . السيد حامد العطاس يعطي دروسا في الحساب والرسم ويستعمل كتبا من جاوا .

دخلنا حريضة وأيدينا في أيدى هؤلاء السادة . لقد تغير الكثير هنا . بنيت منازل كبيرة وجزء منها , يا للأسف ، انحط لاحتوائه على تقليد غربي . المسجد المركزي ، الذي لم يكتمل عام ١٩٣١ ، اكتمل الآن وهو مطلي بألوان زاهية ويحمل نقوشا طويلة . نفضل النمط الحضرمي القديم الخالص من المساجد بمآذنها النحيلة البسيطة المستديرة ، وبياض جدرانها المتآكل الذي انصبت عليه موجات الأمطار النادرة وهبت عليه رياح الصحراء باستمرار ، فأكسبتها اللون المصفر البني .

المساجد هي معالمنا في هذه المدينة الصغيرة حيث تهدم الكثير ولكن شيدت مبان أكثر حتى تعرفنا على المكان بصعوبة . أضيفت مساجد جديدة . بعضها فيها اختلاف عن الشكل التقليدي المخروط المقطوع الرأس ، فأصبحت لها مآذن مربعة ولكنها احتفظت بالأشرطة القديمة المفتوحة التى تكونت بوضع قرميد في تسلسل مستمر مستقيم ومثلث متساوي الأضلاع يقف على رأسه . وأسوار المسجد وفي الغالب قمة المآذن بها فتحات متدرجة . لقد شيدها مهندسون معماريون يعرفون كيف ينحتون أفكارا جديدة بروية فوق خرائط قديمة وحافظوا على البساطة الحضرمية التقليدية والإحساس بالنسب المتناسقة .

ساد الصمت في حريضة . كان الصوت الوحيد الذي يسمع أغناني السقاة الذين يرفعون الماء في الأحواض البيضاء فوق الآبار . مسألة إمداد الماء مشكلة كبيرة بالنسبة للمدينة ورفع الماء من الآبار العميقة يستمر طوال اليوم .

يقف قصر آل العطاس على بعد مسافة قصيرة من المدينة . وبه سور واد متداع ومحاط بجلاميد ضخمة اندفعت متدرجة إلى أسفل وشكلت كخلفية جذابة. أضيف جناح إلى الواجهة في السنوات الأخيرة ولكن البقية ظلت بلا تغيير ، مركز عائلي متواضع حيث مر عليه في السنوات الثماني الماضية أي مسافر في حضرموت ولقي استقبالا وديا واستمتع بالضيافة ، حيث ارتاحوا من إرهاقهم وتلقوا نصائح لاستكشاف المزيد من البلاد . من هذا المنزل شارك الأبناء المحبون للمغامرة الرحالة وأسهموا لحد كبير في نجاح رحلات كثيرة .

السيد محمد ، نفس الشخص الذي رحب بنا عام ١٩٣١ ، كان يقف أمام المنزل لاستقبالنا . ابتهاجه بمفاجأة اللقاء كانت دليلا على الترحاب الذي سنلقاه هنا، على الرغم من أن جماعتنا كانت أكبر بكثير ممن صحبنا في رحلتنا الأولى . بالنسبة لجنود ورجال القافلة بدأ التصافح بالأيدي وكلمات الترحيب أيضا ودعوهم كلهم إلى المجلس الواسع أو غرفة الاستقبال ، حيث السجاد يغطي الأرض ، والجدران والسقف النظيف جعلتنا نرسل آهة ارتياح . خلعنا أحذيتنا عند الباب وجلسنا حول الجدران متكئين على المساند النظيفة ونعمنا براحة بلا إزعاج . حدق الجنود ورجال القافلة في دهشة إلى الضوء المشرق والألوان . وقبلوا باحترام يد كل سيد موجود ثم أخذوهم إلى غرفة أخرى يقدم لهم فيها الطعام ويكونون أكثر حرية .

وجلس معنا الرجال من الأسرة ، وكان الزوار الجدد يفدون باستمرار . وحملت معي تحيات من أقرباء لهم من جاوا ومصر . هناك الكثير الذي يحكى واستمتعنا بذكريات جمة . المودة التى لقيناها هنا كانت طبيعية لحد بعيد وعفوية وخلقت لدينا شعورا بأننا نعود إلى وطننا بعد رحلة طويلة ومرهقة .

طلبوا منا أن نحكي تجربتنا من عدن إلى هنا وأظهروا اهتماما كبيرا بخططنا للمستقبل . كان وصولنا إلى منزل آل العطاس يعنى بالنسبة لنا إنجاز الجزء الأكثر صعوبة من رحلتنا . هنا نحن في حضرموت أرض الأصدقاء والحضارة. ومن الآن فصاعدا سوف نسافر من منزل مألوف إلى آخر . وكنا نأمل أن نلتقي بالعديد من الرفاق القدامى . سوف نطرح عليهم بأفكارنا ونجمع انطباعاتهم ونقدهم ونتلقى نصائحهم حول ما تبقى من رحلتنا .

تعنى حريضة الكثير بالنسبة لنا . جئنا إلى هنا بفضل تشجيع السيد علوي العطاس ، قابلنا هنا أخاه النشط سيد حسن ، ووثقنا روابط الصداقة مع السيد علي العطاس ، المغامر الجسور الذى أصبح رفيقنا في رحلات صعبة ؛ وقام ثلاثتهم بدور المرشد لفريا استارك وإنجرامس في رحلاتهم الرائدة التى فتحت الطريق إلى حضرموت وأغنت لحد كبير الأدبيات عنها .

أعرب السيد محمد عن امتنانه بالنيابة عن أسـرته علـى كتابنـا عـن حضرموت وعلى خريطة هيرمان ، وقد حصل عليهما بعد رحلتنا الأولى . الأبناء الذين يقرأون الإنجليزية اخبروا آباءهم عن محتويات الكتـاب . ويعتقـد أولئـك الشباب أن الكتاب ساعد الفصل الدراسي الذي يشرف عليه السيد في صراع السادة من أجل الاحتفاظ بالامتيازات الطبقية التى كانت عرضة لانتقـادات عنيفـة مـن الشباب الحضرمي الديمقراطي من غير السيادة .وكانت تلك أصداء للهجوم الـذي يجري في الخارج في بلدان المهجر الحضرمي حيث الشباب الديمقراطي ينعمـون بالأمان تحت حماية الحكومات الغربية . وكان الصراع في جاوا عنيفا والعنـاصر من غير السادة في غاية النشاط تحت تنظيمهم الإرشاد . وكانت إجـابتي : علـى الرغم من أنني أكتب الكتاب بدون غرض سياسي إلا أنه كـان علـي أن أكشـف الضعف والقيم العتيقة للسادة .

كان لكتابنا نتائج غير متوقعة بالنسبة لأصدقائنا في حريضة . فقد أصبـح بالنسبة للعديد من الرحالة الذين جاءوا من بعدنا دليلا إلـى مـنزل آل العطـاس المضياف. بعضهم بقي فيه لأشهر متتالية . وأكدوا لنا أن النتيجـة كـانت جيـدة ويقدرونها كثيرا. وكانت فريا استارك قد عاشت في حريضة عدة أشـهر ونمـت بينها وبين مضيفنا صداقة حميمة . وجد علماء الآثار والجيولوجيون في حريضـة مركزا تمكنوا أن يقوموا فيه بعمـل برهـن علـى أهميتـه القصـوى بالنسـبة لحضرموت. وأطل عليهم إنجرامس عدة مرات ، وقامت مسز إنجرامس ، التـي تعرف عادة باسم دورين ، بزيارات طويلة متعددة وكانت ضيفا لقي حفاوة بالغـة . إن الاتصالات مع كل أولئك الناس برهنت على أنها محرك مبهج للحياة الهادئـة في حريضة .

سألونا بالطبع إذا ما كنا قد وجدنا في البلاد تغييرا كبيرا . أجبنا عن يقيـن بالإيجاب . بقي كل وادي عمد في ذاكرتنا بلادا خالية ومنازل منيعة عالية وأناسـا كثيرى الشك انتهوا بأن أرسلوا طلقات نارية خلفنا . وجدنـا الآن مناخـا سـلميا ونشاطا ومرحا وثقة أخوية ، وأخيرا وليس آخرا ، مجهودا زراعيا يبشر بزيـادة الرفاهية .

الصبية من الخدم يجلسون في ركن المجلـس خلـف السـموار اللامـع ويقدمون أكواب الشاي المتتالية لإنعاش المسافرين الظمآنين . شاي جاوا الذهبـي البني ، وهو الشراب المثالي في هذه الظروف ويصب على قطعة سكر في أكـواب صغيرة رقيقة ، وهو الشراب القومي في حضرموت الحديثة .

في هذه الأثناء فرشت قطعة قماش على السجاد فـوق الأرض ورصـت فوقها الصحون . دعونا إلى وجبة بها أكل حضرمي وجاوي ، جنبا إلى جنـب .

لكم تمتعنا بهذا الأكل الراقي والمتنوع بعد الأكل العربي الثابت حيث الكمية والقوة هما العاملان المهيمنان .

وبما أن ظمأنا لم ينطفئ تماما فقد أحضروا لنا آنية شرب كبيرة من الفخار انتقلت من يد إلى يد في فترات متقطعة . وضعت طاسات الماء على حافة الشباك حيث يبخر الهواء الجاف الماء الذي يرشح من جنبات الإناء فتبرد محتوياته . ماذا يمكن أن يكون أكثر بهجة من مسك إناء كهذا بكلتا اليدين وامتصاص الماء بشفتين ممدودتين في جرعات من الماء البارد المنعش المتوفر ؟

تقع حريضة في داخل دائرة الراديو الذي يبث أخبار العالم . ويصل مرة في الأسبوع غلاف أزرق لكراس مدرسي به سجل لأحداث العالم في الأسبوع المنصرم كما سمع في جهاز الإرسال في سيئون . هذه الدفاتر المتداولة جذبت اهتماما كبيرا والكثيرون الذين اطلعوا عليها كانوا على معرفة تامة بالأحداث المزعجة في العالم الخارجي .

كنا أحرارا بعد الوجبة لنأوي إلى غرفنا ، لنغتسل من أوساخ أيام الرحلة العديدة ونرتدي ثيابا نظيفة . المحاولات لإيجاد مكان للمعسكر والاهتمام المستمر بالأمتعة والتحضير لرحلة اليوم التالي كلها أصبحت في طي النسيان . كنا سعداء بترك كل الترتيبات في أيدي مضيفينا ولا نفكر إلا في الرحلات القصيرة وتبادل الحديث مع الناس الذين سيخبروننا عن المدينة وتاريخها .

أمكننا أن نلاحظ خلال تجوالنا المستمر ، أن شريط الأرض المزروع بالقرب من المدينة قد توسع . زرعت العديد من بساتين النخيل وحقول القمح ، وهي منحصرة بين السدود الطينية وتتصل بأنابيب مع مجرى فيض الوادي . ومن فوق جدران الوادي المنحدرة يمكن رؤية منظر كامل للمدينة والبساتين وأخبرونا بفخر أن سبع آلاف نخلة صغيرة قد زرعت حديثا وأرسلت العديد من الأغصان إلى هينن لتوسيع البساتين هناك . ولكن الماء سيظل دائما المشكلة الكبرى ، وبدون الأموال المرسلة من جاوا ما كان لزراعتهم المهملة أن يتم استعادتها سريعا ولا كان لها أن تعيش .

الآبار في حريضة عمقها بين أربعين إلى خمسين قامة . كانت مشاهدة العبيد وهم يرفعون قرب الماء ، ويغنون برتابة أثناء عملهم ، منظرا مثيرا للانتباه. ويبدو أن رفعهم للماء لا ينتهي فالحبل يزداد ويزداد حتى تظهر آخر قربة بحملها الغالي عند حافة البئر . ومنسوب الماء في أعلى النهر في وادي عمد أقل كثيرا . وتشتهر قرية عنق بأن أعمق بئر بها تبلغ ١٢٠ قامة ، أي أكثر من ٦٠٠ قدما. تشككنا في البداية في هذه المعلومة المدهشة ، ولكن في العديد من الأماكن التي تحدثنا فيها عن الآبار كانوا يؤكدونها . من هم الرجال الذين لهم المقدرة

والشجاعة لحفر مثل هذه البئر ؟ تعمل بعض المجموعات من الذين يحفرون الآبار لأكثر من عام وهناك طلب على خدماتهم في كل الأماكن البعيدة . قائد المجموعة الذي يعمل فعلا في الحفر يحصل على ريال نمساوي في اليوم . وعند حافة البئر يقف مساعدوه لرفع التراب . ويحصلون على نصف ريال . ومن أجل حفر قامة في تربة صلبة على المجموعة أن تعمل من ثمانية إلى عشرة أيام . هذه الحقائق توضح أهمية مشكلة الماء .

في قرية صغيرة ليست بعيدة من حريضة كنا سعداء الحظ بمشاهدة العمال وهم يحفرون . وصلوا إلى منسوب الماء قبل يومين ، بعد عام من الحفر ! أعطانا أحد أفراد المجموعة مرآة وأرانا كيف ينعكس ضوء الشمس إلى أعماق البئر . وهناك كان الحفار يبدو شيئا صغيرا وهو ينحني على عمله . كان على عمق ٤٥ قامة تقريبا .

في أمسيتنا الأولى امتلأت سطوح شرفة منزل آل العطاس بالزوار : الأصدقاء القدامى اختلطوا مع الأقارب المستفسرين ، وكلهم متلهف ليسمع شيئا عن العالم الخارجي وشغوفون بالحديث عن أنفسهم . أحضروا السموار إلى السطح وعمل بكل طاقته . السيد محمد بن صالح بن محمد العطاس ، الذي يضفي على نفسه في بطاقته للزيارة لقب "صالح الحضرمي" ، اخبرنا هذا الرحالة الحضرمي عن مغامراته . أما بالنسبة لنا فتبدو حريضة عند المغيب أكثر جاذبية وجمالا من قصص الرحالة ، وفوق الساحة الخالية بمسجدها الأبيض ومئذنة ذلك المسجد الذي شيده أل العطاس ، وقفنا نتطلع نحو بساتين النخيل التى تليه . جدران الصخر المنحوتة عميقا تتوهج بنفسجية وحمراء ثم تصير رمادية داكنة . هذه المدينة الصغيرة حريضة بسكانها الثلاثة آلاف أو أربعة ، ظلت حية بفضل أبنائها في البلاد البعيدة الذين لم ينسوها بل أحبوا وجودها البائس الذي ينعدم فيه الماء من أجل الجمال الهادئ في مثل هذه الأمسيات .

يوجد على أقل تقدير عدد من مواطني حريضة يعيشون في بلاد أجنبية مثل العدد الذى يعيش فيها . في بتافيا وحدها ، حسب معلوماتهم ، لابد أن يكون بها حوالي ٧٠٠ من عائلة العطاس . ومساجد حريضة العشرة نصب تذكارية لورع الأبناء المشتتين بعيدا لهذا الركن الخفي من حضرموت . أغلب آبارها العشر تم حفرها بفضل الأموال المرسلة من جاوا . إن المعركة مع المياه الخفية عميقا كان يمكن أن تترك منذ فترة طويلة لولا الولاء الحميم لأبنائها في الخارج . ولنفس هذا السبب فإن أفقر ساكن في حريضة يمكنه أن يرقد فوق أرضية رخام إيطالي في المسجد المركزي وأن يتلقى أبناؤه تعليما يعطي أكثر بكثير من

احتياجات الظروف المحلية، مما جعله يخلق اشتياقا وأيضا طاقة للحياة وللعمل في البلاد الغنية الجديدة التى تقع بعيدا .

عندما انتهت حكايات صالح الحضرمي بدأ الناس في السطوح يطرحون تدريجيا تلك الأسئلة الكامنة عميقا في أذهانهم وقلوبهم . مشكلة اليهود في فلسطين لها الأهمية الأولى . واجهنا أفكارهم المتحيزة الأحادية ببعض الحجج الصهيونية وذكرنا في نفس الوقت بعض المشاكل البريطانية والأخطاء . السؤال الثاني يخص الصراع الدائر في جاوا حول مسألة حقوق السادة في الحياة العامة . هذه مسألة شائكة وبالنسبة لها لا توجد دولة غربية حديثة ترغب في الحفاظ على مسلك محايد في الخلاف الديني وتدعم في الوقت نفسه السلوك الديمقراطي دون أن يتوقع منها التدخل . النقطة الوحيدة التى تقدمنا بها هي أن السادة يمكنهم حماية وضعهم في البلدان الأجنبية إذا كانوا في مقدمة الصف في النشاط السياسي والاقتصادي ولا يظلون يتحسرون على الماضي أو يتشبثون بتقاليد لا يحترمها العالم الحديث .وإذا استطاعوا في حياتهم في عالم اليوم المتغير أن يستفيدوا من الفرص الكثيرة التى مازالت تظهر أحيانا بين المسلمين في الشرق الأقصى حيث يمكنهم أن يحققوا لأنفسهم مكانا قياديا هناك ويحققوه الآن .

من الطبيعي أن يتحول النقاش بعدها إلى وطنهم المتغير بسرعة وإلى إنجرامس ومعاونيه . وصلت مآسي الحرب إلى نهايتها قبل فترة وأصبح المنهج الناقد المتنامي نحو السلطة البريطانية الزاحفة واضحا . الذين وقفوا من قبل موقفا جانبيا سلبيا أصبحوا يشعرون بالغيرة الآن . وبالذات مجموعة الشباب الذين درسوا في مصر واتصلوا هناك بالوطنيين وبالمشاعر المعادية لبريطانيا وأخذوا يعبرون عن أفكارهم غير الناضجة . إذا كان هناك أبدا قطعة عمل زخرفها البريطانيون ويمكن أن يدافع عنها هولندي فقد كانت هنا وبواسطتنا . ألم نكن نحن قبل ثمانية أعوام قد أرسلنا إلى السلطات في عدن طلبا عاجلا للتدخل بالإنابة عن السلاطين والسادة ؟

عندما سمعنا احتجاجات الشباب في كل الأماكن ، قلنا لهم إن زعماءهم قد طلبوا المساعدة من الخارج لأنهم لم يستطيعوا أن يضعوا نهاية للحروب التى لا تنتهي . كان موقفهم صحيحا لاعتبار تلك الحرب عملا انتحاريا بالنسبة لبلادهم المرهقة . إنه أمر مؤسف أن يفشلوا في تحقيق الأمن والاستقرار بأنفسهم في بلادهم الصغيرة الفقيرة ، وهم الذين بعثوا بالأموال من الخارج واحتكوا بتجربة الإدارة القوية الأمينة وفوائدها. كان ذلك قصورهم ومصدر خزيهم . ولكن إذا ما اتخذ القرار لطلب مساعدة خارجية فلن يجدوا أفضل من الاتصال بالبريطانيين . في بلادهم المعزولة ، بعيدا من طرق التجارة العالمية ، لا يوجد شيء يمكن أن

يثير طمع الدول العظمى . توجد فقط دولتان أجنبيتان لهما صلات مع حضرموت تمتد بعيدا في تاريخهم . هما بريطانيا العظمى وهولندا . ولم تجد أي من الدولتين شيئا في هذه البلاد سوى التجار الفقراء ، ولو أنهم منتجون ، وتجار مقتدرون بطريقتهم الخاصة . يبدو أن الاحتمالات ضعيفة لتغيير الأدوار . سوف يستمر حضرموت هي الطرف الذى يحتاج لمساعدة . حكومة هولندا في جزر الهند الشرقية ومناطق الاستعمار البريطاني تطلب من المهاجرين فقط السلوك المخلص للدولة التى احتضنتهم وهذا ما حصلوا عليه حتى الآن . وعلى الرغم من أن عددهم قليل فإن الحضارم لعبوا دورا هاما في الحياة الاقتصادية في البلاد التى ذهبوا ليعيشوا فيها، ولكنهم في الوقت الذي استمتعوا ، فيه حتى النهاية ، بالميزات في تلك البلاد لم ينسوا أبدا موطنهم الأصلي . لن يتغير هذا الوضع الآن لأن حضرموت لم تعد اسما ولكن حقيقة محمية بريطانية . ألححنا على الشباب الحضرمي أن لا يغيب بصرهم عن تلك الحقائق . التعاون والوحدة هما المطلوبان بدلا من النقد . عندئذ يمكنهم أن يتعلموا كيف يحكمون أنفسهم ، وكيف يحققون النظام ويحافظون عليه في الوادي وبين البدو في الجول ن وكيف يصونون أعمال الري ويجعلون من أرض المال هذه والصخور والجوع مكانا يمكن أن يعيش فيه الناس المتحضرون .

كان آل العطاس بين أقدم المؤيدين لحكومتنا في جاوا وفوق سطح منزلهم المضياف في حريضة وجدت هذه المناقشة جوا متعاطفا . ومرارا وتكرارا في أماكن أخرى في حضرموت عرضت هذه المواضيع للمناقشة وعندها استعملت لغة أكثر عنفا من الجانبين . ولكن ، في كل وقت تقريبا ، كان فقدان الحضارم للتدريب السياسي ظاهرا . إن الصراع لاستيفاء ضروريات الحياة الكبرى ، وللتغلب على الجوع والبؤس ، ولتأمين السلامة الشخصية خلال التهديدات المستمرة التى يتعرض لها السلام ، ولمحاولة القيام من وقت لآخر بنشاط تجاري محدود ، وفوق كل ذلك ولتأكيد سلامة مصير أبدي : كلها تشكل أهداف جهد الحضرمي . من أجلها سيعمل ليلا ونهارا بحماسة في بلد أجنبي . وإذا نجح في تحقيق ثراء ، سوف يرجع إلى أرض الشمس المشرقة أبدا وسوف يبني مسجدا أبيض أنيقا صغيرا ليحسن علاقته مع الله التى نسيها كثيرا أثناء معركته للمكاسب الشخصية . ويبني بالقرب من المسجد منزلا كبيرا جميلا ، حلم حياته .

هذا الهدف الأناني المحدود بدأ يتغير تدريجيا بفضل بداية الصحوة السياسية. في منزل آل العطاس أظهر الشباب الحضرمي علامات حراك ذهني . كانوا ممتلئين بالقلق ولكنهم لم يظهرا بعد أي بداية لبناء حضرموت الجديدة . عدد قليل فقط من السادة الكبار بدؤوا في تحقيق تلك المهمة . يقوم السيد أبوبكر بن

شيخ الكاف في سيئون بمساعدة إنجرامس ، ويتحمل هذان الرجلان تقريبا كل المسئولية للتخطيط للمستقبل ووضع كل ثقلهم لتنفيذها .

جلسنا بعد ذلك في مزاج هادئ لوجبة المساء . كل الأيدي انغرست في هرم الأرز الذي يتصاعد بخاره والذى طبخ بسمن الغنم . وظهر بعض الفلفل الأسود في الكتلة البيضاء . كان طهي اللحم جيدا ويسهل التعامل معه بالأيدي وقدم لنا خصومنا في المناقشة أفضل قطع اللحم .

في صباح اليوم التالي قام هيرمان وفاسي بتسلق الهضبة التى تطل على حريضة لعمل مسح عام للمنطقة المحيطة وأخذ مقاسات . وقمت ببعض الزيارات ولكن كان علي أولا أن القي نظرة على منزل تحت التشييد لأحد شباب عائلة العطاس . منزل كبير به عدة طوابق يتم تشييده بمبلغ بسيط عبارة عن ٣٠٠٠ روبية. تكاليف البناء كانت منخفضة جدا حتى بالنسبة لحريضة . يمكن أن يشتري الشخص ألف طوبة من الطين بسبعة أو ثمانية آلاف ريال نمساوي ، وبسبعة أو ثمانية أخرى يمكن أن يشتري الطوب لطابق أرضي وبعشرة أخري للطوابق الأعلى . الخشب الضروري يأتي قليلا قليلا من البساتين والوادي . الخشب الذي جمع لهذا المنزل كله علب ، قصير ومعوج ولكنه قوي ويتحمل . حصرت أعمال الخشب في اقل قدر ممكن .

ثم ذهبنا إلى السيد علي بن أحمد العطاس ، ابن السيد الشهير صانع السلام على أيام الحرب . تأتي شهرته من أنه جعل حريضة في ذلك الوقت مركزا للسلام وسط القبائل البدوية المتحاربة . خلق علاقات مع الزعماء العرب المجاورين بينما دعم عائلة القعيطي ووسع وقوى نفوذها . إن حياته برهان على ما يمكن أن يحققه السيد بفضل انتسابه للرسول وبفضل سلطة الحياة الورعة والقيادة بدون سلاح . من الواضح أنه لا يوجد عدد كاف من هؤلاء القضاة أو ربما تمت تنحيتهم جانبا بقوة السلاح . على ان هذا النظام كان ناجحا محليا وبقيت آثار منه على امتداد البلاد . ولكنه لم ينتشر انتشارا كافيا ليوقف التدهور العام في النظام والأمن العام.

تجري الأعياد الدينية على امتداد حضرموت وهي نموذج عربي في خصائصها على الرغم من أن جذورها سابقة على ظهور الإسلام ولكن تمت أسلمتها وتم الاحتفاظ بها باعتبارها عادات اجتماعية قيمة . ويمكن الحفاظ عليها فقط إذا سبقتها فترات سلام وأعقبت الاحتفالات حتى يتمكن المشاركون من الوصول إلى البقعة المقدسة المعنية بسلام والعودة مرة أخرى إلى ديارهم دون أذى . ويرتبط مع هذه الاحتفالات أسواق سنوية ، ومواكب ، وزيارات إلى قباب الصالحين . وتؤدي هذه الاحتفالات إلى توقف دوري لحالة الحرب والحصار

وبفضل هذه الوقفات يتم إنجاز أكثر المهام الزراعية إلحاحا وتستأنف التجارة . والجانب الحاسم في هذه الفترات من الهدنة الإقليمية أنها سمحت بامتداد الحروب والحصار لسنوات متتالية. هناك تخفيف في وسائل الحرب ولكن القتال استطال بلا نهاية . ما قصد منه أن يكون نعمة أصبح نقمة .

أشهر مكان للزيارة في حضرموت قبر النبي هود التى تقع في النهاية القصية من وادي حضرموت حيث يتغير اسمه إلى وادي المسيلة . وفي الطريق يعبر الإنسان إلى مدينة عينات وبها على الأقل سبع قباب لأولياء شيدت إكراما لذكرى السادة الأتقياء . وبنفس الطريقة فإن حريضة لها مكانها الروحي إنه المشهد على بعد بضع ساعات في وادي الكسر . وبه قباب الأفراد المشهورين من عائلة العطاس وتتم زيارة سنوية إلى هناك حيث يقوم بها بعض السادة ويقام احتفال نصفه ديني ونصفه دنيوي يؤمه آلاف البدو . وهو أيضا سوق سنوي هام . ويستغل المشايخ هذه المناسبة للوعظ الديني والدعوة للسلام . أسهمت مجهودات السيد أحمد العطاس وأعضاء الأسرة الآخرون نحو أسلمة القبائل البدوية التى ما زالت لحد كبير بعيدة عن جوهر الإسلام وتهذيب أخلاقهم الخشنة ولكن التحول لم يكتمل بعد . أخبرني ابن سيد أحمد أنه ما زال يجلس مرتين في الأسبوع ليحل الخلافات التى تعرض عليه . ولم يتمكن بسند السلطة الروحية فقط أن يحمل جماعته أن يقبلوا تماما عدم انتهاك حرمة الأشخاص والممتلكات . ومن أجل تحقيق هذا كان لابد من اللجوء للسلطة البريطانية . ولكن في مجتمع ما عاد في حالة خوف مستمر من الحرب وحيث الأوضاع المعيشية للبدو تحسنت فإن السادة الذين لهم مكانة مضيفنا سوف يستمرون بلا شك في أداء عمل مفيد .

وفي العصر ونحن مصحوبون بمجموعة من أبناء آل العطاس الأذكياء ، ذهبنا إلى البحيرة التي يسمونها البحر، وهي عبارة عن حوض عميق مليء بماء صاف كالبلور يقع في منتصف جدار الصخر في الجنوب الشرقي من حريضة . قمنا بنفس المسيرة قبل ثمان سنوات ودهشنا للتغييرات الكثيرة التى حدثت في البلاد التى كانت صامتة وخالية من العمران . شيدت بعض المنازل الجديدة ، وحفرت الآبار أعمق وامتدت بساتين النخيل . تقدم نحونا فلاح يسير خلف حمار محمل بعناقيد من التمر غير الناضج . وضح لنا أنه أحيانا تقطع بعض الثمار حتى تنمو البقية بشكل أفضل . التمر غير الناضج علف جيد للأبقار والتربة هنا خصبة لدرجة أن بعض الأشجار بدأت تثمر بعد عامين فقط من زراعتها .

عبرنا برجا من الطين كان نقطة ارتكاز أثناء الحرب الأخيرة التى اندلعت في هذا الوادي . أخبرنا الأولاد أنهم كانوا مراقبين وأنهم شاهدوا وسمعوا الفريقين المتنازعين يطلقون النار على بعضهم البعض .

لم يتغير البحر . لابد أن مياه الأمطار التى تجمعت في الجول قد اندفعت فوق سطح الصخرة وحفرت هذه الحفرة العميقة التى لا يمكن الوصول إليها إلا من جانب الوادي . وبها سور من الجانب الآخر عبارة عن صخرة حادة مستقيمة. تلامس الشمس سطحها لفترة قصيرة فقط حتى لا يتبخر كثير من الماء . ويوفر الحوض طوال السنة بقعة مثالية للرحلات وللجماعات القليلة التى تريد أن تستحم لأن القلة لهم الطاقة ليقوموا بالسير خمسة أميال إلى منتصف سطح الصخرة الحاد. تعيش الضفادع والأسماك الصغيرة في الحوض الذي لم يستطع أي واحد منا أن يصل إلى قاعه عندما نقفز في الماء .

عندما رجعنا إلى المنزل في المساء وجدنا أمام منزل آل العطاس عربة يحيط بها مجموعة من الناس الفضوليين . إنها لصديقنا في رحلتنا الأولى لحضرموت ، عوض بن مرتع ، من قرية هينن الذي قدم لنا دليلا مدهشا لمساعدته . ما إن سمع بوصولنا غير المتوقع حتى ركب عربته وجاء إلى حريضة وعرض علينا أن يأخذنا أولا إلى منزله ثم إلى نقطة توقفنا التالية .

قبل ثمان سنوات سبب إثارة كبرى عندما قاد سيارته إلى حريضة وتفضل علينا برفاهية السفر بالعربة . وكان أول شخص يقود سيارة إلى هذا البعد . وتأثر السكان كثيرا وجاءوا يجرون خارج المدينة ليحدقوا للوحش ذى الصوت المنخفض الذي يقترب بطيئا من المدينة عبر الرمال العميقة . وحتى النساء ظهرن وتسلقن السطوح ووجدنا الفرصة لنرى أكثر من ما يسمح به للرجل . ووسط ابتهاج المدينة وصيحات الدهشة من السطوح دخل عوض بن مرتع حريضة . ومنذ ذلك الوقت تحدد طريق للعربات في الرمال والتلال ولم تعد الرحلة بالنسبة للسائقين الحضارم صعبة .

كان بن مرتع رجل أعمال نشطا في سربايا . وعاد قريبا إلى موطنه ، وكان هو كما كنا نحن مأخوذين كثيرا بالتغييرات التى حدثت خلال السنوات الثمانية من الغياب . كان له العديد من الفرص التى تنفذ إلى ما بعد السطح وذهنه مشحون بالأسئلة والنقد . بدأنا معه ساعات من الحديث في حريضة وواصلناها في هينن ، القرية التى أنقذها من الرمال الزاحفة والجفاف .

يمكن أن تسع العربة ثلاثة منا فقط . ولذلك سار فاسي مع ا لقافلة وحراسها رأسا إلى شبام ثم سيئون حيث نلتقي مرة أخرى بعد بضعة أيام .

غادرنا منزل العطاس صباح اليوم التالي ، في غاية النشاط ، وحملنا معنا ذكرى صداقة تفوق الضيافة العربية التقليدية . هنا يتجلى العرفان والرابطة العادية التى توحد الحضارم مع رجال الإدارة الهولندية في جزر الهند الشرقية . وبفضل هذه العلاقة ظل الطريق إلى موطنهم الثاني مفتوحا بشكل واسع . خيرات جاوا

وفرت لحضرموت فرصتها ، وانتشلتها من الفقر والتعفن وإقامة الواحات المزدهرة . وأصبحت نقطة الالتقاء بين الحضارم وأولئك الأجانب الذين يتمنون الخير لهذه البلاد ، والذين كشفوا محاسنها وعكسوا حاجاتها للعالم الخارجي ، والذين يرغبون أن يأتوا لها بالأشياء الجميلة من الغرب على الرغم من أنهم يعلمون أن كثيرا من الشرور سوف تتسرب إليه .

لقد تمكنت حريضة من أن تنجز مهمة . وسوف يعتمد على الأجيال النامية من آل العطاس أن يتمكنوا من قيادة حضرموت عبر كثير من المخاطر التى تعترضها. حريضة بوابة دخول ويجب أن تقف حارسا يقظا لكنوز الماضي ومتنبهة للإمكانات الكبيرة في المستقبل .

الفصل السادس عشر

{العودة إلى حضرموت}

سرنا بالسيارة عبر شوارع ضيقة ، وتجاوزنا بعض المساجد الأنيقة ، ثم وصلنا أطراف حريضة . كان الناس هناك مشغولين بخلط حشائش جافة مقطعة مع الماء والراسب الطفالي لبناء منزل . يسمى هذا الطوب الطيني الجاف هنا اللبن ، وهو مادة بناء مثالية للبلاد الجافة الحارة . مازالت حريضة تبني بالأسلوب التقليدي ، ولعلها ما زالت تستعمل مخططات قديمة ولكنها تدخل أفكارا من الخارج بتعقل . لا يوجد أمل لبقاء الفن المعماري الحضرمي الخالص .

تقع أمام المدينة مقبرة كبيرة بها عدد من القباب البيضاء تخليدا لذكرى مشايخ كانت حياتهم نموذجا وبركة . وبعد هذا ، وجهنا خط سيرنا نحو معلم يعلو سادة ، صخرة جبل غمدان . رجعنا هنا إلى المجرى المتسع لوادي عمد وتابعناه حتى التقى مع وادي الكسر . يجري هذا الوادي باتجاه الشمال وينغمس أخيرا في سهل واسع من الكثبان الرملية وتلال من الراسب الطفالي وعندما اتجهت نحو الشمال الشرقي اتخذت اسم وادي حضرموت. وما إن وصلنا وادي الكسر حتى استدرنا لنشاهد الجدار الشرقي البعيد ، وبصعوبة أمكننا أن نستبين معالم قرية حورة .

تعبير حضرموت ، كما يستعمل الآن ، يشمل ثلاث مناطق متميزة : الشريط الساحلي وبه مينائي المكلا والشحر ، الجول ، ووادي حضرموت الداخل وأوديته الملازمة له . وينقسم إلى سلطنتين ولهما بدورهما الزعماء القبليون المستقلون بشكل أو آخر ورجال السلطة في المدن والقرى . السلطنة القعيطية ومركزها المكلا ، تدير المنطقة الساحلية ، والجول المتاخم ، والجزء الأكبر من حضرموت الداخل . وتقع السلطنة الكثيرية مثل الجزيرة وسط المنطقة القعيطية التى تحيط بها . سيئون وتريم هما المدينتان الرئيسيتان في الجزيرة الكثيرية ، أما المدينة القعيطية الرئيسية في وادي حضرموت فهي شبام وتليها في الأهمية القطن وحورة . وحورة هي المركز الإداري في وادي العين . وصمدت حورة أمام العديد من هجمات عصابات الكثيري في الأيام الأولى ، إنها قلعة عتيقة حوصرت كثيرا . في تلك القلعة تمارس السلطة باسم السطان الصغير في شبام بواسطة مقدم أو شيخ . وبما أن السلطنتين الآن في مأمن تحت الحماية البريطانية فلم يعودا بحاجة إلى تحصينات ويمكنهما توجيه كل اهتمامها للمهمة العاجلة وهي الإدارة المحلية .

شيدت حورة عند سفح جدار الوادي ويفصلها عن السهل الذي جئنا فيه بالسيارة مجرى سيل رملي واسع . عندما وصلنا مجرى السيل تركنا العربة وواصلنا السير بالأقدام . في ظل أشجار العلب التى تنمو هنا ، أقام مستر فيكس ، مساعد إنجرامس خيمته . في لحظة وصولنا كان في داخل القلعة في وسط مناقشة

مع زعماء القبائل المتشاجرين . صعدنا إلى القلعة ولاحظنا عند مرورنا أن حزاما أكثر ازدهارا من أشجار النخيل لابد أنه كان يمتد أمام القرية . لقد أهملت القلعة ولكنها مازالت تمثل واجهة عملاقة من الجمال الصارم الضخم .

لقد ظل فيكس والسيد أبوبكر بن شيخ الكاف لمدى أيام متتالية يفاوضان ؛ ويؤسسان الأمن في صبر ويضعان الأسس للسلام والازدهار في المستقبل . بعد صعودنا درجات لا تنتهي أدخلونا صالة مزدحمة . هناك السيد أبوبكر ! لقد كانت تجربة لا تنسى أن نقابل مرة أخرى الرجل الذي منحنا في رحلتنا الأولى صداقته ومساعدته التي لا غنى عنها . لقد مر الكثير على ذلك الرأس الوقور خلال السنوات الثمانية عندما ودعناه في تريم . فقد طرد من المدينة هو وعائلته وأصدقاؤه ، ومعهم السلاطين المحليين الصغار الضعفاء . وفي تريم العاصمة الروحية لحضرموت ، التي أعيد بناؤها بواسطته وأسرته ، وحصلت على الشهرة باعتبارها مركزا لآمال حضرموت الفتية ، مدينة الدين والعلم والمساجد العديدة ، قامت فيها كتائب من العبيد المتمردين بطردهم بعيدا ليعيشوا في سيئون .

أقنعت الكارثة حكومة عدن أن التدخل لا يمكن تأجيله أطول من ذلك . بعد فترة انتقالية صعبة أصبح السيد أبوبكر القائد الطبيعي لحضرموت الجديدة . لم تكن هذه رغبته الخاصة . يفضل هو شخصيا أن يستمر مكرسا حياته لأعمال الخير : إنشاء المدارس ، إغاثة الفقراء المعوزين ، إدخال المساعدة الطبية الغربية للبلاد ، وتشييد أول طريق عربات بين الساحل وتريم . كل هذا النشاط الذي قام به لإطاعة إرادة الله ، أدى إلى بروزه في مركز المسرح السياسي وجعله الرجل الموثوق به لحد بعيد الذى تجله كل حضرموت . كان هو وصيهم لمساعدة بريطانيا العظمى في مجهوداتها للارتقاء بالبلاد من الكسل والجهل . وسرعان ما اكتشف إنجرامس في أبوبكر موهبة القلب والعقل . ونشأت بينهما صداقة حميمة .

أصبح السيد أبوبكر أكثر نحافة . وكان وجهه الداكن تكسوه صرامة وتجاعيد وحزن . ورغم أنه يرغب في التقاعد من الحياة السياسية إلا إنه لم يتمكن من ذلك، على الأقل في الوقت الحاضر . وعند أول إشارة خطر يكون مستعدا وتقدم العمل بفضل تعاونه. والمهمة التى وهب نفسه لها تفقره ، لأنه يصرف بيده الكريمة من ماله إذا كان الصرف يساعد العمل الإصلاحي . ولكن أمواله أخذت تتناقص بانتظام في السنوات الأخيرة ، فتحت ضغط الأزمة الاقتصادية تدهور الدخل من ممتلكات العائلة في سنغافورة و جاوا .

كان تبادل التحية بيننا متحفظا لوجود جمهور الواقفين وقصيرة بسبب وصول فيكس ، الذى كان يشع مثل شمعة في عالم متعفن . سبب لنا بعض المفاجأة لأن نصفه بريطاني والبقية حضرمي خالص . كان وجهه الجميل المشرق

يشع فوق قميص خلاب لدرجة بعيدة مما جعل كل العيون تنجذب إليه . اختفى القميص داخل فوطة (صارون) بمربعات حمراء ومثبتة في الوسط بحزام أخضر عريض به محفظتين من الجلد من النوع المستعمل كثيرا في جاوا . ومن تحته ظهر ساقان مغطيان بجوارب صوفية ثقيلة حماية من الحشرات . واجهنا بعضنا بشيء من الحرج في محاولتنا لإخفاء دهشتنا . وعرض علينا بلطف "شاي ، إفطار ، أو حمام ؟ " . وبما أننا لم نقدم إجابة فقد قرر نيابة عنا فقال :"يبدو لي أنكم ترغبون في حمام أولا " . كانت نواياه طيبة ولكننا انفجرنا ضاحكين وسألنا ، ونحن واعين بالمفارقة بيننا وبين هذا البريطاني البالغ النظافة ، :"هل نبدو بهذا الاتساخ ؟ " . ثم أدركنا لماذا كنا منبهرين بذلك القميص الحريري النظيف . إنه ينتمي إلى عالم مختلف عن الذي كنا نعيش فيه . ولكم هبطنا في أقل من شهر دون مستواه ! وسرعان ما تكسر الجليد من الضحك الذي انفجر ولم يمض وقت طويل حتى كنا نجلس معا حول أكواب الشاي الساخن ، وانشغلنا ، من جانبنا ، محاولين زرع بعض الثقة في ممثل إنجرامس عن خططتنا . وسألنا : لماذا أخبر إنجرامس لندن باعتراضه على سفرنا في بعض أجزاء حضرموت غير المحددة ؟ ويبدو أن فيكس لم يقتنع تماما بالنقطة المطروحة وأجاب بدون اقتناع كبير . وأكد احتمالات الخطر في الأماكن البعيدة . وأجبنا أن احتمال الخطر هذا قد واجهناه بالإعلان الذي وقعنا عليه في عدن . ولكن عندما علم فيكس أن تطلعنا ليس في اتجاه شبوة ، ولكنه محصور في عبور المنطقة بين وادي حضرموت والحدود الجنوبية للربع الخالي ، اطمأن وبعد التشاور مع السيد أبوبكر الذي وعد بالمساعدة الكاملة ، وكسبنا فيكس إلى جانبنا .

ثم تحولت المناقشة إلى مهمة إنجرامس في بناء حضرموت جديدة والمسئوليات الجسام التى ألقيت على عاتقه . عندما غادرنا فيكس شعرنا أن عدم الثقة بيننا قد ضاق بالتعقل .

ثم قال السيد أبوبكر إنه يتمنى أن يرانا في منزله للضيافة في سيئون بعد أيام وأنه يريد التحدث معنا حول أشياء عديدة . كان وجود بن مرتع معنا مناسبة جيدة حتى يستمع إلى مناقشاتنا لأن رأيه في الأحداث الحالية في موطنه لم يستقر بعد .

رجعنا إلى العربة وعبرنا مرة أخرى مجرى السيل الرملي . وسرنا بالعربة مخترقين كثبان رملية وتلالا منخفضة إلى الجانب الآخر من الوادي الواسع حيث تقع هينن عند ملتقى وادي هينن مع وادي حضرموت .

في منتصف بحر الرمال تقف مجموعة منازل عالية بشكل فريد - ديار آل بقري - حيث وجدنا قبل عشر سنوات رجالا محاصرين بالحرب وتحدثنا معهم

عن واجب الرجل الحقيقي : شن الحرب . هلكت لتوها آخر شجرة نخيل لديهم من الجفاف . مكنتهم الأموال من الخارج من مواصلة الحرب التى استمرت من قبل لبضع سنوات . مازالت كلماتهم مليئة بالفخر رغم أنهم في الواقع سجناء داخل منازلهم المترفة . يمكنهم فقط ليلا عن طريق الخنادق ، مغادرة سجنهم بأمان وحراسهم من الكلاب الضارية .

وصفنا هينن من قبل بأنها غارقة إلى نصفها في بحر من الرمال ، وتدفع الرياح أمواجها المحرقة عليها. ثم جاء بن مرتع من سربايا وبأمواله وحيويته اندفع لإنقاذها . فبنى منزلا ومسجدا ؛ حفر بئرا وركب فيها مضخة ورفع الماء إلى الرمال وزرع أشجار نخيل . ثم استدعاه عمله في جاوا للعودة . والآن عاد من فوره ورجع إلى العمل الذي ينقذ به قرية أسلافه . وبنى منزلا آخر أكثر جمالا . ويضم المسجد حاليا مدرسة رائعة ننوي أن نلقي عليها نظرة فاحصة . والبئر والبساتين ما هي إلا بداية ؛ سوف تتلوها مشاريع ري أكبر . بن مرتع رجل ابتكار وحافز .

وتحت قيادته ذهبنا في ذلك العصر إلى المزارة وهي تعني مكان الزيارات. إنها حرم بدوي يرجع إلى الجاهلية وتقع في الجرف على الجوانب الصخرية من وادي هينن على بعد حوالي ثلاثة أميال من القرية . يوحي الموقع بالخشية والتبجيل . وعند قاع الحجر الجيري ، في نصف المسافة تقريبا إلى جانب الوادي، يوجد ينبوع صغير يملأ تجويفا في الأرض بالماء الصافي . ويظهر النبات في محيط أجرد . الينبوع في نهاية ممر ينفتح على جدار الوادي . وفي الأعلى سرداب لصخرة معلقة . وبجانب الينبوع بعض الأواني البسيطة لعمل القهوة وإعداد الطعام ليستعملها الحجاج الذين يأتون إلى هذا الحرم . وبالقرب صخرة أصبحت ملساء من لمس الأيادي التى لا تعد والتى تأمل أن تأخذ معها بركات هذا المكان . وهناك اسم إسلامي وقصة لشخص يسمى السيد أحمد الحقت بهذه البقعة وأنقذت هذا الحرم الحضرمي الذى يتعبد فيه البدو بعد اعتناقهم الإسلام.

عندما رجعنا إلى هينن نصحنا بن مرتع أن نستحم في المسجد حيث يوجد مكان أوسع . ولعله أرادنا أن نرى مدرسة القرية المسائية . وبينما كنا ننتظر امتلاء الأحواض في الحمام دخلنا الساحة المربعة الداخلية للمسجد لسماعنا صخب التلاميذ الصغار . وشاهدنا هناك أولاد هذه القرية الصحراوية المنعزلة يجتمعون بكل نضارة طفولتهم . وكل واحد معه نسخة من القرآن ولكنها تختلف من تلميذ لآخر في الطباعة والحجم . وفشلنا أن نكتشف كيف يتمكن الأولاد من القراءة من النسخ الصغيرة في ضوء لمبة كهربائية واحدة . ولكن ماذا يهم هذا ؟ هذه

المدرسة المسائية ملهمة بحق . مازالت تتبع في مناهجها بعض قيم الإسلام التي يعتمد عليها التعليم والإلهام والرؤية الواسعة للشباب في كثير من صحارى العالم . دراسة القرآن تربية مفيدة وإعداد ثمين للدور الذي يجب أن يلعبوه في الحياة . ما يقرؤونه تدريجيا يفتح عيونهم على جمال لغتهم المنتشرة عالميا . ويحتكون بفكرة الخلود التي مازالت تسمو فوق محيط حياتهم اليومية . ثم يصبحون أعضاء في عالم الإسلام الكبير ويلتقطون لمحات من تاريخ حضارته . تتجه أفكارهم إلى أماكن في الخارج وكثير من الأولاد هنا مهيأون لحياة مغامرة ، بعيدا من قريتهم الصحراوية الصغيرة ، في بلاد نائية ، حيث سرعان ما يشعرون أنهم في موطنهم كأعضاء في مجتمع العالم الإسلامي . يدفع بن مرتع الجزء الأكبر من تكاليف المدرسة وعيّن معلما جيدا . ويخطط حتى لإحضار معلم من جاوا للعديد من أبناء رعايا هولندا في هينن . يمكن أن يعلمهم هذا الأستاذ اللغة الملاوية ومنهج المدارس في جاوا . فشلت تلك الخطة لأنه حتى كحضرمي ثري يتردد وكجاوي لا يقرر بسهولة في أمر الذهاب إلى الصحراء . ولكن من يدري ؟ قد تتحقق هذه الفكرة العملية .

في ذلك المساء بالتحديد جلس حوالي ٤٠ ولدا في أربع مجموعات حول مرشديهم . بعضهم يتلو القرآن ، والبعض يقرأ بصوت مرتفع ، وكلهم يصيح بأعلى صوته . كانت الضوضاء لا تطاق ولكن يظهر أنهم يتعلمون جيدا بهذه الطريقة .

حان الوقت لصلاة العشاء . توقف فجأة أحد الأولاد الصغار الذي قرأ آيات من القرآن بطريقة مؤثرة بناء على طلبنا . نهض كل الآخرين بينما تسلق المعلم إلى السقف المسطح . وسرعان ما ارتفع الأذان مدويا في القرية الصامتة . انتظم الأولاد في صفوف خلف أستاذهم ، لأن تعلم أداء طقوس الصلاة بأدق تفاصيلها جزء هام من تعليمهم . هذا ضروري لأن صلاة المسلم لها شعائر أكثر من الصلوات التي نعرفها . وفيما بعد في خضم حياة الترحال القاسية في الغربة سوف يستعيدون بكل تأكيد ساعات دروس المساء في مسجد القرية الأبيض الواسع.

لم يسمحوا لنا بمغادرة هينن في صباح اليوم التالي قبل أن نقوم بزيارة وداع للمدرسة . الأولاد الآن ينتظرون أمام المسجد في صفين طويلين وكان عددهم أكثر من تلاميذ المساء . كانوا ينشدون معا بأعلى أصواتهم ولكن بتنغيم وكان الأداء ركيكا . هذا الغناء الجماعي بدعة مستوردة من جاوا . بعد الغناء تقدم أحد الأولاد الكبار وبدأ يخاطبنا باللغة العربية الفصحى . وكان هذا تمشيا مع عادة البلاد . ويبدو أن الوقت للإعداد كان قصيرا لأنه بعد بداية جيدة اختلط الأمر على

المتحدث . حاول مرارا وتكرارا ثم توقف في وسط جملة خطابية رنانة . فـأمره الأستاذ قائلا :"خذ ورقتك" . وعندما فعل ذلك تم إنجاز المهمة الصعبة بسلام . لم يكن لدي خطاب مكتوب ، لذلك كان عليّ أن أقول بلغة عربية ضعيفة ما في ذهني لأولئك الأولاد الذين كانوا يستمعون . أخبرتهم عن جاوا البعيدة التي ربما ذهب إليها بعضهم ، وحيث سيجدون آباءهم وأقرباءهم وأصدقاءهم ، وحيث إذا أرادوا أن يصبحوا أفرادا نافعين في المجتمع ، عليهم أن يعرفوا أكثر مما لو بقوا في حضرموت . ولكن حتى الذين سيتخلفون سيجدون أيضا فرصة للقيام بعمل مفيد . الآن ساد السلام ويمكن أن تصبح هينن قرية جميلة ومزدهرة مرة أخرى إذا تكاتفوا معا وصانوا وحرسوا نظام الري .

كنا نأمل أن نعود إلى هينن بعد بضعة أسابيع ونواصل حديثنا مع بن مرتع. كان له بعض الأفكار حول مستقبل بلاده وبدت أفكاره بالنسبة لنا أكثر من مجرد اهتمام محلي خالص . وبما أنه ليس من السادة فليس له الحق بالانتساب ليساعد في بناء حضرموت الجديدة . أما في قريته فهو حر ليجرب أفكاره ولذلك بدأ بتلك الأفكار . فكر في إنشاء تنظيمات لتدفع التقدم الروحي والمادي ليس في قريته بل، أيضا في الوحدات المستقلة الصغيرة التي كانت مزدهرة في حضرموت من قبل . تقام هذه التنظيمات على أساس الرغبة الجماعية للري . أحد التنظيمات،على سبيل المثال ، يؤمن التعاون في السيطرة على السيل ــ ذلك الوابل من المياه الذي يندفع من الهضبة الصخرية وسفوح الجبال بعد الزوابع الممطرة . مناطق بأكملها ترغب في الحفاظ على أكبر كمية ممكنة من الماء الثمين وتوزيعه بالعدل بين ملاك الأرض في المنطقة . في الأزمان السابقة كان سلطان شبام يعيّن ممثلين في أغلب القرى لمعالجة مسألة الماء الجماعي . العائلة التي تنتسب إلى السادة ولها الزعامة يكون ربها هو ممثل السلطان . ومن أجل الناحية العملية يعيّن السيد " غيالا " أو ريّس ماء (الكلمة مشتقة من غيل وهو المكان المزدهر) . وإذا لم تطع الأوامر يرسل السلطان جنودا لتنفيذها . ولكن تدهور السلطة المركزية والحروب التي تلت تسببت في إهمال نظام تنظيم الماء . يحاول بن مرتع الآن في بعث التنظيم السابق لموارد المياه في الوديان الجانبية التي تحت سيطرة هينن . بدأ هذا العمل مباشرة بعد عودته من سرابايا ، وبفضل أمواله وحماسته حمل الناس ليبدؤوا في ترميم السدود والخنادق .

وبينما كنا نجلس نتحدث معه ، عبرت مجموعة من العمال على جمال في طريق عودتهم إلى القرية . تستخدم الجمال في حمل الرمال إلى السواقي التي يمر عبرها ماء السيل إلى الحقول والبساتين . كان الرجال يغنون عندما عبروا على المنزل الذي يسكن فيه الرجل الذي نجح في عودتهم وفي إلهامهم بـأمل جديد .

ورأيناهم في صباح اليوم التالي يتحركون في الاتجاه الآخر ، وجاء موكب صغير من النساء يحملن الأكل في سلال إلى أزواجهن الذين يعملون .

كان بن مرتع يتأمل أيضا في مشكلة ملكية الأرض .كان في جاوا معتادا على التسجيل والضمان . وكان هنا في حضرموت في وقت ما نظام تسجيل ملكية الأرض ولكنه أيضا أهمل . والآن بعد أن تحسنت وسائل إمداد الماء ، ولم تعد الحرب تلتهم وقتهم وأموالهم ، برزت حاجة جديدة متنامية لتسجيل الأرض . وأخذت قيمة الأرض ترتفع والكثيرون يريدون استثمار أموالهم في الأرض . وبدأ بالفعل بعضهم يضع عن طيب خاطر الأموال التى اكتسبها في جاوا في بساتين النخيل ومنطقة العسل . وشاهدنا بالقرب من القطن الأرض التى اشترتها عائلة بن مرتع وشرعت في زارعتها . عشرات الآلاف من الجلدر تستغل لهذا الغرض وأدت إلى صراعات عديدة حول حقوق الملكية . ثم هناك مشكلة الأرض الوقف . وحسب ما في الإسلام توضع قطعة أرض أو مبنى الخ وقفا بواسطة مالكها . هذا يعنى أن المالك خصص جانبا كمؤسسة خيرية تستغل أبديا لبعض الأغراض الخيرة التى يختارها المانح . عندما تتدهور الحكومة في بلاد إسلامية فإن ضمان ممتلكات الوقف تصبح في الحال معرضة للخطر . إن تأسيس سلطة مركزية قوية في بلد إسلامي لابد أن يؤدي إلى إعادة الأوقاف إلى أغراضها الدينية الأصلية . وبمساعدة السجلات القديمة يمكن تتبع الكثير من هذه الممتلكات لإعادتها إلى وضعها السابق وتوجيه الدخل مرة أخرى للأهداف الدينية والخيرية والاجتماعية . هناك عمل كثير من هذا النوع يمكن القيام به في حضرموت . والتجار بالتجربة التى حصلوا عليها في الخارج يمكن أن يقدموا مساعدة كبيرة في وضع الأمور في نصابها مرة أخرى ، وسيكون إنجرامس وخلفاؤه عقلاء إذا تركوا مساحة لهذا النوع من التعاون لإعادة بناء المجتمع الحضرمي .

غادرنا في عربة بن مرتع إلى القطن ، وقررت عند عودتي من حضرموت الداخل بعد بضعة أسابيع أن أزور بن مرتع وحدي وأواصل تبادل الآراء مع هذا الرجل الذي ليس سيدا والذي أصبح صاحب رؤية . وانطلقت السيارة بأقصى سرعتها بقيادة أخيه ، وسارت عبر التلال الرملية المنخفضة مخترقة وادي حضرموت إلى الجانب الآخر حيث الحزام الأخضر الذى يتكون من بساتين النخيل والحقول التى تحيط بالقرية الصغيرة "فرط القطن" . الدخن والمسيبلي ، و كلاهما نوع من الذرة وحبوهما جميلة مستديرة ، تمّ حصادهما قبل فترة وجيزة . وتجمع نساء القرية في دوائر ، وأخذن يضربن حزم القصب بشدة لدرس الحبوب . ويتم إحضار الحزم الجافة من الحقول على الجمال والحمير . يأخذ النساء حفنة من الحبوب في كل مرة ويضربن الخصل على جذوع النخيل

التى أمامهن حتى تخرج الحبوب متدحرجة . كن يعملن في الشمس ، ومن أجل حماية أنفسهن من الحرارة العنيفة ، لبسن قبعات صنعنها بأيديهن مخروطة الشكل بأطراف عريضة وعالية ومستديرة مثل رغيف السكر . "يبدو أنهن كن يفكرن في أن "الوحدة في القوة" ، إذ كانت لهن الشجاعة للبقاء في أماكنهن عندما اقتربنا بآلات التصوير . توقف الحديث فقط لينفجر مرة أخرى في موجات من الضحك عندما ابتعدنا لمسافة آمنة .

من فرط القطن وما بعدها رأينا جمال حضرموت الداخل . أصبحنا نسافر الآن باستمرار بجانب البساتين أو عبرها ، ونعبر على قرى ومنازل كثيرة منعزلة لأغنياء وفقراء . الماء هنا ليس بعيدا من السطح حوالي سبع قامات . بل يصبح أقل عند الاقتراب من وسط الوادي ولكن الملوحة تزداد هناك بشكل سريع .

وسرعان ما سرنا عبر بوابة القطن المحاطة كلها بسور . إنها مكان صغير لحد ما وكانت في الماضي المنتجع الصيفي لسلاطين شبام . قصر السلطان علي بن صلاح الذي كان قبل ثمان سنوات ما زال محتفظا بشكله الوطني من الطوب المصنوع محليا وأصبح الآن كله أبيض . يبدو أن تنبيها قد أرسل بقدومنا لأن الخدم كانوا ينتظرون في الصالة بالقرب من الباب الرئيسي . وكان السلطان بنفسه واقفا لاستقبالنا في الممر في الطابق الأعلى . ظهرت حرارة لقائه من الترحاب الاحتفائي . أخبرنا أنه سمع بقدومنا من رسالة باللاسلكي ، أرسلت أصلا من عياد تعلن مرورنا بسلامة في طريقنا إلى حضرموت . كان لقاؤه لنا قبل ثمان سنوات في قصره في شبام باردا ومتحفظا . ما الذي حدث في هذه الأثناء ؟

السلطان علي بن صلاح لم يعد سلطانا . فقد دخل في خلاف مع النظام الجديد ، وأخرج من شبام ومن ذلك الوقت فهو الآن يعيش في هدوء في أرضه التي يمتلكها في القطن وسط بساتينه ، ووسط كتبه لأنه رجل تعليمه فوق الوسط . قال إن الخلاف نشب بسبب المؤامرات ولكن قل ما أذكر هذه المؤامرات وأشاح ضاحكا من مشاعر التعاطف والأسف . وأخبرنا أنه أكثر سعادة الآن ، بعد أن تحرر من هموم مسئولية الحكم . صحته أيضا تحسنت . عندما قابلناه في المرة الأولى كان قد شفي لفورل من مرض خطير . وحتى الآن مازال نحيفا ولكن عينيه ذكيتان ويقظتان . وتدفق الحديث كأننا أصدقاء قدامى . الغرفة التي جلسنا فيها تشع بالضوء والألوان والنظافة . قدم لنا الشاي مع البسكويت والفواكه الأمريكية المعلبة . وكحفاوة خاصة وضع أمامنا عسلا دوعنيا برائحته وطعمه الذي لا يضاها فأكلنا قطع كاملة من قرص العسل ونظر السلطان في رضى ، بينما حملق ابنه الكبير في دهشة ، وهو ولد أنيق عمره حوالي ١٤ سنة .

علي بن صلاح مطلع . وقد لاحظت هذا فريا استارك أثناء حديثها معه عن تاريخ حضرموت القديم . ومكث معه فلبي أسبوعا كاملا أثناء رحلته الأخيرة العظيمة للجزيرة العربية . أمّا ذاك الروح القلق ، ولعله أعظم الرحالة الأحياء الذين زاروا الجزيرة العربية ، فلم يلق ترحابا في حضرموت وسلطات عدن ، حتى أن وجوده في القطن قل ما ساعد على تحسين العلاقات المتوترة من قبل بين السلطان علي والموظفين البريطانيين . ولكن علي بن صلاح قل أن يتكلم عن هذا وعندما يفعل فنصفه تسلية . ويبدو أنه يستمتع بالأحاديث العلمية مع ضيوفه وكانت هذه مرة أخرى فرصة ممتازة بالنسبة لهيرمان .

الزراعة أحب الأشياء إلى قلب علي بن صلاح ويبدو أنه يعرف الكثير عنها . فأوكلنا إليه مهمة ملء حقائبنا الصغيرة بعينات من مختلف أنواع الحبوب التي تزرع في الوادي . يوجد الكثير منها ووعدنا بإعطائنا أسماءها المحلية ، والوقت الذي يحتاجه كل نوع لينضج وهكذا . وقرظ كتابي الأول عن حضرموت وخريطة هيرمان . وبسبب عدم معرفته اللغة الإنجليزية فقد قرأت له ترجمة عربية .

في هذه الأثناء أعد العشاء في غرفة أخرى . ووجدنا هناك أيضا نفس النظافة المنعشة . وهناك أيضا جوّ خاص ، فعلى الرغم من وجود رفين من الكتب تنظر في توبيخ إلى ثلاجة بيضاء كالجليد فإن مضيفنا كان فخورا بالثلاثة جميعا .

أثناء العشاء أخبرنا علي بن صلاح عن خطته الكبرى للأسفار . فهو يرغب أولا في أخذ ابنه إلى بغداد ليدرس وذلك بفضل منحة دراسية عراقية . ثم يرغب هو في السفر عبر الهند إلى سنغافورة وجاوا ليزور مراكز الحضارم هناك ويرى كيف ومن أين انبعث مفهوم حضرموت الجديدة . ومن جاوا سيبحر في سفينة حجاج إلى جدة لأداء فريضة الحج . ثم يعود إلى موطنه . الروح التواقة لهذا الدارس للتاريخ العربي وللجغرافية قادته إلى خطط أبعد . سوف يذهب علي بن صلاح بعد ذلك إلى أوربا . يرغب في مشاهدة ليدن ، ذلك المركز للدراسات الاستشراقية. الجزء الأخير من تلك الخطط ، إن لم يكن هناك أكثر ، قد عصفت به نذر الحرب في أوربا .

لم نتمالك أن نأمل أن القيادات الحالية لحضرموت ربما تتصالح مع السلطان علي بن صلاح وتفتح له الطريق ليؤدي مهمة يكون فيها دعم هذا الحضرمي الحريص على المعرفة له قيمة كبرى . لم نصدر حكما على ما يمكن أن يكون قصور من جانبه ، ولم نستبعد من الجانب الآخر احتمال أن البريطانيين الذين يعملون على إصلاح حضرموت ربما فشلوا في الرؤية البعيدة بسبب المؤامرات المحلية ؛ كنا مقتنعين أن علي بن صلاح كان سلطانا حضرميا يمتلك

على الأقل بعض الصفات الحميدة ، ويسمو بخبرته العقلية وثقافته الروحية عاليا فوق الآخرين الذين يتخذون لقب سلطان في هذه الأنحاء .

غادرنا علي بن صلاح وانطلقنا نحو أقدم مدينة ذات خصوصية حضرمية – إنها شبام . ألفنا من قبل منظرها المهيب ولكن رغم ذلك تملكتنا الدهشة مرة أخرى من المعجزة التى بهرتنا عندما اقتربنا منها في المرة الأولى ، عندما كنا نشق طريقنا وسط عاصفة رملية عنيفة . ومن خلال فجوات الغبار لاحت فجأة عالية بين الضباب ، كيكة رملية مسطحة ويغطى أعلاها سكر أبيض . كان الجو هذه المرة صافيا ؛ كان يوم أشرقت فيه الشمس ساطعة . وفي الهواء الحار المرتعش ، وكانت معالم المدينة مثل الصوف وفي تغير مستمر . إذا لم يكن الشخص يتوقع ما سيأتي ، فمن الصعب عليه حتى في يوم صاف أن يرى هذه المكعبات البنية التي تشبه الحطام وعليها غطاء أبيض غير منسق ، الكتلة المتماسكة لخمسمائة منزل عال تحيطها بساتين النخيل . وعلى شمال الطريق شاهدنا ما يبدو أنه حقل لا ينتهي من القبور . توضع لوحتان من حجر رملي أحمر فوق القبر عند مكان الرأس والقدم لتخليد ذكرى الميت . والبقية مطلي بالجير الأبيض . الحجر الرملي ناعم وسهل القطع . وفوق الألواح كتابات تحكي بآيات لا تحصى من القرآن عن قيمة الرجل وعظمة الله .

عبرنا قنوات ري جافة وفوق سدود عالية بين بساتين النخيل ، فاقتربنا كثيرا من منازل شبام الشامخة . الجوانب الخلفية للمنازل قريبة من بعضها ويتكون منها سور المدينة . ويشكل حماية متينة لأن جدران المباني التى تتكون من ستة وسبعة طوابق سميكة جدا وقاعدتها وفتحات التهوية والنوافذ ترتفع أكثر من عشر ياردات فوق الأرض . تقع بوابة المدينة في جانبها الجنوبي عند مجرى سيل واسع ، بحر من الرمال ، ويشكل طريقا طبيعيا للمرور من وإلى المدينة، وفي وسط مجرى السيل توجد عدد من الآبار يأتي إليها النسوة والعبيد لأخذ الماء الذى يحملونه في موكب لا ينتهي إلى البوابة والشوارع المظلمة التى تخترق المدينة مثل شقوق ضيقة .

سارت العربة ببطء وهي ترتجف وتترنح ثم تصعد من مجرى السيل إلى منحدر واسع مرصوف بالحجارة إلى البوابة . وهنا انتظرتنا شوارع شبام الشريرة بصخب . دخلنا البوابة الرئيسية وهي محجوزة للرجال ، وللجمال المحملة والحمير، وللعربات التى نادرا ما تأتي هنا . البوابة الأصغر والأضيق مخصصة للنساء اللاتى يحملن الماء ، أو يذهبن إلى الآبار لغسل الملابس ، أو أي عذر آخر ليهربن من الحبس في سجن المنزل ويرغبن في رؤية بعض من العالم الخارجي ويتبادلن شائعات المدينة .

سرنا عبر الشوارع الضيقة الوسخة إلى منزل الرجل الذى استضافنا قبل ثمان سنوات ، إنه التاجر الغني من سنغافورة ، لعجم . كانت الشوارع نصف مظلمة حيث إن الشمس لا تصل خلال اليوم إلى القاع العميق للصدع الذي يفصل بين المنازل إلا لفترة قصيرة . الرائحة الكريهة من الفضلات والصرف الصحي من المطابخ والحمامات الذي يصب بشكل سميك في حفر في وسط الشوارع كان موجودا في كل مكان . فقط عندما يصعد الإنسان إلى الطوابق العليا يستطيع أن يتخلص من رائحة الشوارع القذرة . في الطوابق العليا ضوء وهواء نقي واللون الأبيض المفرح لغرف السكن في المنازل المترفة .

لم يكن لعجم موجودا ، أما صديقه التوي فقد توفي قبل بضع سنوات . وعليه فقد أرغمنا أن نزور السلطان الجديد الذى كنا ننوي أن نزوره بعد أن نحصل على مأوى . يسكن السلطان صالح القعيطي في قصر يهيمن على كل المدينة ويزيد عمره على أكثر مائة سنه . انطباعنا الأول عن الرجل الفظ بلبسه غير المرتب لم يكن انطباعا حسنا . يبدو من مظهره غلبة الدم الهندي عليه مثل غالبية عائلة سلاطين القعيطي . ربما قطعنا علية نوم القيلولة . ومن تحت حواجب كثة الشعر وبعينين متحديتين وفضوليتين حدجنا بغير ترحاب . وقادنا إلى غرفة أكبر من التى أدخلنا فيها الجنود وبإشارة من يده دعانا للجلوس بجانبه في الركن . ثم بدأ يدخن وأمر بإعداد الشاي . كان قليل الكلام ولم يشجع محاولاتنا للحديث . مضى الوقت بطيئا . كان وصول قافلتنا مع فاسي ومحسن راحة كبيرة للسلطان ولنا . أخذت الأسئلة تتكرر واستعيدت التجارب وبدأ السلطان يبدي اهتماما . على أنه بفضل الشاي تيقظ جلالته تماما ، وتلاشى صمته تدريجيا وأخذت رقة قلبه العفوية تكون لها اليد العليا . التعقل جعله في البداية فظا ومتحفظا . كان ملائما جدا بالنسبة لنا أن نكتشف الجانب الرقيق في شخصيته لأننا لا نستطيع مواصلة السير في ذلك اليوم وعلينا أن نعتمد على ضيافته . أصدقاؤنا القدامى ما عادوا هناك ، لا توجد عربة في المدينة ؛ وعلينا أن نسير مع القافلة بأرجلنا إلى سيئون . وبما أن الجمال متعبة فلن نستطيع السفر قبل اليوم التالي . تعامل السلطان مع الموقف ببساطة وأمر فورا بإحضار العلف لجمالنا . وبعد ذلك بفترة قدمت لنا وليمة وافرة شارك فيها سكرتير السلطان ومحسن .

وضعت صالة الاستقبال الواسعة تحت تصرفنا لقضاء الليل . وسألنا بتعقل إذا كان بإمكاننا النوم في إحدى شرفات السطح . سيكون الجو أكثر برودة هناك مع احتمال التخلص من الناموس والحشرات . وكانت راحة كبرى لجماعتنا عندما أعطى السلطان موافقته . وأعطانا هذا وعدا بليل بارد بلا إزعاج . سنكون

في علو شاهق فوق المدينة بل يمكننا أن ننظر إلى مآذن المساجد تحتنا وهي تبدو مثل الدمي في ركن الساحة .

كم سيكون المنظر جميلا في صباح الغد عندما تغمر الشمس سطوح المنزل البيضاء لمدينة الوادي النادرة هذه ولن يكون التصوير ممنوعا . بل جاء السكرتير في الصباح الباكر ، وصعد عددا لا يحصى من الدرجات ، ليقودنا إلى شرفات أعلى ، إنها أبراج مربعة أضافت الكثير من الأناقة لهذه اللون الرائع من فن البناء الحضرمي .

أينما ولينا أعيننا تعجبنا من المنظر الآسر . ؟ ظهرت هنا وهناك إلى جهة الشرق بين بساتين النخيل ، وقطع مزدهرة الخضرة من القمح ومنازل الحقول البنية وأحيانا الفيلات البيضاء للأغنياء . وإلى الجنوب بحر الرمال الأبيض لمجرى السيل والرجال يغدون ويروحون في صفوف مثل النمل بين الآبار والمدينة . وفي الخلفية الحزام الأخضر لمدينة بساتين شبام الذي يقود إلى جدار الوادي وهو يشعّ في الضوء الدافئ لشمس الصباح . وفي اتجاه الشرق والشمال ، بعيدا أسفلنا ، تمتد المدينة ، بكتل منازلها البنية والجزء الأعلى هو الوحيد الأبيض ، وتخترقها شوارعها القليلة مثل الشقوق الضيقة السوداء . لم نتعب أبدا من الوقوف لمثل هذا التطلع . في كل من المدن الثلاث الكبيرة في الوادي وقفنا مثل هذه الوقفة التى تطل على منظر رائع : في سيئون كان سطح قصر السلطان وفي تريم فوق القبة الرقيقة لأعلى مئذنة في حضرموت .

كل مدينة تمثل نوعا متميزا . شبام أعرقها وأكثرها أصالة في حضرميتها بمنازلها الشاهقة الملتصقة بعضها مع بعض للدفاع الأفضل ضدّ الأعداء . سيئون أكثر المدن جمالا في حضرموت الحديثة وبها أكبر حزام من بساتين النخيل وهي تقع في جوّ من الرفاهية . لقد نجحت سيئون في بناء أحسن المساجد والأضرحة التذكارية والقصور بروح من الحرية والاتساع الجدير بالشباب الجديد ومع ذلك ما زال يحافظ على الفن المعماري القديم . تريم المدينة التى بها أكثر القصور حداثة و أسوأ بنيان لمآذن . إنها مدينة لها مظهر خلاب وتنافر شديد في كل من الشكل واللون . كان البناؤون أمناء لمواد البناء الحضرمية التقليدية ، الطوب المجفف بالشمس ، أما بالنسبة للبقية فقد استبدلوا ذهب ذوقهم الخاص وحرفتهم بنفايات مستوردة من الخارج .

انتهت إقامتنا في قصر شبام التى بدأت مضطربة نهاية جيدة . السلطان الخجول المنكمش ، ومظهره غير الملوكي ، تخلى عن شكوكه وأظهر خصاله الحميدة المتأصلة . وعلى الرغم من مغادرتنا مبكرا فقد كان هناك لوداعنا وأصر ان نشرب عددا لا يحصى من أكواب الشاي مع كثير من اللبن الساخن ونأكل

كمية من البسكويت . وبعد وداع ودي بالأيدي تحركنا سيرا على الأقدام إلى سيئون . تحركت القافلة قبلنا وهذا يناقض تماما تقاليد القوافل . ولكن الهماميين كانوا في عجلة ليصلوا إلى نهاية رحلتهم على الرغم من أنهم كانوا أيضا يرغبون في رؤية المزيد من هذا البلد العربي المذهل . بالنسبة لنا كانت بلا شك ميزة فحيث لا توجد سيارة في شبام ، أرغمنا على السير عبر الجزء الخلاب من الوادي الذي يقع بين شبام وسيئون .

غادرنا المدينة عبر بوابتها الوحيدة التى تقف مثل إطار أسود لصورة مهيبة من الضوء واللون . وأمامنا وادي نهر الرمال وعبره كان الفلاحون والباعة وحاملو المياه يجاهدون السير ببطء متجهين إلى المدينة ؛ وفي الوسط سحيل شبام، مدينة البستان الأخضر ، وتشكلت الخلفية من الصخور البنية لجدار الوادي . عبرنا نهر الرمال في اتجاه شرقي نحو بساتين النخيل . وهناك كانت حركة مرور الناس الذاهبين إلى السوق بحيواناتهم المحمّلة محصورة بين الجدران الطينية التي تلتف حول بساتين المنتجعات الصيفية لأثرياء شبام . ويأتى من خلف تلك الجدران صوت أنين رافعات الماء فوق الآبار . تبادلنا التحايا وأجبنا بمزاح عن أسئلة الفلاحين المستعجلين . وغطست أقدامنا بلا صوت في طبقة التراب الناعم السميكة. وكنا نتوقف من وقت لآخر وننظر خلفنا إلى المدينة التي كانت معالمها الخارجية من الشرق تختلف تماما من تلك التي رأيناها عند ما اقتربنا إليها من الغرب . يقف قصر السلطان شامخا بكل عظمته في هذا الجانب . ويمكن الحكم على ارتفاعه تماما لأنه يهيمن حتى على أكثر المنازل علوا في المدينة . ويبرز الفن المعماري الحضرمي هنا في أرقى أشكاله . وعلى الرغم من طوله فإن خطوط المبنى أنيقة واستطاعت أن تعطى في نفس الوقت انطباعا بالقوة والسحر الوافر . من حسن الحظ لم يطل كل المبنى بالجير الأبيض وإنما أشرطة بيضاء على تلك الجدران البنية الباهتة . كل سطح الجدران الهائل مقسم بطريقة منسقة إلى صفوف من الشبابيك وعليها إطارات بيضاء على حافتها ، وصفوف من فتحات أصغر للتهوية ، وعليها أيضا براويز بيضاء ، أعطت مقابلة مبهجة مع لون الطوب الطبيعي . قصر سيئون الذى اعتبرناه من قبل أجمل بناء في حضرموت ، بدّل مسحته الحضرمية القديمة إلى أخرى أكثر ثراء من البياض الناصع من القمة إلى القاع . ويالها من خسارة ؛ لقد تركت الحياة وجه جدرانه العاتية . وفي رأينا أن حصن شبام هو الذى يستحوذ الآن على الجمال .

قبل ثمان سنوات شهدت هذه المنطقة التى نمر عبرها صراعا ضاريا وهي المنطقة الحدودية بين القعيطي والكثيري . ولقيت أشجار النخيل وقتها أقصى ما يفكر فيه الإنسان من عناية ولكن الآن فقط بعد استتباب السلام والأمن يمكن أن

يفكر الشخص في توسيع البساتين . وفي أكثر من مائة مكان حفرت آبار جديدة وزرعت حولها شتلات النخيل الصغيرة .

في البساتين المليئة بالبقاع التى يتخللها ضوء الشمس ، كان الفلاحون مع زوجاتهم وأطفالهم ، وأحيانا معهم بقرة أو حمار أو جمل ، منهمكين في المطبات في العمل الذي لا ينتهي بالسير جيئة وذهابا يرفعون القرب بالماء الفاتر الصافي كالبلور . يجلس الأطفال عادة بالقرب من فم البئر فوق قمة المجرى المنحدر . كانوا يلفون الأغصان الخضراء حول عيدان الذرة الجافة ويقدمونها طعاما شهيا للحيوانات لتحفيزها على الصعود سريعا إلى قمة المجرى .

لم تعد البساتين في المناطق الأبعد من شبام حولها جدران من الطين . وعندما نشعر بالظمأ كان يكفى أن نعبر مسافة قصيرة إلى لنشرب الماء من البئر. توجد السقايات فقط في الأماكن الصخرية الجرداء ، وبالقرب من القرى العديدة في الأرض العالية التى لا تأتى فيها الزراعة بعائد . هذه الأماكن الفارغة يستعملها الشباب من الحضارم ملاعب لكرة القدم . ويستعملون أغصان النخيل بعد نزع أوراقها ليقيموا منها المرمى للعب .

وفي اتجاه سيئون تقع قرية الغرفة الكبيرة المسورة ، وهي مركز حربي واسع الشهرة في الأيام الخوالي . في عام ١٩٣١ كانت الخنادق تربط المكان ببساتين النخيل . كنا نقترب من المكان ونحن نسافر على عربة وشعرنا أننا متميزون كأجانب ولكن رغم ذلك طلب منا حراسنا من الحضارم أن نرتدي قبعات تقينا حرارة الشمس حتى يبدو جليا للحامية أننا محايدون وغربيون مسيحيون . في هذه المرة اخترقنا المكان ودخلنا من بوابة وخرجنا من الأخرى . المباني الوحيدة الجميلة هي المسجد وقبة أحد الرجال الصالحين .

بالاضافة إلى ذلك , كانت منازل الفلاحين الذين يمتلكون أرضا والمنازل الريفية للذين حققوا نجاحا في الخارج ، قد بنيت في عدة أماكن . ما زال الفلاحون متمسكين باللون البني الطبيعي للطوب الطيني . ما عدا فتحات النوافذ التي أحيطت بإطار جيري أو بروزت بجير يفترق قطريا من الأركان . المنازل الريفية بيضاء تماما ولكن بعض مالكيها كانت لهم فكرة ذكية فطلوها بالأبيض والرمادي مما أعطى مظهرا مبهجا بدلا من استعمال الألوان المستوردة في شكل قوس قزح التدرج . وهذا ما سنراه فيما بعد في سيئون وتريم . هنا ما زلنا نسير عبر عالم من الإيقاع الكامل بين خضرة البساتين ولون المنازل , عبر أرض من الجمال الحضرمي الذى لم يشوه .

شيّدت مدينة سيئون على السفح الجنوبي لجدار الوادي ولها حزام عريض من بساتين النخيل يمتد شرقا وغربا وشمالا نحو وسط الوادي . كان اقترابنا من

الغرب حيث انقطع حزام النخيل بفراغ صخري مستمر غير مزروع من أكوام الحجارة التى تقع على امتداد السفح الجنوبي لجدار الوادي . المدينة محمية من كل الجهات باستحكامات عالية من الطوب الطيني .

تقدمنا إلى الحراس عند البوابة . استيقظ الجنود من نوم القيلولة وأسرعوا لامتشاق أسلحتهم وتقدموا نحونا وهم يسدون علينا الطريق تماما . وحدقوا نحونا بمزيج من الفضول والريبة . لا يحدث كثيرا أن يأتي أربعة أجانب سيرا على الأقدام في أكثر ساعات النهار حرارة ، بدون دليل وبلا أمتعة ، ويطلبون الإذن لدخول المدينة . كان قائد الحرس يريد أن يعرف كيف وصلنا إلى هنا ومن أين بدأنا . ولم تكن إجابتنا بأننا جئنا من عدن وسافرنا برا إلى حضرموت مقنعة أبدا بالنسبة له . ثم أخبرناه أننا أصدقاء السيد أبوبكر الكاف وأنه دعانا لنكون ضيوفه . وفي الحال زال كل الشك . وأشار إلى رجاله فتراجعوا إلى الخلف وحيونا . وأخبرنا العريف القائد أن نمضي رأسا عبر المدينة ، ونعبر أمام قصر السلطان ، إلى المدينة البستانية ، ومن الأفضل أن نسأل مرة أخرى أي طفل أين يقع منزل الضيافة الخاص بالسيد أبوبكر .

في رحلتنا الأولى إلى حضرموت كانت تريم والقصر هدفنا حيث ارتحنا عندما كنا نضع خطتنا الجديدة . الآن ستكون سيئون هدفنا لأن الاضطرابات السياسية أخرجت أبوبكر بعيدا من تريم . ومن أجل استضافة الأعداد المتزايدة من الزوار الغربيين قرر أبوبكر بناء منزل ضيافة خاص هنا . أثناء زيارتنا الأولى لسيئون كان السلطان الكثيري ، علي بن منصور ، مضيفنا الذى لا ينسى . ولكن هذا الصديق القديم توفي فجأة ، قبل فترة وجيزة فقط ، ولذلك سيكون الفرق بين ما كان والآن كبيرا . ملأنا حب الاستطلاع والفضول ونحن ندخل المدينة ، التى تربطنا بها ذكريات سعيدة ، فأبعدت عنا إرهاق وفتور الحرارة . ولكن سيئون كانت ساكنة ، أصيبت بالصمت التام من الشمس العنيفة . وحول المستنقعات الطينية التى تكونت من الأوساخ والفضلات من المنازل وسالت في مجاري الجدران ، كانت هناك قطة تبحث بازعاج عن شيء تأكله ودجاجة وحيدة تنكش الأرض ، بينما نام كلب هائم مغطى بالطين القذر الذى وجد فيه برودة .

الفصل السابع عشر

سيئون وتريم

سرنا في سكون الظهيرة عبر شوارع الحي المأهول من سيئون نحو قصر السلطان . الشوارع في هذه المدينة أعرض وأكثر تنسيقا من أغلب المدن الأخرى في شبه الجزيرة العربية . والمنازل أيضا مصانة جيدا ولكن البياض الأصيل القديم مفقود . على أن هذا ، جعل جمال المساجد النظيفة يبرز بصورة أفضل ، وبجانبها كما هي العادة ساقية .

وجدنا طريقنا بصعوبة إلى قصر السلطان الذى يقع بين المدينة القديمة بمبانيها الفقيرة وحي الفيلات بحدائقها . وعلى بعد مسافة قصيرة تقع المقبرة وبداخلها قبابها العديدة الجذابة ، وقد أحيطت الآن بسور . الساحة حول القصر عريضة وهي مهمة بالنسبة للمدينة وكذلك بالنسبة للمبنى الذى اعتقدنا في مرة أنه أجمل ما أبدعه الفن المعماري الحضرمي . يقف الآن في حلة جديدة ، ناصع البياض من القمة إلى القاع . أقيم سياج عال عريض في الواجهة ، يصله بهو بأبواب عالية وشبابيك مع كتلة كانت في الأصل ميدانا . والإضافة بها لمسة هندية مميزة ولها مقابلة عكسية مع البساطة الشديدة وقوة البنيان الحضرمي الأصلي . وتستدق الأبراج فالمسديرة في الأركان الأربعة ملما زادت في الارتفاع وهي الآن متوّجة بقباب هندية . لقد فقدت طابعها الدفاعي الصامد الذى لا يستسلم وصارت بلا معنى وقبيحة . ونظرنا إلى التحول بأسى .

ولكن كان علينا أن نواصل ؛ يمكننا أن نسجل زيارة للسلطان الجديد فيما بعد ومن ثم نلقى نظرة بارتياح على القصر الذي تغير كثيرا . عبرنا مجرى السيل الجاف الذي يفصلنا عن المدينة البستانية . وهناك أيضا يبدو أن الكثير قد تغير. في الأيام السابقة كانت النخيل الخضراء مهيمنة والمنازل الريفية تطل فقط من فوقها . الآن شيدت منازل أطول وما عادت بالنسق القديم الخالص . الطوب الطيني البني والبياض الذي يومض باتساق تام مع الخضرة الناعمة لأشجار النخيل ، تراجعوا أمام الألوان المهينة من أسواق الغرب . وهناك بناية طويلة بلون أخضر فاتح تجذب الانتباه بصخب . إنها تصرخ بالمفارقة مع محيطها . وعندما دققنا النظر رأينا أن لها إطارات نوافذ من الليلك وحدودها أيضا من الليلك على امتداد القمة ، وحتى تكتمل المأساة قرأنا بحروف لاتينية عريضة على واجهة الجدار : "S.A. Building" . (١) وعلمنا لراحتنا أن هذا الاسم لا علاقة له بشعارات النازيين السياسية بل يعني بكل بساطة أن سلطان علي "S.A." هو الذى بنى هذا المنزل .

عادت أفكارنا ثماني سنوات إلى الوراء ، عندما استقبلنا نفس هذا السلطان في حديقة الفيلا المتواضعة "عز الدين" . ويا لها من بساطة وجاذبية كانت هناك !

وحتى إذا لم تكن هناك أسماء منقوشة خارج المبنى كنا سنتذكرها لأنها كانت منسجمة مع المناخ المحلي .

لم يختف كل الجمال الحقيقي . مازال جزء من القديم قائما ولكن كل الجديد تقليد بائس للغربي مع مبالغة في كل من الشكل والألوان . شيّد السلطان الحالي بجانب مبنى الليلك منزله الريفي الجديد بلون الزعفران الأصفر . وما زال "عز الدين" هناك ولكن مع إضافة طابق أعلى . وقد حافظ على مظهره الخارجي الأبيض البسيط ولكن ما عاد يسترعي الانتباه ، إذ أن البنايتين الجديدتين شوّشت على جمال البستان الهادئ .

يسير الإنسان في هذا الجزء من سيئون عبر ممرات من تراب إذ إن كل الحدائق محاطة بجدران طينية عالية . لا يرى الإنسان كثيرا من الجمال في الداخل ، ولكن يقتنص أحيانا عبر فتحة البوابة لمحة عابرة منه .

السيد أبوبكر بن شيخ الكاف يسكن أيضا في المدينة البستانية . اشترى هناك واحدا من أجمل المنازل ذات الأسلوب القديم . ثم اشترى قطعة كبيرة من الأرض على حافة حي البستان وشيّد منزلا إضافيا حديثا ليكون بيتا للضيافة لزواره الأجانب العديدين . وسرعان ما كنا نقف أمام البوابة التى تقود إلى الحديقة الجديدة. وبعد مسافة جئنا إلى باب المنزل نفسه . وهو محاط بأشجار الفاكهة وعلى الباب تلمع التحية التقليدية باللغتين العربية والإنجليزية :"أهلا وسهلا- مرحبا" .

ثلاثة من أبناء السيد أبو بكر وسكرتيره الخاص حسن الشيبة الذى سمع بقدومنا في اللحظة الأخيرة ، وقفوا تحت الشعار وكرروا الكلمات المكتوبة عليه. واندهشوا عندما علموا أننا سرنا كل المسافة من شبام . لسنين عديدة لم يفعلوا هم أنفسهم نفس الشيء ويبدو أنهم كادوا أن ينسوا أنه ممكن . وأخبرناهم أننا سرنا طوال شهر كامل عبر بلاد صعبة جدا ولذلك كانت هذه المسافة القصيرة متعة بالنسبة لنا .

كان لإجابتهم باللغة العربية وقع الموسيقى في آذاننا :"الآن أنتم في داركم، هذه داركم " . ويالها من دار! قصر منتظم من الطوب والملاط يعبر عن كرم السيد أبوبكر . وكان المبدأ الذى سار عليه هو خلق مكان يشعر فيه الأوربيون أنهم في دارهم . ونجح لحد كبير فما من أحد حظي بموضع قدم في هذا المحيط من الضيافة العربية سوف ينسى المباهج التى لقيها هنا .

الكتابة عن ميزات الفن المعماري لهذا المنزل هي أبعد من المتناول مثلما يحاول طفل أن يكتب عن داره . بعض ضيوف السيد أبوبكر دخلوا هنا بعد أن سافروا عبر وديان ترابية أو فوق جول محرق . ضباط سلاح الطيران الملكي

والإداريون البريطانيون الذين طاروا عبر الأعاصير والعواصف الرملية الساخنة، جاءوا رأسا من طائراتهم إلى هنا. ووجدوا كلهم رفاهية لا يمكن أن توجد في أي واحة . وكان لقاء مضيفهم فرصة للقاء الحضرمي الذى كرّس نفسه وثروته بتواضع جم لراحة مواطنيه . على أن أفضل ما يلقاه المرء من ضيافة هو تبادل الحديث معه .

يلتقي الإنسان في حضرته بحضارم آخرين مستغرقين في هموم حاضر ومستقبل بلادهم . وهنا أيضا اهتمام واضح بالتطورات السياسية في الخارج وهو اهتمام ولد ونمى بالإذاعات الخارجية التي تبث أخبارها باللغة العربية . ما يمكن أن يحدث لأبناء موطنهم في جاوا وأماكن أخرى يستحوذ على كل اهتمامهم . وأخيرا ، وليس بأي حال آخر ، كانوا كمسلمين لهم اهتمام عميق بمشاكل الإسلام التى تعكس توترا وأعراض أزمة في عالم اليوم . تحدثنا لساعات متواصلة في كل تلك المواضيع مع القيادات الجديدة لحضرموت في جو من الثقة المتبادلة التي تسمح بتبادل أفكار جريئة . وليس أدل على التزام السيد أبو بكر بهذا الشعار ما كتبه في أحد أبواب بيت الضيافة يقول :بيت كل من دخله :كان آمنا . آمنا بالمعنى الشامل ، أي آمنا في جسده وروحه .

انتهى في هذا البيت أكثر جزء مهم في رحلتنا . قرر الهماميون أصحاب الجمال العودة بالتفافة على طول طرق الوادي الرملي الواسع إلى شبوة ، وذلك ليتفادوا عقبة با تيس ثم يتقدموا بطريق عياد إلى خيامهم المصنوعة من وبر الغنم الأسود بالقرب من نصاب المدينة الصغيرة التاريخية .

استقر رأينا على أن نرتاح هنا بينما نعد الخطط لمسيرة سريعة في اتجاه الشمال إلى حدود الربع الخالي . وعندما ننجز هذا ، سوف نحاول أن نشق طريقنا عائدين إلى الساحل عبر طريق بين الاثنين كانت قد وضعت خريطته ووصف من قبل . كان في ذهننا درب القوافل عبر وادي بن علي اعتمادا على نصيحة ومساعدة السيد أبوبكر لتنفيذ هذين الجزئين من مشروع رحلتنا .

وبينما كنا نشرح له هذا نظر إلينا وكأنه يقول :" الآن أنتم أكبر بكثير مما كنتم عندما جئتم في المرة الأولى وما زلتم في تخطيطكم أغبياء كما كنتم قبل ثمان سنوات " . وما زلنا نذكر جيدا من معرفتنا له من المرة السابقة أنه لا يتعجل أبدا في اتخاذ القرار ولكن من نظرته الودودة الجادة فهمنا أنه سوف يساعدنا مرة أخرى وأن نصيحته الغالية ومعرفته الواسعة ونفوذه بين البدو ستكون مرة أخرى تحت تصرفنا . وعندما عاد إلى منزله دون أن يقول كلمة عن الخطط التي طرحناها أمامه عرفنا أنه سوف يفكر فيها ، وسوف يبعث الرسل لإحضار

المرشدين الموثوق بهم من المناطق التى سوف نعبرها وأنه بعد بضعة أيام سيعود بالخطط المعدّة جيدا والتوجيهات للمرحلة القادمة لرحلتنا .

كانت الأيام التالية استرخاء بلا هم في سيئون حيث جددنا صلاتنا مع الناس والأماكن وواصلنا تنظيم وفحص المعلومات والمادة التى جمعناها . خصص لكل واحد منا غرفة واسعة وسوف يوضع فيها متاعنا المغطى بالغبار ونخرج الملابس المتسخة ونرسلها للغسل . كنا نجلس حول منضدة صغيرة في المحيط المنعش لحديقة أشجار الفواكه التى تروى يوميا ، وكذلك الزهور والخضراوات ، وكنا نكتب ونعمل لساعات دون إزعاج . فلا شمس تستحثنا على المسير ، ولا أصوات بدو نكراء تصرخ فينا . ليست لنا هموم عن الأكل أو الشرب ، ولا يؤرقنا احتمال نظافة الصخور والحجارة وإعداد أسرّة المعسكر في نهاية اليوم . إنه مما يبعث الرضى أن يجول المرء بناظريه في الغرفة ويرى سريرا وفوقه فرش نظيف وناموسية لتحميه من الناموس والذباب ، وسرير ناعم لنرقد فوقه . ثم يمكننا أن نستحم كل يوم في حمامات بها أحواض سباحة صغيرة مليئة بماء صاف كالبلور ! وبعد أن نغسل أجسامنا بالصابون ننزلق في يسر في الماء الفاتر ونحدّق في الجدران الرخامية . الماء الذى يطفو فوقه الإنسان يريح الأقدام المتعبة والأجساد التى حرقتها الشمس ، الماء الذى كنا حتى وقت قريب نلهث بحثا عنه والذى كنا نحمله بتعقل وبرفق طوال الطريق ، برغم رائحته الكريهة في أغلب الأحيان . أما هنا فهو متوفر وممتاز و صاف و بلا روائح ، رفاهية يقدمها السيد أبوبكر لضيوفه في مقاييس مترفة وكانت من المتع التى يقدرونها تقديرا شديدا .

تنتظرنا في الليل متع أكبر. في الشرفة أمام البيت حوض أكبر به نفس الماء الرائع . غطسنا فيه قبل أن نذهب إلى النوم . هذا الحوض كبير بدرجة كافية تسمح بسباحة حقيقية والماء دافئ من حرارة اليوم . عندما تهب النسمات الجافة على أجسامنا المبتلة نشعر ببرودة منعشة . وكنا نطفو على ظهورنا وننظر إلى السماء المرصعة بالنجوم التى أصبح جلالها الصامت مألوفا لدينا خلال ليالينا في الجول . وكانت الضفادع بصحبتنا .

اعتدنا في العصر عندما يلقى المنزل بظله على الشرفة ، أن نجلس فوق السجاد المفروش على حافة البركة ، ونتحدث مع الزوار الذين أخذوا في الوصول، ونشرب أكواب الشاي الصغيرة وندخن . وصل السيد أبوبكر بعد يومين من وصولنا بعد أن أنهى مفاوضاته مع زعماء البدو في حورة . يأتي غالبا في الصباح ليستمتع بساعة هادئة من العمل في الحديقة . وأحيانا يأتي ويذهب دون أن يشعر به أحد وأحيانا يغتنم الفرصة لحديث منفرد . وجدنا أنفسنا قد رجعنا تدريجيا

إلى الأسس القديمة من التفاهم الودي واقتربت مواضيع نقاشنا أكثر إلى حضرموت وإلى مسئولياته الشخصية . لم يتغير تعاطفه الأول مع هيرمان وسأله عن طبقات الراسب الطفالي في الوديان ، ومستوى الماء الجوفي، وإمكانيات الري وتشييد الطرق .

بعد وصوله مباشرة سألني على انفراد عن رأي هيرمان في النظام الهتلري واتجاه الأوضاع في ألمانيا النازية . هيرمان منصرف لعمله . ويشارك معاناة أغلب الألمان . ولا يرى هو ولا فاسي مخرجا لبلديهما من الأوضاع التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، ولكن لم يتلوث أي منهما بالمخازي والعار التى تمر بها أمتهم . تابع السيد أبوبكر شرحي بامتنان وتفهم . التطورات الأخيرة في حضرموت دفعتني بقناعة متزايدة إلى التعاون الكامل مع بريطانيا العظمى . ولن تقف مأساة ألمانيا المتعمقة حائلا بيننا وبين استئناف صلاتنا السابقة مع الأصدقاء. وواصلنا حديثنا بثقة ، وكنا صريحين مع بعضنا بالرغم من وجود جرح مؤلم يمنعنا من أن نقول كل ما في قلوبنا .

جاءت مناقشة الوضع في أوربا قبل كل شيء . لا يوجد أي مكان في هذه البلاد يمكن أن نهرب إليه من هذا السؤال القاسي . كان التعاطف السابق مع ألمانيا بالصوت العالي يتغير . الاستياء من إيطاليا يرتفع عاليا . الصلة مع السلطات البريطانية في عدن أصبحت وثيقة جدا وربط الحضارم مستقبلهم إلى ما لا نهاية بالإرشاد البريطاني فكان من المنطقي جدا أن تخضع تصرفات البريطانيين ومسلكهم للاختبار عنيف وللنقد .

وكانت السياسة البريطانية في فلسطين إما أنها لا تفهم أو أنها لا تقدر من قبل العرب بلا استثناء . كل واحد هنا يستمع إلى الإذاعات من روما ومصر وقبل أيام قليلة فقط بدأت برلين تذيع باللغة العربية . الدعاية المعادية لليهود تمتص سريعا بينما البريطانيون يظلون في صمت شامخ . لا يدافعون عن نفسهم من مثل هذا الهجوم المضاد . ذكرت بعض الحجج اليهودية في هذه الدراما ذات الأبعاد العالمية ولفت النظر إلى طبيعة الأخبار البريطانية الموزونة والمعتمدة على الحقائق بالمقارنة إلى خطاب المتحدثين باسم الأنظمة الدكتاتورية المشحونة بالعواطف وغالبا بذيئة وتتبع منهج تمجيد الفرد بلا استثناء . كانت نصيحتي:"استمعوا بانتباه ثم اختاروا ما تؤمنون به" .

وعلى الرغم من أن هذه المناقشات كانت محرجة بالنسبة لتكوين مجموعتنا الصغيرة إلا أنها تعاد يوميا . لا تسمح لنا اللباقة أن نضع جانبا كل هذا الحديث الأولي ونصل بالمناقشة رأسا إلى الإحراج السياسي والديني . ولكن كلما أكثرنا الحديث اقتربنا أكثر من مشاكلهم وصراعاتهم كحضارم ومسلمين .

في بداية إقامتنا في سيئون تفضل السيد أبوبكر بتقديمنا لرجل كبير مقبول له لحية بيضاء ، السيد عبد الرحمن بن عبيد الله الذى سماه مفتي حضرموت . سافر هذا العالم الإسلامي ثلاث مرات إلى جاوا . وقابل هناك مستشار حكومة هولندا للشئون الإسلامية . بل ادعى أنه قابل الرجل الذى يعتبر المؤسس للسياسة الهولندية الإسلامية الحديثة ، البروفيسور سنوك هورخرونيه . وفيما بعد ، عند الحديث عن كتاب جمعت فيه كل أحاديث الرسول ويعتبر ذا قيمة كبيرة لأي متعلم مسلم ، أخطأ هذا الدارس للإسلام بخليفته الواسعة ، واعتبره من وضع البروفيسور فينسينك خليفة هور خرونيه . ثم سأل بشكل غير متوقع إن كنا أخذنا تاريخ وحياة ومعتقدات المسلمين المعاصرين على أنها تمثل الإسلام الحقيقي كما فعل غالبة المستشرقين. أم هل نعرف الإسلام الحقيقي في جوهره وتاريخه ؟ كانت إجابتنا أننا حاولنا تحت التوجيه الصارم لسنوك هورخرونيه أن نقترب إلى الإسلام الحقيقي وأننا نعي تماما حقيقة أن الدين والنظرة العامة للإسلام تمر هذه الأيام بأزمة محرجة بشكل عام . لم يكن المفتي مرتاحا أبدا لأوضاع الإسلام في الوقت الحاضر . العديد من علماء الدين الذين سبقوه قلقون مثله وينظرون بأسى إلى الأيام المثالية الذهبية لقرون الإسلام الأولى . من أجل إعادة تأسيس الإسلام النقي وانتصار الإسلام في العالم فإنهم يتطلعون إلى قدوم المهدي ، وهو رسول يرشده الله إلى الطريق القويم، شخص مسيح .(٢)

انتقلنا إلى مسائل مادية . سأل زائرنا الموقر هيرمان بعض الأسئلة عن جغرافية وجيولوجيا البلاد . ثم قليلا قليلا ، بدأ يسألنا عن الأوضاع في الغرب . كيف نفسر أن قارة لها مثل هذا المستوى الحضاري الرفيع تبرز فيها دائما أمة يبدو أنها على استعداد لإبادة الأخرى بوحشية ؟ وكانت إجابتنا في نفس اتجاه إجابتنا على تحسره على تدهور الإسلام . الأمم والحكومات في الغرب فقدت مخافة الله والإيمان العميق في الاتكال على هداية الله ؛ لقد أصبحوا يعتمدون على قدرتهم فقط لتعزيز سعادة البشرية . هذا الزهو سيقود إلى كارثة مفجعة نرى كلنا أنها قادمة لا محالة . استأذن المفتي في الانصراف ، ووعد بالعودة لمواصلة الحوار .

كان من الطبيعي أن نقوم بزيارة لقصر السلطان . كان ضوء الشمس العنيف ينعكس بقسوة على واجهته العريضة العالية ، واقتربنا من البوابة التى تقود إلى الشرفة وأعيننا نصف مفتوحة . استقلبنا هنا في إحدى المرات كأصدقاء . ولن نجد الآن الرجل الذى حكم سيئون بقبضة قوية ، والذى وضع أسس النظام والنظافة ، والذى حافظ على الآثار المعمارية وطورها بأفضل ما لديه من قدرة.

السلطان علي بن منصور تخطفه الموت ولكننا سنرى أبناءه وبعض مستشاريه وأخاه ، السلطان جعفر بن منصور الذى خلفه .

أصطف حرس الشرف عند البوابة الخارجية لتحيتنا . وأجريت نفس مراسيم التشريف عند البوابة الداخلية , ارتدى الجنود أزياء جذابة وأنيقة يحملون بنادق المشاة البريطانية . كان أهل سيئون يريدون زيا أكثر ألوانا ولكن إنجرامس أصر على الكاكي الذى لا يحبه العرب ، أو على الأقل هذا ما أخبرني به الموظفون المحليون . وفي الممر تقدم أبناء السلطان للقائنا . كانوا نحيفين ويبدو عليهم الذكاء. ما زال الكبار يذكروننا من زمن رحلتنا الأولى . أعجبنا داخل هذا القصر الحضرمي مجددا نظافته ونظام ممراته العالية وسلالمه المضاءة جيدا . استقبلنا سلطان جعفر بن منصور في البهو الكبير . جلسنا على السجاد الذى فرش عند الحائط واتكأنا على المساند التى لا مفر منها وتحدثنا بهدوء مع هذا الملك الصامت الذى يحمل وجهه بوضوح آثار المرض الذى كان يعاني منه. أما أبناؤه وأبناء أخيه المتوفى فجلسوا القرفصاء في الجانب الآخر من البهو مع الخدم . قدموا الشاي . ثم فرشت قطعة قماش على الأرض أمامنا ، ووضع فوقها بسكويت وفواكه معلبة مستوردة من جاوا وقطع من الزنجبيل المحفوظ . الخليط كان أصيلا ولكن طعمه جميل .

كان السلطان جعفر مريضا ومتعبا ولكن مراعاة لأخيه الميت تحامل وقابلنا بمودة . حسن السكرتير الخاص للسيد أبوبكر الذى جاء معنا ، خرج بفكرة ألمعية عندما طلب السماح لنا بالصعود إلى السطوح . لم يكن هناك اعتراض ، وتقدم أمامنا الجيل الجديد وبدأنا نصعد إلى سطح أعلى مبنى في سيئون . وجئنا أخيرا إلى جناح السكن وقادونا عبر عدد من الغرف المؤثثة بشكل مقبول إلى أعلى شرفة في السطح . نحن نقف الآن فوق طابق أعلى من الطابق الذى وقفنا فوقه قبل عشر سنوات لأن سطح القصر أضيف إليه طابق آخر . وحولنا كان وهج شمس الظهيرة ينعكس على السطح المطلي بالأبيض بينما كانت الشمس تسطع بقسوة على المتاريس من فوقنا .

وفي البعيد تحتنا انتشرت سيئون نفسها ولكن يمكن أن نميز بسهولة الزخرفة والإضافات التى تمت بالتطور المنظم في عهد السلطان الراحل علي . الرفاهية تشع من المنازل المصانة جيدا بطوابقها العليا البيضاء . توسع حزام النخيل وأصبحت عليه بقع أكثر مما على المنازل الريفية البيضاء . ولقيت المقبرة التى تقع وسط المدينة وعند أسفل القصر عناية واهتماما يستحقه هذا المرقد الأخير للموتى بقبابه الرائعة . وتظهر من بين المنازل هنا وهناك المساجد بمآذنها الجميلة

. وللقصر بالطبع مسجده الخاص ومن مكاننا الرفيع العالي نظرنا إلى ساحته الداخلية ومئذنته الصغيرة .

يقف قصر سلطان تريم بنفس البياض على بعد مسافة قصيرة ، و يبدو أن السلطان يفضل أن يعيش في سيئون بعيدا من مسئوليات إدارة مدينته ، التى أودع مهمتها راضيا لأخيه وللسادة . سار معنا السلطان جعفر كل المسافة إلى السطح . كان يحب أن يرانا نلتقط الصور ويشعر بسعادة عندما يرى استمتاعنا بجمال مدينته . ومن الطبيعي أن يكون الأولاد تواقين لالتقاط صورهم كذلك ، ولكن كان ذلك مستحيلا بسبب الإضاءة العنيفة في السطح . ولذلك اتفقنا معهم على موعد في اليوم التالي في حديقة "فيلا عز الدين" . ووضعت على السطح خطة أخرى : نصعد عاليا فوق مباني سيئون لنرى المزيد من هذا المركز الرائع لوادي حضرموت ونحدده بآلات الخرائط ونلتقط صورا أكثر .

بدأنا في صباح اليوم التالي قبل الفجر وصحبنا بعض الناس الذين يعرفون المدينة ومحيطها جيدا وتسلقنا ممرا للرعاة إلى واجهة الصخر . وانضم إلينا الجنود من عدن ليؤدوا بعض التمارين ويمتعوا أنظارهم بالسحر الخلاب لهذا البلد الجميل . وعند أعلى نقطة في الهضبة التى بنيت المدينة في سفحها وقفنا جميعنا ننتظر شروق الشمس . ظهر أولا الجول ثم حدود الوادي في الضوء البرتقالي الأحمر . وبعد ذلك سياج السطوح في المباني العالية في المدينة ، وقمم أشجار النخيل وظهرت منازل الفقراء من الطوب الطيني وسقفها الرمادي . لم يتكلم أحد، لكن العين استوعبت وخفق القلب أمام جمال يوم جديد بزغ على العالم . من الغرب شاهدنا الوادي إلى شبام . من الشرق لم يكن الوادي مستقيما ؛ مدينة مريمة التي تحولت إلى أنقاض كانت ظاهرة ولكن ليس تاربة وتريم . كان المنظر جميلا من كل الجهات ولكنه أكثر روعة أسفلنا في خط مستقيم حيث يمكننا رؤية سطوح سيئون ، بساتين النخيل بقنواتها التي يتدفق منها ماء السيل والمنازل البيضاء منتشرة مثل معسكر إغاثة . وفوق قمة كل رأس من الأرض يبرز في الوادي كما نرى أكمة صغيرة قمتها مسطحة ، بقايا طبقات جرفها بعيدا التآكل . هنا نحن على ارتفاع ١١٤٠ قدما فوق المدينة ولكن عقبة باتيس ، التى هبطنا منها إلى وادي عمد ، كان ارتفاعها أعلى ٣٠٠ قدما :على أنها بالنسبة لرجل من الأراضي المنخفضة ، خلفت انطباعا كافيا عن هذا الموقع الممتاز الذى يكاد يكون عموديا حيث بالنظر إلى أطراف الأصابع يستطيع أن يرى الإنسان قمة المآذن . ولم يقم هيرمان وفاسي بآلاتهم لتصوير ميلان الوادي بقراه الناتئة والوديان الفرعية فحسب ، بل وضعا أيضا خريطة لكل المدينة ، قصورها ، مساجدها ، آثارها وشوارعها .

قام هيرمان بعمل مشابه قبل ثمان سنوات . بناء على رغبة السلطان علي خطط مهبطا للطائرات إلى الشرق من حيث نقف الآن . وقد استغل رجل الأعمال من عدن مستر بس هذا المهبط عدة مرات لخدمات الطيران المنتظمة الرائدة بين عدن والمكلا ووادي حضرموت . ولكن الوقت لم يحن بعد لهذه المبادرة الجسورة .أثار سلاح الطيران الملكي اعتراضا بسبب قرب جدران الوادي العالية وشيد مطارا آخر في منتصف الوادي . وهذا هو الذى يستعمله الآن الموظفون البريطانيون الذين يساعدون الحضارم ويعلمونهم فن إدارة البلاد في سلام .

أثناء تجوالنا مع حسن الشيبة رأينا بنيانا ضخما من الطين ، أول سجن حديث في الوادي . نظام الاحتفاظ بالرهائن فى محل كرسي الحكومة يبدو أنه غير معروف أصلا في حضرموت . تم تبنيه الآن رسميا من أجل كبح وإخضاع تلك القبائل لطاعة القانون التى لا يمكن الوصول إلى مساكنها إلا بعد سفر طويل وشاق . فكرة الرهائن هذه كانت السبب في فشل محاولة إنجرامس الأولى لإرسال أبناء السلاطين والسلطات المحلية إلى عدن لتلقى تعليم مدرسي جيد . اعتقد الآباء أن أبناءهم أخذوا رهائن . لابد من نمو الثقة في مثل هذه الأمور . لابد أن يبدأ الآباء أنفسهم بمحاولة تنظيم تعليم أبنائهم فقط بعد أن يجربوا بعض المحاولات الفاشلة يمكنهم أن يكونوا راغبين في قبول التوجيه التّعْليمي من الغربيين .

لقد وضعوا ثقتهم حتى الآن في الدول الإسلامية التى برزت حديثا والتى تحكم نفسها مثل مصر والعراق . في مسألة التعليم يحتل الدين بينهم مكانا هاما فقبل كل شيء يرغبون في أن يتعلم أبناؤهم في مناخ ديني خالص . وهكذا علمنا أن المجموعة الأولى من الأولاد سوف تغادر قريبا إلى المدارس في بغداد والقاهرة التى يعتبرونها أفضل من أن يعهدوا بأبنائهم إلى السلطة المسيحية الغربية رغم أنه من الناحية السياسية فإن نفس السلطة تحظى بثقتهم الكاملة . فالحضارم لم يثقوا بعد في أن يتركوا العناية بأرواح أبنائهم إلى البريطانيين ، ولهذا سواء أكانوا محقين أم لا ، علينا أن نحترم الآباء .

وكما كان متوقعا تبادلنا أحاديث كثيرة حول العلاقات الوثيقة الجديدة مع بريطانيا العظمى . بعض الرجال الذين قابلناهم انتقدوا السيد أبوبكر وسياسته . لقد بقي تقريبا وحيدا ليتحمل مسئولية نصيب الحضارم في الحكومة الجديدة للبلاد. من طبيعة النفس البشرية نسيان الامتيازات سريعا مجرد الحصول عليها والنظر إلى الواجبات والحد من الحرية باعتبارها عبئا ثقيلا ، مثلما فعل أولئك النقاد . فهم يخشون أن النفوذ الكبير للسيد أبوبكر قد لا يكون حماية كافية لهم في وجه التدخل البريطاني العنيف . كما أن السيد أبوبكر غير ملم بشكل كاف بواقعية العالم الصعبة . هو يعرف فقط حضرموت لأنه غادر هذه البلاد مرة واحدة في رحلة

قصيرة إلى مصر . واجهنا بشكل محدد أولئك الذين تقدموا لنا بمثل هذا النقد . أكدنا حقيقة أنهم أنفسهم طلبوا تدخل البريطانيين ليضعوا حدا لحروبهم التى لا تنتهي . وكانت هناك بداية . سيكون من الأفضل أن يشاركوا الآن ولا يتركوا رجلا واحدا يتحمل العبء الذى قد يصبح في المدى الطويل ثقيلا جدا عليه . ألا يوجد حضارم آخرون مقتدرون ، قيادات للمستقبل لشعبهم ، لهم الرغبة ليتعلموا أسلوب الحكم الذاتي ، دون أن ينسوا أن حماية بريطانيا ستكون دائما ضرورية؟.إن بلادا صغيرة مثل بلادهم لا يمكنها أن تبقى في عالم اليوم بدون مثل هذه الحماية ، وإذا قبلوا هذه الحقيقة فلا يمكنهم أن يختاروا أفضل مما اختاروا . إيطاليا تحت موسيليني والاتحاد السوفيتي كلاهما أبدى اهتماما ضعيفا بجنوب شبه الجزيرة العربية . وبناء عليه فعلى كل حضرمي أن يعرف ماذا يفعل. إذا كان عليه أن يختار عليه أن يضع ثقته في إنجلترا . أدركنا أنه من الصعب على الكثيرين منهم قبول حتمية مثل هذا القرار . ظل كل الحضارم الأغنياء لسنوات متتالية يقومون بحروبهم الصغيرة الخاصة . أحاطوا بيوتهم المحصنة بخنادق وحاربوا من أجل حكم مستقل في القرية والمدينة . لم يعانوا كثيرا ومازالت هناك حسابات شخصية كثيرة عليهم تسديدها ، لذلك من الصعب عليهم النقلة من الصراع بقدراتهم الذاتية من أجل الطموح الشخصي إلى التعاون لدمج حضرموت كلها ، بالذات تحت توجيه دولة غربية كبرى .وعلى أي حال فقد اتخذوا الخطوة ، وعليهم الآن أن يضحوا بالحرية الزائفة ولباسها الرث من الرومانسية والزهو التى عاشوا فيها . إنهم غير قادرين على اتخاذ قرار أخير لإنهاء هذا الفصل من تاريخهم ويبدؤون فصلا جديدا . ولكن عليهم التغلب على هذا التردد من أجل بناء حضرموت جديدة. والرجال الذين عادوا من الخارج ويمتلكون قبضة رجال الأعمال العملية عليهم أن يعطوا الدفعة ليبدأ التعاون . وعلى رجال مثل عوض بن مرتع أن يكونوا نموذجا، والذين ظلوا حتى الآن يتفرجون يجب أن يشاركوا . حاولنا أن نقنع العديد من الذين ظلوا يستمعون متجهمين أن مكانهم خلف الرجال الذين تحملوا المهمة على أكتافهم ، خلف السيد أبوبكر وإنجرامس ، اللذين أسسا حضرموت الجديدة .

استفدنا من أيام الراحة في سيئون وقمنا برحلة إلى تريم . هذه المدينة التى اشتهرت في وقت ما بالعلم على امتداد كل النصف الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، أصبحت مكانا نبتت فيه أفكار جديدة . ما الذى حدث لتريم خلال ثمان سنوات ؟ وفر لنا السيد أبوبكر عربة للرحلة .

الطريق الذى يمضى رأسا إلى تريم أصبح الآن آمنا . عندما كنا هناك في المرة الأولى كانت تريم في حالة حرب مع تاربة ، وحتى تحافظ على صلتها مع بقية

الوادي ، شيدت تريم طريقا يلتف حول منطقة تاربة ولكنه يتعرج بصعوبة فـوق متن الجول الذي يدخل هنا بعيدا في الوادي العريض . هذا طريق محفوف بالمخاطر ويناسب الجمال أكثر من العربات . ولم نكن هذه المرة بحاجة لتفادي القرى والحدائق . سرنا عبر حدائق سيئون إلى مريمة ، التي كانت في الماضي مأوى لقطاع الطرق ولكنهم أخرجوا منها منذ زمن طويل وأصبحت الآن خرائب. وعبرنا بعد على تل وحيد ، قرية الصناهية ، و يمكن من فوق قمته تمييز أنقاض حميرية . بقايا حائط متين البنيان يقف فوق أساس بنيان ضخم الذى التصق بالأسمنت مع واجهة تل الجلاميد الشديدة الانحدار . توجد شظايا من فخار ، وقالوا إن شظايا أخرى يمكن العثور عليها بحفر سطحي . لم نر أي نحت أو نقوش على الحجارة . ربما كان الموقع أحد تحصينات الحدود لمملكة السبئيين مثل البقايا الأكبر في العر التى توجد في الوادي على مسافة رحلة بضعة أيام إلى الشرق من تريم .

ثم سار طريقنا لبضعة أميال عبر منطقة غير مزروعة وغير مأهولة . الآن وقد انتهت الحروب فربما تغير هذا أيضا . هنا جئنا على ضريح رائع . في قبالة الجانب الصخري لجدار الوادي الجنوبي شيدت قباب ناصعة البياض مع سلالم بيضاء تصلهم إلى مسجد صغير . ويشكلون كلهم نصبا تذكاريا للسيد أحمد بن عيسى المهاجر ، الجد الأول لكل السادة الحضارم . تقول الرواية إنه جاء من البصرة في العراق واتخذ طريقه إلى مكة لأداء الحج . ومن مكة قادته خطاه إلى حضرموت ، إلى قرية الهجرين الصغيرة في وادي دوعن المشهورة في العصور القديمة . وجاء أخيرا إلى وادي حضرموت حيث وجد بعض أتباع الأباضية (١) . ويقال حسب الرواية التقليدية إنه لجأ للحرب من أجل هدايتهم إلى العقيدة القويمة ، وبعد ما أنجز ذلك ، حول البلاد كلها إلى حديقة واحدة كبيرة . بقاياه الخالدة مدفونة هنا في البيداء التى تحولت إلى مكان للزيارة بالذات بالنسبة للنساء . الضريح من الخارج يشك مركزا حضرميا نموذجيا للعبادة ، ويشبه المكان المقدس الأساسي في هذه البلاد وهو قبر نبي الله هود .

لا يرى أحد هنا . المباني الصغيرة مصانة جيدا . وحتى الأرضية والسلالم الطويلة ناصعة البياض كأنما طليت بالجير لتوها . وفي سفح جدار الركام في الوادي يقف المسجد ويتصل مع حوض للوضوء . وبالقرب من مركز الضريح بنيان مربع بسيط يقف على شكل قبة وقد شيد فوق المكان حيث أنهى السيد الأول في حضرموت حياته الدنيوية الحافلة بالمغامرات . والقبة بلا زخرفة ولكن تتدلى من السقف الداخلي ناموسية من نوع ما . وفي قمة القبة مشكاة في الجدار . وبه مصباح صغير ربما يقوم الحجاج بإيقاده عند زيارتهم لهذا المكان

للصلاة والتأمل ، على أمل تلقي البركة في هذه البقعة المقدسة حيث الجو مفعم بالبركات . وتصعد من تلك البقعة سلالم تقود عبر ركام منحدر إلى سياج من أكوام حجارة يقف فوقها بنيان ثالث وفوقه أيضا سقف على شكل قبة. وفي الداخل مجموعة من القبور والأرض مغطاة بالحصير والمعدات التى لا غنى عنها بالنسبة للمسافر مثل براد القهوة والفناجين الصغيرة معدة كلها للاستعمال . لم نر حارسا ومع ذلك كل شيء نظيف ومنسق بشكل دقيق . ولا شك أن إجلال الزوار لهذا المكان المقدس جعلهم يهتمون أن يكون كل شيء محفوظ بنظام . أغلقنا أبواب القبتين والمسجد بعناية وغادرنا مكان الحجاج الصامت هذا . من المحتمل أن يكون المكان موثوقا به تاريخيا . الرجل الذى جاء إلى حضرموت بأجيال السادة , السلالة المباشرة للرسول من صهره علي وابنته فاطمة ، جدير بذكرى تليق بمكانته الكريمة . وعلى الرغم من أن الرواية تقول إنه وجد هنا أعضاء لطائفة إسلامية فقد كان من مصلحة السيد أحمد وذريته تأسيس مكان مبجل في الحياة العامة للصيغة الصحيحة لدين الرسول . ونجح في تحقيق ذلك رغم التنازلات الكثيرة التى قدمت للمعتقدات السابقة على الإسلام . وطوال القرون التى أعقبت وصول المهاجر تمكن السادة من تكوين طبقة متميزة اجتماعيا كما لم تتكون أبدا في أي بلد إسلامي آخر. الإسلام في حضرموت له طابعه المحلي المحدد المستمد من السادة الذين يفعلون أقصى ما في وسعهم للاحتفاظ به باعتباره يمثل مصلحتهم الخاصة .

أبعد بقليل في اتجاه تريم ، يقف قبر أصغر لإبن أحمد بن عيسى المهاجر وما بعد ذلك رأينا بساتين النخيل ومنازل القرى الهامة في تاريبا . تنتمي تاريبا وتخضع لحماية القبائل البدوية . ونجحت لفترة طويلة أن تبقى مستقلة عن سلاطين الكثيري وكانت دائما مصدر مضايقة لسيئون وتريم . كانت تلك هي الحالة قبل ثمان سنوات عندما بقينا على مسافة بعيدة منها وعبرنا إلى الجانب المقابل من الوادي واتخذنا الطريق الجبلي إلى تريم . استطاع سلطان سيئون أن يجعلها تتعقل الأمور وهي تشارك الآن في مباركة السلام . الحدائق الخصبة التى عبرنا عليها كانت مزروعة جيدا والعديد من المنازل تحت التشييد على نمط تريم. بعض الصبية الذين يلعبون على جانب الطريق ولدوا في جاوا ، وبالحكم عليهم من تقاطيعهم فإن أمهاتهم جاويات خالصات .

دخلنا بوابة تريم ، وعبرنا المقبرة المصانة جيدا واتجهنا رأسا إلى المنزل الكبير الجديد للأخ الأصغر للسيد أبوبكر ، عمر بن شيخ الكاف الذى تعرفنا عليه في رحلتنا الأولى . لقد مرت على تريم أزمان عصيبة في السنوات الأخيرة ولكنها تركت آثارا قليلة خلفها والمدينة في حالة تعمير وتحسين مستمر .

عندما قابلنا مضيفنا قبل ثمان سنوات كان عائدا من فوره من حياة تجارية حافلة في سنغافورة وزرناه في القصر الذى كان وقتها جديدا . شـيد الآن قصـرا آخر أكثر إثارة للإعجاب لعائلته المتوسعة وسافر في هذه الأثناء إلى مصر وأوربا وأدى فريضة الحج في مكة . وبفضل صلته مع نائب القنصل الجاوي عندما كـان في مكة قويت عواطفه مع حكومة هولندا في الشرق الأقصى ، ولذلك شعرنا أننـا داخل دارنا في أكثر القصور جدة في أكثر مدينة حديثة في حضرمـوت وأدركنـا أننا سنلقى الترحاب هناك . وجد فلبي وفريا استارك أيضا ترحابا في منزل السـيد عمر عند زيارتهما لتريم .

كان امتيازا خاصا أن نلتقي مرة أخرى بأولئك الأصدقاء القدامى الذين هم رفاق السيد أبوبكر اليوميين ونرى الجيل الجديد الناشئ من عائلة الكاف الذين كنـا نسبح معهم في حوض بستان نخيل السيد عمر . السيد محمـد بـن هاشـم أكـثر الحضارم علما ما زال هنا بحلقته القديمة من الأصدقاء . يربطني تعاطف مشـترك مع السيد هاشم يرجع إلى الوقت عندما كان منهمكا في الصحافة والعمل الـتربوي في سرابايا والقاهرة . وتعلمت في ذلك الوقت تقديره كرجل سريع الذكاء مع رقـة العالم . وعاد مثل السيد عمر رأسا من حياة النضال والحركة في مدينـة كبـيرة حديثة للحياة الهادئة بلا إزعاج والثراء الوافر في تريم ولم يستطع أي منـهما أن يتخلص من قبضتها . ناشدنا كلا منهما أن يعود إلى العالم الصاخب في الخـارج . هز السيد هاشم رأسه الجميل الذى خطه الشيب وقال عليه ملازمـة والدتـه فـي المرحلة الأخيرة من رحلة عمرها . وكان السيد عمر يريد أن يكمل برنامجه للبناء . وكانا يرقبان بدقة التطورات الأخيرة في بلادهم وسوف يقدمان بالطبع المسـاعدة لصديقهم الحميم وأخيهم سيد أبوبكر إذا احتاج لها . وإذا لم يهب السيد أبوبكر كـل ثروته في آخر عمره لمساعدة الناس الآخرين فذلك بفضل السـيد عمـر وأفـراد أسرته الآخرين . تحدث السيد هاشم (بالنسبة لي دائما قورو هاشم) بـدفء عـن إنجرامس وعمله . كانت تلك علامة جيدة . ورأى أيضا أخطاء وقصـورا أشـار إليها . مثل هؤلاء الأصدقاء عون كبير للإدارة الجديدة . دعونا نـأمل أن تكـون بدرجة كافية من التعقل لتقديرهم والاستفادة منهم .

هناك أيضا شخص آخر ، الأخ الأكبر من عائلـة الكـاف السـيد عبـد الرحمن، كنا نود من قلوبنا أن نبقى أطول لنتعرف جيدا علـى أولئـك الرجـال ونتبادل معهم الأفكار حول الفرصة العظيمة المتاحة لهم في قلب أمة اسـتطاعت تجديد نفسها ويجدون مساعدة من صديق قوي علـى الطريـق لبعـث وتنسـيق الإمكانيات .

على أننا التقينا بسيد آخر مرموق . هو الرجل المسئول عـــن القصـــور الجديدة في تريم ومنزل ضيافة السيد أبوبكر في سيئون . وبدون أي تدريب فنـــي أقدم بكل جسارة على تشييد تلك المباني الضخمة من الطوب الطيني والخشـــب ، وأضيف أخيرا قليل من الأسمنت . وبما أننا من بين الأصدقاء يمكننـــا أن نقـــول بصراحة إن إعجابنا الشديد بالمقدرة والعبقرية الخلاقة للمهندس المعماري بـــدأت تقل لأننا نحتج بشدة على الممارسات الحديثة التى أدخلت . وعندما ســمعوا ذلــك التفتوا نحونا في دهشة . كانوا يتوقعون أننا سنعتبر تقليد النمط الغربي علامة على التقدم . وأخبرناهم عن قناعة بإعجابنا بالفن المعماري الحضرمي الحقيقي ، وهــذا رأينا ورأي كل من درس صوره الفوتوغرافية . نرى فيه فنا استفاد بشكل رائـــع من الضوء ، واللون ، والشكل والهيئة لهذه البلاد وطقسها ، وهو فن يدرك قيمـــة المواد البسيطة الطوب الطيني المجفف ويستعمله بطريقة أمينة ومنطقية . وحيثمـــا يبني الحضرمي ويعطى الشكل والأبعاد ذات الطابع التقليدي الذى تطـــور وظـــل متوارثا عبر الأجيال ، فهناك يقدم أعمالا من الفن . ولكن عندما يـــهتم بالواجهـــة الأمامية الخداعة ويخلط الهندي وكل أنواع الأساليب الغربية، فيقوم بطلاء الطـــوب بالألوان ، هنا يؤذى مادته ويكون زائفا بالنسبة لتقاليده . هناك تم التخلي عن جـــزء من حضرموت له قيم وأمين وشريف لمصلحة شيء لا يســـتطيع أن يقـــف أمـــام اختبار الزمن وسرعان ما يصبح ممقوتا.

لم يصدق مستمعونا آذانهم في البداية . كانوا ما زالوا منتشين بالأشـــكال الجديدة والألوان . لابد أن تستمر هذه الرغبة القلقة للتغيير مثل الوباء حتى تعـــالج نفسها ، وإلا فإن عالمنا الحديث سوف يصبح متشابها بشكل رتيب ، ويتخلى عـــن إسهام جمال الفن المعماري الحضرمي .

قبل أن تحل حرارة الظهيرة ذهبنا إلى المدينة لنأخذ انطباعا جديـــدا عـــن تريم بعد ثمان سنوات . رأينا الطوب الطيني ملقى في كل مكان في الطرقات أمام المنازل العديدة التى في طور التشييد . ومنازل أخرى عديدة كانت خرائب تمـــت نظافتها الآن ؛ تبدو المدينة أكثر نظاما وأفضل وأكثر جدة . عبرنا بعض الأمـــاكن الحديثة التى يمتلكها أمراء المال من سنغافورة وجاوا . وفي منتصف الطريق فـــي جدار الوادي شاهدنا البانوراما . تبدو التغييرات من البعد أقـــل وضوحـــا ولكـــن يحصل الإنسان على الانطباع العام أن العلاقة بين المنطقة المبنية وحدائق النخيـــل قد تغيرت : أهملت الحدائق بينما تصاعد الاندفاع المحموم للبناء.

بساتين تريم تصبح الآن مطالبة بالاهتمام . كل آل الكاف يعشقون الحدائق من قلوبهم . ينسى السيد أبوبكر عمله السياسي عندما يكون منـــهمكا فـــي عمـــل البستان . التقينا في أحدى الحدائق بواحد من عائلة الكاف توفي والده حديثا. يعيش

وسط رفاهية بستانه . وصلنا دون إخطار ووجدناه في نادي الشباب حيث يلعب دورا مؤثرا . دعونا إلى غرفة الاستقبال بينما اتصلوا تلفونيا بالنادي . نعم ، تريم بها تلفونات ولكن خطوطها محدودة . وكان هذا أيضا من نشاط عائلة الكاف . يوجد فوق المنضدة في الغرفة التى انتظرنا فيها باقة خضراء . النوافذ التى تصل حتى أرض الحجرة كانت مفتوحة على مصراعيها . وهذا ممكن لأن أشجار النخيل تنمو قريبا من المنزل وتحجب الضوء بأغصانها . ويتدلى التمر بصفرته المبهجة أمام الشبابيك ومن خلاله نسمع رفرفة العصافير وشقشقتها .

ثم وصل مضيفنا ، وحيانا بمودة وأمر بالفواكه المعلبة والشاي والعسل والسجائر . وأدار الراديو وجاءت باريس وبكلمات مفعمة بالأمل تحدثت عن الرغبة في السلام في فرنسا وإنجلترا . وتبع ذلك موسيقى خفيفة تحية متفائلة وابتهج أصدقاؤنا في تريم لأن الراديو لم يخذل حفاوتهم . كان مضيفنا متلهفا ليطلعنا على نتيجة مجهوداته في الحديقة . دعونا لنتذوق حبة رمان كبيرة ونعجب بالتين والباباي والموز والكرنب . توجد في نهاية الحديقة بئر وعليها مضخة ترفع الماء للحديقة والمنزل . منسوب الماء ٣٦ قدما تحت السطح . الماء صافي ومذاقه جيد .

لم يسافر مضيفنا أبعد من المكلا . إن جيله يجني عرق وتعب آبائهم . ويعيش تحيط به الرفاهية ولم يواجه أبدا في حياته مهمة جادة . ويهتم قليلا بمشاكل بلاده ولكنه يتكلم كثيرا ويعمل قليلا . يجب أن يفعل ذلك البريطانيون ، ولكن لا ، من الأفضل لا . من إذن ؟ العم ، الذى وهب نفسه قلبا وروحا وجسدا وكل ثروته ، للصالح العام ، يعجبون به قليلا أكثر مما يهابونه : بالنسبة لثروة العائلة فإنه في الواقع رجل خطير . هؤلاء الشباب يستمتعون بالحياة الدنيوية الجيدة . يحبون زوجاتهم وأطفالهم الذين هم في الغالب كثر . وفخورون بمنازلهم المؤثثة برفاهية ويحبون الجلوس تحت ظل أشجار نخيلهم يشربون أكواب الشاي ويتبخترون فوق السجاد الفاخر ويناقشون في عجلة مع أصدقائهم مواضيع الحالي اليوم . ليست لهم خطايا كبيرة ؛ لا يعرفون المشروبات الكحولية ؛ يستمتعون بالتدخين في تحفظ . دين الرسول الذى يدينون له بالمكانة المبجلة في المجتمع يمارسونه بإخلاص في مظاهره الخارجية . أفراد هذه العوائل الذين عاشوا في الخارج نمت لديهم فطنة كبيرة ويحاربون بطاقة قصوى وذكاء موروث لمراكمة الثروة الدنيوية . الأبناء الذين بقوا هنا تلقوا تعليما دينيا تقليديا وتعلموا تقدير الراحة واليسر . أما في الحيوية فلا يمكنهم أن يقتربوا من الآخرين الذين وجدوا في الخارج عكس هذا الكسل . العديد من الشباب يشتكون من مجموعتهم

ويقارنون أنفسهم بالآخرين الذين درسوا وعملوا في الخارج ويحتلون الآن مواقع هامة في البلاد التي تبنتهم . وأغلبهم ضحايا الحب الأناني لوالديهم .

قبل أن نعود إلى منزل السيد عمر تسلقنا مرة أخرى أعلى مئذنة في حضرموت وأشرفنا على المدينة من القبة الصغيرة في القمة . مئذنة المحضار إنجاز تكنيكي وليس معماريا . الخطوط البسيطة للمئذنة الحضرمية التقليدية تم التخلي عنها ، وفي مكانها شيد برج رقيق مربع ، مليء بالنوافذ وفتحات التهوية. أضيفت شرائط للزينة وأركان مزينة وعندما اعتقد أن البرج قد انتهى أضيفت غرفة صغيرة مربعة للتأكد أن كل رقم قياسي في الارتفاع قد كسر . ونحو القمة تصبح السلالم الملتفة أضيق . توجد ١٥٠ درجة إلى قمة المئذنة وعلى ذلك يجب أن يكون ارتفاعها ١٥٠ قدما فوق الأرض . الطوب الطيني وأحيانا أعمدة معترضة هي كل المواد التي استعملت في هذا البناء الضعيف . وقفنا ثلاثتنا ، هيرمان وفاسي وأنا ، متكدسين كأننا في قفص بين أعمدة طينية مستديرة أطبقت علينا ، والتقطنا من خلالها الصور ونحن نجثو على ركبنا .

ليست هناك مدينة أظهرت نشاطا معماريا مثل تريم . والعمل له طبيعته المحلية الخاصة ونوعه . ولكن قصور سلاطين شبام وسيئون أكثر جمالا . لا يملك سلطان تريم قصرا خاصا به في مدينته . يفضل العيش في سيئون لأنه لا يشعر بالراحة التامة بجوار السادة الأقوياء .

بعد وجبة من الأرز الجاوي اللذيذ في قصر السيد عمر أخذوا كل واحد منا ألى غرفة جميلة للراحة . وفي العصر استقلينا السيارة عائدين .

كانت تريم في وقت ما مدينة حضرموت للعلم ومركزها الديني وبها أكثر من ٣٣٠ مسجدا . وما زالت مدارسها للعلوم الدينية تحتفظ بشهرتها ولفت انتباهنا الأعداد الكبيرة للطلاب في الشوارع . ألم يرافقنا والد كبير سار من لودر مع قافلتنا وقد جاء من إب في اليمن ليزور ابنه الطالب في تريم ؟ وما زال الباحثون عن الحكمة الدينية يأتون إلى هنا من أقصى أركان الجزيرة العربية ولكن يبدو أن مدارسها تعيش فقط على شهرتها القديمة .

قبل ثمان سنوات كانت تريم مدينة الحماس الشبابي الدافق لحضرموت جديدة . كانوا يتحدثون عن الإصلاح والبعث القومي . ولكن الرجال الكبار هم الذين اخذوا المبادرة وتصرفوا ، وطلبوا من البريطانيين تأمين السلام . الآن تقف الأجيال الحديثة تراقب في تجهم . رأت تريم انتقال مركز حركة التجديد إلى سيئون . وأصبحت مكانا صامتا وفقدت أهميتها عندما غادرها رجلها النشط ، السيد أبوبكر ، الذى لم يتهرب من المسئولية أبدا بل واجهها بكل شجاعة ، واتخذ

من سيئون موطنا له . إنه أول من شيد طريقا للعربات من الوادي ، وهو الطريق الذى يمضي من تريم إلى المدن الساحلية في الشحر والمكلا .

تبدو تريم من الناحية المادية منتعشة . ولكن تتجمع فوقها سحب خطرة . هناك طريق آخر للعربات تحت التشييد وسوف يوفر اتصالا أقصر بين المكلا ووادي دوعن . المطارات بالقرب من المكلا وسيئون . ولكن تريم وسيئون والمكلا ، يجب أن تتمكن من النظر إلى الأمام نحو مستقبل مزدهر في حضرموت الجديدة . ويحظون بالدعم المالي القوي من أبنائهم في الخارج الذين لم ينسوا مواطنهم . وسوف يدرك هؤلاء الأبناء سريعا أن أموالهم يمكن أن تجد مستودعا آمنا في بلادهم . إن تغييرا كبيرا سوف يأتي عندما يجد الري الاهتمام الرئيسي وتستعاد خزانات القدماء . وبدلا من أن يوجه ١ % فقط من السيل إلى بساتين النخيل ، وتستغل كل كمية ماء السيل ، وتشبع التربة الطفالية الخصبة في الوادي تماما ويرتفع منسوب المياه الجوفية ، عندها سوف تستعيد حضرمزت الخصوبة والازدهار الذى حققته في أزمان السبئيين .

١- يقصد اختصار .S.A فرقة الصاعقة النازية التى لعبت دورا ارهابيا في ألمانيا وهو نفس اختصار اسم سلطان علي بالإنجليزية .

٢- فكرة المهدي المنتظر أساسا شيعية . واحتلت حيزا واسعا في التراث الإسلامي وانتشرت إلى المدارس الإسلامية المختلفة . وأصبحت الفكرة تمثل بشرى بالخروج من واقع الظلم .

الفصل الثامن عشر

الجول الشمالي

ناقشنا خطط رحلتنا في المستقبل مع السيد أبو بكر . وهو عـــادة يجمـع حوله رجالا يعتمد عليهم من عدد من القبائل للقيام بالاتصالات وهو نفســه وافـر المعلومات حول المسائل القبلية . نوقشت ثلاثة احتمالات .

الأول ، ستكون الرحلة شيقة إلى قبيلة الصيعر العظيمة . إن ريدتــهم ، أو مركز إقامتهم ، تقع في الشمال الغربي . الصيعريون قــوم معروفــون بالغلظـة ومقاتلون . وقد خضعوا مترددين للوضع الجديد . لم يكن كافيا بالنسبة لهم تــهديد وإنذار سلاح الطيران الملكي ، كان لابد من إلقاء قنابل حقيقية . أصبح جزء كبير من منطقتهم القبلية معروفا لأن الاستعدادات الأولية لمثل تلك الحمــلات التأديبيـة يشمل التقاط العديد من الصور . زار إنجرامس منطقتهم مؤخرا ووصفها .

ثم يمكننا أن نذهب أيضا إلى الشمال الشرقي إلى منطقة بدو المناهيل وهم بدائيون مثل الصيعر . وتقع في منطقتهم بئر ثمود ، بئر قديمة ، وهناك أو ربمـا بالقرب منها احتمال وجود بقايا حميرية . لم يضع أي أوربي قدمه هناك . الاسـم له رنين جذاب في آذاننا . قصص من الماضي تحكي عن قوم عاد وثمود . كـانوا عمالقة ويعزى البدو إليهم المباني والمخلفات التى يرون أنقاضها وتتكون من كتـل ضخمة من الحجارة . لابد أن يكونوا عمالقة وأطول وأقوى مــن البشــر الذيـن يعيشون ، حتى يستطيعوا أن يضعوا مثل هذه الحجارة الضخمــة فـوق بعضـها البعض . ولكن لابد أن يكون لقوم عاد وقوم ثمود خطايا كثيرة ، كانوا كفارا مــن الأزمان السابقة على الإسلام ، لأن الله أبادهم جميعا عن ظهر الأرض بكـــوارث طبيعية عنيفة . وهنا نلمس إما ذكريات قصة الطوفان التى يبدو أنها إرث بشــري مشترك أو ذكرى باهتة عن أحداث أدت إلى انهيار الممالك المتحضرة القديمة فـي شبه الجزيرة العربية ، وهي رواية انتقلت من جيل إلى جيل . وأعطانا اسم ثمــود أملا ضعيفا في وجود بقايا حضارية هنا . على أن المسافة البعيــدة لــهذه البـئر المغرية ، حفظها في أمان من عيوننا الغربية الفضولية . ليس لدينا وقــت كـاف نوفره لأننا لا نريد أن نضيع الفرصة لاستكشاف طريق بن علي من الوادي إلــى الساحل الذى لم ترسم له خريطة بعد.

لذلك أخذنا بالاقتراح الثالث وهو الرحلة رأسا إلى الشمال ، أقصر طريـق إلى الربع الخالي . وسوف يقودنا هذا عبر منطقة قبيلة العوامر التى لم يسبقنا إلـى زيارتها أي أوربي ، والتى لابد أن يكون بها بقايا حميرية حسب تقارير البدو .

سوف نوفر ١٢ يوما لهذه الرحلة . اثنان من حراسنا من عــدن الأكـثر صلابة في المشي ، ودليل ، وجمال ، ونحن الثلاثة سوف نحقق ضربــة بعبـور المنطقة الواقعة بين وادي حضرموت والحدود الجنوبية للربع الخالي . ولابــد أن نأخذ أقل ما يمكن من متاع . وسوف تتخلف السيدة فون فيسمان في سيئون وتقـوم

بزيارة إلى المشهد ، حيث يقترب بالتحديد في ذلك الوقت موعد الزيارة إلى قبة السيد . آلاف البدو والعديد من سكان المدن سيشاركون في تلك الاحتفالات الدينية التى يقوم فيها سوق موسمي . بعض أفراد عائلة العطاس لهم هيمنة روحية في المشهد تستمد أهميتها من الأضرحة المبجلة التى بنيت فوقها قباب عالية .

يوم السبت ٢٩ أبريل ، اكتملت استعداداتنا للرحيل . وحسب التقليد العربي لا يمكننا أن نغطي سوى مسافة قصيرة فقط في اليوم الأول . سوف نعبر الوادي في خط قطري في اتجاه شرقي إلى مدخل وادي مدر ، وهناك نقضي الليل عند سفح عقبة الجول . تحركت القافلة بالرجال عند الظهر وتبعناهم بعد فترة قصيرة بالعربات قبل غروب الشمس . سرنا بالعربات عبر مطار سيئون واقتربنا من المسيلة ، حيث تناثرت هنا وهناك برك صغيرة . الماء شديد الملوحة في الطعم والضفاف مغطاة بطبقة بيضاء من الملح . تستطيع أشجار النخيل أن تحتمل الملوحة الشديدة إذا وجدت كمية وافرة من الماء ، وقد ظهرت هذه الأشجار مرة أخرى هنا بعد شريط من حشائش الساحل . وواصلنا السير حتى وصلنا الجانب الشمالي لجدار الوادي وتبعناه في اتجاه شرقي . ومباشرة قبل قرية بور اتجهنا شمالا ، ودخلنا وادي مدر وتخطينا قافلتنا بالقرب من مدخل الوادي . وسرعان ما عبرنا على بعض القبور مرصوصة حول قبر أكبر يعتقد أنها المرقد الأخير للنبي حنظلة وطولها ٢٥ ياردة . وكلما كان القبر أكبر كلما كبرت أهمية الشخص الذى يعتقد أنه مدفون فيه . قبر نبي الله هود ، على مسيرة ستة أيام بالجمال إلى الشرق، أطول بعشرات الياردات من قبر حنظلة . وفي جدة ، ميناء مكة على البحر الأحمر ، قبر أمنا حواء طوله ١٧٥ ياردة .

توقفت العربة بعد فترة وجيزة لأن الرمل كان ناعما جدا . واصلنا السير في ضوء القمر حتى وصلنا سفح الجبل الذى يقال إن فوق قمته بعض البقايا الحميرية . تل القرن الذى هو موضوع السؤال ، يقع من الناحية الاستراتيجية في موضع مناسب للسيطرة على الطريق من العوامر إلى الوادي

قمنا في صباح اليوم التالي ، بفحص إحدى شظايا البناء التي ما زالت قائمة . أما بالنسبة للبقية ، فإن قمة التل مغطاة بحجارة من الحائط الذى تهدم ، وقطع من المورتر الذى كان يستعمله القدماء مع بقايا مكسرة من الفخار . ولا توجد نقوش .

تبدأ العقبة بعد مسافة في وادي مدر . كان التسلق تدريجيا ولا يشكل أي صعوبة بالنسبة للجمال . يعرف رجال القافلة حفرة ماء في الوادي فانطلقوا نحوها. وسرعان ما عادوا بالقرب مليئة بالماء وستبدأ رحلتنا عبر الجول الخالي من الماء .

طبيعة الجول قفرة وكئيبة لحـــد بعيـد . وإذا مــا قارناهــا مــع وادي حضرموت وحديقتنا في سيئون ، فإن هذه البلاد العقيمة تبدو مهجورة تماما . كنــا سعداء لمواصلة السير مرة أخرى ، لنرى الهضبة التى تمتد أمامنـــا بـــلا نهايـــة ونشعر بجاذبية الأشياء المجهولة التى يمكن أن تكون مختبئة خلـــف الجبـــال ذات القمم المسطحة التى تحجب الأفق . احتجنا لوقت وبعض العزيمة قبل أن نألف هذه البلاد الخاوية حيث لا يمكن رؤية نبات واحد ، ولا حتى شجرة صنت عجفـــاء . ليس هناك علف للجمال ولابد من مسيرة ست ساعات بخطى جيـــدة بحثـــا عـــن صخرة معلقة لتوفر بقعة ظليلة لراحة الظهيرة . لكم تمر ساعات العذاب بطيئـــة ! تجولت أعيننا في الجمال واستقرت على قرب الماء الأربع التى تحملـــها . كـــانت تبدو هزيلة وضعيفة والماء يصدر صوتا ناعما داخلها . عندما يسافر الإنسان فـــي مثل هذه الأرض الصخرية فإن حياة القافلة تعتمد على الماء الـــذى تحملـــه تلـــك القرب ، حيث لا ماء ولا ظل ولا بشر . وغالبا ما نعتمد في بقائنا علـــى أشـــياء صغيرة وهشة . إن قرب الماء الأربع لثمانية رجال فوق الجول الخالي وضعـــت أفكاري في أسر .

قبل أن نصل الصخرة المعلقة التى حددناها لتوقف الظهيرة ، كان صـــالح حادي الجمال محظوظا في القبض على ضب كان ينظر إلينا من فوق جلمود بعيد. إنها حيوانات بليدة لها ذيل غليظ وسمين مغطى بقرون شائكة يجعلها أكثر خطـورة مما هي عليه في الحقيقة . البدو الذين يجرون يمكن أن يسبقوها بسهولة ثم يلتفـــوا حول الجلمود الذى ستحاول أن تختبئ تحته , فيقبضونها بمسكة سريعة من عنقـــها ويلوون الرأس والجسم نحو بعضهما البعض حتى ينكسر ظـــهر الضـــب محدثـــا صوتا . وتصبح بعدها الأرجل الخلفية مشلولة ويبقى الضب ساكنا فوق كتف آسره الذى يحمله بسهولة إلى نقطة التوقف التالية حيث يصبح وجبة مرغوبة.

كان مذاق وجبتنا الأولى في الجول جيدا وتكونت من الخبز المقلـــي فـــي زيت السمسم وحفنة من أجود تمر سيئون أعطانا إياها السيد أبوبكر . ثـــم شـــوي الضب في رماد النار الحار . فتح جسمه السمين وغرزت فيه أعـــواد صغـــيرة . لحمه مبيض اللون . هذا الطعام المترف قدم لنا في عرض سخي :"هل تريد قطعة يا حرمل ؛ يا وصي ؛ يا فندر ؟" . لابد أن يمتلك الإنسان الشـــجاعة ليجـــرب أي شيء حتى يكون قادرا على إعطاء رأي عنه . نظرنا إلى الضب الذى تشوه بشكل محزن وقلنا بتردد إننا نرغب في المحاولة . ثم نفخت الجمرات وانبعثت فيها حيـلة جديدة ووضع الطعام الشهي لينضج . احترقت القرون الشوكية في الذنب مصـــدرة هسيسا ونشرت رائحة مقززة حتى التصقت القطع الأخيرة من الخبز في حلوقنـــا . وعندما تم شواء الضب في النهاية ، كان هيرمان الوحيد الـــذى لديـــه الشـــجاعة

ليذوقه . وأعلن ، لارتياح الجميع ، أن طعمه جميل . ولعقوا أصابعهم في توقع للحم الضب.

انقضى وقت طويل قبل أن تتحرك القافلة مرة أخرى ؛ وجدت الجمال بعض المرعى في المسيل العميق ، وفي بحثها عن المزيد طاشت بعيدا . إن حاسة الشم التى قادت الجمال لتلقط قطعا من الأعشاب في مسافات بعيدة لابد أن تكون حادة جدا . عندما عاد الجمال (سائق الجمال) أخيرا مع حيواناته كان يحمل حزمة من شيء أخضر أعطاه للجمال لتمضغه وهي باركة في دائرة تنتظر وضع الحمولة على ظهرها . نعطى اهتماما كبيرا لنحتفظ بوسيلتنا للمواصلات في حالة جيدة .

أثناء رحلة ما بعد الظهيرة الطويلة شاهدنا رجلا واحدا فقط . وكان يركب على جمله وينطلق عبر الأرض الخالية . جرى دليلنا على نحوه ليتحدث معه وفي النهاية عاد به إلينا . كان روحا سخية وقدم لنا قطعة مليئة بالدوم الجاف. وما إن بدأ الظلام يهبط ، حتى رأينا ظلالا في واجهة سماء المساء ، أشكال جمال ثلاثة يقودها رجل ، تعبر من بعيد . كان هذا كل شيء ، ثم أصبحنا وحيدين مرة أخرى .

توقفنا لليل بالقرب من واد صغير . يختار جماعتنا من البدو دائما مثل هذا المكان لمعسكرنا . سوف يسيرون لساعات ليصلوا لمثل هذا المكان ، لأنهم ربما وجدوا هناك بعض الأعشاب التى توفر حطبا للنار لطبخ وجبة المساء . أطلقت الجمال في الوادي لترعى ، تقودها حاستها القوية إلى بعض النبات المحتمل وجودها . اتضح لنا الدليل في صباح اليوم التالي على أن النبات كان قليلا من عدد الساعات التى قضاها صالحا ليستعيد حيواناته .

بهذا المعدل لن نتمكن من التقدم بسرعة كافية ، معنا سبعة جمال بدلا من الخمسة التى طلبناها : ثلاثة منها قوية ، وحيوانات بالغة النمو ، الأربعة الأخرى مجرد جمال صغيرة . أحدها كان يتبع أمه ، ويمرح فيما حوله بدون حمل ، والآخر الصغير كان يتعلم لأول مرة حمل الأثقال . إن إدخال الحيوانات تحت التدريب في السفر لا يقبله إلا الأجانب فقط . دفعنا خمسين ريالا نمساويا لكل الرحلة الشمالية وأي منحة إضافية تعتمد على الخدمات التى تقدم . كل الرجال مشاة أقوياء ، لماحين , ويتصرفون برقة مما يعطى وعدا بالتغلب على كل الصعاب .

في اليوم الأول من مايو سافرنا أبعد إلى الشمال ، في أفضل مزاج ومتوقعين أن نرى المزيد من الأرض الخصبة لأننا نقترب من الأماكن التى يعيش فيها أفراد قبيلة العوامر بقطعانهم . تحسن المنظر الطبيعي قليلا ، ولكننا كنا

متأثرين لحد كبير بالأوضاع المحزنة التى يعيش تحتها البشر أحيانا ويصـــارعون لمجرد البقاء . ولاشك أن العديد من الناس يعيشون في بلاد فقيرة إلى درجة اليأس تدفعهم الرغبة ليعيشوا حياتهم الخاصة ويكونوا أحرارا ومستقلين عن الآخريـــن . إن موطن الإنسان هو أعز مكان في الأرض ، حتى ولو كان خاويا وجافا وأجرد! وواصلنا المسير ، نبحث عن آدميين أو أنقاض أو بقايا تلك الحضارة الرفيعة التـــى يبدو أنها تمكنت من البقاء هنا على حدود الربع الخالي .

توقفنا عند جزل بالريس لراحة منتصف النهار . الآن ، فـــي الحقيقـــة ، ظهرت علامات أكثر للحياة . رأينا غزالا هاربا في البعد . وقابلنا فيما بعد قافلـــة من أربعة جمال يصحبها رجلان ، وامرأة عجوز وطفلان صغيران . ثـــم عبرنـــا على منزلين مربعين من الطين أو لعلهما قلعتان ويسمون هنا القلعة أيضا حصنـــا . وتبينا على البعد المزيد من هذه الأبراج المربعة التى تشكل معالم ممتازة في هـــذه الأرض الجرداء . يبدو أننا نقترب من عالم العوامر المأهول . وصادفنا في الجول قطعتين من العمل اليدوي : خزانين صغيرين طولهما بضعة أميال شيدا ليحجـــزا مياه الأمطار ويقوداها نحو الوادي العريض بجوانبه المنخفضة التى تقف الحصون على حدودها الغربية .

حوالي الساعة العاشرة هبطنا وادي حويرة حيث يوجد مـــاء ويمكننـــا أن نملأ قرب الماء . فربما نكون عند الليل بعيدين جدا من الماء . لم تشرب الجمـــال منذ غادرنا سيئون . ويمكنها أن تمضي أبعد من ذلك بدون ماء ، وعليـــها اليـــوم أيضا أن تنسى ظمأها . وعندما نتوقف في الوادي يمكنها على الأقل أن تجد بعض العشب الذى ترعاه .

عندما واصلنا السير مرة أخرى شاهدنا تغييرا يطرأ تدريجيا على المنظـــر الطبيعي . أصبحت السهول أصغر ، وازداد عدد الجبال بقممها المسطحة واقتربت من بعضها . يقود الممر الآن عبر وديان صخرية ، ثم عبر وديان عريضة ، ثـــم يصعد جنبات المنحدرات المتدرجة لجبال منخفضة .

رأينا بعد الظهر أثرا رائعا ، ربما من أصل حميري . سماه رفاقنا العرب "شغل الكفار" ، أي عمل الكفار . في صفين طويلين متوازيين يبعدان عن بعضـــهما خمسين ياردة ، هناك مجموعة من ثلاثة ألواح من الحجارة يتكون منها أهرامـــات صغيرة وضعت على مسافات منتظمة . بعض المجموعات لها سقف من الحجارة. المسافة بين الأهرامات الصغيرة تبعد قليلا عن ياردة . سبعة في جـــانب وعشـــرة في الجانب المقابل وتقف في صفين على مصطبة رفعت فوق الأرض المحيطـــة ولها حدود من الحجارة رصت على امتدادها . قسم الصفان من الأهرامـــات إلـــى ثلاث مجموعات . في المسافة الطويلة بيـــن الصفيـــن المتوازييـــن للأهرامـــات

الصغيرة حلقات من حجارة وضعت قريبا من بعضها حتى تكاد تتلامس ، وملئت المسافات بين الحلقات بحجارة صغيرة ، كلها بلون أزرق – أخضر . تلك الحلقات نفسها نظمت في صفين موازيين لصفي الأهرامات تاركة ممـــرا عريضـــا فـــي الوسط.

يرقد كل الأثر فوق مصطبة على جانب الممر عبر الوادي ولكـــن علـــى ارتفاع بضع ياردات من مستوى الأرض . ويقع في سفح جبل بقمة مسطحة تحيط به بنايات مربعة مشيدة من الحجارة بدون مورتر . كانت هذه نقـــاط حراســـة أو ربما معالم تبين مكان الجبل للمسافرين من بعد . يبدو أن الأجزاء الثلاثة المنفصلة تنتمي لبعضها البعض . ماذا كانت تعني هذه المجموعة ؟ لم نستطع أن نتبين ذلك. هناك احتمال أنها مكان لمقابر ولكن الأرض صخرية صلبة ولا توجد إشـــارة لأي حفر فيها . الأهرامات نفسها صغيرة جدا ولا يمكن أن تحتوي جثمـــان إنســـان . تختلف الآثار في ظاهرها عن تلك التي شاهدناها في طريقنا إلـــى حضرمـــوت . بعض تلك الآثار ، أيضا ، تكونت من حجارة وضعت في دوائر ، وفـــي داخلـــها حجارة صغيرة بيضاء وحمراء وزرقاء . ولكن كل واحد من هذه الدوائر يتصـــل بممر ضيق مرصوف مع مستطيل كبير مع ألواح من الحجارة مستقيمة . صفـــوف الأهرامات التي شاهدناها هنا كانت شيئا جديدا كل الجدة . وكان المثير ، أيضـــا ، أننا عبرنا من القرب منها على أثر آخر مشابه ، وهذه المرة أصغر . وفيما بعـــد رأينا المزيد . ثم على جانب الطريق قطعة كبيرة من حجر جيري قمتها مسطحة . مهشمة ، ولكن يمكن التعرف عليها ، وقد نقشت عليها حروف حميريـــة . ادعـــى رفاقنا أن مكان الآثار الحقيقي مازال أمامنا . على أن التجربة علمتنا ألا نصـــدق هذه الروايات. البدو ، وخاصة الذين يسمون أنفسهم مسلمين ، يعطـــون اهتمامـــا قليلا أو احتراما للمباني أو النقوش التى خلفها الأسلاف الكفار.مع ذلـــك أثارتنـــا روايتهم ودفعتنا للمسير فوق طريقنا الموحش المرهق بسرعة أكبر ولساعات أطول .

عندما حل المساء وصلنا الحدبية ، حيث لا يوجـــد شـــيء ســـوى أرض صخرية لننام عليها . نظفنا بضع ياردات مربعة من الحجارة حتى نتمكـــن مـــن وضع فرشنا لراحة الليل . ياله من أمر بسيط أن تسافر مع عدد قليل وأمتعة قليلة!

في اليوم الثاني من مايو ناقشنا معا مشكلة الماء قبل أن نبـــدأ المســـير . تظهر في الأرض هنا علامات أكثر للنبات وللناس . يتوقع دليلنا أن نصل إلى ماء بعد بضع ساعات . طالما بقي عدم الاطمئنان علينا أن نكون اقتصاديين جدا فـــي كمية الماء القليلة التى بقيت لنا . يتابع طريقنا الآن مجـــرى واد رملـــي وحولنـــا المنظر المبارك للأعشاب الخضراء . ثم ، شكرا لله ، رأينا رجـــالا وحيوانـــات ؛ أولا البقع البيضاء والسوداء لقطيع الأغنام والضأن ثم جمال ترعى. ومـــن البعـــد

أقبلت نحونا امرأة وعلى رأسها غطاء غريب . أصبح صالح سائق الجمال هنا في موطنه المألوف ، فذهب للقائها . كانت راعية ، وتحمل فوق خرقة إناء يغطى خصلها السوداء مثل قبعة الفولاذ كانت ذاهبة لتجمع فيه لبن القطيع.

تنمو أشجار النخيل في الوادي . وهناك زنجي عجوز ، في الغالب عبد، كان منهمكا يقلب التربة حول النخل . قال إنه يفعل ذلك على أمل أن تخرج الأشجار براعم . العناية بالنخل فقيرة وقليل منها فقط يحمل ثمارا . بعض أشجار الدوم ومجموعة من العلب التى جردت من أوراقها حتى الساق وليس بها ثمار مع بعض أشجار النشر ، يتكون منها واحة العوامر هذه . يعيش البدو هنا جزئيا في منازل بدائية ، وجزئيا في كهوف تحت الصخور النائئة . الكهوف مغطاة بجدران من الحجارة مكومة فوق بعضها . وتقف المنازل مع بعضها فوق الوادي على منحدر صخري . وأبراج بدائية غير منسقة تحمى المنازل التى تكدست حولها . هذه القلاع لها جزء أسفل من أكوام حجارة وجزء أسفل من طين . البيوت من أكوام حجارة فقط رغم أن بعضها مغطاة بأغصان تدعم سقفا من الطفال . يعيش الإنسان والحيوان سويا في هذه المنازل والكهوف .

مازال طابع الحرب والنهب موسوما على مساكن العوامر . التربة وامداد الماء لا توفر بشكل عام امكانيات كافية للبقاء ولذلك حاول السكان تحسين مستواهم المعيشي بالنهب . وكانت النتيجة أن أهملت الزراعة لمصلحة تربية الماشية لأن القطعان يمكن إبعادها وإخفاؤها لفترات قصيرة . ورغم ذلك، قاست هذه القبائل الضعيفة من قسوة جيرانها النهابين وكادت تفنى . ولذلك صارت أرضهم الجافة أكثر فقرا وخواء . قنابل الطائرات البريطانية التى انفجرت فوق ريدة الصيعر القبيلة القوية المجاورة ، كانت بلا شك رسالة أمل للعوامر الأكثر ضعفا . انتشر السلام الآن فوق تلك الوديان ، لا يحمل أي من الرجال الذين رأيناهم بندقية : انخفض فجأة سعر هذه الأسلحة ، وسنرى الدليل عليه قريبا .

لابد أن يكون بالقرب من هذا السكن ماء ، وكان هناك بالفعل . شيد خزان عال ، ينغلق في انحناءة داخلية من جدار الوادي وبطريقة ذكية يكون مستودعا عميقا . يصب فيه ماء المطر من امتداد واسع من الجول وتحفظ هناك . يسمون مستودعات الماء هذه كريفا . إذا كانت واحدة هنا بها ماء ، فقلنا هناك أمل كبير في أخريات في نفس المنطقة . أربع فتيات بدويات كن منهمكات في ري غنمهن وضأنهن . الماء هنا له قيمة كبيرة ولذلك لا يسمح للجمال لتشرب من الماء الجيد . لها مكان خاص على بعد مسافة . وحتى هناك، كان علينا أن نملأ القرب، ثم نصب الماء من القرب في أوعية الطبخ من الألومنيوم وبعد ذلك تشرب منها الجمال الواحد بعد الآخر . كمية الماء المخزونة كانت مذهلة . سوف نعبر

بعد الظهر على مستودع آخر ، ثم لفترة يوم ونصف وليلة لن نجد ماء حتى نصل إلى هدف رحلتنا ، بئر تميز الشهيرة.

توقفنا عند الحصنة لراحة منتصف النهار وهي قطعة أرض شديدة الرطوبة حيث توجد بعض أشجار العلب الطويلة التى توفر ظلا تخترقه الشمس وحيث تنمو بعض أشجار النحيل . عندما تكون الأمطار وافرة تزرع هنا حتى الذرة . هذا أكثر مكان جذاب شاهدناه حتى الآن في منطقة العوامر . تقع أمامنا بيداء صخرية جرداء . لا يبدو أن هناك شيء له أهمية ينتظرنا ولكن هناك تجربة واحدة تستحق الذكر . لأول مرة خلال كل أسفارنا في جنوب شبه الجزيرة العربية نخترق مستجمع للماء بين الجنوب غرب والشمال شرق . لم يكن الخط الفاصل واضحا ولكن إلى جهة الشمال ، هناك احتمال مناطق شاسعة متميزة ، حيث يبدو أن هناك حياة وحركة أكثر لأن الجول تخترقه مجموعة من الوديان . كل الوديان الآن تجري في اتجاه شمالي ؛ وأي مطر تهطل ، مهما كانت قليلة ، تنصرف إلى الشمال ، إلى "دوامة بحر الرمال " (البحر الصافي) . تلك بلا شك بلاد موحشة ، مكان لليأس للذى يضل طريقه فيها ، فسرعان ما يجد نفسه بلا ماء . الناس الذين ولدوا هنا مقتنعين تماما وسعداء ويشعرون بأمان تام . مثال ذلك ، ولد صغير انضم إلى قافلتنا وودعنا بعد الظهر ومعه جملين صغيرين . ذهب إلى المكان النائي المخفي ، حيث يعيش أهله . ستكون أمه هناك . وبابتسامة سعيدة في وجهه الشجاع فارقنا ، ويتوقع أن يصل داره عند حلول الظلام . قاد معه الجملين الصغيرين بعد أن ربطهما بحبل . ليس معه أكل ولا ماء ، فهذه يمكن أن يجدهما في كهف عائلته ولكن عليه أن يبقى في الطريق بدونهما . وهكذا انطلق نحو الفضاء الشاسع . هذا هو عالمه وهو مقتنع أنه عالم جيد وجميل .

عبرنا على أثر حميري آخر من النوع الذى وصفته سابقا . نصبنا معسكرنا لقضاء الليل عند وادي جاري ، وهو المكان الأخير قبل بئر تميز . كنا في مزاج مكبوت لتوقعاتنا . شعرنا بالرضى أننا على يقين الآن أن مجهودنا لم يضع سدا وأننا نقترب من هدفنا . وكان البدو ميالين للارتقاء بهذا المزاج بذكر قصص مثيرة عن بقايا قوم عاد التى يمكن أن نراها إذا لم نكن في عجلة من أمرنا، هؤلاء النصارى الملاعين الذين لا يفهمون حكمة المؤمنين الحقيقيين أن " الراضة من الرحمن والعجلة الشيطان " . وتمددنا فوق فرشنا وأخذ كل واحد منا يستحضر لنفسه فكرة عما سيأتي به الغد . وأعطانا الحذر إنذارا بأن اكتشافات الصحراء غالبا خداعة . ولكن هناك أحيانا بعض المفاجآت . لا يهم أن يكون أي منها كثيرا طالما أن النداء السري للمجهول لا يخذلنا . سمعناه مرة أخرى في جاري واستمعنا إليه بغبطة .

الفصل التاسع عشر

{ بئر تميز }

رحلنا عبر وادي جاري سريعا . وكنا قد قضينا من قبل يوما نتابع هذا الوادي . جروفه عالية ومجرى السيل ليس واسعا بالرغم من أن العديد من الوديان الجانبية تصب فيه . لابد أن ماء وافرا يجري فيه بعد الأمطار ، فالنبات الغزير والتربة الطفالية تشير إلى ذلك . بعض أشجار الدوم تزين المنظر الطبيعي . شجر النشر بكثرة وعناقيد بأكملها مزدهرة . حسب ما يقول هيرمان فإن نوعه لم يحدد بعد لأن أحدا لم يستطع الحصول على زهوره . وهذا ما سنفعله الآن . تنتصب فوق هذا النخيل القزم أغصان طويلة متفرعة مغطاة بزهور صغيرة .

يوجد في جدران الوادي العديد من كهوف البدو المهجورة . الناس الآن في السهول مع قطعانهم ؛ سوف يعودون إليها في وقت لاحق ليجدوا الحماية من زمهرير الليالي في كهوفهم المستطيلة المسطحة التى أغلقوها بعيدا من الوادي بجدران من أكوام مهلهلة من الحجارة . تقع مقبرة كبيرة عند ملتقى واديين . يعتقد محسن أن وباء أرغم الناس على الهرب فزعا بعد أن دفنوا موتاهم . ولكنه لا يعرف طبيعة الحياة في حدود الربع الخالي . اكتشف فاسي أنه لأول مرة منذ مغادرتنا لوادي حضرموت توجد أرض تظهر فيها طبقات الحجارة الجيرية على السطح .

كانت الليلة في وادي جاري هي الأولى التى نجد فيها ناموسا . فحيثما يوجد نبات فإن هذه الحشرات تجد رطوبة كافية تساعدها على التكاثر لتحمي نفسها من الرياح الحارة الجافة .

توجد على امتداد الطريق جلاميد ضخمة من الحجر الجيري مغطاة بطلاء أسود بني لامع يضفي على الحجارة الملقاة في الجول أو على واجهة انحدار الجبل الرتيب كآبة ويرمز إليها علميا باسم "طلاء الصحراء (desert varnish) . ونقشت العلامات والأشكال في ذلك الطلاء الداكن . وبما أن بعض الرموز الحميرية أمكن التعرف عليها فيمكننا أن نستنتج ونحن مطمئنون أنه عمل سابق على الإسلام . بعض الجلاميد مزينة بدوائر صغيرة ورسومات حيوانات ، ولعلها من عمل الأطفال أو الرعاة . يمكننا أن نرى أن الحجارة ليست جزءا من البنايات إذ أن الواجهات العليا فقط مزينة . من الواضح أن المارة وجدوا أن الحجارة الملقاة على قارعة الطريق لها واجهة ملساء فاستغلوها ليشبعوا شغفهم للتعبير بالنقش عن مشاعرهم وأفكارهم . رأينا في عدد من المواضع هذه النقوش على الجلاميد ملقاة قريبا على طريقنا . هذا يبرهن أننا نقترب من موقع لابد أنه كان في الماضي مكان تجمع . الآن ، على أي حال ، ساد صمت مطبق ولا يرى أي بشر . ثم جئنا فجأة على مكان كان به لوقت قريب رجال بأعداد كبيرة . إنه

المرقد الأخير لأولئك المتجولين عبر حدود الربع الخالي الذين جاءت أخيرا نهاية رحلة حياتهم , وأراد رفاق تجوالهم الطويل أن يتركوهم خلفهم في عناية تامة . وفوق قطعة مسطحة من الضفة ، إلا أنها جزء من الوادي ولكنها على ارتفاع آمن من مستوى السيل ، تقع مقبرة العوامر الكبيرة ، "مقبرة بئر تميز" . كانت قريبة من ملتقى وادي جاري ووادي مهردون . سقطت قطعة صخر ضخمة من جدار البوادي وأصبحت تشكل وسط الوادي وبالقرب من تلك الصخرة تقع أكبر وأكثر القبور المنظمة بعناية . في كل واحد منها حجران مستقيمان واحد عند القدم والآخر عند الرأس ، وذلك تمشيا مع الممارسة الإسلامية في كل العالم . وتوجد بعيدا من الصخرة أكوام مستطيلة من الحجارة ، وهي قبور الناس الأفقر ويوجد منها أكثر من مائة . الواجهة العمودية من الصخرة مليئة بالفتحات وتستعمل لإيداع الهبات . وتخترق هذه التجويفات التى كونتها الطبيعة في مسامات الحجر الجيري أوتاد خشبية . استعملت أيضا البنادق القديمة وأدخلت مواسيرها . وشاهدنا هنا مفارش أكل مستديرة ، وسلال منسوجة من أغصان أشجار النشر وجلود جافة كانت تستعمل قربا . وزجاجة تتأرجح إلى الأمام والخلف حين يحركها النسيم ، وقطع من سروج جمال بل صفائح الكيروسين الفارغة في سلال مطوية وجدت طريقها إلى هنا . عددنا على الأقل عشر بنادق ، وهي الأسلحة التى كانت حتى وقت قريب أثمن ممتلكات البدوي . ويتكئ مهد لبدوي صغير على صخرة أصغر . إنه من النوع العملي لحمل الأطفال الذى تستعمله الأمهات البدويات ويحملنه أينما ذهبن ويربطنه على خصورهن ، ولابد أن أما ثكلى تركت المهد عند قبر طفلها . كانت فترة سعادتها المادية قصيرة : سوف يبدأ مرة أخرى الترحال القاسي الذى لا ينتهي مع القطعان وليس هناك سبب لحمل شيء لم تعد له فائدة .

التفسير الذى قدمه رفاقنا البدو لهذه الأشياء ذات القيمة بالنسبة للبدوي على جدار الصخرة ، كان مقبولا بالنسبة للمسلمين . قالوا إن هذا المكان مدفون فيه أولياء وإن البدوي الذى يبدأ رحلة طويلة يترك سلاحه ومعداته المنزلية التى يمكن الاستغناء عنها في مثل هذا المكان وهو مقتنع أنه لن يتجرأ شخص هنا على نهبها. ولم نتمالك أنفسنا من التفكير في الممارسات البدوية التى تؤمن بحيوية الروح مما يجعلهم ينعمون بالهدايا على الموتى ، أو على الأشباح ، في مرقدها الأخير . كما أن البنادق الكثيرة التى تركت هنا برهان على أنها أصبحت غير ضرورية ، وفقدت قيمتها ولا تستحق بعد هذا مشقة حملها . أصبح أثر صلح إنجرامس ملموسا حتى حدود الربع الخالي .

على بعد بضع مئات من الياردات من التقاء وادي جاري مع وادي مهردون (١) وحوالي ٨٠٠ ياردة فوق سطح البحر تقع بئر تميز . إنها بئر مدهشة، تقع في المجرى الرملي للوادي ، قريبا من جدار الصخر العالي المنحدر. ما خبرونا عنه ، ولم نصدقه ، كان حقا صحيحا : الماء في هذه البئر على بضع قامات تحت قاع الوادي . هذا لا يعني أن المياه الجوفية قريبة من السطح ، لأن بئر تميز لدهشتنا وغفلتنا ، لم تكن بئرا ، بل كانت خزانا للمياه . توجد صخرة ضخمة تحت طبقة رقيقة من الرمال . بئر تاميز عبارة عن حفرة في هذا القاع الصخري، صنعتها يد الطبيعة ، وليس الإنسان . خلقها الله . وتوجد حفرة أو نفق صغير جدرانه غير منتظمة يربطها بمجرى السيل . كيف نفسر أن البئر ليست مليئة بالرمل عندما يفيض السيل عبر الوادي وتندفع الماء إلى الداخل ؟ لا نستطيع أن نفهم . هل يتم إفراغ البئر من الرمل في فترات منتظمة ؟ لا أحد يستطيع أن يقول ذلك . لا بد أن البئر ظلت مستعملة لفترة طويلة جدا لأن الحبال التي ترفع بها قرب الماء قد أحدثت حفرا عميقة على جوانب النفق . المياه التي نراها من حيث نقف تبدو مخضرة بنية ؛ ظلت فقاقيع الهواء تصعد إلى السطح وأعداد كبيرة من الضفادع الصغيرة تسبح في السائل الداكن . هذا هو العائق في كل المياه التي تتجمع وتخزن في أحواض ، أو خزانات أو حفر صخرية طبيعية . دائما رائحتها كريهة ، وغالبا ما تبعث على الغثيان . هذه حالة لا مفر منها حيث تأتي القطعان بانتظام لترتوي وحيث لا توجد جدران واقية حول فم البئر . التجمعات التي تحيط بأماكن الشرب في كل شبه الجزيرة العربية مشبعة بالبول ومغطاة بطبقة من فضلات الحيوانات . ويزداد الماء الراكد تلوثا ويتدهور طعما ورائحة . وحتى رفاقنا من العوامر يبدو أنهم لا يحبون ماء بئر تميز رغم أن كلماتهم تشيد بها . مازالت معنا قربتان مليئتان بالماء وهذا يكفي لوجبة الظهر وحتى المساء . لقد غامر رجال الجمال بمغادرة بئر تميز الشهيرة بدون أن يلوثوا القرب بمائها الكريه. وهذا يعني أنه علينا أن نتوقف عند أول محطة ماء في طريق عودتنا قبل حلول الليل. بعد ذلك ستكون هناك مسيرة طويلة بدون ماء . علينا أن نعترف بشيء من الحيرة لأن البئر ولأن المنظر الطبيعي أيضا قد تبدل بدرجة قليلة جدا . نحن محاطون بنفس الأرض الجرداء التى كنا نسافر فيها . أخذت الهضبة تنحدر تدريجيا وأصبحت الوديان أقل عمقا وأضيق ولكنها عديدة . مازال النبات نادرا . ولم يستطع هيرمان وفاسي احتمال حرارة الظهيرة العنيفة فقررا صعود أعلى جزء في جدار الوادي ليطلا على أكبر مساحة ممكنة من الأرض ويرسما بعض الارتكازات .

لقد تبرهن لنا أنه لا يوجد أي مرتفع جبلي بين وادي حضرموت والحدود الجنوبية للربع الخالي . أخطأ ضباط سلاح الطيران الملكي الذين أخبروا هيرمان عام ١٩٣٠ بأنهم اعتقدوا أنهم شاهدوا سلسلة من الجبال العالية خلال غبار الرمال الضبابي . وتوقعنا مثل هذا . بدأ الجول يختفي تدريجيا نحو الشمال دون أن تظهر أي خصائص بارزة . لا يوجد للربع الخالي أي حدود جنوبية مبينة ؛ لعلنا ما زلنا بعيدين من الانتقال التدريجي من الجول القاطع إلى منطقة الكثبان الرملية . وسوف توضح خريطة هيرمان هذا وتزيل من الطيارين الذين يطيرون فوق المنطقة أثناء الزوابع الرملية أي مخاوف من الاصطدام بجبل عال .

تم استكشاف الربع الخالي بواسطة ثلاثة من الرحالة المشهورين في شبه الجزيرة العربية . بيرترام ثوماس كان أول من تمكن من اختراق هذه المنطقة التى حمت أسرارها لفترة طويلة . انطلق عبرها في خط مستقيم تقريبا ، مبتدئا من ظفار على الساحل الجنوبي وخرج من الصحراء في الدوحة في الخليج الفارسي . كان ذلك عام ١٩٣١ . ووصف تجربته التى أعد لها بدقة لسنين طويلة ونفذها بجرأة وإقدام ، في كتابه العربية السعيدة . وبعده وجد فيلبي فرصته . سافر كرئيس لأول بعثة جغرافية يرسلها الملك ابن سعود , وبفضل هذه المساعدة الملكية استطاع أن يسافر بروية وبأسلوب منظم ويكتشف الجزء الأوسط من الربع الخال . بدأ من الشمال ، قريبا في محاذاة طريق بيرترام ثوماس ، ثم أخذ إلتفافة كبيرة في الوسط واتجه غربا تاركا الربع الخالي عند حدوده الشمالية الغربية . ونشر خرائطه ومادته الغزيرة عام ١٩٣٣ في كتابه الربع الخالي . كان الكابتن شيسمان الرائد بالنسبة للاثنين ؛ سافر قبل عشر سنوات تقريبا في الحدود الشمالية الشرقية . وأعطى وصفا لتجربته في كتابه في شبه الجزيرة العربية المجهولة الذى نشر عام ١٩٢٤ . بعد بضع سنوات من رحلته العظيمة في الربع الخالي قام فيلبي برحلة طويلة أخرى ، سافر خلالها عبر منطقة الحدود الجنوبية الغربية للربع الخالي . وهذه الرحلة أيضا وضعت لها خرائط ووصفت . وظهر كتابه عنها عام ١٩٣٩ باسم بنات سبأ .

يمكن أن يضيف هيرمان لهذا العمل الهام جزءا بسيطا من الخرائط على طول الحدود الجنوبية . إن شبه الجزيرة العربية المجهولة ، التى كان للكابتن شيسمان كل الحق للحديث عنها عام ١٩٢٤ ، أصبحت تدريجيا أصغر وأصغر . وعلى الأخص الربع الخالي الذى أخرج من عالم الغموض والقصص المثيرة إلى ضوء الحقيقة الدقيقة . إن عدد المسائل التى تستدعى الفحص لم تنته ، ولكنها الآن من نوع جديد . لم يعد اهتمامها مقصورا على الخيال الجامح . مثل قصص الرمال التى تغني ، وبقايا المدن المدفونة ، وخطورة الرمال اللينة ، وخطوط

القياس التى تختفي دون أن تصل القاع ، التى حكى عنها فريده ، فقد فقدت رعبها وروعتها . بعضها تم تفسيرها علميا ، والبعض اتضح أنه هراء . ولكن كل رحلة كشفية اصطدمت بمشاكل جديدة . ولعل أكثرها إثارة للانتباه ما يتناول التاريخ السابق لهذه المنطقة ، والجيولوجيا ، والجغرافيا والأعراق البشرية .

وصلنا أقصى حدنا الشمالي . وانطلقت أنظارنا باشتياق نحو الأفق البعيد الذى لا يكشف شيئا عما خلفه . تطلعنا نحو سطح صخري رتيب لا نهاية له . وبالقرب ، كانت الوديان الملتوية ظاهرة وهي تشق في السهل أخاديدها الحادة المتداعية . وأبعد من ذلك سهل مشوه فوق سهل صخري لامع تسطع عليه شمس منتصف النهار بلا رحمة . هناك جوانب من الجبل منخفضة وقمتها مسطحة ويمكن تمييزها بسهولة . وتقف في البعيد في أشكال متكررة لا تنتهي ، ثم تمتد إلى السهل . هذا ما رأيناه نحو الشمال .

ثم ، بسبب ضيق الوقت ، أرغمنا أن ندير ظهرنا للربع الخالي الذى يعيش في حدوده الداخلية بدو العوامر وهم يتجولون بقطعانهم بحثًا عن مرعى . اتجهنا نحو الجنوب وتطلعنا إلى المنظر الذى لا يتنوع . تلاشت قوة دفعنا وسرنا بألم تحت شمس النهار التى تخدر الجسم . وحتى لا نعود بنفس الطريق وجهنا طريقنا نحو تريم . هناك إمكانية رؤية شيء جديد وأدعى دليلنا ضرورة اختصار طريقنا فوق الجول بيوم واحد . وسرعان ما سارت قافلتنا بخطوها السابق . وحتى أكون على يقين تام فحصت موقف ماء الشرب . هل نعتمد على وجود ماء عندما يحل الظلام ؟ قام علي الدليل بتقليب الأمر مع صالح الجمال . لا ، لم يكن أي منهما متأكدا جدا وبعد مناقشة حامية وصلا إلى نتيجة هي أنه لا يمكننا أن نمضي بدون مؤونة الماء الكريه من بئر تميز . شعرا بالذنب لإهمالهما غير المسئول وقبلا النتيجة القاسية بدون تذمر . ورجعا بجمل واحد عبر الطريق الذى قطعناه من قبل بعد مغادرة البئر . وخاطرنا وحدنا وسرنا مع بقية الجمال . وبعد بضع ساعات لحقا بنا مرة أخرى .

لاحظنا على امتداد الممر بعض الجلاميد بها بعض الأشكال المنقوشة والمنحوتة في غلاف طلاء الصحراء . كانت مقولات بدائية يمكن تصويرها . ليس هناك تصوير ممكن مع صفوف متشابهة ومكتوبة بعجلة وإهمال لصفوف من الأسهم (↑ ↑ ↑ ↑) في الأعلى قبالة جدار الوادي نحتت داخل طبقة لصخرة سوداء – بنية . عبرنا هنا مرة أخرى على آثار حميرية ، تتكون من أهرامات حجرية صغيرة موضوعة في صفوف .

نصبنا معسكرنا مساء فوق الجانب المسطح من ضفة وادي مهردون الذى كنا نتابعه أثناء الجزء الأكبر من العصر . كان أفضل لو تسلقنا إلى الجول

الأعلى. لأنه في أسفل الوادي تهبط الريح مبكرا أثناء الليل : الحرارة التى تشع من الجدار الصخري الذى يحيط بنا ، أصبحت في الحال شديدة ، وسرعان ما زحف ذباب الصحراء بلا صوت ، وشعرنا به من عضه الخبيث . تعلمنا بلا رجعة أن الجول المكان المناسب لقضاء الليل ، على الأقل في زمن الصيف .

مع قدوم الصباح هبت رياح حركت سحابا من الغبار ولكنها طردت الناموس وذباب الصحراء وأتت ببرودة محببة . كان الضوء في الفجر حزينا ورماديا في الجو المليء بالغبار . وسرعان ما تحركت القافلة بخطو ثابت . وخلال مسيرة الصباح جاءت نحونا امرأة بدوية وحيدة . قالت إنها تبحث عن مرعى لقطيعها . تحدثت مع رفاقنا العوامر وصاحبتنا حتى التقت بأغنامها وكانت جميلة ، متغذية جيدا ، وملساء في جلدها الأسود اللامع .

رأينا أنقاض تحصينات فوق الطرف العالي من الوادي حيث كان عريضا وينمو فبه نبات كثير . إذن هذا هو المكان الذى يحمون فيه قطيعهم . سرنا الآن لست ساعات ولم يظهر الماء المرغوب بشدة بعد . تقدم أحدنا مع الدليل لننظر من فوق حافة الوادي الذى جئنا عبره وأخيرا بعد فترة التقط دليلنا الماء . فاندفعنا نحوه يحاول كل واحد منا أن يصله قبل الآخرين ثم انكمشنا إلى الخلف مما رأينا. كانت بركة من ماء الأمطار الذى انجرف فيها ويبدو أنها راكدة منذ فترة طويلة . شجيرات السنط التى تحيط بها شكلت منظرا منعشا في هذه الأرض المحروقة من الصخور . ولكن البركة محاطة بطبقة من فضلات الأغنام والجمال ورائحة البول النفاذة تحلق فوقها . الماء أخضر ومغطى بطبقة من فضلات الجمال غطست في الماء حتى غدت مثل البرقوق اليانع . جثى الدليل على الحافة وبحركات متبصرة من يديه أزاح مكان البرقوق الطافح ، ثم غرف بعض الماء البني الأخضر في راحته وتذوقه بانتباه . وكرر هذه العملية عدة مرات ثم بعد أن كرر "الحمد لله" نظر إلى وجوهنا المتلهفة وقال " إنه ماء جيد" . وأجبنا "إنه ليس ماء ، إنه بول مخفف وروث مخمر" . وأحضروا الجمال . شمت الماء وترددت ، ثم أزاحوا بالنسبة لها أيضا طبقة الأوساخ الطافية فشربت بعض الجرعات وتراجعت بعيدا . وعلى الرغم من أننا نكاد نهلك من الظمأ فلم نجرؤ ولم نتمكن من شرب هذا الماء . وضع بعضه في براد مع الشاي ليغلي . وجلسنا لا نملك تحويل عيوننا بعيدا عنه ونحن في غاية التلهف لنطفئ ظمأنا . وفرشنا مشمعا فوق أشجار السنط ليعطينا ظلا كافيا أثناء فترة انتظارنا . كان الطقس دافئا . وحملقنا في صمت في الروث الطافح ونحن نستنشق رائحته الكريهة . كان رفاقنا في غاية المرح : كانوا يتوقعون بهجة ، إذ كان محسن محظوظا واصطاد ضبا سمينا ويا له من طبق رائع ! كان محسن فخورا بالتقاط صورته مع صيده وهو متعلق بذراعه .

وسرعان ما اختلط ذنب الضب المشوي مع رائحة الماء الراكد . حاولنا أن نجلس عكس الريح .

أرغمتنا الريح على التحرك بعد راحة قصيرة . كنا نشعر بالغثيان بعد الشاي المقزز فكان السير فوق الجول أفضل من الجلوس ساكنين تحت الحرارة . كنا مرهقين في ذلك المساء فنصبنا معسكرنا مبكرا فوق وادي عسيرة . لا الحساء المعلب ولا الشكولاته يمكن أن تزيح طعم ذلك الماء فبحثنا عن العزاء والنسيان في النوم . هبت نسمة قوية . فصحوت من غفوة خفيفة ورأيت هيرمان في ضوء القمر يغطيني ببطانيته . تظاهرت بالنوم وفي الواقع سرعان ما غرقت فيه . مثل تصرفات الصداقة الهادئة هذه ، وهذه الأفكار التى نراعى فيها مشاعر بعضنا البعض ، هي القوة لجهدنا المشترك .

كان الشاي صباح اليوم التالي غريبا والثريد المخلوط مع التمر له طعم غريب . فقط البسكويت كان صافيا . إنه من نوع هولندي عبقري أهدانا له السيد أبوبكر . وتشاركنا آخر ما بقي منه بروح أخوية لأن رجال الجمال والجنود أحبوه كثيرا .

ولم يمض وقت طويل حتى وصلنا واديا عريضا حيث رأينا نقطا سوداء وبيضاء تنبئ عن وجود قطعان من الأغنام والضأن . ترك صالح القافلة وذهب ليتفاوض حول شراء شاة . وواصلنا السير حتى جئنا إلى حفرة ماء في قاع الوادي الرملي عمقها ياردة ونصف . جوانب الحفرة مقواة بالحجارة وعناقيد الحشائش ووجدنا في قاعها ماء صافيا . ياله من منظر شهي ! وتوجد عند الحافة علبة للشرب وملأنا بحذر قرب الماء الواحدة تلو الأخرى . وبينما كان رجالنا منهمكين في هذا العمل الصبور جاءت امرأتان وطفلة ليأخذا ماء . تلبس إحداهما حلية فضية ، وسوارا وعقدا من قطع كبيرة من الخرز الأصفر . انزعجت الطفلة عند رؤية أجانب إلى درجة أنها بدأت تصرخ بصوت عال . بدأت المرأة ذات الخرز الكبير تهدئ الطفلة وأخذت تربت برفق على رأسها .

هذه أول بئر فيها ماء جار نراها في بلاد العوامر . الماء قريب من السطح ولكن لم يهتم أحد بجعله في متناول اليد ببناء حائط جيد حوله . ماء الينابيع نادر جدا حتى ليبدو أن الناس لا يدركون فضيلته الراقية ، أو لعلهم يفضلون نعمة ماء المطر الذى يهبط رأسا من السماء .

توقفنا لليل عند سيح جعبان . وصلنا أعلى هضبة في طريق عودتنا ، يبلغ ارتفاعها ٣٠٠٠ قدما ، ونقترب من مستجمع الأمطار . كان نوما جميلا في السهل الواسع . وكانت الريح رقيقة حتى لم نشعر بالبرد في حرارة تهبط إلى ١٥,٦ درجة مئوية .

منطقة الوادي الرملي العريض الذى سافرنا عبره في اليوم السابق ، ربما كان أكثر جزء مأهول بالسكان في أرض العوامر . تظهر على الأقل سبعة حصون على البعد ، كل واحد منها يحمى تجمعا من البيوت المنخفضة المربعة . قاطعت ممرنا العديد من الممرات ورأينا عدة مرات امرأة وأطفالا يحرسون قطيعا.

وسافرنا ليوم آخر فوق الجول . قال صالح إنه يعرف مكان ماء جيد ليس بعيدا من طريقنا . فوزع حمل أحد الجمال على الآخر ، وقاد الحيوان بحبل ، وسار مسرعا نحو الماء وهو يحمل القرب الفارغة فوق كتفه . واصلت القافلة سيرها ولكنى تابعت صالحا لأرى من أين سيأتي بالماء . لم أندم على القرار . في البداية لا شيء يرى سوى الجول الصخري . ثم وصلنا واديا به العديد من الشجيرات الخضراء وجزر صغيرة من الحشائش . وسرعان ما شاهدنا نقطا سوداء وبيضاء للقطعان ، ونقطا سوداء أكبر للراعيات في جلابيبهن السوداء التى لا مفر منها . يعرف صالح هذا الوادي جيدا . هطلت به قريبا أمطار غزيرة وهنا بحيرة جميلة تجمعت من ماء طازج بين الشجيرات والأعشاب الخضراء الطازجة . تقدم رجل وبعض النسوة للحديث مع صالح عندما بدأ يملأ القرب من البحيرة . فتح فم القربة الجافة بإحدى يديه وأخذ بالأخرى يصب الماء في دفعات صغيرة . هنا توجد أنشودة صحراوية غير متوقعة على الإطلاق . لم يكن الناس في فزع لأني كنت وحيدا وصالح صديقهم . وما إن امتلأت القرب بمحتوياتها الثمينة ، ووضعت فوق الجمل ، حتى تبعنا النساء إلى مسكنهن . أقيم إسطبل تحت صخرة معلقة للأغنام الصغيرة التى لم تقو بعد . أما الناس أنفسهم فيعيشون أمام الإسطبل فوق قطعة صخرة مسطحة . وسقفهم في الليل السماء المرصعة بالنجوم ، وأثناء اليوم عندما تكون حرارة الشمس محرقة ، ينصبون قماشا منسوجا من صوف الغنم فوق بعض الأعمدة . عندما اقتربنا من مسكنهم كانت الأسرة مازالت مجتمعة تحت شمس الصباح حول بقايا إفطارهم . كان هناك رجلان كبيران ، وامرأتان ، ومجموعة من الصبية وطفلان . بقي بعض اللبن والزبد في الإناء الخشبي . دعوني بحرارة لمشاركتهم وقبلت بسرور شرب اللبن . كم كان طعمه لذيذا ! يبدو أن أحد الرجال يعرف شيئا عن العالم الخارجي لأنه كان في وادي حضرموت . وهناك سمع عن حكايات البلاد التى اعتاد الحضارم الذهاب إليها ويحصلون على الثراء وفهم بشكل باهت أن رجلا من تلك البلاد جاء ليرى موطنهم . واستمع البقية في دهشة ورعب للحكم الدنيوية من الرجل الذى لعله رب العائلة . وزعت على الأطفال البسكويت الذى كان في جيبي . احتفظوا به في أياديهم الصغيرة بحذر ولم يتجرؤا على تذوق الأكل المجهول إلا بعد أن أجاب آباؤهم على نظراتهم المتسائلة

بالموافقة بهزة من الرأس . الرجال لا يدخنون . تعيش العائلة عمليا على قطيعها . يحصلون أحيانا على بعض التمر والدقيق ولكن الغذاء الأساسي للكبار والصغار هو اللبن ، والجبن الأبيض والقهوة المرة التى لا غنى عنها . وقدموا لي بالطبع شراب الضيافة العربي هذا ولكني فضلت كثيرا اللبن .

رجعنا خببا إلى القافلة التى أسرعت في اتجاه تريم . قطعوا مسافة لا بأس بها وقال علي الدليل إن هناك فرصة لنصل وادي حضرموت عصر اليوم التالي . أصبح مسيرنا فوق الجول أكثر حيوية لأننا الآن نعبر مداخل وديان كثيرة تظهر من خلالها مجاري الوديان والهضاب التى تحدها تشكل فتحات عريضة بين الجبال بقممها المسطحة والأفق البعيد .

اتضح أن الحر شديد جدا ولن يمكننا من الراحة عند الظهر في فجوة صخرة كما كنا جميعنا متلهفين لنمضي إلى أبعد ما نستطيع قبل حلول الظلام فوضعنا الأمتعة بسرعة فوق الجمال مرة أخرى وسرنا في حرارة العصر الخرساء . ومن وقت لآخر كنا ننظر جانبا لنرى ظلالنا التى كانت تكبر باستمرار. سار كل واحد بأسرع ما يمكن ولذلك تفرقنا كثيرا . وعندما حل أخيرا المساء كنا ما زلنا نمضي على أمل أن نجد مكانا به أكل للجمال ووقود لوجبة المساء . كان بحثنا بلا جدوى لأن منطقة حدود الجول العريضة ، التى نقترب منها الآن ، أكثر أجزائه يبابا . كان علي أن أرجع في الظلام بمصباح وقربة ماء لمقابلة هيرمان ، الذى لم يستطع ، هو وعلي الدليل ، أن يواكب بقية القافلة لأنه كان يضع خريطة الطريق . محسن قائد حراسنا القوي رابط الجأش ، كان متعبا لحد بعيد ذلك المساء ، حتى أنه لأول مرة خلال الأسابيع الطويلة التى سافرنا فيها أنبني على إسراعي . سبب لنا ماء الشرب بعض القلق . كان تموييننا ذلك المساء قليلا وبعد ذلك علينا أن نحاول الوصول إلى تريم في اليوم التالي بزجاجة ماء واحدة نقتسمها بيننا .

بدأنا ذلك اليوم مصممين على مواصلة السير سريعا . سارت القافلة الرئيسية بخطو معقول في اتجاه الجنوب الغربي متجهة رأسا إلى سيئون . ونحن ، مع علي الدليل ، اخترقنا عبر المنطقة في الاتجاه الذى اعتقدنا أن رأس الأرض الذى في سفحه تريم ، لابد أن يقع هناك . إدعى علي أننا إذا سرنا سريعا يمكن أن نصل هناك فى ظرف ساعتين . وتعثرنا بزجاجتنا الوحيدة لأربع ساعات . ضل علي طريقه في الصحراء الحجرية الرتيبة . أنكر ذلك ، ولكن عندما لم تثمر وعوده وجدنا أنفسنا نفقد الثقة به . ولكن الاتجاه العام ، على الأقل في وادي حضرموت ، كان واضحا وما إن نكون في الوادي حتى نستطيع أن نصل تريم رغم أن ذلك لن يكون قصيرا . في هذه الأثناء كانت القافلة بعيدة جدا . تريم هي

الاحتمال الوحيد. وبعد ست ساعات تقريبا من السير السريع رأينا نهاية الجـول . واندفعنا بأقصى ما أمكننا من سرعة نهبط قمة الجبل . منظر المدينة تحتنا منحنـا قوة جديدة . وعبر الحرارة التى لا حراك فيها والضوء العنيـف الـذى يجـهر البصر، اقتربنا من المدينة التى كانت ترتعش تحت أقدامنا . وأول منزل وصلنـاه دبر لنا طاسة ماء بارد منقذة . منحنا إطفاء ظمئنا راحة عميقة لهروبنا من الجول الصديق الذى تحول إلى عدو قاس في اللحظة التى نفد مخزوننا من الماء .

المدينة بلا صوت . طردت ساعات الحرارة الشديدة السكان إلى بـرودة منازلهم وظلها . واتجهنا رأسا عبر هذه المدينة الميتة إلى منزل السيد عمر الكـاف الجديد . كان هو في القديم . إلا أن ذلك كان وقت القيلولة . اسـتقبلونا وأعطونـا شرابا كثيرا وكثيرا من الماء البارد . أي متعة في العالم يمكن أن تفوق هذه ! تبـع ذلك الشاي ثم وجبة رائعة . وكنا رجالا منتشين عندما سـرنا إلـى سـيئون فـي العصر . كانت تلك تجربة علي الأولى لركوب سيارة ودفع ثمن ذلك المجـد بـأن أصيب بالغثيان .

في سيئون أخذنا منزل ضيافة السيد أبوبكر في عنايته . وفي اليوم التـالي وصل صالح مع الجمال وودعنا كل من الدليل ورجل الجمال بالمودة التى نشـعر بها نحو الرجال الذين وقفوا بتصميم في أداء مهمتهم والذين برهنوا علـى أنـهم رفاق يستحقون التقدير في بلاد عز فيها الرجال والماء .

هامش

(١) لعله يقصد وادي مهران

الفصل العشرون

وادي بن علي

انتهى الجزء الثاني من رحلتنا الكشفية ؛ وبقي الآن الجزء الثالث . يمكننا أن نسافر من وادي حضرموت إلى الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية بعدة طرق. سافرنا قبل ثمان سنوات من المكلا . البوابة الرئيسية للبلاد ، على امتداد الجانب الغربي لكور سيبان ، في أعلى الجبال ، إلى وادي دوعن . ثم تابعنا هذا الوادي شمالا حتى وصلنا حضرموت الداخل بعد المشهد مباشرة ، أي بالقرب من ملتقى وادي عمد مع وادي حضرموت . وبعد أن فشلنا أن نعبر إلى عدن برا ، تابعنا طريقا غير مألوفة عبر وادي عمد مخترقين جول بدو الدين ، عبر وادي حجر إلى الساحل وأخيرا على ساحل المحيط شرقا إلى المكلا . أمامنا هذه المرة الخيار بين طريق حضرموت للعربات الذى شيده السيد أبوبكر الكاف ، ويبدأ من تريم ، مخترقا منطقة بدو الحموم النهابين ثم يمضى رأسا إلى الشحر ثاني أكبر ميناء في حضرموت ، أو من الجانب الآخر درب القوافل من شبام عبر وادي بن علي . اخترنا الطريق الثاني الذى لم ترسم له خريطة ووصف جزئيا . قام الرحالة الأوائل في حضرموت ، هيرش وبنيت وزوجته في عام ١٨٩٣ ، كل منهم بمفرده ، على تغطية نصف هذا الطريق ، أي حتى وادي حويرة .

البحث عن رجال موثوق بهم وجمال جيدة سوف يستغرق عدة أيام . ولا يوجدون في سيئون ، لكن السيد أبوبكر تطوع بمساعدته القيمة ، وسكرتيره حسن الشيبة الذى يدير بيت الضيافة بجدارة ، بعث فورا بالرسل . أعطاني هذا الوقت في البحث عن رجال الجمال الفرصة لأوفي بوعد لزيارة ثانية للسلطان علي بن صلاح في القطن وعوض بن مرتع في هينن لحديث أخير حول مشاكل حضرموت .

كانت شبام تشع في شمس الصباح في جلال وهي فخورة بجمالها الحضرمي . قابلنا في القصر للمرة الأولى الطبيب الهندي الشاب الذى يحتل هناك مركزا معزولا لممارسة علم الطب الغربي . اشتكى لنا من النقص الكبير في الأدوية ولذلك تركنا له كل ما استطعنا الاستغناء عنه من مخزوننا الوافر . كان يخيم علينا في تلك الأيام الإحساس بالوحشة لاقتراب وداع بلاد جميلة وأشخاص جددنا معهم صلاتنا ووثقنا الروابط التى تجمع بيننا وتوحدنا .

وجدت في هينن عند عوض بن مرتع كالعادة استقبالا حارا . وليست هناك صعوبة في بدء الحوار معه . يتناول ذهنه المهموم باستمرار العديد من المشاكل . طاف حديثنا حول الأوضاع السائدة في حضرموت ووسائل تحسينها . هذا الرجل، الذى كان في جاوا أحد الرواد لصناعة النسيج ، والذى شاهد هناك نعمة العمالة المتزايدة التى تحققها ، بدأ مسعاه هنا لتوفير بعض وسائل العمل

لأهله على امتداد العام، بالذات الجيل الجديد . وأشار إلى أن هذه البلاد اعتادت على صرف الأموال التى تحصل عليها في الخارج . وعليه فإن الأطفال الحضارم ليس لديهم أي فرصة لتعلم شيء مفيد . وضرب مثلا ببعض السادة القياديين . لقد ورثوا ثروتهم من آبائهم الذين اجتهدوا للحصول على المال . وقضى الجيل الثاني عمره في صرفها ، رغم أنهم يصرفونها بطريقة معقولة وحكيمة ، بل وأحيانا نبيلة . ولكنهم أبقوا أطفالهم حولهم وحصل أولئك الصغار فقط على التعليم الضيق والمحدود المتوفر هنا ، بالتحديد تعلم الدين واللغة العربية . لم تتح لهم الفرصة للمبادرة وإنجاز شيء . كبروا ضعافا . كيف يمكن تغيير ذلك ؟

لن يكون سهلا . كان وجود الرق عائقا لكنه آخذ في التلاشي . سوف يتقلص الرق تحت الإدارة البريطانية ، وأوقف البريطانيون استيراد الرقيق من أفريقيا . العمل الذى يقوم به العبيد الآن سوف يقوم به يوما ما الرجال الأحرار وسوف يضع أبناء حضرموت الجديدة أيديهم فيه . ثم هناك مسألة الزراعة ، وهي الآن العبء الثقيل للطبقة المضطهدة اجتماعيا . ويمكن ان تتوسع كثيرا ومع اختفاء عمل العبيد فإن أعدادا متزايدة من الدرجات الأعلى من المجتمع التى قليلا ما تعمل عليها الآن أن تشارك . الزراعة لها مستقبل كبير في حضرموت إذا نفذت أعمال الري فستبرز الحاجة لقيادات مقتدرة . وسوف تدخل أنواع جديدة من المحاصيل وتتحسن تربية الماشية . وستكون الحياة في الوادي أكثر جاذبية وتختلف تماما عما هي عليه الآن . ويختفي التمايز الطبقي والمفاهيم البالية عن اللياقة . وسوف يتم هذا العمل في يسر لأن الحضارم في المهجر لا يتجنبون أي عمل بل يعالجونه بطاقة كبيرة وحماسة .

وسرعان ما تتخلى الطبقات العليا عن سلوكها الذى يقتصر على المشاهدة من بعد والنقد ؛ عليهم أن ينضموا إلى الإدراة ويجمعوا في الداخل الأموال التي تحتاجها البلاد. لا يمكن أن تستمر إنجلترا في تغطية عجزهم إلى ما لا نهاية وربما حصرت تدخلها قريبا على المساعدة العلمية والفنية .

جعلنا هذا الحديث كله نشعر بالجوع فجاء الطبق الحضرمي التقليدي الأرز مع صلصة الطماطم ومخلوط به الزبيب واللحم السمين . ثم استأذنت لأذهب إلى القطن للسلطان علي بن صلاح ، الذى طرد ، ولكنه ، في رأيي ، بمعرفته وشخصيته يفوق زملاءه المحظوظين في السلطة .

كان عوض بن مرتع صلبا ، رجل كون نفسه وصعد من الصفوف العادية وبدأ فقط الآن يفكر في المشاكل التى تقع بعد الحصول على الثراء الشخصي الخالص . وكان علي بن صلاح الأرستقراطي والمفكر الذى كانت روحه مترعة والذى ارتقى ذهنه خلال فترات طويلة من المرض ومن دراسة الكلاسيكيات

العربية . لم يكن ناجحا في الحياة ويبدو أن عدم النجاح جعله متسامحا وحكيما . أزاحه إنجرامس من العاصمة التجارية شبام وأرسله إلى القرية الحديقة في القطن حيث أصبح سلطانا بالاسم فقط . ورغم ذلك تحدث بتقدير عن جهد إنجرامس الكبير ، وحماسه لعمله ، وللبلاد وأهلها وولائه القلبي الخالص لمصالحهم . ليس إنجرامس ، ولكن الحسد ، ومؤامرات الحضارم هي خصومه . وما زالت أفعال أولئك الرجال تأتي بالسوء للبلاد . علي بن صلاح مقتنع بالانتظار . ربما يأتي الوقت ، عندما يستدعى من محيطه الهادئ ومن سكون مكتبته . وهو مستمع جيد وقارئ جيد ، ويكون رأيه الخاص حول مسائل السياسة الدولية ويتناول أفكار الآخرين بدرجة أقل من المسلم المتعصب وبدون تعال ، ليس مثل أغلب الطبقات القيادية في حضرموت .

وتحدثنا بالطبع عن الإرسال الإذاعي العربي الذى بدأت تبثه برلين حديثا. أي شخص استمع لذلك الإرسال كان مشحونا بما سمعه ومن المعلومات التى أخبرونا بها لم نكون رأيا حميدا عن المعلومات وعن البصيرة السيكولوجية للمسؤولين عن تلك الإذاعة . على سبيل المثال ، قالت برلين إن فلبي عاد مؤكدا إلى إنجلترا واتضح الآن أنه ليس مسلما مقتنعا بالعقيدة التى اعتنقها وإنما هو جاسوس سياسي وإن رحلته الأخيرة ، التى امتدت إلى حضرموت ، قادت إلى الاحتلال البريطاني وتعيين إنجرامس . وشنت إحدى تلك النشرات الإذاعية اللاحقة هجوما عنيفا ضد غزو حضرموت بالغارات الجوية الوحشية . والمادة التى اعتمد عليها هذا الهجوم مأخوذة من مقالات للجاسوس فلبي نفسه ، الذى انتقد بلا رحمة سياسة بلاده في جنوب شبه الجزيرة العربية .

استجابة لطلب هيرمان جمع علي بن صلاح عينات في أكياس ورقية لكل أنواع القمح الذى يزرع في حضرموت ، ومكتوب على كل كيس اسم العينة ، والوقت الذى يستغرق لنضجها وتفاصيل أخرى . أهداني علبة عسل من مزارعه الخاصة ذكرى للقاء ثان سيبقى خالدا في ذكرياتي عن حضرموت . وقلت له وداعا .

عندما عدنا إلى سيئون أكملنا سريعا استعدادات الرحلة إلى المكلا . سوف تسافر السيدة فون فيسمان مع الأمتعة بالسيارة بصحبة حسن الشيبة . ستمضي عبر تريم بطريق السيارات الذى شيده الكاف إلى الشحر . وعليه ، يمكننا نحن الذين سنسافر بالجمال عبر طريق وادي بن علي المغمور ، أن نأخذ أقل الأمتعة . لم يتحقق أملنا للسماح لنا بالسفر عبر الوديان وفوق الجول بصحبة حراسنا من عدن. كانت أوامر إنجرامس إنه من غير الضروري السفر في منطقته الأمنة تحت

الحماية العسكرية ، ولذلك سافر رفاقنا المخلصون إلى المكلا بالعربات . كانت خيبة أمل بالنسبة لنا ولكن علينا بالطاعة .

بعد أن فشل حسن الشيبة في الوصول إلى اتفاق مع بدو الحموم ، نجح في الوصول إلى اتفاقية مع بدو المعارة لأخذنا عبر وادي بن علي ووادي حويرة إلى المكلا . في مساء الأربعاء العاشر من مايو ، سوف يبدؤون تحميل الأمتعة ويسيرون أمامنا إلى العقدة عند مدخل وادي بن علي . ونتبعهم بالسيارة .

بعد الضجيج والعجلة في حزم الأمتعة استمتعنا عصرا في منزل الضيافة بصحبة السيد أبوبكر . وصل ابنه وبعض أصدقائه قبله وتبع ذلك تبادل حيوي لوجهات النظر والحجج مع بعض أفراد المجموعة من الشباب التقدمي ذوي الدماء الحارة . كان الحديث من الجانبين واضحا ومفوها . أمكننا الحديث معهم بتعقل صريح ، وبلا رحمة ، ولكننا في أعماقنا كنا متعاطفين مع هؤلاء الشباب الذين لم يتعلموا القيام بأي عمل ، والذين ينتقدون بحقد ويدركون الآن بغم أن النظام الجديد أصبح ثابتا بدون اللجوء إلى نصائحهم وتعاونهم . إنهم بحاجة إلى هزة حتى يمكنهم أن يروا قصورهم ويتعلموا احترام الرجال الذين يؤدون بالفعل المهمة . وعليهم أن يدركوا أنهم تخلوا عن حريتهم عندما أصبح جليا أنهم كأمة غير قادرين على الاستفادة منها بشكل تام . ولابد من لفت انتباههم لما يؤديه البريطانيون لهم وأن يدركوا الحقيقة الهامة وهي أنه بالنسبة لوضعهم خاصة لا توجد أمة يمكن أن تساعد بشكل أفضل . ليس أمامهم سوى قبول الوصاية المنضبطة من تلك الأمة التى سوف يتولى إداريوها تعليم الحضارم المشاغبين كيف يسلكون كأمة متماسكة. ثم ، تحت الحماية البريطانية من العالم الخارجي ، ولكنهم في نفس الوقت أحرار ويتمتعون باستقلاهم في داخل حدودهم ، يمكنهم أن ينحتوا لأنفسهم مستقبلا جديدا.

و حضر معنا شاعر حضرمي شاب سعى باستمرار للقائنا . إنه صالح بن علي الحامد العلوي ، الرجل الذى يعرف جاوا ، سومطرة وسنغافورة وأهدانا كتذكار ديوان شعر صغير مطبوع بذوق . وأبياته تمجيد لجمال جاوا . وبناء على طلبنا ألقى قصيدة بصوت حزين عميق . ولم نتمالك من التفكير فيه كشاعر يقظة حضرموت ! يمتلك موهبة شعرية ولكنه حتى الآن يفتقد الإلهام التنبؤي .

في الوداع كان لنا حديث طويل وحميم مع السيد أبوبكر شخصيا ونحن نتهادى سويا فوق سجادة بالقرب من حوض السباحة عند شرفته الملوكية . وهكذا سيبقى في ذاكرتنا السيد أبوبكر الوقور الذى أعطي مهمة لم يسع إليها ولم يتوقع تلقيها ، مهمة جلبت له بمقاييس متزايدة نقدا ونكرانا للجميل ولكن تنفيذها سيضفي عليه شرفا كبيرا من الأجيال القادمة كلها . إن سيدا في مكانة السيد أبوبكر الكاف يرفع مقام كل طبقة السادة . هو برهان حي على أنه منذ فجر تاريخهم في

حضرموت حتى الآن ، لا يوجد بين أولئك الرجال الذين ميزهم الله ، البعض الذى يقدر مسئولياته نحو شعبه ويتقبلها بهمة . إن نموذج السيد أبوبكر هو تذكرة لكل سيد قانع بالاستمتاع بحياة هينة أنه قبل كل شيء آخر فإن مكان النبيل له التزاماته.

عبرت سيارتنا عند المغيب بوابة الحديقة واتجهت نحو قصر السلطان . هناك كان السلطان جعفر خارجا لتوه ليتمشى . صافحناه الواحد بعد الآخر . وكانت السيدة فيسمان آخر من تقدم للمصافحة حسب التقاليد العربية . وعندما مدت يدها سحب السلطان يده بسرعة . فقد اقترب موعد صلاة المغرب ، وإذا لامس المسلم امرأة فإن وضوءه الذى هو ضروري لأداء الصلاة ، سوف ينقض ، الإسلام له تقييمه الخاصة لجنس المرأة .

تسكعت نظرتنا الحرى الأخيرة فوق القصر الأبيض العالي ، الذى عكس الوهج الذهبي لشمس الغروب ، ثم استدرنا نحو الشوارع حيث تجمع الأصيل بين جدران الطين والمنازل ، وكان يشع ضوء هنا وهناك من كل المساجد العالية ، وعبرنا بوابة المدينة وولت بالنسبة لنا الأيام الجميلة في سيئون .

كانت الدنيا قد أظلمت في بساتين النخيل . وانطلقت السيارة بلا صوت فوق السجادة السميكة من التراب الناعم ، وأخذت تغطس بهدوء مثل سفينة فوق البحر. وتابعنا الممر الذى سرنا فوقه بالأقدام عندما جئنا من سيئون . قبل بضعة أميال من تلك المدينة يدخل وادي بن علي في وادي حضرموت وهناك اتجهنا جنوبا . كانت الزراعة عند مدخل الوادي العريض جيدة ولن يتمكن سوى السائق الذى يعرف هذه المنطقة جيدا من التعرف على الطريق عبر الممرات المتعرجة ، التى تخترق الحقول وبساتين النخيل ، وتلتف حول القرى والمنازل المعزولة . كان الوقت متأخرا والظلام حالكا عندما توقفت العربة عند البوابة الخارجية للعقدة . مجموعة صغيرة لمنازل أنيقة طويلة حيث سالم بن جعفر ، صديقي من قديم ، وقد قضى كل حياته الطويلة تقريبا في جاوا ونجح في مراكمة ثروة هناك .

فقط في حضرموت يمكن أن يفعل الإنسان ما فعلناه : أن توقظ أسرة في منتصف الليل ، بدون سابق إنذار ، وتعلن أنك جئت مع قافلة كاملة لتقضي الليل ! لم نقصد أن نأتي في ذلك الوقت المتأخر ولم ندرك العبء غير المتوقع الذى سنلقيه على عاتق صديقنا القديم . قبل ثمان سنوات ، عندما كنا أيضا في طريق عودتنا إلى الساحل ، أشار دليلنا إلى خطوط جميلة ومزخرفة لشرفة رمادية وبيضاء تنهض فوق أشجار النخيل الطويلة وأخبرنا أن المواطن الهولندي الذى يعيش هناك سوف يقدر زيارتنا . وعليه قمنا بزيارة سالم بن جعفر المضياف . وكان سعيدا بحق لرؤيتنا ولكننا لن نستطيع البقاء لأن ما تبقي لنا من وقت قصير

جدا . كان من الصعب التخلص وتمكنا من ذلك فقط بعد أن أعطيناه وعدا جازما بأن نعود . وما كاد يصدقنا لأن العقدة ليست من الأماكن التى يطرقها الغربيون . ولكننا أوفينا بوعدنا وهانحن نقرع بوابته الخارجية . هل سيعرفنا ؟ انتظرنا في توتر أمام الأبواب المزدوجة ، المغلقة جيدا بالليل ، عند الجدار الطيني العالي الذى يحمى المنازل .

الخادم الذى فتح الباب تعرف علينا في الحال . وأوصل الأخبار إلى سيد الدار الذى جاء لتحيتنا مصحوبا بابنه وبعض الأصدقاء . نعم كلهم تعرفوا علينا ولم نكن بحاجة لنعرف إن كانوا يرحبون بنا : كان ذلك أكثر شيء مؤكد في العالم. وصدر الأمر بإعداد وليمة جيدة . لقد تجاوز الوقت أي وجبة عادية وقدمنا احتجاجا قويا . أسكتنا ببساطة . ألم نتعلم بعد ما هي الضيافة العربية ؟

جلسنا في المجلس الكبير مع مضيفنا وأصدقاء منزله . تحدث سالم بن جعفر عن زيارتنا الأولى وذكرني أنه قبل ثمان سنوات طلب مني أن أقنع حكومة هولندا لتوقف إرسال الأموال إلى حضرموت من جاوا بواسطة العرب وتضع بذلك نهاية لتمويل الحروب . أذكر جيدا خطابه العاطفي ، الاحتجاج المؤثر من رجل يحيط به ناس منهمكون في حروب لا تنتهي ، وهو أسير داخل بيوته الجميلة التى كان عليه أن يدافع عنها باستمرار .

تحدثنا عن الأوضاع التى تحسنت كثيرا ، وهنا قابلنا أخيرا حضرميا يعترف بالجميل . ولكنه الآن في مشكلة بالنسبة لبيوته في سربايا ، التى تقلصت إيجاراتها بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية . يقدر سالم بن جعفر عاليا الفرص الجيدة التى منحتها حكومتنا للحضارم والامتيازات الممنوحة لهم حتى الآن بتحويل الأموال التى حصلوا عليها في جاوا إلى بلادهم .

وضعت شرفة سطوح كاملة تحت تصرفنا لننام فيها . وكانت أشجار النخيل العالية تتمايل على الجانبين . استيقظنا في منتصف الليل عند وصول قافلتنا التى أنزلت حمولتها في ساحة الدار .

بدأ الجمالون استعدادات اليوم الأول للرحلة قبل طلوع الشمس . كانوا في عجلة من أمرهم للابتعاد من الحدائق والمزارع المحروثة جيدا والعودة إلى القفار حيث يمكن أن ترعى حيواناتهم بحرية . وسرعان ما كنا على استعداد لمتابعة القافلة ولكن هاهو سالم العجوز يتدخل . جاء بنفسه يحمل برادا يغلي بالقهوة وتبعه خادم يحمل خبزا ساخنا أعطى كل واحد اثنين . وكان ذاك وداعنا الحقيقي لوادي حضرموت . آخر ضيافة تلقيناها هناك جاءت من رجل ليس من السادة . لقد جاهد سالم بن جعفر سنين عديدة ليحقق الثراء الذى شيد به منزله العظيم وبنى في نفس الوقت في العقبة المنازل الشبيهة بالحصون . طلاها الآن بشرائط بنية

وإطارات بيضاء . وبساتين نخيله الطويلة في حديقته الخصبة تضفي على الخلفية نضارة وخضرة وهذا ما جعل العقبة شيئا له جمال خاص . المنازل مليئة بالنساء والأطفال ، والأطفال خليط من دم جاوي وعربي . الأطفال الصغار الذين يرسلون من جاوا إلى هنا للتعليم يحملون معهم تدفقا منتظما من اللغة والنفوذ الملاوي . تضع جاوا طابعها من الرقة والأساليب الرفيعة عميقا في الوجه الصارم في هذا الجزء من شبه الجزيرة العربية . غادرنا وسط ضجيج من الأصدقاء والجيران الذين يوجدون دائما تحت الظل الوارف لضيافة سالم بن جعفر . إن الوجود السعيد لهذه القرية الصغيرة أصبح ممكنا بفضل الصلات الوثيقة بين جاوا وهذه البلاد .

كانت العقبة بداية مبشرة للجزء الثالث والأخير من رحلتنا في جنوب شبه الجزيرة العربية . ونحن تغمرنا الذكريات السعيدة عن كل الصداقات القديمة والجديدة ، أدرنا ظهرنا للوادي الشهير حيث السادة يسودون بالأموال المرسلة من الخارج وحيث كتبت إنجلترا في الصفحة الأخيرة من التاريخ الحضرمي كلمة واعدة :"السلام" .

يفضل رفاقنا البدو الصحراء وقد تبعناهم بخطى مثابرة . وكلما توغلنا في الوادي أصبح أفقر في أشجار نخيله . كان الممر عريضا وبه حركة دائبة . وتوضح قنوات الري بالسدود المنيعة على جوانبها أنه قد بذل كل مجهود ممكن للاحتفاظ بأكبر قدر من ماء السيل للبساتين والحقول . وقابلنا في الطريق السكان الميسورين في طريقهم إلى سوق شبام أو إلى قراهم وبساتينهم . وفي بعض الأماكن مجموعات من الرجال منهمكون في الحرث ومراكمة التراب على الأسوام مستعينين بقطعة خشب مثل المسحاة . وعندما سرنا أبعد توقفت الزراعة . وعند القرية الأخيرة التى تقف على كومة من الراسب الطفالي طلبنا ماء عند البئر وملأنا القرب . ثم عدنا إلى بطن الوادي حيث واصلت قافلتنا السير وحيدة .

اقترب وقت الظهيرة وأصبح الطقس شديد الحرارة . وعندما سألنا رفاقنا عن المكان الذى نرتاح فيه لمنتصف النهار علمنا لذعرنا الشديد أننا نسافر مع قافلة ليس فيها أحد يعرف الطريق . لقد أقنعوهم أنهم سوف يسافرون في طريق للقوافل مطروق بكثرة وبإمكانهم دائما أن يحصلوا على المعلومات من العابرين . وعندما شاهد بدو المعارة الطريق مهجورا أصبحوا في حالة قلق . وفي منتصف الطريق إلى الساحل لابد أن نلتقي بدرب للقوافل يأتي من النهاية الشمالية لوادي دوعن المأهول الخصب ويمضي متابعا وادي ليسر ، حتى عند عقبة حويرة عندما يلتقي بطريقنا الحالي . من المحتمل أن نسافر خلال الأيام القليلة القادمة دون أن نرى إنسانا . ولذلك عندما رأينا راعيا على البعد سألناه عن الأماكن التى يمكن أن نجد فيها ماء وعن الطريق . وسرعان ما اتضحت لنا الخطورة الكبيرة في السفر

بدون دليل . يبدو أن الراعي آخر ممثل لسكان هذا الجزء من الوادي ولا يريد أن يترك أغنامه .

واصلنا السير معتمدين على نجوم سعدنا . وحيثما تظهر ضفاف الراسب الطفالي في مجرى السيل يوجد النبات . وجدنا تحت ظل شجرة قصيرة راعيا عجوزا نائما بجانب زوجته التى كانت تتولى الحراسة . وأرشدنا إلى صخرة معلقة يمكن أن نجد تحتها ظلا لراحة الظهيرة . وهناك استعرض فاسي لأول مرة مقدرته في الطهي لأننا فقدنا طباخنا مع حراسنا من عدن . يجذب الطبخ في الصحراء الناس كما تجذب الجيفة الطيور الجارحة من سماء خالية . لم يفشل السحر إذ سرعان ما ظهر الراعي يصحبه شاب مرشح ليكون دليلا . وبدأت المساومة فورا وبعد أن أخذ أربعة ريالات نمساوية مقدما رجع خببا إلى داره على وعد أن يعود قبل رحلينا . وهكذا حلت مشكلة كانت يمكن أن تسبب لنا صعابا جمة بحسن حظ غير متوقع .

حاولنا أثناء سفرنا أن نخلق علاقات جيدة مع الجمالين وجمالهم . في البداية يحاول البدوي دائما أن يتولى القيادة . وهذا أمر طبيعي جدا لأنه سيد الجول والوادي الخالي فتوليه قيادة القافلة أمر عادي . على أنه بالنسبة لنا ، عليه أن يطيع أشخاصا لا يفهمون أي شيء ولكن معهم نقود . وعليه سوف يحاول البدوي أن يكون مطيعا إلى درجة لا تعرضه لخطر فقدان النقود . الأيام الأولى لرحلة القافلة هي عادة أيام معركة صامتة ، يحاول فيها كل واحد اختبار قوة الجانب الآخر . لذلك لم أندهش عندما جاءني قائد القافلة وقال إنه يريد إرجاع اثنين من الجمال مع ولد صغير إلى مخيم القبيلة . فأجبنا بأننا تعاقدنا على ثمانية جمال ولكن إذا كانت سبعة كافية فلا اعتراض على أن ندفع لسبعة فقط . أليس لنا عواطف نحو الولد الصغير ولا أمه التى تنتظره ؟ لا ، نحن مجردون من هذه العواطف تماما . وهكذا بقيت الجمال التسعة وأصبح الولد الصغير صديقنا ، ولكن بعد الكثير من البسكويت .

سارت القافلة تتعثر في خطوها عبر الوادي الضيق الذى غطت جدرانه طبقات سميكة من الراسب الطفالي . شاهدنا في العصر حصنا به جدران طينية يقف فوق قمة ضفة عالية من الراسب الطفالي بالقرب من جانب الوادي . كان ذاك حصن الغنم ، مسكن سالم بن عمر الحامد . وفي الأسفل في مجرى سيل الوادي ، هناك بئر عمقها ٣٦ قامة ، وفمها مبني لحمايتها من السيول . وما إن اقتربنا حتى هبط عربي من الحصن الصامت بلا حراك . وهمس رجال القافلة : "هذا هو السيد" . وتقدموا لتحيته وقبلوا يده في احترام كانت وقفتنا أقل خضوعا ولكن السيد كان رفيقا لحد بعيد ودعانا لقضاء الليل معه . كان في نيتنا أن نواصل

السير على الأقل لساعة ونصف أخرى ، فاعتذرنا بكل أدب عـن قبـول الدعـوة الكريمة .

عسكرنا فوق قمة الراسب على الضفة اليمنى للوادي . وتسكن بالقرب منا عائلة بدوية في كهف مع قطيع أغنامها وهناك أمكننا شراء بعض اللبن .

في صباح اليوم التالي جئنا على عقبة حصن القاع . ويقع خلفها بمسـافة ليست بعيدة مكان التسلق الحقيقي لعقبة الصويغرة . وهذه أحسن عقبة معبدة نمـر عليها. إنها تتابع حائطا لواد مجاور وتصعد تدريجيا . الممر واسع وهنا وهنـاك بقايا بالية من رصيف . في الليلة الماضية عبرت ثلاث قوافل محملة بالبضائع فـي طريقها من الشحر إلى شبام . كانت حجارة رصيف العقبة تلمع من احتكاك بكـان أقدام الجمال العديدة . وكونت فضلات الجمال في كل مكان بساطا مطاطيا الـذي يموج بالقراد الغليظ ينتظر أسيادا جددا . كل شيء يشير إلى أننا نمشي هنا فـوق عقبة قديمة ومطروقة كثيرا . لعل فريا استارك مصيبة في افتراضها أن هذا جـزء من طريق البخرو القديم . لا ترى صخورا منحوتة أو نقوشا حميرية . فجـدران الحجر الجيري ناعمة جدا بحيث أنها لا تحفظ رسائل منحوتة فيها .

عقبة الصويغرة تعني العقبة الصغيرة ، وهي تقود إلى جـول حضرمـي نموذجي بسماته الجافة ، ومناظره الممتدة وليله البارد بلا ناموس . حوالي السـاعة العاشرة سمعنا صوت عربة على البعد وسرعان ما تبينا طـائرتين مثـل نقـاط صغيرة سوداء في السماء الذى أمسى الآن بلا لون . لابد أن يكون هذا إنجرامس، مع مساعديه ، يسافر عبر أثير عال صاف في طريقه إلى سيئون حيث يتوقعونـه هناك . سوف يغطي في بضع ساعات مسافة نجاهد عبرها عدة أيام . رأيناه ولكنه لم يرنا ؛ كان يعتقد أننا سنلتقي به في سيئون .

أخذنا راحة الظهيرة عند العقوبية تحت ظل شحيح لأشجار صغيرة .

قادنا طريق القافلة في العصر عبر وادي جميل أخضر ، وبعض القطعـان من الأبقار السمينة . وعندما حل المساء كنا نسافر مرة أخرى فوق جول أجـرد . طلب رجال القافلة الإذن لمواصلة السير حتى نصل مكانا فيه مرعـى للجمـال . وفي فترة قصيرة كانوا أمامنا على مسافة بعيدة لأن هيرمان كثيرا ما كان يتوقـف لرسم الارتكازات والمنطقة بدون أي معالم ظاهرة . وحـل الظـلام . ولـولا أن الدليل كان معنا لاضطررنا للتوقف . وحتى ألآن كان من الصعب علينا التعـرف على طريقنا فوق الصخور غير المستوية . وأخيرا ، بأقدام موجعة سرنا نتعثر من الإرهاق ، ووصلنا المعسكر الذى نصب بعد ساعتين من الموعد الـذى نوينـا أن نعسكر فيه فعندما تكون حالة الجمال مهددة فإن سالمين لا يعوقه شيء .

في عصر اليوم التالي ، ظهر كور سيبان من بعيد مثل واجهة صخرة مستقيمة غائمة زرقاء ، وهو أعلى جبل في حضرموت . عبرنا هذه القمة من جانبها الغربي قبل ثمان سنوات عندما كنا في طريقنا إلى حضرموت عبر وادي حمم ؛ يمكن رؤيته الآن من الشرق . عسكرنا لليل عند جول الضرافة على ارتفاع ٣٩٠٠ قدم فوق سطح البحر . كان هبوب الرياح قويا وفرصة الناموس ضئيلة جدا على الرغم من وجودها في ذلك الارتفاع . في العصر كان الطقس عنيفا مع عواصف رعدية على البعد . هطلت الأمطار لفترة قصيرة ولكن سرعان ما أصبح للريح اليد العليا وطرد السحاب بعيدا . واعتقدنا أن هذه كانت بداية الأمطار الموسمية التي توغلت في الداخل . لم تعد المسافة إلى المحيط بعيدة لأن الغربان كانت تحلق في السماء وكنا قريبين من مستجمع الأمطار بين حضرموت والبحر . ويمكننا أن نرى على البعد من ناحية الجنوب آخر سلسلة من الجبال التي تحجب هضبة شبه الجزيرة العربية الداخلية العالية عن البحر . وزحفت كتل من سحب بيضاء ذات حواشي بالية بين قمم الجبال المسطحة . وقبل أن نصل المعسكر الذى سنقضي فيه الليل ملأنا قرب الماء من حفرة صخرية في مجرى وادي صغير . وقد دلتنا على المكان راعية كانت في طريقها لزيارة صديقة ، واحتفظت بمسافة آمنة من القافلة وأخذت تقفز بخفة فوق الصخور . تخلى نساء البدو هنا عن امتياز عدم تغطية الوجه . يبدو أن نفوذ الإسلام هو السبب ، بفضل نشاط السادة الذين يفرضون بصرامة أشكال وسلوك الإسلام التقليدي على الناس . تسير النساء هنا محجبات تماما ما عدا فتحة صغيرة عند العينين . العباءة والنقاب بلون أزرق داكن يكاد يكون أسود . ويلبسن في شبام وسيئون عباءة واسعة بزرقة السماء بينما تسود في تريم العباءة البنية والحمراء . وتحت هذه العباءة تلبس النساء والبنات جلابيب زرقاء وأحيانا شديدة الحمرة ، مزينة بوفرة بتطريز وقطع معدنية صغيرة لامعة . وعلى الجلابيب بترونات معقدة حمراء وخضراء وصفراء تتدلى حول الجسد وتربط في الوسط بحزام مضفور من سلك فضي . لم نتمعنها طويلا عن قرب . يعتبر هذا سوء خلق وسوف تنزعج النساء إذا أبدى شخص غريب اهتماما خاصا بهن . تلبس الراعيات في هذه المنطقة قبعات كبيرة من السعف شبيه بتلك التى تستعملها النسوة في وادي حضرموت ولكن أعلاها أقل استطالة . اتضح أن شراء مثل هذه القبعة مستحيل . تغزل كل امرأة قبعة لنفسها ومن العار أن تبيع الواحدة بعض ثيابها .

كثيرا ما شاهدنا متاريس من أكوام حجارة في الأماكن التي يقود فيها الطريق إلى ممرات الجبل . هذه مواقع للدفاع أو الهجوم المباغت في أيام الحرب وقد انتهت مهمتها منذ وقت قريب . الإطار الخارجي للممرات على حافة قمم

الجبال المسطحة ، وأكوام الحجارة الصغيرة في أعلى النقاط في خشوم الجبال الصخرية التى شاهدناها في أي جول في مكان آخر ، أصبحت ظاهرة هنا ولأن معالمها الخارجية تنتصب في واجهة السماء .

وحيثما عبرت قوافل كثيرة من المنطقي وجود قبور . بعضها كبير ولها الشكل المستدير مثل تلك التى في المناطق الساحلية في شرق أفريقيا . لعلها لعبيد كانوا حتى وقت قريب يجلبون من تلك البلدان .

أصبح طريقنا الآن واسعا وسهلا . عبرت أربع قوافل في المكان الذى نصبنا فيه معسكرنا لليل ، تتكون كل واحدة من عشرين إلى ثلاثين جملا . من الواضح أننا نقترب من الجزء المزدحم لطريق حضرموت التجاري الكبير .

يوم السبت ، ١٤ مايو ، ارتحنا فترة الظهيرة تحت ظل شجرة صغيرة بالقرب من مدخل وادي حويرة ، قريبا من ملتقى طريقنا مع الطريق القادم من وادي دوعن . تعبر القوافل التى تقصد الداخل محملة بأكياس البضائع والسمك المجفف الشهير . القطارات (القوافل التجارية الطويلة) المتجهة نحو الساحل تحمل الآن بشكل عام كتلا ضخمة من أعواد الذرة لعلف الأعداد الكبيرة من الجمال التى تنتظر عند الموانئ . وتعبر عند ملتقى الطرق أعداد من قطعان الأغنام والضأن ، تغطى المنظر مثل الأمواج التى تنتشر فوقه .

بينما كنا نأخذ قسطا من الراحة إذا بالسماء تتلبد بالغيوم وبدأنا السير تحت مطر خفيف متجهين نحو مدخل العقبة الذى يبدأ بهبوط واد ضيق يغطي منحدراته نبات يانع . ينمو هنا بغزارة نوع من الشجر كثير الشوك ، لعله سنط الجبال الإثيوبية ، وهو شبيه بالذى في ممر الطلح . وبفضل الأمطار الأخيرة تغطت الأعشاب والنباتات بأوراق يانعة خضراء بل ومزينة بالأزهار . شعرنا كأننا ندخل عالما مختلفا . وعلى الممر الذى يتعرج بين الأشجار ، كانت الحركة على أشدها. ويوجد في بعض الأماكن ممران ، واحد على كل جانب من الوادي . وأحيانا ما تنظف مساحات تسمح بعضها للقوافل بعبورها . وعبرت قافلة تلو الأخرى . الرعاة والجمالة يصيحون على حيواناتهم بمرح فتتردد جنبات الوادي بضوضاء الإنسان والحيوان .

المطر الذى سرنا فيه كان مجرد رذاذ ولكن لابد أنها أمطرت بعنف في الجبال العالية حولنا . أمكننا أن نرى بالمنظار المكبر ، شلالات رقيقة تنحدر من الجوانب المنحدرة للقمم المسطحة لكور سيبان . وبين المرة والأخرى يحدث تصادم في حركة المرور وينفجر الشجار بلغة بذيئة بين قادة القوافل ، حيث يرفض كل واحد أن يفسح الطريق للآخر . هنا يوجد العديد من النباتات التى

تحتاج إلى تجميع لأننا لسنا في عجلة من أمرنا مثل الرجال المتشاجرين يالذين عتمدون في غذائهم اليومي على سرعة قوافلهم .

وفجأة اتخذ الوادي انحناءة غير متوقعة إلى اليسار ونظرنا أسفلنا إلى هضبة موحشة عميقة شكلت منظرا بعيدا للمنحدرات الحادة المتآكلة لجبل بطيح وكور سيبان . هنا اشتق ممر من الجانب الأيمن لواجهة الصخرة بينما تحتنا بعيدا إلى اليسار ، انتشرت جلاميد ضخمة في مجرى السيل . وانعطف الممر مرة أخرى بشكل حاد وتوقفنا نتملى جمال المنظر . كست شمس المغيب القمم والجوانب العمودية من أعلى جبال حضرموت بألوان ذهبية ، تقطعها بحدة ظلال داكنة . وأسفلنا في البعد ، يتلوى الوادي في منعرجات أو يمر بين قطع من الصخور هوت متهشمة من الجدران العالية . وتظهر في قاع الهضبة برك من ماء أخضر – أزرق ينحدر منها شريط رقيق إلى بعض الحقول الداكنة الخضراء. شيد خان في أكثر بقعة واضحة في سفح العقبة ترتاح فيه القوافل الهابطة ، أو تهيئ الصاعدة منها حيواناتها للتسلق بمنحها راحة وعلف إضافي . جدران الوادي العالية مكسوة بوميض أخضر يانع وبالقرب من القاع ، حيث تتسطح المنحدرات الحادة ، تنمو الشجيرات والأشجار الصغيرة . وعلى امتداد الممر كثير من الأزهار بما فيها عدد من aloe vera (صبر) بعناقيد حمراء زاهية . وشاهدنا أيضا صبرا أبيضا مزدهرا مع شجيرات أخري مجهولة بالنسبة لنا ولكن لها أريج فواح، وزهور صفراء ينجذب نحوها الفراش والنحل .اشتهر الحضارم بتربية النحل ولم تفت عليهم هذه الفرصة فوضعوا السلال في الأشجار على امتداد الطريق لاستعمالها خلايا . حل فصل الربيع والأريج والألوان في شريط حضرموت وازين الجلال البري وحصون الصخر الداكن والجلاميد المنتشرة في مجرى السيل .

بدأنا الهبوط مع خمسين جمل قادمة من الأجزاء الشمالية لوادي دوعن ، نصفها مغطى بحمولتها الضخمة من القصب ، حيث يمتد الممر في تعرجات لا نهاية لها. قاد الرجال الجمال في الهبوط بالطريقة التقليدية : توزع الجمال إلى مجموعات صغيرة من ثلاثة إلى أربعة وكل مجموعة يتقدمها قائدها . ويتحدث الرجال ويغنون لجمالهم بصوت مرتفع ؛ ممتدحين , مشجعين ، متوعدين ، يغنون بنغمات طبقاتها عالية شبيهة بال yodeling . (١) وكلما هبطنا أعمق بين الجدران الصخرية العالية ترددت الأصداء عالية . وهذا يثير الحداة نحو نشوة ممتدة . في هذا الأصيل المتجمع لكاتدرائية الصخر الهائلة هذه تذوب الأصوات في تراتيل الصحراء التى بدأنا نتذوق جمالها البدائي . لا بد أن تكون العقبة المنحدرة على امتداد الجدران الصخرية هي الأماكن التى ولدت فيها الأغاني البدوية الخشنة .

كانت أغاني البدو في المعسكر ليلا فوق الجول غالبا ما تبعث فينا الغضب . بدأنا من الآن فصاعدا نصغي بانتباه لأغانيهم ، ونسمع فيها أصداء تسلق العقاب المضني الخطير ونتعرف فيها على الإلحاح الغامض عند الإنسان ليترنم بهدهدة تهدئ معاناته وأحزانه وأغنية لانتصاره على الصعاب . وجدنا فيها فنا بدويا .

الصخور هنا جيرية من النوع الخشن الذى يتعرى بسهولة . وهي مغطاة بقشرة داكنة قوية . في العديد من الأماكن تآكل الجير تحت القشرة بفعل الريح الأبدية وجرفتها العواصف الممطرة عندما تصفع بغضبها وجه الصخر . وهكذا نحتت تجاويف كثيرة بجدران ببياض الجليد ولها شكل المحار وجانبها الأعلى تغطيه قشرة بنية سوداء بتشكيلات كالمظلة التى تحمل في الأعياد الدينية . وعلى امتدادات طويلة كانت جدران الوادي مزينة بتلك القباب المجوفة التى يضفي عليها الضوء والظل عمقا ولونا . وشظايا الصخر التى تدحرجت إلى أسفل ، والتى يصل حجم بعضها حجم منزل ، اكتسبت أشكالا مثيرة بفعل التعرية ، بعضها غاريقون عملاق ، والبعض محار ضخم والبعض مجرد كتل مجوفة .

وصلت القوافل قاع الوادي وأسرعنا خلفهم لنمنع جماعتنا ، مدفوعين بالغريزة الرفاقية ، من توجيه جمالهم بالقرب من الحانات الكبيرة . تحاشينا تلك الأماكن للروائح المنبعثة منها والضوضاء ، ومن الرعب المقدس من طفيليات الجمال التى تعيش مختبئة تحت الأحجار وفي الرمال لتهاجم حيوانات حية وبشرا وتولم من دمهم . تعيش قرية بطيح الفقيرة جزئيا على القوافل التى تتوقف للراحة . وبعد حديث ودي مع الناس الذين دعونا لقبول الضيافة في قريتهم استمحناهم عذرا إذا رفضنا تلك الزيارة . استقر بنا المقام لليل على بعد نصف ميل من بلطح فوق هضبة صخرية فوق مجرى الوادي . وسرعان ما ذهب سالمين ومعه بعض النقود ليشتري قصبا للجمال لأنه لن يسمح لجماله لترعى طليقة في هذا المكان المأهول بحقوله المزروعة . كان سالمين ممتنا لهذه الوليمة المرتقبة لجماله . إنه يهتم بحيواناته بجدية كما يفعل البدو عادة . وحاولنا أن نستغل مزاجه المنشرح وأخبرناه أننا لن نتحرك في اليوم التالي فورا بل في العصر . معارضة صاخبة ! لا يريد أن يضيع الزمن في الوصول إلى المكلا والحصول على حمولة جديدة ، يريد أن يغادر هذا المكان لأنه مكلف وغير مناسب لجماله . انفجر سالمين الهادئ غاضبا عندما تعرضت رفاهية جماله للخطر . كان قلقه على ناقته مؤثرا . يجمع أي شيء صالح للأكل خلال الرحلة ويربطه في حزمة ، ثم يجري نحوها ، ويفتح فمها ، ويدفع فيه الحزمة الخضراء ، وبعد أن يشعر بالرضى يواصل سالمين السير . كانت أسباب بهجته هذه مصدرا لنزاعات متعددة بيننا ، صحيح ، استأجرناها لتخدمنا ، ولكن سالمين كان يفكر دائما بترتيب عكسي .

في صباح اليوم التالي ذهب مبلغ إضافي آخر لسالمين ليشتري علفا لجماله. وحتى نستعيد الصداقة كاملة سمحنا للرجال بذبح الشاة التى اشتريناها لهم ليعدوا وليمة استثنائية جيدة قبل مواصلة السير . وسوف يشغلهم هذا طوال الصباح وبعد أن تمتلئ بطونهم سوف يناموا ولن يصروا بعد ذلك على المغادرة مبكرين .

وبالطبع لن يعبر هيرمان وفاسي على كور سيبان قبل ان يتسلقاه ويتسلقا أيضا النتوء المنخفض . سيقوم بعض الشباب من الجبال بدور الدليل وبحمل الآلات . وأمكننا ، بدون منظار مكبر ، أن نرى في منحدر الجبل العالي قرية صغيرة وسط الحقول بل نرى أشجار النخيل . يبدو المنحدر الذى أمامنا حادا وتسلقه صعبا . رجعت إلى عقبة حويرة لألتقط الصور . القافلة التى عسكرت ليلا في بطيح غادرت مبكرا . عندما وصلت الممر المتعرج ، كانت صيحات غناء القافلة الأخيرة تدوي بين الجدران الصخرية . ثم خيم السكون المطبق . كانت متعة أن يتسلق الإنسان الجدار بحثا عن أماكن يرى منها أفضل المناظر لهذا الركن الصغير من حضرموت ، حيث هوت الجلاميد من الجدران المتداعية ، وحيث السيول باندفاعها الجبار شقت طريقها وسط الهضبة المليئة بركام الحجارة المتآكلة.

عند الظهيرة عاد ثلاثة رجال إلى المعسكر يغمرهم الرضى . وأضيف إلى ذلك الرضى بإنجاز عمل علمي مفيد بهجة التواصل المستمر مع المنظر الطبيعي الفريد . تمتد أمامنا طبقات جرداء من الجير والحجارة الرملية حيث جعدها الوادي عميقا وحيث حفرت السيول الجدران المتداعية . منحتنا عقبة حويرة لمحات عن الجهد المتواصل لقوى الطبيعة بين هذه الصخور الكالحة وحيث يظهر بشكل أكثر جلاء أثر التعرية الذى تحدثه الماء والريح والحرارة والبرد .

حصر رفاقنا البدو تفكيرهم في إعداد وليمة من الشاة التى ذبحت . ورغم أننا لا نعتقد أن نتيجة جهدهم أتت بطعام طيب المذاق إلا أننا استمتعنا بمشاهدة الرضى العميق لهؤلاء الناس نحو طيبات الحياة عندما كرس كل منهم اهتمامه وحركته العنيفة على فكه أثناء عملية المضغ . الانسجام وحسن النية المتبادل التى لا غنى عنها لأي قافلة ، قد تم تمتينها . سافرنا بعد الوليمة في مزاج سعيد وهبطنا مسرعين مجرى الوادي المنحدر . وحيثما يكون الانحدار حادا وعندما تقفل الصخور الساقطة طريق العبور ، يصبح الممر عقبة صغيرة بحق ، فتتعرج صاعدة تلال الحجارة أو تتلوى هابطة مرة أخرى .

في نهاية هذه القطعة الشاقة من الطريق تقع قرية الغيل (الينبوع) . شريط ضيق طويل من أشجار النخيل والذرة المروية وحقول المسيبلي تحتل أي قدم مربع من الأرض التى يمكن أن تزرع في الوادي الضيق بجدرانه العالية . تكدست المنازل عند سفح الصخرة ، بنايات مربعة بدون نوافذ من الحجارة المتراكمة وأمامها فرندات من سيقان النخيل . الغيل بها مسحة من فقر . هنا ، كما في بطيح ، يسمى الناس مساكين ، أي أنهم فلاحون أو ناس يقومون بعمل جسماني شاق وليسوا قبائل بدوية . تحدثنا معهم ومع بعض قادة القوافل العابرة . هذه المحادثات محكومة بالقوانين التقليدية . تبدأ دائما بسلسلة من الأسئلة والأجوبة، القصيرة جدا وينتج عنها أسلوب عال متقطع . فقط بعد هذه الاستجابة النمطية ،ولعلها تحدي احتفائي قديم ، يمكن أن يبدأ الحديث الحقيقي . "لماذا تسيرون عبر هذا الوادي ولا تسافرون بالعربات كما يفعل الآخرون الذين يشبهونكم ؟" كيف وجدتم حضرموت ؟ هل يمكن زيادة موارد الماء ؟ وهكذا . كنا نجيب دائما أن حضرموت تتقدم بفضل السلام والأمن . وافقوا على ذلك . هل نعتقد أن السلام سيبقى حتى بعد انقضاء الثلاث سنوات المتفق عليها ؟ نعم ، بالتأكيد" . ثم سألنا إن كانت الحركة على طريق القوافل قد زادت . "كثيرا جدا . لم يعد يحمل الناس البنادق ؛ إنها رخيصة جدا الآن" .

دخلنا منطقة تنتشر فيها الملاريا بصورة وبائية والجز الأكبر من الكينين التي معنا وزعناها في بطيح . قال الناس إن الناموس يوجد في الغيل بكثرة ولكن ليست هناك حمى . الأدوية المطلوبة بكثرة هنا هي المطهرات .

أمضينا الليل فوق حجر رملي بارز في مجرى الوادي . الطقس رطب وحار (نزلنا إلى ١٧٠٠ قدم فوق سطح البحر) والناموس كثير . استيقظنا في الصباح مبكرين . رجال القوافل لا يعرفون هذه الطريق ولكن يمكنهم أن يشتموا ويحسوا اقتراب البحر وتوهموا أننا يمكن أن نصل إلى الساحل قبل حلول الظلام إذا سرنا سريعا . واستنهضت الفكرة أفضل ما لدينا من جهد . إن البلى الذى أصاب أحذيتنا كان أسوأ مما توقعنا . ورغم بعض المعالجات الطبية إلا أن المشي أصبح مؤلما . سرنا طوال ذلك اليوم عبر مجرى واد به امتدادات طويلة من الرمال الناعمة التى وجدت الجمال السير فوقها سهلا أكثر مما وجدناه نحن . كانت المناظر جميلة و الجيولوجيا مثيرة للاهتمام حيث بها تنويعات في ترسبات طبقاتها بينما في المناطق الأخرى من البلاد غير متنوعة . تظهر طبقات الحجر الجيري هنا بتشكيلات جذابة مزخرفة من قشرة قوية داكنة اللون وتجويفات معلقة لامعة . أحدها كان كبيرا مثل الكهف ووفر ظلا لراحة منتصف النهار . وفي جداره فتحة سمحت بمرور تيار مناسب من الهواء .

عبرنا في الصباح على مزرعة نخيل صغيرة ، اسمها فهية , تروى من ينبوع في جدار الوادي . يجرى الماء في جدول مبني ومبلط بالجير إلى خزانين في سفح المنحدر . أخبرنا أهل فهية أن هذا التشييد الجميل كان وقفا من سيد صالح أقاموا له ضريحا هو التى عبرنا عليه قبل فترة .

سرنا في العصر عبر الوادي . كان الطقس حارا والسير ثقيلا . تدفق سيل صغير قبل خمسة أيام ، عقب هطول بعض الأمطار . السيل المرتد من جانب الوادي الصخري حفر حفرة عميقة في مجرى الوادي من تيار الماء المندفع. وجدنا هذه الحفرة مازالت مليئة بماء لونه بني داكن بسبب الطفال الممتزج به . وعندما علقنا :"هذا الماء متسخ جدا لنضعه في القرب ،" أجاب البدو بامتعاض : " إنه حلو وجيد ؛ إنه هدية مباشرة من السماء " . إنهم يقدرون ويقيمون الماء بطريقة تختلف عن التى تعلمناها في بلادنا . على المرء أن يعرف أن المطر والسيل الذى يتبعها هدية مباشرة من السماء وأن مياهها فائقة الجودة إذا مازالت طازجة . يميزون الماء هنا بتعابير مختلفة فعندما نتحدث عن مدينة أو قرية فإن السؤال الأول الذى يطرح دائما : كيف حال مائها ؟ هل حالية ، مالحة أو مرة ؟ هل تسبب إسهالا أو إمساكا ؟ . لابد أن ماء السيل الطيني البني جيد ولذلك شربه جماعتنا في جرعات شاكرين .

توقفنا لقضاء الليل عند الروبة فوق سهل رملي واسع والنظر إلى الجنوب لا تحجبه حواجز حيث لابد يكون البحر هناك . وعلى اليمين تقع الهضبة العالية التى تفصلنا عن وادي حمم . كان الليل باردا بالنسبة لهذا الارتفاع غير العالي . وخال من الناموس . وكانت رطوبة الجو عالية ، إلى درجة لم تكن الملابس التى كانت بجانبنا مبتلة فحسب ، بل غلفنا ضباب كثيف لفترة طويلة جعل تجميع الجمال صعبا . حاول رجال الجمال الآن خدمتنا بهمة وكرروا السؤال بسذاجة إن كنا راضين عنهم . فالرحلة تقترب من نهايتها ويأتي معها التوقع بعطاء جزيل ! كان من حسن حظنا ان يكون معنا أشخاص مجدون ، ولكن غير مطيعين عندما تكون الأمور عكس رغبتهم فيصبح ذلك صعبا عليهم . عند ذلك تكون لطبيعة البدوي المتمردة اليد العليا ويظهر الرجل الذى اعتاد على أن يعيش وحيدا أو في مجموعة صغيرة مفككة والذى لم يتعلم أن يتماشى مع رغبات الآخرين . وأظهر هؤلاء الرجال اهتماما متطرفا بجمالهم ، بالذات إذا مارسوا هذا الاهتمام على حسابنا . ومثلما كان سالمين يكدح لراحة ناقته ، كان عبود شديد التعلق بجمله القبيح الأسود الذى يعاني من مرض جلدي وبه دمل في صدره يبلغ من الكبر حجم كفين وضعا معا . كانت بينهما صراعات حول مصالح جمالهم . هذه الحيوانات هي مصدر غذائهم اليومي ويمضي الجزء الأكبر من حياتهم وهم

يسافرون جيئة وذهابا بين الداخل والساحل . قبل "قبلة السلام البريطانية" كان يمكنهم أن يسافروا في مناطقهم القبلية تحت حراسة سيارة مستأجرين . الآن انبسطت الأرض أمامهم ويمكنهم أن يذهبوا أينما شاؤا ، حتى إلى المناطق التى لم تكن معروفة لهم . وهذه نفس الحالة مع جماعتنا من المعارة . صالح ، الدليل ، يعرف الطريق وأماكن المياه رغم أنه كثيري ونحن نسافر عبر أرض سيبان . بفضل السلام الغربي أصبح العالم واسعا لهؤلاء الناس الشرقيين .

ولكن مع هذه الميزة دخل البلاد خطر كبير . شيدت طرقات ، ولن يمضي وقت طويل حتى تسير فوقها العربات . لقد وعد البدو بشكل محدد أن هؤلاء المنافسين الجدد سوف يسمح لهم فقط حمل البضائع المعرضة للتلف والمسافرين بأمتعتهم الشخصية . أما البضائع فسوف يستمر ترحيلها بجمال البدو .

الكثير يتغير ، وبالتالي من الأهمية بمكان أن تزداد الرفاهية حتى ولو قليلا، من أجل أن تبتعد الحياة من حافة الفاقة والصراع من أجل البقاء . يعرف سالمين ماذا تعنى ديانته ، على الأقل يؤدي الصلاة بانتظام وخشوع . ولكن فوق المظهر الخارجي الذى يقبض على نصفه ، سوف يأتي فهم المحتوى الروحي للإسلام وعندها سوف يرتفع البدوي إلى مستوى أعلى من الإنسانية . لقد طبعت تريم الصغيرة أسلمة البدوي على نمطها وشيدت مدارس صغيرة ومساجد في المراكز البدوية النائية . وأدى مجيء البريطانيين إلى خوفهم من أنهم ربما حلولوا نشر دينهم ، فأعطاهم هذا دافعا جديدا لنشر دين نبيهم وسط البدو .

كان الوادي يتسع تدريجيا كلما اقتربنا من الساحل . واندمج أخيرا في منطقة من التلال . وتسلق الطريق ممرات صغيرة ، استنشقنا من فوقها نسيم البحر وكان باردا في حرارة اليوم الرطبة . وتوقفنا فوق قمة أحد الممرات العالية في دهشة : تبينا خلف تلال صغيرة الزرقة الغائمة للبحر . إنه المحيط الهندي الذى أدرنا له ظهرنا قبل شهرين عندما توغلنا إلى الداخل من ساحل سلطنة شقرة.

ارتحنا لفترة قصيرة في منتصف النهار تحت ظل بعض الأشجار ، ثم واصلنا السير بخطى سريعة عبر تلال جيرية ساخنة وجرداء ، في اتجاه الحرشيات القرية الكبيرة التى انطلق منها طريقنا الأول إلى داخل حضرموت ، وحيث سيعلن هيرمان بصرخة ابتهاج انتهاء خرائطه . وعبرنا عند مداخل القرية على مزارع خضراء يانعة . رأينا هنا أول أشجار جوز الهند ، ولأنها قريبة من البحر فهي تنتج كمية عادية من التمر .

كانت الشمس تميل إلى الغروب عندما وصلنا الحرشيات . كانت في الماضي إحدى النقاط الأمامية المحصنة للنظام القعيطي . هجرت الحصون التى شيدت فوق قمم التلال المحيطة . وتبدو القرية الآن أكثر ازدهارا والعناية بها

أفضل مما رأيناها في المرة الأولى . بنيت بعض المنازل الجديدة الكبيرة ويظهر أن بساتين النخيل توسعت . ويوضح العدد الكبير من السقايات التى تنتشر في الريف أن هذا ملتقى طرق .

حسب المعلومات التى أعطوها لنا من الممكن أن نصل المكلا في ظرف ثلاث ساعات ويمكننا أن نسافر بعد حلول الظلام فقد توقف هيرمان من رسم خريطة الطريق . ومضاف إلى ذلك أن هذه منطقة ملاريا ونحن نسافر بدون ناموسيات التى أرسلناها أمامنا مع الأمتعة . ولذلك قررنا أن نواصل السير مما سبب امتعاضا للقافلة . لأننا نرغب لأول مرة في أن نسافر في الظلام فلم يناسبهم. ادعوا أن الجمال متعبة جدا وجائعة ، وفوق كل شيء لا يمكننا أن ننتهك الممارسة التقليدية للمسافرين ونقترب من منطقة مأهولة عند الظلام . وكانت الأخيرة أقواها. نريد أن ننتهك عادة بدوية مقدسة مما يسبب تحفظا متشائما . قطاع الطرق فقط هم الذين يقتربون من معسكر أو مدينة أو قرية في وقت الظلام. تغلق بوابة المكلا بعد الغروب وعلينا أن نقضي الليل عند أكوام قمامة المدينة : هكذا وضع سالمين توقعاته . قلنا إن اليوم الجديد الذى أشرق على حضرموت قد جرف القوانين القديمة ، وأن الجمالون يقتربون من المكلا محل الحكومة تحت حمايتنا وسوف يدخلونها معنا حتى في ظلام الليل . كان علينا أن نوضح للرجال قرارنا الذى لا يقبل التراجع قبل أن يقبلوا غير راغبين . وكانوا يأتون باستمرار بحجج للتوقف. سرنا لأكثر من عشر ساعات ، ويبدو أن الطريق لا ينتهي والليل حالك الظلام فليس هناك قمر . وبأقدام موجعة وأحذية ممزقة تماما سرنا نتعثر في مشي رتيب.

تعرف هيرمان وأنا على عدة نقاط في الطريق ولكن هناك نقاطا أخرى مما يجعل الأمر غريبا ومربكا . بالقرب من المكلا صعد الطريق ضفة عالية بجانب شريط ماء واسع . هذا لم يكن موجودا قبل ثمان سنوات . أخبرونا فيما بعد أن سيلا ضخما ، مع عاصفة على الساحل ، عمقت مجري الوادي القديم لدرجة أن ذراعا طويلا من البحر توغل داخل الأرض . ومسح هذا جانبا كبيرا من مكان المعسكر الذى كان يمتد حتى بوابة المكلا . هناك كانت تبرك الجمال ملتصقة مع بعضها . كانت البوابة نصف مغلقة وتمكنا من العبور دون أن نلفت انتباه الحارس النائم . دخلنا فجأة من ظلام الصحراء إلى أنوار النيون الحديثة جدا وبدا المشهد كأنه غبر حقيقي في الشارع الرئيسي من أول المدينة الضيقة إلى الجانب الآخر . وقف البدو في دهشة خرساء . وتلاشى كل كبريائهم والاعتداد بالنفس . بريق وضوضاء المدينة التى مازالت مستيقظة جعلهم غير سعداء وخائفين . وبدون صعوبة وجدنا المبنى الذى يسكن فيه عادة الزوار الغربيون . واتضح أن هناك صعوبة أكبر في العثور على الرجل الذى معه المفتاح . ولكن تمكنا أخيرا من

دخول الغرف التى كانت معدة لنا ، وسمح للقافلة أن تعسكر حتى الصباح في الساحة أمام المبنى حيث أحضروا للجمال المتعبة علفا كثيرا . سالمين ، عبود والبقية غفروا لنا استعجالنا عندما سيطروا على الخوف من الأنوار الزرقاء الشيطانية ، وشاهدوا المعسكر الهادئ والعلف للجمال . كان آخر معسكر لهم مع الأجانب الثلاثة ونهاية رحلتنا الصحراوية .

كانت السيدة فيسمان نائمة عندما فتحنا باب بيت الضيافة . وكان وصولنا مفاجأة سارة لها لأنها لم تتوقع أن نصل بهذه السرعة قالت إن رحلتها بالسيارة على طريق الكاف تحت حماية حسن الشيبة كانت متعة كبرى .

وهكذا اجتمع شملنا مرة أخرى ولكن لم يدم طويلا . كان على أصدقائي الألمان العودة إلى موطنهم الكئيب حيث التوتر يزداد وخطر الحرب القادمة يستجمع قواه . وفي الأيام السوداء القادمة فإن الحرية التى استمتعنا بها عميقا خلال رحلة شهرين فوق الجبلان وعبر الوديان ستكون بالنسبة لهم ذكريات تبعث على الراحة . أما أنا فسوف أذهب رأسا إلى جاوا ، هدف الهجرة الأول للحضارم.

هامش

(١) هو الغناء الذي يكثر فيه الانتقال من صوت العالي إلى صوت عالي الطبقة .

الفصل الحادي والعشرون

{بناة حضرموت الجديدة}

حافظت المكلا على الجمال الحضرمي الخالص العتيق بدون أن يـؤذى أو يدنس . لم يكن المنظر من سطح بيت الضيافة شافيا بالنسبة لنا ، ولكـــن عندمـــا توقظنا أشعة الصباح الأولى ، أو عندما نذهب لنستنشق نسيم المساء البـــارد فـــي الساحل الممتد وأمواج المحيط الهندي تنتشر أمامنا ، فلا يظهر لنا سوى جزء مـــن المدينة . يمكننا أن نرى على يسارنا السوق القديم بدكاكينـــه المتكدســـة ، وتقـــف مباني الحكومة العالية فوق لسان صخري يمتد داخل البحر. وحتى نتمكـــن مـــن مسح المكلا جيدا علينا أن نقف فوق سطح أحد تلك المنازل . ثـــم أدرنـــا ظـــهرنا للبحر وواجهنا الجدار الداكن من سلسلة الجبال الساحلية التي تقـــف علـــى قمتـــها أبراج الدفاع البيضاء منتصبة في واجهة السماء عاليا فوق المدينـــة . وتنحصـــر المكلا الصغيرة مضغوطة بين البحر بزرقته العميقة وحائط الصخر الداكن خلفـــها بمنازلها العالية التى تتكدس فوق بعضها البعض . عكست مئذنة جميلـــة لمســـجد حضرمي صورتها على الماء . وفوق أمواج المحيط الصغـــيرة كـــانت قـــوارب الصيادين والمراكب ذات الساريتين تتهادى في كسل أمام المدينة . هذه المراكـــب الممتازة التى تسافر في البحر تمخر بين زنجبار وجنوب شبه الجزيرة العربيـــة و بومباي والخليج الفارسي ، وخطوطها تماما مثل السفن الهولندية القديمة في جـــزر الهند الشرقية التي كانت تشاهد قبل قرون في هذه البحار . إن السفن الحاليـــة ذات المقدمة المنخفضة والمؤخرة العالية وعليها الزخارف الخشبية لابد أنها نقلت مـــن أجدادنا البحارة . أما بالنسبة لنا فذكرياتها محفوظة في اللوحات القديمـــة ولكنـــها موجودة هنا في الحقيقة وتجعل مدخل المكلا من البحر متسقا مع الجمـــال القديـــم للمدينة .

كنا نأمل أن نحقق ثلاثة أهداف قبل مغادرة المكلا . أولا ، نزور الواحـــة الخصبة غيل باوزير ، ثم ، نرى جانبا من طريقنا القديم إلى دوعن الـــذى يمكـــن السفر فيه الآن بالعربات ، وأخيرا ، وليس آخرا ، نقابل إنجرامس ومعاونيه .

غيل باوزير المركز الشهير لزراعة التمباك الحمومي (١) ، قد وصفتـــها من قبل في كتابي "حضرموت ، إزاحة النقاب عن بعض غموضها" .

غرضنا الآن أن نقوم بزيارة . تدين المدينة بالفضل إلى وجود غيل فيها . وتقع في منتصف الطريق بين المكلا والشحر ولكن على بعد بضعة أميـــال إلـــى الداخل ، ويمكن الوصول إليها بالسيارة . بنى أحد سلاطين المكلا السابقين مـــنزلا صيفيا وبه حوض سباحة رائع وحدائق شاسعة وأشجار فواكه . وجدناها كلها لـــم تتغير ومصانة جيدا . توسعت الحدائق وأصبحت الآن تشكل واحة يمكن أن تنـافس في سحرها وخصوبتها أفضل الأجزاء في وادي حضرموت . تغيير صغير واحـــد

كان ظاهرا . البناية الضخمة التى كانت مخصصة للحريم أصبح الآن لها دور جديد. اختفت النساء بعد موت السلطان ولا يؤمن خليفته بنظام الحريم وهو أمر مستورد من الهند ويشمئز منه الحضارم باعتباره عيبا على الإسلام . فوضع جناح الحريم تحت تصرف هندي متخصص في الزراعة وهو يعيش الآن ويعمل هناك ويستغل الحديقة لتجاربه . ظاهريا كان الفرق ضئيلا ولكن كل البلاد تعرف وتقدر التغيير الذى أحدثه سلطان الجزء القعيطي من حضرموت . (٢)

قبل أن نصل الغيل سألنا سائق التاكسي إذا كان بإمكانه أن يدور ويأخذنا لنرى بستانه في منطقته الجبلية بطبقتها السميكة الجيرية . من الطبيعي أن نكون شغوفين لرؤيته . اختار عبيد بن سنكر ، لتجربة عمره الكبيرة ، منخفضا واسعا بين الجبال حيث تتجمع المياه بعد الأمطار وتودع طبقات من الطين . كانت المشكلة الرئيسية هي تأمين إمداد مستديم لهذا الطمي المتراكم . استأجر بالمال الذى جمعه في الخارج عمالا لحفر نفق يجرى أغلبه عميقا تحت الأرض عبر طبقة من الحجر الجيري في خط مستقيم إلى الغيل . كانت الأنابيب على عمق أربعة وأحيانا خمسة أقدام عبر الصخور الجيرية . وعلى مسافات منتظمة توجد فتحات متصلة مع السطح ومن خلالها أمكننا أن نقدر كمية العمل الشاق تحت الأرض . الأنبوب الذى طوله أكثر من ميل لمسانه الأخيرة جيدة ومغطى تماما ليحمى الماء من التبخر . توقفت عربتنا عند بعض المنازل الطينية وأكواخ العمال. ومن هناك تابعنا عبيد على الأرجل إلى حديقته الكبيرة الأولى . هناك جدران عالية من أكوام الحجارة لتحديد أبعاد الحديقة في المستقبل ، ولكن فقط جزء من المساحة في الداخل مزروع . يملأ الأنبوب حوضين كبيرين ويتفرع منهما الماء عبر أنابيب أصغر إلى القطع الزراعية المختلفة . أعجبنا بأشجار جوز الهند الصغيرة بعض ثمارها بلون مصقر- بني وبعضها أخضر لامع ، وشجر باباي محمل بالثمار ، والجوافة ، والرمان وبعض أشجار النخيل الجميلة . وتحت ظل أشجار الفواكه مختلف أنواع الخضراوات للأكل وبرسيم لعلف الجمال . تسلق عبيد بنفسه شجرة جوز الهند وأسقط بعض الثمار لنستمتع بها فيما بعد في حديقة السلطان . قال عبيد إن والده لم يترك له أي شيء . كلما نعجب به الآن بناه تدريجيا بالمال الذى كسبه بجهده الجهيد . ووجد فرصته في موطنه عندما ساد السلام والعدل . عبيد من أولئك الذين اغتنموا فرصتهم ، ويؤمن بالمستقبل الجديد لبلاده ، وبينما يعمل من أجل الربح الخاص ، فإنه سيجلب الرفاهية للآخرين . لقد خلق وسط الحجارة الجيرية أرضا مزدهرة : إنه أحد بناة حضرموت الجديدة .

وبما أنه بقيت لنا بضعة أيام لمغادرة المكلا ، وجدنا من المستحيل استئجار سيارة والذهاب بالطريق الجديد إلى وادي دوعن . نعرف درب الجمال

القديم والهبوط من الجول عن طريق حائط الصخرة العمودي إلى وادي دوعن الذى مازال ينتصب حادا في ذاكرتنا . من يستطيع أن يتابع طريقا للسيارات يهبط ذلك الجدار العصيّ ؟ أخبرنا بذلك إنجرامس . أول طريق للعربات في البلاد شيده الحضارم : يسير من الشحر إلى تريم .

الطريق الثاني ، من المكلا إلى وادي دوعن ، شيّده الحضارم . طلب إنجرامس من المهندسين البريطانيين مراجعة الخرائط ؛ وجدوها مقبولة ، بل أيضا رصف العقبة ، لذلك قرر إنجرامس أن يعهد بالتشييد الفعلي لمهندسي الطرق الحضارم . لقد نفذ السيد أبوبكر أول طريق للعربات بدون مساعدة خارجية. والطريق الثاني الذى يعبر منطقة أكثر صعوبة ، سيكون مرة أخرى عملا حضرميا خالصا . وتشككت كثيرا ، ولكن بعد التأمل ، قررت أن طرق السيارات الأولى هذه ربما تناسب تماما سائقي السيارات الحضارم الذين هم من الرجال الذين اعتادوا على السير بجمالهم فوق هضاب مخيفة ، والذين اقتنعوا أنهم يستطيعون بلا شك أن يؤدوا بالسيارة نفس الشيء مثلما فعلوا بوسيلة مواصلاتهم السابقة . وبعد ذلك يمكنهم أن يشيّدوا طرقهم الخاصة لحضرموتهم الجديدة . قبلة السلام البريطانية جعلت الطرق ممكنة ويعتقد الحضارم الآن أنهم لا يمكن أن يستغنوا عنها .

أخيرا ، حظينا بامتياز اللقاء في المكلا ، بالرجل الذى تم اختياره ليقود حضرموت إلى فجر يومها الجديد ، وهو محاط بمعاونيه. سيبقى اسمه في تاريخ البلاد بسبب السلام الذى حققه بأوامر من بريطانيا العظمى وبنفوذها . سوف يستمر "صلح إنجرامس" يحمل اسمه إذا برهن أنه يمتلك الحيوية .

إنجرامس رجل سلام وحضرموت تواقة للسلام . ولكن ليس السلام كله : هناك استثناءات . بعض القبائل تبتهج بالسلب ؛ وأخرى تريد تسوية الثأر الدموي وما يعترفون به أن الدم المسفوح ينادى دائما بالثأر ، وبالمزيد من القتل . هؤلاء هم الناس الذين يجب إيقافهم عند حدهم ، وسرعان ما تبين لإنجرامس أنه بجانب كلمته لابد من إضافة قوة إنجلترا الحاسمة بل وحتى أحيانا العقاب . واجهت وسائله اعتراضات حادة . ليس من الحضارم أنفسهم ولكن من النقاد من بلدان أخرى ومن هؤلاء ذلك الرجل الإنجليزي ، الذي عندما يتكلم عن شبه الجزيرة العربية ، فإن كلمته تنتشر بعيدا . (٣) لقد عبرنا في أسفارنا على العديد من مناطق شبه الجزيرة العربية التي تتحمل فيها بريطانيا المسئولية . وسافرنا في حضرموت قبل مجيء إنجرامس عندما كانت الحماية البريطانية لا تتعدى إبعاد التدخل الأجنبي . وبما أننا رأينا حضرموت الآن بعد بضع سنوات من محاولة

إنجرامس لتحقيق السلام في البلاد نرى من واجبنا أن نقول رأينا عن الحملات التأديبية من الجو . فيلبي (H. St. J.B.) ، أعظم رحالة عصرنا في شبه الجزيرة العربية ، انتقد بشدة الأساليب التى استعملت لتهدئة حضرموت . لم يستغل لهذا الهدف مقدمة كتابه الذى سجل فيه رحلته التى دخل فيها بنفسه حضرموت (بنات سبأ) فحسب ، بل إدانته العنيفة للقصف الجوي للقبائل البدائية الذى صفع به وجه القادة البريطانيين في الصحف اليومية في وطنه وفي الخارج .

ما إن قابلنا إنجرامس حتى سألناه أن يعطينا تفسيرا لأساليبه التى استعملها في تهدئة البلاد . دخل في موضوعه مرحّبا وتحدث عن الاشمئزاز الذى شعر به شخصيا من الغارات الجوية ، فعندما لم تجد التحذيرات اتخذت التدابير وأنزلت العقوبة ووقعت خسائر . شرح لنا كيف تعدّ الحملة التأديبية . هذه الوسيلة الأخيرة والعنيفة من العقوبة من أجل تحقيق النظام تستعمل فقط ضدّ القبائل التى ترتكب باستمرار أعمال وحشية من نهب وقتل . كانت تمنح مثل هذه القبائل فرصة لدفع غرامة كبيرة . ويستدعى الزعماء للحضور في زمان ومكان محددين ، ويحضرون النقود والبنادق والجمال بقيمة الغرامة ، ويوقّعون ، في ذلك الزمان والمكان ، معاهدة مع الحكومة العربية الشرعية التى تضمن سلوكهم السلمي في المستقبل . وإذا لم يطع ذلك النداء يتبعه تحذير ينذرهم بأنهم سيقصفون إذا لم يحضروا بأنفسهم خلال أربع وعشرين ساعة . وفي نفس الوقت تقدم لهم النصيحة بإبعاد قطعانهم وممتلكاتهم من الأماكن التى حددت لهم بدقة . وتعيّن لهم بئر للشرب منها ويكونون في أمان ، ويشرح لهم كيف يرسلون إشارات للطائرات إذا رغبوا في التسليم . وكمقدمة للقصف الجوي يرمى أولا دائما دخان وفقط بعد ذلك يبدأ القصف ، ولكن لا يتم القصف عندما يمكن رؤية ناس في منطقة الهدف . هذه الحملات التأديبية لها دائما أثر جماعي . من الحقائق الظاهرة أن القبائل التى قصفت والحضارم بشكل عام لا يحتجون أبدا ضدّ الأساليب التى اتبعت ، حيث يعتبرون أنه غير مجد أن يذكر ثمانية قتلى في أربع حملات . فقد اعتادوا في حروباتهم وبالذات التى تستمر لفترات طويلة ، على ضحايا أكثر بكثير . على أنهم في الواقع سوف يتقدمون بروح عالية ويعبرون عن شكرهم لأنهم تحاربوا وسالت الدماء فيمكنهم الانضمام "لصلح إنجرامس" بدون فقدان لماء الوجه مع أعدائهم القدامى .

تتطابق هذه المعلومة مع ما حصلنا عليه من رئاسة سلاح الطيران الملكي في عدن حيث أطلعونا على صور للاستعدادات المكثفة للحملات التأديبية . إن المقارنة التى عقدها فيلبي مع القصف الإيطالي في الحرب الحبشية كانت خطأ كبيرا . هنا بلاد توسل قادتها في طلب المساعدة البريطانية لتخلصهم من الحروب

المهلكة التى لا تنتهي . ليس هنا غزو من منطلق الغرور لبلد حر ، وليس هنا هجوم من دولة كبرى فتاكة على شعب يدافع عن استقلاله ، بل عقوبة على عصابات نهبت وقتلت أبناء وطنهم . ليس هنا غزو حربي ولكن سلطة قانونية تؤسس النظام والحق (for he bearth not the sword in vain) .

دعونا لمرة أخيرة لمقابلة البريطانيين الذين يبنون حضرموت الجديدة لنكون ضيوفهم في المنزل الذين سكنا فيه قبل ثمان سنوات . إنه قصر سابق للسلطان ولكنه يستعمل الآن مكاتب ومساكن للمستشار المقيم للسلطان ولموظفيه . وأصبح الموظفون البريطانيون يلبسون بأمر إنجرامس الزي الحضرمي .

كانت مقابلتنا لفيكس في حورة قد هيأتنا لهذا التحول ، ولكن رغم ذلك ، فإن تأمل هذا الجمع من الإنجليز المرموقين في حفل مسائي أعطانا شعورا أن هناك خطأ في مكان ما . يبدو أنهم أيضا غير مرتاحين . لقد نجحوا لحد ما في جمع أزياء تستعمل في جزء أو آخر من شبه الجزيرة العربية الشاسعة ، ليرتدوها بطريقة كانوا يتمنون أن تناسب حجم وتقاطيع كل واحد منهم . كانت النتيجة مبهجة ولكنها تفتقد الاتساق ونقلتنا نحن الضيوف المندهشين إلى جو حفلة تنكرية. شاهدنا لباس الرأس عند اليمنيين ، وعند النجديين ومسلمي الهند . كان لبس إنجرامس أفضلهم، ربما لأنه يلبس ثيابه عن قناعة شديدة . بالنسبة للآخرين كان أكذوبة . ارتدى إنجرامس قميصا أزرق غامقا من حرير منسوج بأكمام قصيرة وياقة معطوفة إلى أسفل . وحول وسطه حزام مطاطي عريض ويمسك فوطة (صارون) تتدلى حتى القدم . ويحلي عنقه القوي العاري بسلسلة فضية يتدلى منها حجر أحمر لامع كالذى يستعمله العديد من البدو . وفوق ذراع اليد سلسلة فضية بنفس الحجر الأحمر . وكانت أعينه الرمادية الزرقاء تنظر إلينا ، نصفها يضحك، ونصفها يتساءل عندما كانت نظراتنا تتجول في جسمه الضخم السوي من أعلى إلى اسفل . ما كان بإمكاننا تحاشي مناقشة كل جوانب هذه المحاولات بعيدة المدى للتكيف المحلي . ادّعى انجرامس أن التغيير وجد استحسانا من البدو ومن العرب المستقرين . وأنه حاول بهذا أن يعبر عن ولاء للأنماط والعادات المحلية التى يجب ألا تنبذ بمجيء البريطانيين. وهو يشعر أن هذا صحيح بالنسبة للبس وكذلك العادات اليومية والقيم الروحية مثل الدين والفن التى تجد تعبيرا لها في اللبس . وحاول بهذا التنازل في محيط اللبس أن يوضح أنه جاء لهؤلاء الناس ليكسب ثقتهم. وأدركنا كم هي تضحية كبيرة بالنسبة للإنجليزي أن يحترم هذه المبادئ وحاول إثبات ذلك ، ولكن لم ينجح في محاولاته الخاصة بالملابس .

قمت بلفت النظر إلى أن المجموعة تلبس لبسا جاويا أكثر من اللبس الحضرمي المحلي . الصارون (الفوطة) جاءت من جاوا ؛ الحزام منتشر هناك ولكنه مصنوع في أوربا ، القمصان من اليابان . يستعمل السادة لبسا غربيا جاويا وعمامة مقتبسة من لبس مسلمين آخرين ، ولعل لبس السلطان مأخوذ من لبس الهند البريطانية . لابد من الذهاب للبدو لنجد الزي الحضرمي الحقيقي .

ولكن كانت لنا اعتراضات أكثر جدية . الطريقة التى يلبس بها هذا الجمع من الإنجليز هي لحد كبير لبس إسلامي . فقط بعد اعتناق الإسلام يمكن أن يلبسه الإنسان بأمانة لأنه حسب التقاليد الراسخة يتمشى مع العقيدة والنظرة إلى الحياة . عندها بحق "العلم يغطى البضاعة" كما نقول في هولندا . هناك فرق شاسع بين السفر كرحالة في بلد متخلف فيضطر للبس زيّ أهل البلد ليتجنب الفضول والشكوك التى لا مبرر لها ، وأن تذهب رسميا إلى بلد ممثلا لبريطانيا لتقود أهلها وتنصحهم . ومن المؤكد في الحالة الأخيرة عدم إخفاء الحقيقة .

تلك الحقيقة هي أن الأمم الغربية مسيحية في تقاليدها ونظرتها ومعتقدها . هذا تراث لا يمكن الاغتراب عنه ولذلك أي ممثّل للدول الغربية يذهب لمساعدة شعوب الشرق المسلمة يجب أن يكون أمينا مع نفسه ومع أصوله ويجب ألا يتجنب الطريق الصعب لكسب ثقة الناس الذين ذهب ليعمل وسطهم ، غير قادر على تحمل الهوة التى تفصل ما بينه وبينهم .

وعندما اقترحنا أن نأخذ بالظاهرة الواضحة في الاتجاه الإسلامي ونطيل اللحى ، انفجر ضحك عام . أحد تصرفات إنجرامس التى سعى بها لكسب ثقة حضرموت للنشاط كان المنع البات لاستيراد الكحول . هذه كان لها وقع طيب ؛ ولكن هل سيتخذ المستشارون القادمون للسلطان نفس الخطوة ؟ "إنه شيء نتمناه بشدة " .

ولكن على أي حال ، هذه مسائل ثانوية ، وهي مقدمات يقوم بها أشخاص يريدون أن يعرفوا بعضهم بعضا قبل أن يبدؤوا مناقشة حميمة في مسائل لهم بها اهتمام عميق . وجدنا في إنجرامس رجلا وهب نفسه قلبا وروحا للمهمة التى أوكلت إليه والتى تمناها واشتاقها لسنوات طويلة قبل أن يكلف بها . سوف يكشف الزمن إذا ما كان هو الرجل المناسب في المكان المناسب أم لا . ووجد في السيد أبوبكر الكاف معاونا له تجارب طويلة . أصبح هذان الرجلان صديقين . يحمل "صلح إنجرامس" اسم إنجرامس لأن خلفه قوة بريطانيا العظمى ولذلك استطاع أن يحقق الرغبة للسلام لدى السادة والمساكين من سكان المدن والقسم الأكبر من البدو الجياع . ولكن السيد أبوبكر بن شيخ الكاف هو الذى أرشد إنجرامس إلى

الطريق وتابع المفاوضات بحصافة وتفهم صبور . وهو الذى استدرج المقاتلين ذوى الأنفة والعناد من حصونهم وجولاتهم البعدة وأضاف معاهدة إثر معاهدة إلى التناغم المتنامي .

سيذهب إنجرامس ، بعد أن حظي بالامتياز باسم بلاده وبعد أن وضع ختم بلاده النبيل ، المساعدة البريطانية المباشرة ، ولكن سيبقى السيد أبوبكر الكاف ورفاقه لمواصلة المهمة . إنها بلادهم هي التى تحت الاختبار ويمكنها أن تنهض في مجدها الجديد .

(١) الصحيح الحميّ

(٢) يقصد السلطان صالح بن غالب القعيطي :١٩٣٦ - ١٩٥٧ .

(٣) يقصد الرحالة البريطاني فلبي . أنظر حاشية الفصل الأول .



